

چوزفین کام

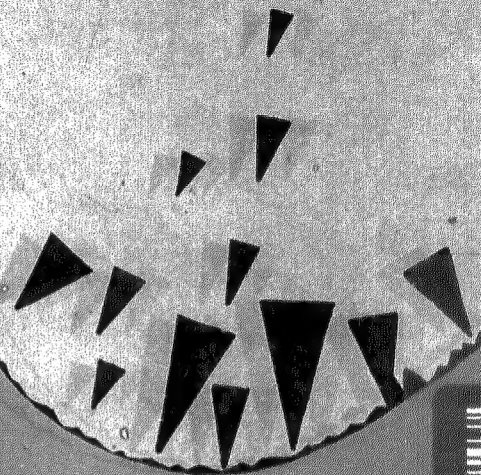
المستكشفون في إفريقيا

ترجمة وتقديم وتعليق

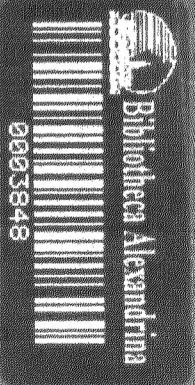
دكتور السيد يوسف نصر

راجع الترجمة إلى العربية

دكتور محمد علي وقاد



دار المعارف



چوزفين كام

المستكشفون في أفريقيا

راجع الترجمة الى العربية
دكتور محمد على وقاد
مدرس اللغة الانجليزية
كلية الآداب — جامعة أسيوط

ترجمة وتقديم وتعليق
دكتور السيد يوسف نصر
مدرس التاريخ الحديث والمعاصر
كلية الآداب — جامعة أسيوط

١٩٨٣



دار المعارف

الناشر: دار المعارف ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة - ج ٠ م ٠ ع

ترجمة كتاب

Explorers into Africa

By

Josephine Kamm.

تقديم المترجم

كان من دوافع ترجمتى لهذا الكتاب أنه من الكتب الهامة ، لأن مؤلفته استخدمت فيه الكثير من النصوص المقتبسة من تقارير الرحالة أنفسهم ، وهذا في حد ذاته يعطى الكتاب أهمية علمية بالغة . ومن ناحية أخرى فإن هذا الكتاب تناول بشئ من التفصيل كل المحاولات الكشفية التى تمت فى أفريقيا عبر العصور وحتى القرن ١٩ ، وأن كان هناك بعض الثغرات التى قمت بأكملها حتى تكتمل الصورة أمام القارئ الكريم . ولذلك فقد تم اختيار هذا الكتاب من بين عدد من الكتب المتخصصة فى هذا الموضوع . وكان من هذه الكتب كتاب بعنوان « كشف افريقيا » African Discovery. By Margery Perham and J. Simmons.

فهذا الكتاب يبدأ بمقدمة عامة ، ثم يتناول موضوع كشف جيمس بروس مباشرة لمنابع النيل الأزرق ، ولم يشر الى فترات الكشف الأولى ، بل عرض الى بقية المستكشفين ، ومن بعده كتاب بعنوان « تاريخ استكشاف أفريقيا » A history of African Exploration. By David Mountfield.

وهذا الكتاب يبدأ بمقدمة تضمنت بطريقة موجزة ، المحاولات الكشفية التى تمت فى العصور القديمة ، ولم يقم مؤلفه بالفصل بين المحاولات التى تمت قديما ووسيطا . وهناك كتاب آخر بعنوان « كشف أفريقيا وآسيا » Exploring Africa and Asia. By Doubleday and Company Inc.

ويتناول هذا الكتاب الكشوف الجغرافية التى تمت فى آسيا وأفريقيا . وتبدأ الكشوف الأفريقية بمجئ البرتغاليين ، كما أنه لم يتناول الفترات القديمة والوسيطية . ومن بعده كتاب بعنوان « منجوبارك الرحالة الأفريقى » Mungopark, The African Traveler, By Kenneth Lupton.

ويقتصر هذا الكتاب على حياة منجوبارك وكشوفاته في غرب إفريقيا ، هذا فضلا عن تناوله لبعض الرحالة الذين ساهموا في كشف منطقة غرب القارة ، ومن بعده كتاب بعنوان « السير ريتشارد بيرتون » ، ويتناول هذا Sir Richard Burton. By Michael Hastings. الكتاب تاريخ بيرتون واستكشافاته في هرر وشرق إفريقيا ، وأما الكتاب الأخير فهو بعنوان « النيل The Nile, By Helen O'Clery

ويتناول هذا الكتاب الفترة القديمة والعصر الإغريقي الرومانى ومصر المسيحية وانتشار الاسلام في مصر وإفريقيا ومجىء الاوربيين والسير صمويل بيكر والجنرال غوردن ودافيد لفنجستون . وواضح أن هذا الكتاب يضم موضوعات عامة ، بحيث لم يتخصص في الأعمال الكشفية ، لهذا لم نقم بترجمته .

ومن الدوافع التى دفعتنى أيضا الى ترجمة هذا الكتاب ، وجود مادة تدرس في كلية الآداب بسوهاج ، تعرف بأسم « موضوع من تاريخ كشف إفريقيا واستعمارها » ورغم ذلك فلم يوجد من المراجع ما يخدم هذه المادة بصورة وافية . ولو قدر ووجد البعض من هذه المراجع فأنها لم تعالج هذه المادة بطريقة مرضية ومفصلة مما يجعل الطلاب في حيرة .

هذا فضلا عن أننى قمت بترجمة هذا الكتاب لأن الطلاب لم يكن في إمكانهم قراءة مثل هذا المرجع بسهولة ، وذلك لعدم المامهم باللغة الانجليزية بصورة مرضية ولو حاولوا ذلك فأنهم يواجهون مصاعب جمة .

وقد استغرقت ترجمة هذا الكتاب سنتين تقريبا . وأود أن أنوه الى القراء عن الأسباب التى ساعدتنى على القيام بهذه الترجمة ، وهو أننى عندما كنت أعد لرسالة الماجستير سألت أستاذى المرحوم الأستاذ الدكتور / حسن عثمان سؤالا مفاده : الى أى مدى أقف على درجة المامى باللغة الانجليزية ؟ فقال لى رحمة الله أن تقرأ كتابا باللغة الانجليزية وتلم بما جاء به ، فهذا هو الدليل على فهمك لهذه اللغة .

وعلى أثر ذلك التحقت بالجامعة الأمريكية بقسم الخدمة العامة
 Division public service أو الـ D.P.S. ومما لا شك
 فيه أنني أستفدت الكثير من هذه الدراسة ، ومع ذلك فأنتى لم أكتف بهذا
 القدر منها ، بل أنتى عندما قيدت أسمى لدرجة الدكتوراه ، كان على أن
 أعمق فهمى للغة الانجليزية وبخاصة أجادتى للترجمة التى هى غاية مقصدى ،
 والتى يحتاج إليها طالب الدراسات العليا فبدونها لا يتمكن من الاطلاع
 على المصادر الأجنبية •

لذلك بادرت بالالتحاق بكلية الآداب جامعة القاهرة ، قسم اللغة
 الانجليزية كطالب منتسب ، ومن حسن حظى كان الانتساب قد فتح عام ١٩٧٤
 فى هذا القسم • وكان هذا الالتحاق قاصرا على الطلاب الحاصلين على درجة
 الليسانس والباكوريوس • وفى أثناء فترة الدراسة فى هذا القسم تتلمذت
 على أيدي أساتذة أفاضل درسوا لى الرواية Novel والنقد Criticism
 والمسرحيات Dramas والترجمة Translation والشعر Poetry
 وكثيرا من المواد الأخرى • ولم يكن الهدف من التحاقى بهذه الدراسة ،
 الحصول على درجة علمية ، بل أجادة اللغة الانجليزية • ولم أترك هذه
 الدراسة الا بعد أن حصلت على درجة الدكتوراه ، وعينت بجامعة أسيوط •

وقد مكنتنى هذه الدراسة من معرفة الترجمة معرفة جيدة • فقد قمت
 بترجمة كتاب تاريخ غرب افريقيا للمؤرخ فيج The History of West Africa
 By Fage ، وها أنذا اليوم انتهيت من ترجمة كتاب المستكشفون فى
 افريقيا للمؤرخة جوزفين كام The Explorers into Africa By
 Josephine Kamm.

وقد تضمن هذا الكتاب عددا من الفصول ، على وجه التحديد عشرة
 فصول •

فقد تناول الأول من هذه الفصول المحاولات التى تمت بشأن الكشف

عن افريقيا سواء أكان ذلك من جانب الأغريق أو الرومان أو قدماء المصريين ، وأن كانت المؤلفة لم تعط المصريين قدرهم في هذا العمل ، بل أنها تجاهلت معظم الأعمال الكشفية التي تمت من جانبهم .

وتناول الفصل الثانى من هذا الكتاب دور التجار Traders والمبشرين Missionaries ، وبخاصة بعثة الجزويت التبشيرية التي جاءت الى الحبشة . وكان على رأس هذه البعثة الأبوان لوبو وبيز ، ولكن على الرغم من وصولهما الى منابع النيل الأزرق ، الا أنهما لم يتمكنوا من الكشف النهائى عن منابع هذا النهر .

وجاء فى الفصل الثالث دور الرحالة الاسكتلندى جيمس بروس James Bruce الذى جاء الى شمال افريقيا بعد وفاة زوجته المحببة اليه ، وكان الملك جورج الثالث قد كلفه بأن يقوم برسم كل ما يقع تحت بصره من بقايا أثرية ، بحيث يحضرها معه الى انجلترا ، فمن شمال افريقيا ، رحل بروس الى الاسكندرية ، ومنها الى القاهرة فأسوان ، ومن هناك عبر الصحراء الشرقية الى القصير ، ومنها اتخذ طريقه عبر البحر الأحمر الى مصوع فغندار فمنابع النيل الأزرق فسنار فأسوان ، فالقاهرة فأنجلترا .

وتناول الفصل الرابع المغامر الاسكتلندى الطبيب منجو بارك الذى جاء الى غرب أفريقيا من قبل الجمعية الافريقية African Association وقد نجح منجو بارك فى الوصول الى بلدة بوسا ، ولكنه لم يتمكن من الكشف النهائى عن نهر النيجر . وعاد الى انجلترا ، ثم جاء بعد ذلك على رأس بعثة كشفية من قبل الحكومة البريطانية لأن بريطانيا رغبت هذه المرة أن يكون العمل متسم بالصفة الرسمية وبخاصة بعد أن وصل نابليون الى شبه جزيرة آيبيريا . فسارعت الى الوصول الى غرب أفريقيا حتى لا تكون خطوط مواصلاتها مع الهند عرضة للتهديد الفرنسى . وبعد أن واصل منجو بارك رحلته أغتيل من جانب القبائل الأفريقية .

وتناول الفصل الخامس عددا من الرحلات والمغامرين الذين جاءوا الى غرب افريقيا للمساهمة في حل لغز النيجر ، وكان من هؤلاء الرحالة الميجور هوفتون وكلابرتون ولاندر ولينج *

وتناول الفصل السادس عددا آخر من الرحالة كان من أشهرهم هنريش بارث ، وجيرهارد رولفس ، ولويس جوستاف بنجر ، وريتشاردسون وفوجيل *** وغيرهم *

وتناول الفصل السابع الدكتور روبرت موفات ومجيئه الى جنوب افريقيا ، والبشر الاستعماري دافيد لفنجستون الذي تجول في جنوب افريقيا حيث عبر القارة من الشرق الى الغرب ومن الغرب الى الشرق ، وكان لفنجستون قد نجح في كشف نهر الزمبيزي *

وتناول الفصل الثامن الرحلات التي اتجهت الى منابع النيل ، وكان من هذه الرحلات الرحلة التي قام بها بيرتون وسبيك ، وجرانث ، وسبيك والسير صمويل بيكر (رحلته الخاصة) ، والبعثة التي قادها غوردون باشا * ومن الملاحظ أن المؤلف لم تشر الى البعثات الكشفية التي أرسلها محمد علي في الفترة ما بين ١٨٣٩ ، ١٨٤٢ ، ولا الى الحملات العسكرية التي أرسلها الخديو اسماعيل منذ عام ١٨٦٩ م *

وجاء بالفصل التاسع دور هنري مورتون ستانلي في افريقيا ، وبخاصة عندما جاء اليها بحثا عن لفنجستون ، وبالفعل تمكن ستانلي من لقائه ولكن لفنجستون رفض العودة معه الى انجلترا ، وأصر على مواصلة تجواله حتى مشكلة الأنهار المجهولة في افريقيا الوسطى *

وتناول الفصل العاشر الرحلة التي قام بها ستانلي من شرق افريقيا ، متتبعا نهر لولابا وهو الفرع الرئيسي لنهر الكونغو ابتداء من المنبع وحتى المصب (المحيط الأطلسي) وبذلك يكون ستانلي قد أنجز الكشف عن نهر الكونغو *

ومن الملاحظ أن معظم هؤلاء الرحالة والمغامرين كانوا من بريطانيا والسبب في ذلك يرجع الى أنها كانت أسبق الدول الأوروبية في مجال التصنيع بل وفي مجال التقدم العلمى ، الذى تمثل في كثرة الجامعات الانجليزية ، وأدى ذلك بالتالى الى أن أصبح معظم هؤلاء الرحالة على قدر كبير من العلم والمعرفة والثقافة • وكان من أشهر هؤلاء الرحالة البريطانيين ، بيرتون وسبيك وجرانت ومنجو بارك وكلايرتون ولينج وريتشاردسون ، ولاندر ، ودافيد لفنجستون ، وصمويل بيكر ، وجونستون وكامرون •

وكان من أشهر الرحالة الفرنسيين رينيه كاييه الذى أرسلته الجمعية الجغرافية الفرنسية French Geographical Society الى غرب افريقيا ، كى يصل الى مدينة تمبكتو ويقوم بكشفها ، ومعرفة حقيقتها ونقل صورة كاملة عنها الى الجمعية الجغرافية الفرنسية لأن تمبكتو كانت تمثل بالنسبة للأوروبيين حلما • فكانت بالنسبة لهم مدينة الذهب ، وزاد الاهتمام بها بعد رحلة ليو الأفريقى لها ، وما كتبه عنها وكان رينيه قد نجح في الوصول اليها ، وبعد ذلك عاد الى فرنسا وحصل على المكافأة التى كانت الجمعية الجغرافية الفرنسية قد قررتها الأول مكتشف يصل الى مدينة تمبكتو •

وكان من أشهر الرحالة الألمان هنريش بارث الذى لعب دورا بارزا في كشف منطقة غرب افريقيا • ومن المعروف أن دور ألمانيا في مجال الكشف الافريقى جاء متأخرا أى جاء في القرن ١٩ ، ويرجع ذلك الى أن ألمانيا كانت مقسمة الى عدد من الولايات المستقلة كل منها عن الأخرى ، ولم تتوحد الا في القرن ١٩ ، (وليس هذا مجال حديثنا) لهذا جاء دورها متأخرا الى هذا الميدان الكشفى •

وأما إيطاليا فلم يكن لها دور يذكر في مجال الكشف الافريقى ، وبخاصة في مطلع العصور الحديثة وذلك لنفس الأسباب الألمانية •

وأما البرتغال فكانت أسبق الدول الأوروبية مجيئا الى أفريقيا ، فبعد

أن تأسس في أوروبا النظام المعروف بأسم الدولة الوطنية الحديثة The Modern National State في مطلع العصر الحديث ، كان على هذه الدول أن تحقق التوسع والتفوق على غيرها من الدول الأخرى • وكان هذا لا يتأتى الا بتحقيق شيئين أولهما التوسع القارى ، ونجم عن ذلك ما يعرف بأسم الحروب الأوروبية (الايطالية ، وحرب الثلاثين عاما ، وحروب لويس الرابع عشر والحروب السبعينية) وثانيهما التوسع الخارجى ونجم عن ذلك ما يعرف بأسم الكشوف الجغرافية •

ولما كانت البرتغال في منأى عن الصراعات الأوروبية ، سارعت الى القيام بحركة الكشوف الجغرافية ، وبخاصة في أفريقيا ، وذلك لأسباب منها فصل الشمال الافريقى عن بقية الشعوب الافريقية الواقعة جنوب الصحراء ، ومنها ايجاد علاقة وطيدة بينها وبين الملك الحبشى ، فكانت خطتها ترمى الى عبور القارة والاتصال بملك الحبشة ، ولكنها عجزت عن تحقيق هذا الهدف بسبب المظاهر الطبيعية التى كان من الصعب اجتيازها ، ولو كان هنرى الملاح غامر في هذا العمل فمن المحتمل أن تكون قواته قد أبيدت عن آخرها • ومنها أيضا رغبة البرتغال فى الوصول الى الهند والاستئثار بتجارة جنوبى شرقى آسيا وحرمان العرب والممالك فى مصر والايطاليين من الهيمنة على هذه التجارة ، وقد نجحت البرتغال فى ذلك •

ومن الملاحظ أن البرتغال لم تعمق وجودها فى الساحل الغربى لأفريقيا لأن ذلك لم يكن ضمن تخطيطها ، فأكتفت بإنشاء عدد من المراكز الامامية Outposts التجارية ، والحصون العسكرية على طول الساحل الغربى لأفريقيا ، وانتهى الأمر بالبرتغال الى أن قامت بتأسيس أكبر إمبراطورية استعمارية فى مطلع التاريخ الحديث ، ولكن هذه الإمبراطورية لم تدم طويلا ، لأسباب منها عدم مقدرة قوات البرتغال العسكرية على حماية هذه الإمبراطورية والحفاظ عليها ، وثانيها صعوبة المواصلات التى كانت تربط بين برشلونة وبين ممتلكات البرتغال فيما وراء البحار فضلا عن اتساع مساحة هذه الإمبراطورية • فإذا كانت البرتغال قد أسست إمبراطوريتها

بسهولة وينتشر فأن هذه الامبراطورية قد انتهت بسهولة أيضا أمام منافس البرتغال ومن الجدير بالذكر أن دول أوروبا الأخرى لم يكن لها دور ككشفي في افريقيا بسبب مشاكلها الداخلية .

وبعد ذلك ننتقل الى الحديث عن السمات التي اتسم بها هؤلاء الرحالة فقد اتسم هؤلاء الرحالة والمغامرين بسمات مشتركة تمثلت في التنكر الذي مارسه جميع الرحالة دون استثناء ، ويعنى التنكر أن هؤلاء الرحالة كانوا يرتدون زي سكان البلاد التي يمرون من خلالها حتى لا يكون هناك من الاشياء ما يكشف أمرهم . هذا فضلا عن أنهم كانوا يتقنون أجادة لغات ولهجات السكان الوطنيين . فكان الواحد يتقن أكثر من لغة ، فمثلا تعلم جيمس بروس اللغة العربية والفرنسية ، بل وتعلم جميع اللهجات الافريقية ، وتعلم رينيه كاييه اللغة العربية ، واتفقوا عن ظهر قلب عندما كان في مراكش وقبل أن يبدأ رحلته الى تمبكتو ، ووصل به الأمر أنه كان يقوم بقراءة القرآن وتفسير معانيه الى السكان الوطنيين بحيث أنهم كانوا يثقون فيما يقول ولم يكتشفوا أمره بعد أن غادر تمبكتو . وتعلم جون لويس بركها ردت اللغة العربية ، ولكي يتقنها عن ظهر قلب سافر الى سوريا ومكث بها فترة من الوقت عاد بعدها وهو يجيد العربية أجادة مطلقة .

ومن السمات التي اتسم بها هؤلاء « الجديدة » وقد ظهر ذلك بصورة جلية في تحملهم للمشاق دون كلل أو ملل ، فلو لا هذا ما تمكن بروس من المسير الى الاسكندرية والوصول الى الحبشة رغم ما اعترضه من صعاب ومخاطر شأنه في ذلك شأن دافيد لفنجستون وستانلى وصمويل بيكر وسبيك وجرانت .

وكان من هذه السمات أيضا سمة التضحية ، فمما لا شك فيه أن هؤلاء الرحالة كانوا يضحون بكل غال ورخيص في سبيل تحقيق هدفهم الكشفي ، ومن أجل ذلك فقد تعرضوا لمخاطر جمة منها الأمراض الفتاكة ، وكان من هؤلاء الرحالة الذين ماتوا نتيجة مغامرتهم جون لويس بركهاردت ، وكلايبرتون ، ودافيد لفنجستون ولم تقتصر حياتهم على الموت فحسب

بل أن البعض منهم تعرض للاغتيال ، وخير مثال على ذلك الجنرال هوفتون ومنجوبارك الذى أغتيل فى منطقة غرب أفريقيا ، والمس تنييه وفوجيل
الألماني .

ومن السمات التى أتسم بها هؤلاء المكتشفون أيضا هى حبهم لبلادهم ، فقد عمل هؤلاء جميعا وبلا استثناء لمصلحة أوطانهم ، وخير دليل على ذلك يتضح من عبارة لفنجستون التى جاء بها ما نصه : « والآن أصبحت أفريقيا مكتشفة فعليكم أن تفتحوا طريقا للتجارة ولنشر المسيحية بين القبائل الوثنية » أى أن لفنجستون قال هذه العبارة بعد أن وقف على ما تحويه هذه القارة من ثروات معدنية وبشرية وحيوانية وزراعية .

ومن الجدير بالذكر أن هؤلاء المكتشفين لم يأتوا الى أفريقيا حبا فى هذه القارة ، ولكنهم جاءوا اليها من أجل مصالح بلادهم التى كانت فى مسيس الحاجة الى تحقيق هدفين أولهما فتح أسواق جديدة فى أفريقيا لتوزيع الفائض من انتاجهم الصناعى ، وثانيهما أنهم كانوا فى حاجة الى الحصول على المواد الخام الموجودة بوفرة فى هذه القارة . أذن يمكن القول بأن مرحلة الكشف الجغرافى الاوربى لأفريقيا كانت بمثابة « مرحلة الاستعمار السلمى » .

وفى ختام هذا التقديم يمكن القول أنه بعد ان تم الكشف عن المناطق المجهولة من أفريقيا ، تكالبت الدول الأوربية على هذه القارة ، وانتهى هذا التكالب بعقد مؤتمر برلين فى الفترة ما بين ١٨٨٤ ، ١٨٨٥ م . وفى هذا المؤتمر قسمت افريقيا بين كل من بريطانيا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا والبرتغال وبلجيكا . ويمكن ان نسمى هذه المرحلة « بمرحلة الاستعمار الأوربى الفعلى لأفريقيا » كما يمكن أن نسميها « مرحلة النهب الاستعماري لموارد أفريقيا » .

وتجدر الإشارة الى أنني علقت على كل فصل على حدة ، وفضلت أن يكون هذا التعليق فى نهاية كل فصل ، حتى يتشجع القارئ على قراءة هذا

التعليق ، فغالبا ما يترك القارئ الهوامش دون قراءتها ، الا في حالة
الضرورة القصوى ، اذا كتبت في حواشي الصفحات •

وأشير هنا الى أنني أعددت عددا من الخرائط التي توضح خطوط
سير الرحالة الذين جاءوا الى أفريقيا ، وساهموا بقدر كبير في الاعمال الكشفية
الأفريقية ، حتى يتمكن القارئ الكريم من تتبع خط سير أى رحالة ،
وحتى نسهل عليه مهمة فهمه لهذا الكتاب • ولعلنى بهذا العمل أن أكون قد
أضفت الجديد الى المكتبة العربية •

والله ولى التوفيق ،،،

دكتور / السيد يوسف نصر

الجيزة ١٩٨٣

الفصل الأول

الرحالة الأوائل

كان من الغريب حقا أن يظل معظم داخل القارة الأفريقية غير معزوف الى الاوربيين حتى منتصف القرن التاسع عشر ، والسبب في ذلك يرجع الى جغرافية هذه القارة ومناخها ، هذا فضلا عن أنها فقيرة في موانئها الطبيعية ، أى أنه لم يكن لها موانئ طبيعية وفيرة باستثناء ميناء خليج غينيا الكبير . هذا الى جانب أن القارة الأفريقية تنقسم في مجموعها الى عدد من المناطق المختلفة ، التي تختلف كل منها عن الأخرى ، وكان من هذه المناطق منطقة البحر المتوسط الخصبة ، التي تمتد جنوبا الى مسافات بعيدة تجاه الصحراء الكبرى ، التي يبلغ عرضها آلاف الأميال ، والتي تعتبر بحق من أعظم صحارى العالم في المساحة . وتتميز هذه الصحراء بجفافها وشدة حرارتها ، ولهذا ينتشر فيها عدد قليل من الواحات والآبار . والى الجنوب من هذه الصحراء توجد منطقة كثيفة الحشائش والغابات التي لا يمكن اختراقها ، ولكن على الرغم من ذلك فإن نهر النيل الذي ينبع من منطقة جبلية ملاصقة لخط الاستواء قد اخترقها . وفصلا عن ذلك ، فإن القليل من أنهار أفريقيا يكون صالحا للملاحة (في معظم أجزائه) وعلى سبيل المثال نهر النيل ، وأما بقية أنهار القارة الأفريقية فهي أما مسدودة بالجنادل والشلالات والمستنقعات ، أو أن مصباتها مسدودة بالحواجز الرملية .

وعلى هذا فقد كان من الصعب جدا الوصول الى داخل القارة الأفريقية بواسطة استخدام هذه الأنهار حتى بعد أن تمكن الإنسان من اختراع وسائل المواصلات الحديثة . وكان من الصعب أيضا الوصول الى قلب القارة الأفريقية بالطرق البرية ، لأنها كانت غير ممهدة ، ولأنها كانت محفوفة بالمخاطر . ولكن على الرغم من كل هذا فقد قرر الرحالة اختراق بعض مناطق من القارة سيرا على الأقدام ، وبخاصة بعد أن نفقت دوابهم وماشييتهم

بسبب لدغات ذبابة تسمى — تسمى Tse - Tse Fly ، وكذلك بسبب الحشرات الحاملة للأمراض ، حتى أنه أصبح من المتعذر حصر الأشخاص الذين ماتوا بسبب حرارة الصحراء الشديدة ، فكان قد مات الكثير منهم بسبب الملاريا ، ومات البعض الآخر بسبب الحمى أو بسبب وقوعهم غريسة لعداء القبائل المحلية * وأزاء كل هذه الصعوبات لم يكن من الدهش ان تظل افريقيا مغلقة امام العالم الخارجى .

ولكن على الرغم من ذلك ، فأن وادى النيل كان معروفا للمصريين القدماء ، فقد مكنهم فيضان النيل السنوى من رى حقولهم * ومن المحتمل أن تكون معرفتهم لوادى النيل قد شملت الشواطىء الجنوبية للبحر المتوسط ، بل وحتى مدينة الخرطوم فى السودان ، وكانت معرفتهم بسيطة بالنسبة لسواحل البحر الأحمر وشمال الحبشة ، أما معرفتهم بالنسبة لبقية القارة الأفريقية فكانت معدومة .

وعلى أية حال كان المصريون القدماء من أول المكتشفين لأفريقيا ، مع أنهم لم يكونوا الشعب القديم الوحيد الذى أسس دولة متمدنة فى الشمال الأفريقى * فالى جانبهم وجد الفينيقيون الذين كانوا تجارا وملاحين مهرة ، كما وجد أيضا القرطاجيون الذين عملوا بالتجارة ، والذين كانوا يميلون الى حب المغامرة ، فمكنتهم ذلك من تأسيس المستعمرات * ومن الجدير بالذكر أن الأغريق أسسوا فى تاريخ مبكر فى مصر مستعمرات لهم ، على وجه التحديد فى القرن السادس قبل الميلاد .

وكان المؤرخ الأغريقى هيروdotus الذى زار مصر عام ٤٦٠ ق.م اعتقد بأن القارة الأفريقية كانت قد أرثيدت منذ بداية عام ٦٠٠ ق.م ، وطبقا لما ورد فى كتابات هيروdot فأن نخاو (١) الفرعون المصرى أرسل حملة كشفية تحت قيادة بحارة فينيقيين مهرة ، كى يكتشفوا الطرف .

(١) انظر التعليق فى نهاية الفصل .

الجنوبى للقارة والمجاور للبحر . وقد أوصاهم نخاو أن يبحروا من خلال البحر الأحمر ، ثم يعودوا بعد ذلك من خلال أعمدة هرقل Pillars of Hercules أو من خلال مضيق جبل طارق Straits of Gibraltar كى يصلوا الى البحر الشمالى (البحر المتوسط) ثم يواصلون مسيرهم بعد ذلك الى مصر . وكانت البعثة قد بدأت رحلتها مارة من خلال البحر الأحمر ، ودارت حول افريقيا (حول رأس الرجاء الصالح) (The Cape of Good Hope) ثم مرت بعد ذلك بمحازاة ساحل غرب أفريقيا ، ومنها الى مضيق جبل طارق ، ثم وصلت فى النهاية الى مصر للمرة الثانية بعد السنة الثالثة من بدء الرحلة . وفى أثناء تلك ائرحلة كان أفراد البعثة يمارسون حرفة الزراعة وذلك بزراعة قطعة من الأرض ملائمة للزراعة على الساحل ، فكانوا يبذرون الحبوب ثم ينتظرون حتى جنى المحصول ، وبعد ذلك يواصلون مسيرهم .

ومن المحتمل أن يكون القرطاجيون قد أرسلوا عددا من البعثات الكشفية ، ولكن لم تكن التفصيلات كاملة عن هذه البعثات باستثناء ما وجد من هذه التفصيلات لأحدى هذه البعثات . وقد اتضح ذلك جليا من المترجمة اليونانية لقصة هانون Hannon القرطاجى ، غفى عام ٤٧٠ ق.م قرر مجلس الشيوخ القرطاجى أن يرسل الأدميرال هانون على رأس بعثة كشفية الى منطقة غرب افريقيا ، كى يؤسس مستعمرات على ساحلها الغربى ، وكانت هذه البعثة تضم أسطولا كبيرا . وقد تمكن هذا الأسطول على أقل تقدير من تأسيس مستوطنة واحدة ، كما تمكن من الوصول الى رأس الفيرد ، بل ودار حولها ، كما تشير كل الاحتمالات أيضا الى أنه وصل الى سيراليون . وهناك وقع صدام بين رجال الأسطول القرطاجى وبين رجال القبائل الهمج القاطنين عند مصب نهر السنغال . وكان هانون قد رأى أن الشعرا يكسو أجسام السيدات الأفريقيات ، فى هذه المنطقة ، حيث قام الهمج الموجودين عند مصب نهر السنغال بقذف القرطاجيين الغزاة بالحجارة ، ولكن على الرغم من ذلك ، فقد تمكن رجال الأسطول القرطاجى

من القاء القبض على ثلاث سيدات منهن لم يستطعن عمل أى شىء ، بل كان كل ما فعلنه ضد رجال البعثة هو أنهم قمن بعضهن وخربشتن ، هذا فضلا عن أنهم لم يتبعن رجال البعثة فى رحلة العودة • لذلك أضطر رجال الأسطول الى قتلهم وسلخ جلودهم واحضارها معهم الى قرطاجة • ولم يعرف أحد على وجه التحديد أن هذه المخلوقات الهمجية كانت تنتمى الى سلالة الغوريلا (القردة) أم كانت تنتمى الى بعض القبائل البشرية البدائية • وقد انقسمت الآراء أيضا حول « الأنهار المقددة » فقد لاحظ رجال البعثة لهب كبير « مشتعل فى كل جانب » Kindled on every side

ويبدو من المحتمل أن يكون هذا اللهب نتيجة للأعشاب المحترقة ، التى اشتعلت للإضاءة بمعرفة الوطنيين •

وبعد ذلك عادت بعثة هانن الى قرطاجة بسبب نقص المواد الغذائية اللازمة لرجالها ، فقد فشلوا فى سد العجز الناقص فى التموين اللازم للبعثة • ولكن لم يكدر يحل منتصف القرن الخامس عشر ، الا وكانت البعثة الأوربية تمر من خلال نهر سيراليون ، بل ووصلت الى أقصى نقطة فى جنوبه •

وفى خلال القرن الثانى قبل الميلاد ، هزمت روما قرطاجة ، وأطلق الرومان كلمة (افريقيا) على الشمال الافريقى ، وغيا بعد امتد هذا الاسم على حسب المعلومات الجغرافية الى القارة الافريقية كلها • ومن قبل أطلق الكتاب الأغريق والرومان كلمة (ليبيا) على كل القارة الأفريقية •

وكان الرومان قد اكتشفوا طريقا جديدا الى حدود الحبشة ، وذلك بأرسال بعثة كسفية للكشف عن منابع النيل • ومنذ أيام الفراعنة فإن المؤرخين والجغرافيين قد تحيروا فى غموض مصدر النيل الذى ظل مجهولا حتى تم كشف العالم الجديد • ويعتبر نهر النيل أطول نهر عرشف الإنسان • وقد ترددت اشاعات مفادها أن هذا النهر ينبع من بعض المنابع العميقة التى توجد فى قلب افريقيا ، ولكن لا أحد يعرف مكانها على وجه التحديد • وفى عام ٤٦٠ ق م تتبع هيرودوت مجرى النيل ووصل الى الشلال الأول

عند أسوان ولكنه لم يستطع أن يكتشف أي شيء محدد من منبع هذا النهر ، وقال أنه سمع أشاعات عن نهر ضخم يعج بالتماسيح يقع على مسافات بعيدة صوب الجنوب الغربى من مصر • وكان المقصود بهذا النهر « هو نهر النيجر » وكان هيرودوت Herodotus كغيره من الجغرافيين الذين سبقوه أو الذين جاءوا من بعده ، فقد تصور أن هذا النهر ربما أن يكون المجرى العلوى لنهر النيل ، واعتقد أيضا أنه من المحتمل أن ينبع النيل من مكان ما فى جنوب جبال أطلس ، ثم يسير مجراه نحو الشرق مسافة طويلة قبل أن يتجه نحو الشمال لتتدفق مياهه من خلال مصر الى البحر الأبيض المتوسط • اما بالنسبة لفيضانات النيل ، فأعتقد هيرودوت أنه من المحتمل أن يكون السبب فى هذه الفيضانات يرجع الى نقص فى التبخر خلال شهور الشتاء ، التى تسمح بوجود مياه غزيرة تتدفق فى النهر ، وتتجه نحو مصبه • وقد أستمروا الجدل حول السبب فى فيضانات النهر الى أن تم الكشف عنه فى نهاية القرن التاسع عشر • ولم تأت هذه الفيضانات عن طريق المجرى الرئيسى للنهر ، بل يرجع السبب فى وجودها الى النيل الأزرق ، نتيجة للأمطار التى تسقط على هضبة الحبشة •

وقد قاد نيرون البعثة الرومانية الى بلاد النوبة (السودان) فكانت الأوامر قد صدرت اليه بأن يتتبع مجرى النيل الى منبعه وطبقا لما ذكره سينكا Seneca الذى كان مرشدا Tutor لنيرون ، أنه قال « بعد أن قطعت البعثة رحلة طويلة رجعت بسبب وجود منطقة من المستنقعات الطميية الكثيفة النباتات المتشابكة ، وكان من المستحيل على البعثة اختراقها • وقد رأى رجال البعثة صخرتين كان النهر ينحدر بقوة هائلة من فوقهما ، وقد وجد بعض الشكوك فى تحديد مكان الصخرتين بالضبط • ولكن لم يكن هناك شك فى أن البعثة قد وصلت الى مستنقعات منطقة السدود النباتية • وعلى الرغم من فشل البعثة فى تحقيق هدفها الرئيسى ، الا أنها كانت قد وصلت الى النقطة التى لم يتمكن الأوروبيون من الوصول اليها مرة ثانية حتى بعد مضى ١٨٠٠ عام •

ولقد انتشرت قصة منطقة النيل في القرن الأول الميلادي ، فقد لاقت رحلات التاجر الأغريقي ديوجينيس Diogenes اهتماما كبيرا ، وكان هذا التاجر قد ادعى أنه قام برحلة الى الداخل ابتدأها من الساحل الشرقي لأفريقيا ، وكان قد رأى أن الثلوج تغطي قمم الجبال المجاورة للبحيرتين الكبيرتين • هذا فضلا عن الجغرافي مارينوس Marinus الذي أخبرنا بهذه القصة التي تقول أن مياه البحيرات تكونت من ثلوج الجبال ، ولكونت بدورها مصادر النيل •

وكان كل من مارينوس Marinus of Tyre والجغرافي الفلكي بتولومي Great Astronomer على حق عندما فكرا في مصادر بحيرات النيل • ولكن كان من الخطأ التفكير في أن مياه البحيرات كانت تتكون من مياه ثلوج الجبال • وتوضح لنا خريطة بتولومي الشهيرة ، التي رسمها للعالم المعروف آنذاك (عام ١٥٠ م) أن النيل ينبع من بحيرتين مستديرتين في قلب أفريقيا ، وتحصلان على مياههما من جبال القمر •

وتوضح لنا خريطة بتولومي هذا أيضا نهرا كبيرا آخر هو نهر النيجر الواقع الى الغرب من نهر النيل ، والذي يصب في الغرب مباشرة ، ومع ذلك فأن معرفة بتولومي عن أفريقيا كانت غير كاملة ، ولكن رغم ذلك فأن العمل الذي قام به لا يقدر بثمن بالنسبة للجغرافيين ، بل وظل خاضعا للمجادلة لعدة قرون •

وفي أثناء الفترة القديمة كان شمال أفريقيا جزءا من عالم البحر المتوسط ، بل وكان خاضعا بأكمله الى النفوذ الروماني ، ومع ذلك فلم يمتد نفوذ روما الى المناطق الصحراوية حيث شيد البدو ، وسكان الواحات منازلهم ، وكيفوا أنفسهم على المعيشة في هذه البيئة القاسية • لهذا لم يوجد سبب يحتم على الرومان البحث والاختراق صوب الجنوب ، كما لم تكن في الحقيقة حدود مقاطعتهم محمية من الجنوب بحدود طبيعية • لهذا اندفعوا ليشيدوا مراكز ومستوطنات يدافعون منها ضد تهديد ومهاجمة

المقبائل الصحراوية التي يعمل أفرادها قطاع طرق • وبعد هذا الاهتمام فقد أسدل الستار الذي لم يرفع الا في العصور الوسطى • وفي نفس الوقت حدثت تغييرات كبيرة في شمال أفريقيا حيث تمكن النبي محمد صلى الله عليه وسلم ، من نشر العقيدة الإسلامية في شمال أفريقيا ، فقد تمكن اتباعه من العرب في خلال القرن السابع الميلادي من غزو مصر وفتحها ، بل ومدوا نفوذهم الى مسافات بعيدة صوب الشمال الأفريقي ، في اتجاه الغرب وهم بذلك يرفعون لواء دينهم ، فلم تعزل الصحراء تحركهم بل تمكنوا من عبورها ونشروا عقيدتهم في قلب افريقيا ، كما احتلوا الساحل الشرقي الواقع على مسافة بعيدة صوب الجنوب عند زنجبار وهناك أقاموا صرح امبراطورية عربية •

وقد قام العرب بنشر الدين والتجارة في الأماكن الجديدة واستخدموا في ذلك العديد من طرق القوافل التجارية التي تعبر الصحراء الكبرى وتلتقى في تمبكتو التي كان يوجد بها مركز تجاري يقع بالقرب من نهر النيجر في السودان الغربي ، وكانت البضائع الثمينة ترد الى تمبكتو لتباع في سوقها وقد تضمنت هذه البضائع الرقيق والذهب •

وكان العرب مشهورين بعبقريتهم وبأهتمامهم بالجغرافيا وبالرحلات ، ففي خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر ، تمكن العرب من الوصول الى منطقة البحيرة الموجودة في أواسط افريقيا • وهناك قصة تقول أن العرب أرسلوا بعثة لتبحث عن منبع النيل ، وبالفعل تمكن أفراد هذه البعثة من مشاهدة جبال القمر ، والبحيرة التي يخرج منها النهر • ورغم ذلك فإن الخرائط العربية التي وضعت لهذا الغرض ، وضعت على أساس خريطة بتولومي وأعماله التي ترجمت الى العربية ، ولو تأكد قيام هذه البعثة فأنها بكل بساطة تكون تكرارا لبعثة مارينوس وديوجنيوس التاجران الأفريقيان ومع هذا فإنه من المؤكد أن في ممارسة المسلمين لشعائر الحج للأماكن المقدسة تشجيعا على السفر والتعرف على شعوب أخرى ، وفي القرن الرابع عشر ، قام ملك مالي برحلة حج من السودان الغربي جذبت الأنظار

اليها ، حيث حدد خط سير هذه الرحلة على الخرائط التي وضعها كتالان

Catalan

وكان من أشهر الرحالة العرب ابن بطوطة الذي ولد في طنجة ، والذي قام في عام ١٣٢٤ م بسلسلة من الرحلات ، وكان عمره آنذاك ٢٢ عاما . وكان الهدف من قيامه بهذه الرحلات هو زيارة جميع الأقطار الإسلامية في العالم ، فغد زار مصر وفلسطين ومكة ، بل ووصل الى أماكن بعيدة أخرى من العالم ، مثل روسيا والصين والهند ، كما قام برحلة على طول الساحل الشرقي لأفريقيا ، ونزل في أماكن مختلفة ، ووصل في تجواله الى كلوا التي تتبع في الوقت الحاضر تنزانيا . ولم يكتف ابن بطوطة بهذا القدر من السفر ، بل نجده يقوم برحلة أخرى عام ١٣٥١ م من بلدة فاس Fez في مراكش ، فعبر الصحراء الى بلدة تمبكتو ، وقد وقع ابن بطوطة في نفس الخطأ الذي وقع فيه غيره من الرحالة ، حيث توصل الى نتيجة مفادها أن نهر النيجر يتصل بنهر النيل .

ولم يخرج ابن بطوطة بأنطباع كبير عن تمبكتو ، بل أنه بعد قرنين من الزمان جاء بعده رحالة عربي مسلم يدعى ليو الأفريقي ، الذي تجول على نطاق واسع في غرب افريقيا ، ووصف تمبكتو بأنها مركز تجارى على جانب كبير من الأهمية ، كما وصفها أيضا أنها غنية بثرواتها الكبيرة . وفي هذا الصدد كتب ليو الافريقي كتابا عن ملك تمبكتو ، وكان عنوان هذا الكتاب « تاريخ ووصف افريقيا » The History and discription of Africa . فقد وصف ليو الأفريقي في كتابه هذا ملك تمبكتو بأنه يملك الكثير من الألواح والعصى الذهبية كما كان لديه أطباق وصولجانات من الذهب يزن البعض منها حوالى ١٣٠٠ رطل ، كما انه وصف بلاط الملك بأنه مجهز تجهيزا عظيما ، وكان لهذا الملك حرسا خاصا مكونا من ٣٠٠٠ فارس ، بالإضافة الى عدد كبير من جنود المشاة ، الذين كانوا يتسلحون بالسهام والذين كانوا يقومون على خدمة الملك ، ففى أغلب الأحيان كانت هذه القوات تقوم بمحاربة الشعوب التي ترفض أن تدفع الأتاوة للملك ، ففى هذه الحالة كانت قواته

نبيع أسرى هذه الهجمات في سوق تمبكتو • ومن الجدير بالذكر أن الأطباء ورجال الدين والقضاة والعلماء ، كانوا يعيشون في بلاط الملك وعلى نفقته الخاصة • فضلا عن ذلك فإن ليو الأفريقى رأى سلعا أوربية كانت تباع في محلات تمبكتو • فقد جلبت إليها المخطوطات والكتب التى كانت تباع جميعها بأسعار أعلى من أسعار السلع التجارية الأخرى وكان ملك تمبكتو يعيش في قصر ملكى ، كما كان يوجد له مسجد فخم ، وفي الوقت نفسه كان أهل البلدة يعيشون في منازل مسقوفة بالقش ، مما جعل بلدهم تتعرض في أحوال كثيرة لخطر الحرائق •

ولقد أثار تقرير ليو الأفريقى الكثير من الأشاعات المختلفة Rumours والمبالغات Exaggeration عن أهمية تمبكتو ، مما أدى الى أن الرحالة الأجانب وبخاصة الذين كانوا لا يعرفون شيئا عن داخل افريقيا ، أن يخاطروا بحياتهم لكي يعثروا على مدينة تمبكتو الغنية التى قيل أن منازلها لم تكن مسقوفة بالقش ، ولكنها كانت مسقوفة بالذهب ، ومع هذا ، فإنه وقبل أن يحدث ذلك فإن عصرا جديدا في مجال الكشوف الجغرافية كان قد بدأ •

تعليق على الفصل (١)

من الواضح أن المؤلفة لم تقم بتوضيح دور مصر كاملا في مجال الكشف الأفريقي في العصر الفرعوني ، ربما لعدم المامها بهذا الدور ، أو ربما أن تكون غير مقتنعة به ، ومن المحتمل أنها لم تكن على دراية أو على علم بهذا الدور الكشفي في التاريخ القديم ، وهذا ما أرجحه وأؤيده . وهناك احتمال آخر هو أنها لم تركز على الفترة القديمة باعتبار أنها سوف تركز بشكل واضح على فترة العصور الحديثة ، فأعتبرت الفترة القديمة مجرد مقدمة . مع أن دراسة هذه الفترة تمثل الأساس الذي قامت على أساسه هذه الدراسة . لهذا كان من الضروري أن أقوم بالقاء الضوء كاملا على دور مصر في هذه الفترة .

ومن المعروف لدينا ولعلماء التاريخ في دول العالم المتحضر أن مصر لم تكن في منأى عن بلاد النوبة ، أو بالأحرى لم تكن بعيدة عن الأقاليم الأفريقية الواقعة في جنوب مصر أو فيما وراء حدودها الجنوبية ، فقد كانت هناك علاقات بين مصر وبين شعوب هذه المناطق منذ فجر التاريخ سواء أكان ذلك في المجال الثقافي أم العسكري أم الكشفي أم التجاري .

ويؤيد دور مصر هذا نصوص الدولة القديمة ، هذه النصوص التي تشير الى أن مصر في هذه الفترة كانت ترسل بقواتها تجاه الجنوب لعدة أهداف منها تأديب القبائل الزنجية التي كانت تحاول الاغارة على حدود مصر الجنوبية ، وفي تلك الأثناء كانت هذه القوات تقوم بأرتياد المناطق التي وصلت اليها ، والتي تقع في أغلب الظن في الجنوب الغربي من مصر ، وقد شجع القوات المصرية على قيامها بهذه المهمة أنه لم تكن هناك حدود سياسية ، فكان في امكان هذه القوات المصرية أن تتجول الى أقصى نقطة يمكن أن تصل اليها صوب الغرب ، غربا وصلت هذه القوات الى شاطئ المحيط الأطلسي الشرقي . وقد أثار فيج الى ذلك في كتابه تاريخ غرب افريقيا

حيث قال أنه يوجد تشابه في عادات وتقاليد ملوك غرب إفريقيا بالتقاليد المصرية القديمة •

ولكن على الرغم من ذلك فإن وولتر أمرى ذكر أنه لا يوجد دليل على وجود أية مستعمرة مصرية لها نظامها الخاص في بلاد النوبة باستثناء وجود بعض المعسكرات الصغيرة والقلاع ، وذلك لحماية الطرق التجارية بل وحماية حدود مصر الجنوبية • (١) •

ولكننى أقول أن بلاد النوبة وما جاورها كانت محط أنظار المصريين القدماء ، بل وكانت تحظى برعايتهم ، ويضيف د • محمد إبراهيم بكر بما معناه أن الملك بيبى الأول كان قد كلف حاكم الجنوب المدعو « ونى » أن يقوم على رأس جيشه إلى الجنوب ، لكي يرتاد هذه المناطق (٢) ، وقد نجح جيش بيبى الأول الذى قاده « ونى » فى القضاء على القبائل المتمردة التى كانت تهدد حدود مصر الجنوبية ، بل وقامت هذه القوات بحفر خمس قنوات فى صخور الشلال الأول الواقعة إلى الجنوب من أسوان ، وذلك لتسهيل الاتصال بين البلاد الواقعة بين مصر وبلاد النوبة (٣) •

ولم تنقف جهود مصر عند هذا الحد بل نجد أنه فى عهد الأسرة الحادية عشرة قام من مصر أحد الرواد الذى يدعى هينو Henou على رأس حملة إلى بلاد بونت ، وتكونت هذه الحملة من ٣٠٠٠ رجل ، وكانت هذه الحملة قد بدأت مهمتها من قفط حيث عبرت الصحراء الشرقية، وفى تلك الأثناء كان هينو يأمر رجاله بحفر الآبار على جانبي الطريق حتى يستخدمها رجاله فى الشرب ، وواصلت هذه البعثة مسيرها حتى وصلت إلى ساحل البحر الأحمر • ومن هناك سارت عبر هذا البحر ، ومن بعده وصلت

(١) وولتر أمرى ، ترجمة تحفة هندوسة . مصر وبلاد النوبة ، القاهرة ١٩٧٠ ، ص ١٣٣ .

(٢) د • محمد إبراهيم بكر : المدخل إلى تاريخ السودان القديم ، القاهرة ، ١٩٦٨ ، ص ٢٥ .

(٣) د • أحمد فخرى : مصر الفرعونية ، القاهرة ، ١٩٦٠ ، ص ١٤٨ .

- الى بلاد بونت ، وهناك قام هينو بشراء البخور، وكل منتجات هذه البلاد .
- وبعد ذلك عاد هينو من نفس الطريق البحرى الذى سلكه فى بداية الرحلة ،
- فوصل الى القصير ، ومنها اخترق وادى روهانو حتى وصل الى طيبه .
- ومن الجدير بالذكر ، أن هينو هذا يعتبر من الرواد العظام فى عصره (٤) .

ولم تتوقف الرحلات المصرية الكشفية عند هذا الحد ، بل نجد الملكة حتشبسوت أرسلت حملة الى بلاد بونت مكونة من خمس مراكب مشحونة بالسلع المصرية المراد استبدالها بالسلع الصومالية . وعندما وصلت الى هناك اتجه قائدها وبصحبته ضابط وثمانية جنود الى الأرض المقدسة ، وبدأ كل شىء فى هذه الأرض غريبا ، وبعد ذلك تقدم باروحو ملك بلاد بونت وزوجته وأولاده ومن خلفهم الخدم لتحية المصريين الذين سألهم الملك البوننتى عن سبب مجيئهم الى هذه البلاد التى لا يعرفها أحد . وبعد انتهاء الرحلة جلب رجالها البخور والذهب وشن الفيل والأبنوس ، فى مقابل ما قدموه من سلع تجارية . وكان المصريون يسمون الأشياء التى يحصلون عليها من بلاد بونت بالجزية ، واعتبرت السلع التى تقدم من جانب مصر بالقرايين التى تقدم الى آله بلاد بونت (حتحور) . وبعد أن أنهت البعثة مهمتها عادت الى طيبه ، ودخل رجالها فى موكب كبير ، وفى أيديهم أغصان خضراء ومن خلفهم عظماء بونت ليقدموا هداياهم الى الملكة التى كانت فى استقبالهم فى حشد كبير من المواطنين ، وكان لهذه الرحلة أثرها العظيم فى تدعيم علاقات مصر الخارجية (٥) .

وقد سجلت أحداث هذه الرحلة العظيمة على جدران معبد الديبر البحرى ، فقد وضع من الرسوم صور المراكب والبحر الأحمر ولون مياهه وأسمائه التى من المحتمل أن تكون هذه الأنواع من الأسماك لازالت

(٤) بيري مونتييه : ترجمة عزيز مرقس : الحياة اليومية فى مصر فى عهد الرعامسة ، القاهرة ، ١٩٦٥ ، ص ص ٢٥٣ ، ٢٥٤ .
 (٥) د . السيد يوسف نصر : جهود مصر الكشفية فى القرن ١٩ ، القاهرة ، ١٩٧٩ ، (انظر المقدمة)

موجودة حتى أيامنا هذه ، وهذه الرسومات خير دليل مادي على هذه الرحلة (٦) .

ومع ذلك ، فلم تتوقف رحلات مصر الى بلاد الصومال ، ففي عهد رمسيس الثانى أرسلت مصر حملات أبعد من بلاد بونت ، فقد تحدث عنها الرواة ، والسبب فى ذلك يرجع الى حاجة المصريين الى الأحجار الكريمة التى كانت توجد فى بلاد باكتريان Bactrian والتى يربطها بسوريا ومصر طريق بحرى . ففي البداية لم يذهب المصريون القدماء رأسا الى البلاد التى تنتج الأحجار الكريمة بل اكتفوا بشرائها من بلد كانت تسمى تيفر Teffer ويقال أنها سيبار Sipar التى تقع على قناة تربط نهر دجلة بنهر الفرات .

وخير دليل على ذهاب المصريين الى بلاد الرافدين ، أنه حدث فى إحدى السنوات ان الفرعون المصرى ذهب لزيارة بلاد نهارينا ، وبينما كان مشغولا بتلقى تحيات الأمراء والأجانب تقدم اليه ملك باكتريان وملك باختان ، وقدم له الأخير ابنته وهدايا أخرى والتمس ملك باختان أن يتحالف مع الفرعون المصرى الذى قبل هذا العرض . وبعد ذلك عاد الفرعون المصرى الى طبيسه .

وبعد أن عاد الفرعون المصرى الى بلاده جاءه رسول من قبل ملك باختان وطلب المثل بين يدي الفرعون المصرى وأخبره بمرض أخت الأميرة « زوجته » ، فعلى الفور بعث الفرعون بأشهر أطبائه لعلاج أخت زوجته ، ولكن هذا الطبيب لم ينجح فى علاجها ، فجاء رسول آخر يطلب من الفرعون أن يرسل الاله الى بلاد باختان كي يشفى الأميرة من المرض . وكان هذا الاله هو خنسو المعبود الذى ينظم المصائر ، فأستقل مركبا كبيرا تحرسه خمسة مراكب صغيرة ووصل الى باختان بعد سنة وخمسة أشهر . ومن

(٦) د . أحمد فخري : المصدر السابق . ص ص ١٣ — ١٤ ، ٢٧٥ .

المواضع آن هذه الفترة كانت طويلة ، اذ لم يعرف على وجه التحديد أن هذا الأسطول الصغير اخترق البحر الأحمر ودار حول شواطئ العرب أم تتزع شاطئ بلوخستان ثم صعد بعد ذلك في نهر السند ، ومنه الى النقطة التي يتجمع فيها المسافرون المتجهون الى مملكة باختان . وقد بقي اله المصائر في بلاد باختان ثلاث سنوات وتسعة أشهر . وبعد ذلك سمح له ملك باختان بالعودة الى مصر ، بعد أن زوده بالهدايا والتحف والجنود الأقوياء والخيول . وتعتبر لوحة اللوفر التي سجل عليها وقائع هذه الزيارة وثيقة رسمية في كل مظهرها ، بحيث لم يعد هناك مجال للشك في صحة هذه العلاقات (٧) .

ورغم ذلك ، فلم تتوقف الحملات المصرية عند هذا الحد ، بل نجدها تستمر في عهد رمسيس الثالث الذي أبرم معاهدة مع ملك بابل تقضى بالسماح لأفراد قواته ، وموظفيه بعبور نهر الفرات ، وكان على اسطول رمسيس الثالث أن يمخر عباب نهر الفرات ، ثم يدور حول شاطئ شبه الجزيرة العربية ومنها يصل الى بلاد بونت ، دون أن يتعرض الى أى أحداث بفضل النفوذ القوى والخوف الذي يثيره مجرد سماع اسم فرعون مصر . وبعد ذلك تعود المراكب المصرية بمنتجات تونوتير Tonotir (اسم ملك الصومال) وببذور البخور مارة من خلال البحر الأحمر حتى خليج السويس ومنه الى وادي النيل عن طريق قناة بيتوم .

هذا فضلا ، عن أن زعماء أرض بونت كانوا يجيئون الى مصر بواسطة المراكب المصرية ، أى أن المراكب المصرية كانت تجوب البحر الأحمر ذهابا وإيابا ، فيمكن القول أن هذا البحر كان بحيرة مصرية ، وكان ينزل منها الصوماليون ومعهم منتجات بلادهم ، ثم يسيرون بعد ذلك على هيئة قافلة حاملين بضائعهم على ظهور الحمير وعلى اكتاف الحمالين حتى يصلوا

(٧) بيير مونتيه : المصدر السابق . ص ٢٥٧ ، ٢٥٨ .

الى جبل قفط ، ومنها يركبون القوارب النهرية حتى يصلوا الى طيبة ، وهم في حالة معنوية جيدة (٨) •

ومن الجدير بالذكر أنه في عهد الدولة القديمة كان يوجد خطا ملاحيا يربط جبيل الواقعة على ساحل سوريا وشاطئ بلاد بونت ، كما كانت المراكب تبخر من جبيل حتى تصل الى الشواطئ المصرية ، ثم تسير بعد ذلك في فرع تنيس (دمياط) ومن بعد هذا الميناء تسير في قناة تصل الى وادي الطميلات الذي يعتبر أقصى الفروع الشرقية لنهر النيل ، ومع ذلك لم يكن هذا الفرع صالحا للملاحة الا في زمن فيضان النيل • وبعد ذلك تصل هذه المراكب الى خليج السويس بعد عبورها للبحيرات المرة ، ثم تواصل مسيرها الى بلاد بونت (٩) •

وخلاصة القول أن مصر في عصورها القديمة كانت دولة رائدة في مجال الكشف والارتياح فلم يقتصر ارتياحها على المناطق الواقعة فيما وراء حدودها الجنوبية أو الغربية بل وصل ارتياحها الى سواحل البحر الأبيض الشرقية ، بل ووصلت الى نهر الفرات ، بل وتمكنت مراكبها من المسير من شواطئها الشمالية الى ميناء جبيل ، ثم تعبر بعد ذلك الفرات ، حيث تمر من خلال الخليج الفارسي فجنوب الجزيرة العربية ثم تصل في النهاية الى بلاد الصومال • وبعد ذلك تمر من خلال البحر الأحمر الى مصر ، كما كانت مصر ترسل الحملات عبر الصحراء الشرقية الى البحر الأحمر والتي تصل في النهاية الى بلاد بونت وهكذا •

ورغم كل هذه الجهود التي قامت بها مصر في مجال الكشف الجغرافي في افريقيا وآسيا ، الا أنه عندما سيطر الاغريق على مصر نجدهم يواصلون ارتياحهم الى افريقيا وبخاصة الى منطقة الساحل الغربي للبحر الأحمر •

(٨) نفس المصدر . ص ٢٥٥ •

(٩) بيير مونتيه : نفس المصدر . ص ٢٤٨ •

ولقد أرسل البطالمة سلسلة من البعثات الكشفية لمعرفة أجزاء من
أفريقيا الشرقية هذا فضلا عن قيام هذه البعثات بالوقوف على موارد هذه
المناطق وسكانها * فقد تمكن فيلون قائد بطليموس الأول من كشف جزيرة
الزمرد * واهتم بطليموس الثانى بشواطئ شبه الجزيرة العربية وبسبيل
وخليج العقبة ، بينما اهتم بطليموس الرابع بأفريقيا الشرقية ، فقد
وصلت بعثاته الى رأس نوتوس (رأس غرد غوى) هذا فضلا عن أن
البطالمة اهتموا بتجارة البحر الأحمر فأنشأوا المدن والمستودعات على
الساحل الغربى لهذا البحر كما أسسوا عددا من المدن منها هرؤنبوليس
الواقعة عند الطرف الشمالى للبحيرات المرة ، وأرسينوى على خليج
هرؤنبوليس ، وميوس هورموس عند رأس أبى شعر ، وفيلوتيرا عند
سفاجة ، وليوكوس ليمن عند القصير ، وبرينيكي في مواجهة أسوان ،
وأسس البطالمة أيضا عددا من المراكز الخاصة بصيد الفيلة في بلاد النوبة
والسودان كما اهتموا بانشاء الطرق ، فقد أعاد بطليموس الثانى حفر قناة
النيل ، كما اهتموا بالطريق الذى يبدأ من قفط وينتهى عند
ليوكوس ليمن (١٠) *

ومن بعد البطالمة أرسل نيرون بعثة لكشف منابع النيل ، ولكنها فشلت
في تحقيق هدفها ، هذا فضلا عن أن الرومان قد سيروا الحملات التأديبية
وذلك لتأمين حدودهم الجنوبية * فاذا كان الرومان قد اتجهوا في تجوالهم
في أفريقيا صوب الجنوب ومع وادى النيل ، فنجد أن البطالمة يتجهون مع
الساحل الغربى للبحر الأحمر *

ومن المؤكد أن كل من البطالمة والرومان كانوا قد وصلوا الى صحراء
كالهاري ، وهذا أمر غير مشكوك فيه ، ودليلنا على ذلك انه اكتشف في الفترة
ما بين ١٨٩٦ الى ١٨٩٨ في حصن جروسفينور * Fort Grosvenor

(١٠) د . ابراهيم نصحي : دراسات في تاريخ مصر في عصر البطالمة ،
القاهرة ، ١٩٥٩ ، ص ص ١٢١ — ١٢٣

(الواقعة الى الشرق من منطقة بوندولاند Pondoland ، أى على بعد ١٦٠ كم من باسولاند والتي تسمى في الوقت الحالى ليسوتو) وعلى عمق ١٨٠ سنتيمتر في مكان كوخ للوطنيين عند ساحل البحر « المحيط الأطلسي » وعاء يحتوى على ٢٨ قطعة نقود كان البعض منها متآكل لدرجة أنه لم يمكن التعرف عليها ، ولكن خبير من المتحف البريطاني تمكن من تحديد أن الثلاث قطع الأقدم عمرا تنتمي على التوالي الى عصر كل من بطليموس الأول والثاني والرابع ، أى في الفترة ما بين ٣٠٠ ، ٢٠٠ عام ق.م. أما بقية القطع الأخرى والتي أمكن التعرف عليها فكانت رومانية ضربت اثنين منها في الفترة ما بين ٣١٣ ، ٢٩٦ ق.م ، وكانت خمسة منها قد ضربت في الأسكندرية وإثنين منها ضربتا في أنطاكية وسوريا وواحدة ضربت في سيزيكوس Cyzicus (١١) . اذن يمكن القول بأن البطالة والرومان كانوا قد توغلوا الى مسافات بعيدة في افريقيا وبخاصة في المنطقة الواقعة الى الجنوب من خط الاستواء . ولا يمكن الشك في هذا لأنه لم يكن هناك قوى سياسية يمكن لها مقاومة التوسع البطلمي ومن بعده التوسع الروماني .

وأخيرا يمكن القول بأن مصر كان لديها امكانات ضخمة مكنتها من أن تكون دولة لها سطوتها على كل من جاورها من دول . ولكن على الرغم من كل هذا الدور الفعال الا أن مؤلفة هذا الكتاب لم تعن بهذا الدور ، وهذا مما دفعني ان ألقى الضوء على الدور المصري لما له من أهمية ، ولا نعلم السبب وراء اغفال المؤلفة لهذا الدور ، ولا نعرف على وجه التحديد أكان هذا الاغفال عن عمد أم كان ذلك عن جهل ، ولكنني أقول أن هذا الاغفال كان مقصودا ، لأنه من المعروف لنا جيدا أن الأوروبيين يميلون دائما الآن يكونوا هم الأعلون على من سواهم من البشر ، لذلك فهم لا يرغبون في إظهار دور مصر الحضارى في افريقيا ، ويتضح ذلك جليا في التاريخ الحديث ، حيث يعمدوا الى اغفال هذا الدور لشيء في أنفسهم وهو عقدة التفوق على من سواهم من الأجناس الأخرى من سكان العالم .

(11) Victor Ellenberger : La fin tragique des Buchmen. Paris, 1953. p. 20.

الفصل الثانى

التجار والمبشرون

بدأت السفن الاوربية رحلاتها الكشفية الى السواحل الأفريقية فى خلال القرن الخامس عشر ، وذلك للبحث عن طرق جديدة للتجارة ، لأن التجارة التى كانت تتم بين أوروبا والعالم العربى كانت قد تأسست من قبل ، فى منطقة شرق البحر المتوسط . وكان من أهم السلع التى تحتاجها أوروبا فى ذلك الوقت ، التوابل والحريير والمقطن طويل الثيلة وكانت هذه السلع ترد من الهند عبر الطريق البرى الى موانى البحر المتوسط الجنوبية ، ومن هناك كانت تشحن الى الجهات المقصودة ، أى أنها كانت تتجه بعد ذلك الى دول أوروبا الغربية . وإلى جانب هذا الطريق وجد هناك طريق بديل آخر ، هو طريق البحر الاحمر ، الذى يبدأ من باب المندب فى الجنوب وحتى برزخ السويس فى الشمال ، وفى السويس كان يتم تفريغ البضائع التى تنقل بعد ذلك الى موانى البحر المتوسط الجنوبية لتشحن مرة أخرى الى أوروبا . وتعتبر هذه العملية التجارية باهظة التكاليف بسبب سياسة الاحتكارات التى أتبعها حكام مصر فى تعاملهم فى تجارة الشرق ، فكان هؤلاء الحكام قد فرضوا الضرائب على السلع التجارية التى تمر من الأراضى المصرية قبل وصولها الى الأسواق الأوروبية . « ومما لا شك فيه أن الأوروبيين استاءوا من هذا النظام المتبع فى تجارة الشرق ، وفكروا بطريقة جدية فى الاستيلاء على هذه التجارة » .

ويعتبر البرتغاليون ، أول الأوروبيين الذين وصلوا الى هذا المسرح ، لأنهم كانوا يعيشون فى قلق بسبب رغبتهم فى تنشيط حركة التجارة البحرية ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى كان البرتغاليون يرغبون فى كسر الاحتكارات المصرية ، حتى يتمكنوا من نقل البضائع فى سفنهم الخاصة بدلا (م ٣ - المستكشفون)

من نقلها في سفن تجار فينيسيا (البندقية) الذين كانوا حلفاء للمصريين أي أنه لهذا كان على (البرتغاليين) القيام بنقل وتوزيع السلع التجارية التي يحضرونها الى أوربا والتي تمر عبر البحر الأحمر . لهذا لم يفكر البرتغاليون بجدية في أهمية التجارة مع أفريقيا بل اكتفوا بالاستقرار في نقط على ساحل أفريقيا الغربى ، حيث كانوا يشترون من القبائل الساحلية كميات صغيرة من السلع التجارية التي تمثلت في المعاج وخام الذهب والفلل الأسود ، وأعتقد البرتغاليون بعد ذلك في أنه من المحتمل أن يكون في امكانهم الأبحار حول أفريقيا الى الهند كي يؤسسوا هناك وبطريقة مباشرة تجارة معها ، « أو بالأحرى الاستيلاء على تجارة الهند ، وأن صح التعبير احتكار تجارة جنوب شرقى آسيا » .

وكان اكتشاف البرتغاليين لسواحل غرب أفريقيا يمثل الخطوة الأولى التى قاموا بها من أجل البحث عن طريق بحرى جديد . ويرجع الفضل في هذا العمل الى حث وتشجيع الأمير هنرى بن ملك البرتغال الذى كان يعرف بهنرى الملاح ، ومع أن الأمير هنرى لم يبحر مع البعثة ، الا أنه كان شغوفاً بالقيام برحلات أكثر ، وفي نفس الوقت كان يمكنه أن يقوم بتوسيع امبراطورية وتجارة البرتغال . وقد بدأ تدريجياً في تطوير بناء السفن وعلم الجغرافيا ، ولكن على الرغم من إرسال البعثات الكشفية الأولى فإن المعلومات عن الشاطئ الغربى لأفريقيا لم تتعد رأس البوجادور Bogador الواقعة في منطقة ريودى أورو Rio de oro ، ولكن في عام ١٤٤٥ م ، وصلت سفن هنرى الى رأس الفيرد Cape Verde ونهر السنغال . وفي عام ١٤٦٢ م ، أى بعد وفاة هنرى الملاح بسنتين وصل البرتغاليون الى خليج غينيا .

وقد استمرت البعثات الكشفية البرتغالية على طول ساحل أفريقيا الغربية ، فأكتشف ديجوكام Diego Cam عام ١٤٨٤ م مصب نهر الكونغو ، وقد تمكن في تلك الأثناء من كشف أكثر من ١٤٠٠ ميل من هذا الساحل . وفي عام ١٤٨٧ م ، قام من بعد ماثولوميو دياز Bartholomew Diaz

على رأس بعثة كشفية بدأت مهمتها من البرتغال وذلك لمواصلة الكشف
الفعلى لساحل افريقيا الغربية ، ابتداء من النقطة التى توقف عندها
ديجوكام وهى مصب نهر الكنفو ، بحيث يواصل سيره صوب الجنوب ،
كى يقوم بعملية مسح شاملة للساحل الأفريقى ، وقد تمكن من الوصول الى
خليج وولفس ، الواقع فى جنوب غرب أفريقيا ، بعد ذلك واصل المسير حتى
وصل الى رأس الرجاء الصالح The Cape of Good Hope ودار من
حواله ، وتتبع الساحل الأفريقى فى اتجاه الشرق ، حتى وصل الى نهر
المسك الكبير The Great fish River ، وبعد ذلك عاد الى برشلونه التى
وصلها عام ١٤٨٨ م مضيفا بذلك مسافة جديدة تم كشفها والتى بلغ
طولها ١٣٦٠ ميلا أضيفت الى المسافة التى اكتشفها ديجوكام .

وقد كلف هنرى الملاح المغامر فاسكو دى جاما Vasco de Gama
بمهمة اكتشاف طريق بحرى الى الهند ، وفى الوقت نفسه أبحر كرسنوفر
كولمبس من أسبانيا متجها الى الهند فأندفع بحماسة صوب الغرب عبر
بحر مفتوح اعتقادا منه أنه يسير فى الطريق الصحيح ، ولكنه بدلا من أن
يصل الى الهند وصل الى جزر الهند الغربية فى قارة امريكا (الواقعة فى
المحيط الأطلسى) ، وفى تلك الأثناء كان فاسكو دى جاما قد أبحر بهمة
ونشاط من جزر رأس الفيرد متجها صوب الجنوب ، وبعد بدء الرحلة بثلاثة
شهور ، وصلت بعثته الى منحنى واسو . وقد شاهدت البعثة فى الجنوب
شواطئ خليج القديسة هيلانة المستقيم . ومن هذه المنطقة دار فاسكو
دى جاما حول هذه الرأس ، وواصل ابحاره شمالا حتى وصل الى ساحل ناتال
وموزمبيق ، ومن الأخيرة وصل الى مالندى فى كينيا ، وهناك تمكن من الحصول
على بحار عربى استخدمه كدليل ، ومرة ثانية وبحماسة عبر بحر مفتوح .
وفى ١٦ مايو عام ١٤٩٨ م ، لقت السفينة بمراسيها عند كاليكوط Calicut
أو كوز هيسكود Kozhiskode الواقعة على ساحل كيرالا Kerala
فى الجنوب الغربى من الهند .

وبنجاح رحلة داجاما حقق البرتغاليون هدفهم فى كشف طريق

جديد الى الهند والشرق ، وبهذا العمل تمكنوا من اقامة عدد من المراكز التجارية على طول الساحل الغربى لأفريقيا • وفى السنوات التى تلت ذلك قاموا بتأسيس مراكز تجارية أخرى ، ولكن رغم ذلك تناقصت قوة البرتغال ، مما دفع الدول الأوروبية الأخرى أن تأمل فى الاستيلاء على مكانة البرتغال التجارية فى غرب افريقيا ، وبالفعل قام بحارة من كل من إنجلترا وهولندا وفرنسا بزيارة ساحل غرب افريقيا لتأسيس تجارة لهم مع القبائل التى كانت تسكن الساحل ، وقبل مضى وقت طويل أخذت التجارة الصغيرة فى الاضمحلال وحلت محلها تجارة أكثر ربحا الا وهى تجارة الرقيق •

وعندما أسست الدول الغربية المستعمرات فى العالم الجديد جلبت اليها العبيد للعمل فيها • وكان الأمداد بالرقيق مستمر والسبب فى ذلك يرجع الى رؤساء القبائل الأفريقية ، الذين كانوا فى صراع مستمر بسبب تجارة الرقيق ، فكان هؤلاء الرؤساء يرسلون مساجينهم الى الساحل لبيعهم الى الرحالة (المكتشفين الأوروبيين) ، وفى نفس الوقت لم يكن للتجار الأوروبيين الرغبة فى تأسيس مستعمرات على ساحل غرب افريقيا ، ويرجع ذلك الى أن المناخ فى هذه المنطقة غير صحى ، فضلا عن أن داخل القارة (الافريقية) ، كان غير معروف بالنسبة لهم ، لذلك نجدهم يشيدوا سلسلة من المراكز التجارية الحصينة لكى يجمعوا فيها الرقيق ، قبل إرساله عبر الأطلنطى الى العالم الجديد ، وقد زاد حجم هذه التجارة قبل ذلك بوقت طويل ، وكان قد تم الكشف عن حدود سواحل غرب افريقيا ، فبهذا تحققت المعرفة عن داخل القارة الإفريقية •

وفى هذا المجال تمكن البريطانيون والفرنسيون من كشف المنطقة الممتدة من غينيا الى السنغال ، بل وواصلوا كشفهم بعد ذلك حتى وصلوا الى مجموعة الأنهار التى تعرف بأنهار الزيت ، والتى تصب مياهها فى ساحل غينيا • وكانت هذه المنطقة معروفة للأوروبيين كسوق للرقيق ولزيت النخيل •

ولكن بعد ذلك زاد نشاط الترتغاليين في منطقة الكنفو ، وفي المنطقة الواقعة الى الجنوب منها بحيث بدأوا يوطدون نفوذهم في أنجولا ، فأقاموا المراكز التجارية على طول الساحل الشرقى ، بل وتوغلوا الى داخل القارة حيث أصبحت مملكة الحبشة هدفا لنشاطهم التبشيري * وكان من بين أفراد الجزويت المبشرين رحالة مشهورين ، بل وبارزين ، من أمثال القس بدروبيز Pedro Paez وجيروم لوبو Jerome Lobo فكان بدروبيز هذا شخصية بارزة وكان المسلمون في الجزيرة العربية قد أودعوه السجن لبضعة سنوات ، ولكنه في عام ١٦٠٣ تمكن من الوصول الى الحبشة ، لأنه كان تواقا الى نشر العقيدة المسيحية ، وبعد أن وصل الى الداخل حققت بعثته نجاحا هائلا تمثل في إعتناق امبراطور الحبشة وحاشيته للعقيدة المسيحية * وفي عام ١٦١٣ رافق الاب بيز: امبراطور الحبشة وجيشه في مناورات عسكرية Military Manoeuvres ، وقد قادتهم هذه المناورات الى مشاهدة بعض ينابيع المياه في جنوب بحيرة تانا ، تلك البحيرة التي عرفها المصريون القدماء * وقد فهم بيز على الفور أهمية هذه الينابيع ، وقال ما نصه « لقد صعدت الى هذا المكان ، ولاحظت كل شيء بأنتباه كبير ، فبينما كنت أنظر من حولي ... اكتشفت ينبوعين مستديرين من المحتمل أن يكون قطرا أحدهما قديمين * وقد ملأنى هذا المنظر سرورا ، فعجزت عن التعبير ، وعندئذ قدرت حماس القدماء من قبلى ، هذا الحماس الذى ضاع سدى ، وكنت قد لاحظت هذين الينبوعين ، ولكن لم يكن لهما مخرج الى السهل الواقع على قمة الجبل » وبعبارة

«The fountains have no issue in the plain on the top of the Mountain»

وكانت مياهها تتدفق الى أسفل الجبل ، وكان الينبوع الثانى يوجد الى الغرب من الينبوع الأول ، كما كان يقع في منطقة صخرية * لهذا واصل الأب بيز اهتمامه بهذين الينبوعين ، وكتب تقريرا مفصلا عن القطر الذى يحيط بهما *

وفي الواقع فوجئ بدرو بيز بمنبع النيل الأزرق الذى يتحد مع المجرى الرئيسى عند الخرطوم ، والذي يسبب فيضان النيل ، وكان المبشر

الآخر التابع لميز يدعى الأب لوبو Father Lobo الذى فشل فى محاولته ايجاد طريقا مباشرا الى الحبشة من مالندى الواقعة على الساحل الشرقى للقارة الأفريقية ، لهذا اضطر الى دخول القطر (الحبشة) من ساحل البحر الاحمر ، وتجول فى أماكن كثيرة من هذه البلاد • وتختلف الآراء حول امكانية رؤية الأب لوبو لمنبع النيل الأزرق من عدمه ، فكان قد ادعى أنه زار شلالاته الكبيرة المعروفة باسم شلالات تسيسات Tisisat falls التى كانت مثار جدل لسنوات طويلة وكانت مساقط مياه الشلالات تحدث صوتا كصوت الرعد ، لأنها كانت تتحدر من قمة مرتفعة الى أسفل بحيث تسير فى ممر ضيق ومع ذلك فان القس لوبو ادعى أنه تمكن من الوصول الى المنحدر الصخرى (الجرف) وذكر أنه توجد هناك ستارة من المياه المتدفقة التى تنهمر على الحافة الصخرية فى حوض النهر • وقال لوبو أنه شاهد من هذه النقطة ألف قوس من أقواس قزح Rainbows ، والتى كانت قد تكونت بسبب أشعة الشمس الساطعة والتى تسقط على الشلال •

وقد عرف كل من بيز ولوبو والمبشرين البرتغاليين الآخرين الكثير عن مداخل الحبشة ، ولكن قبل مضى وقت طويل طرد المبشرون من القطر (الحبشة) • وفى عام ١٦٩٩ ، أى بعد مائة عام (على بعثة بيز) وصل الى الحبشة فريق من المبشرين ، وكان بصحبة هذا الفريق طبيب فرنسى يدعى نشارلى بونسية Jacques Charles Poncet الذى عين سفيرا لدى امبراطور الحبشة من قبل ملك فرنسا لويس الرابع عشر ، وكان بونسية هذا قد بدأ الرحلة من القاهرة ، ثم وصل الى السودان ، ثم من خلال سنار الواقعة على النيل الأزرق • وكانت سنار هذه عاصمة لامبراطورية الفونج العظيمة ، التى كانت تضم معظم اقليم السودان الحديث ، وكانت أصول الشعب الفونجى غير معروفة ، مع أنهم كانوا قد تزاوجوا مع العرب واعتنقوا العقيدة الاسلامية •

ويقال أن الفونجيين كانوا يحصلون على ثرواتهم من مناجم الذهب الواقعة على حدود الحبشة ، وكان تجار سنار الأثرياء يمارسون التجارة

مع التجار الهنود عن طريق ميناء على البحر الأحمر • وقد وصف بونسيه رحلته ، كما وصف أيضا مدينة سنار وشعبها • وقد كتب بونسيه يقول أن النساء في سنار كن عبارة عن أشخاص غريبة الشكل للغاية ، فكن يلبسن ملابس حريرية زاهية ، وكن يتزين أيضا بالخلخال والحلقات الفضية • وكانت وجوههن ملطخة بالكحل • وكان ملك سنار يملك قصورا كثيرة ، فكان يخرج في كل أسبوع في موكب لزيارة أحد هذه القصور المنتشرة في مملكته • وكان سوق سنار يعج بالهضائع التجارية وبالعييد والجمال والمفاكهة وبالعديد من السلع الأخرى •

وفي عام ١٧٠١ جاء مبشر آخر من بفاريا يدعى ثيودور كرنب Theodore Krump وسلك نفس الطريق الذي سلكه بونسيه • فقد مر ثيودور من خلال مصر (فالسودان ثم سنار) وقد قام بوصف سنار • وفي تلك الأثناء ، عبر النهر وسافر الى غندار عاصمة الحبشة الواقعة الى الشمال من بحيرة تانا • وفي غندار استدعى امبراطور الحبشة بونسيه كي يقوم بمعالجته من مرض أصابه • وبعد ذلك عاد بونسيه الى أوروبا عن طريق ميناء مصوع الحبشى الواقع على البحر الاحمر •

ولقد أعقب رحيل بونسيه فترة من الركود الكشفى الطويل ، على الرغم من أن المبشرين كانوا يجدون من الوسائل ما يمكنهم من الوصول الى الحبشة ، ومع ذلك فلم يرغبوا في الاستقرار هناك حتى أن هؤلاء الذين بقوا على قيد الحياة انصرفوا عن هذه المهمة • وعلى هذا فقد مر سبعون عاما قبل أن يرى أوربى آخر منبع النيل الأزرق ، لهذا فقد ظل الغموض يخيم على المنبع الرئيسى للنيل دون حل ، رغم ارسال البعثات الكشفية الى وادى النيل • وفي عام ١٧٣٧ ، سافر من القاهرة بصفة فردية كل من الدنمركى فردريك نوردن Frederick Norden والانجليزى ريتشارد بوكوك Richard Pococke وقد نجحا في تتبع طريق مجرى النيل ، ووصلا الى فيلة الواقعة جنوب أسوان • وهناك ، قام نوردون بعمل رسومات للنقوش الخاصة بالآثار الموجودة في منطقة فيلة • وقد تبعهما

الى وادى النيل رحالة آخرون ، ولكنهم لم يقدموا من المعلومات ما يستحق الذكر •

وفي الجزء الجنوبي من القارة كانت المستوطنات البرتغالية التي انشئت مع بداية الاستعمار البرتغالي قد اختفت بسبب اضمحلال قوة البرتغاليين في القرن السادس عشر ، وفي خلال القرن السابع عشر بدأت السفن البريطانية والهولندية في استخدام ميناء رأس الرجاء الصالح واتخذوها كمحطة To use the harbour the Cape of Good Hope تقع في منتصف طريق الرحلة الى الهند الشرقية • وفي عام ١٦٥٢ م احتل الهولنديون منطقة موقع كيب تون ، وأسسوا فيها مستعمرة ذات أهمية • وفي السنوات الأولى من القرن الثامن عشر ، أرسل الهولنديون عددا من البعثات الى نثال وخليج دي لاجوا Delagoa Bay الواقع على الساحل الجنوبي الشرقى ، وذلك للبحث عن مناطق جديدة صالحة للاستيطان ، وبدأوا بالتدريج في كشف المناطق الداخلية الواقعة في اتجاه نهر الأورانج •

التعليق على الفصل (٦)

يرجع السبب وراء تعليقي على هذا الفصل الى أن مؤلفة هذا الكتاب أشارت الى بعض النقاط الهامة التي من أهمها طرق التجارة التي تربط بين الشرق والغرب والتي لم تنفها حقها ، بل أنها أغفلت دراسة بعض الموضوعات التي من أهمها الكشوفات الجغرافية الأسبانية ، لذلك كان من المحتم على توضيح هاتين النقطتين ، السابقتين ،

فبعد أنهيار القوى الصليبية في شرق البحر المتوسط فقد الأوروبيون الاتصال التجاري المباشر بأقليم وسط آسيا ، وعلى أثر ذلك ، حاولوا تدعيم الطريق البري الذي يربط بين أوروبا وفارس والهند • وكان هذا الطريق يمر من خلال أقاليم الدولة البيزنطية وبذلك تحاشى الأوروبيون المرور من خلال الأراضي العربية والمملوكية • وكان من أكثر البلاد الأوربية اهتماما بتجارة الشرق البنادقة والجنوبيين الذين فضلوا الطريق البحري الى شرق البحر المتوسط • وعندما اشتدت هجمات القرصنة حول هؤلاء التجار الأوروبيون طريقهم الى الطريق البري الذي يبدأ من ساحل دلمشيا مارا بالقسطنطينية وآسيا الصغرى ، ثم يمر بعد ذلك بآسيا • وكان الأوروبيون في تلك الأثناء يعقدون معاهدات مع ملوك البلاد التي يمرون من خلالها بحيث تخول لهم هذه المعاهدات حرية المرور والتجارة ، ولكن بعد سقوط القسطنطينية عام ١٢٥٣ ، فقد هؤلاء التجار الأوروبيون هذا الطريق واضطروا ازاء ذلك الى العودة الى الطريق البحري القديم الذي ينتهي عند موانئ الشام ومصر ، حيث كانت توجد مراكز تجمع السلع الشرقية الواردة من الصين والهند • وكان هؤلاء التجار الأوروبيون يعقدون معاهدات تجارية مع حكام مصر والشام ، وقد ظلت هذه المعاهدات سارية المفعول حتى الفتح العثماني لبلاد الشام ومصر في الفترة ما بين ١٥١٦ ، ١٥١٧ م •

وكان من هذه الطرق البحرية طريق الصين — الهند — الخليج

الفارسي ، ومن نهاية الخليج الفارسي تبدأ فروع هذه الطرق النهرية والبرية ، فبدأ الطريق البحري من البصرة الى بغداد ومنها يتفرع الى فرعين يتجه الأول شمالا حتى ديار بكر ، ويتجه الثاني غربا الى دمشق ، ومن الأخيرة يخرج منها فروع الى موانئ ساحل البحر الأبيض المتوسط ، ومن دمشق يخرج فرع آخر في اتجاه الجنوب مارا بحذاء الساحل الى غزة ، ومنها يمر من خلال الصحراء الى القاهرة ، ومن دمشق أيضا يخرج فرع آخر يتجه شمالا الى حلب ومنها الى آسيا الصغرى ليلتقي بالطرق القادمة من وسط آسيا ثم يتحد معها الى القسطنطينية ، ثم يمر بعد ذلك الى أوروبا . وقد توقف المسير في هذا الطريق أثناء غزو المغول لآسيا في القرن ١٣ ، ولكن عاد استخدامه من جانب التجار بعد أن سيطر العثمانيون على آسيا الصغرى ، وقاموا بتأمين الطرق التجارية المارة بها ، بل وأصبح هذا الطريق يمثل الطريق الاحتياطي للتجارة الشرقية كلما تعطلت الطرق الأخرى أو أصابها كوارث القراصنة وقطاع الطرق . ويخدم هذا الطريق في جزئه الرئيسي موانئ ومدن هرمز وسيراف وقيس والبصرة والأيلة (تقع عند مصب دجلة والفرات) .

وأما الطريق الثاني فهو الطريق البري الذي يمر من وسط آسيا فالهند فنهر الأثيل وهناك يلتقي مع طريق القوافل القادم من الصين ، ثم يسير حتى يصل الى بخارى ، وهناك يتفرع الى فرعين يتجه أحدهما الى بحر قزوين فنهر الفلجا قبلاذ البلغار ، ويتجه الثاني الى البحر الأسود ، ومن منطقة البحر الأسود يخرج منه فروع جانبية الى حلب وساحل البحر المتوسط ، وبغداد وديار بكر ، ويتفرع منه أيضا طريق ثالث غير مطروق يمر من أرمينيا فآسيا الصغرى فالقسطنطينية .

وفي خلال القرن الخامس عشر توقفت حركة التجارة في هذا الطريق أكثر من مرة في مدنه وموانئه بسبب اشتداد الصراع بين العثمانيين والتركمان والأوربيين ثم بسبب الصراع بين الصفويين والمماليك كما

تأثرت فروع الأخرى بهذه العمليات الحربية التي أشتدت بعد سقوط القسطنطينية عام ١٤٥٣ م .

وأما الطريق الثالث فهو يبدأ من الصين وحتى الهند ، ومن الهند يخرج منه فرعان يتجه أحدهما الى الخليج الفارسي ويتجه الثانى الى البحر الأحمر ، ويخدم التجارة على هذا الطريق عدد من الموانى فى الصين والهند ، كان من أبرزها خانقو (كانتون) وزيتون وكينساي فى الصين ، وجوجيرات وكمباى وديوفقليقوت وجوا وكولون ، وشول و كانانور وسورات فى الهند ، هذا فضلا عن وجود عدد قليل من المحطات التى تقع على ساحل كروماندل الشرقى وفى جزيرة سيلان . وقد سيطر على نهايتى هذا الطريق دولتان عظيمتان ، هما الصين التى تقع فى النهاية الشمالية لهذا الطريق ودولة الممالك فى مصر والشام والتى تقع فى نهايته الغربية .

وأما الطريق البحرى الرابع ، فيبدأ من الشرق الأقصى وحتى البحر الأحمر ، وعند النهاية الشمالية للبحر الأحمر يتفرع هذا الطريق الى فرعين يتجه أحدهما عبر سيناء الى دمشق ومنها يصل الى موانى البحر الأبيض الشرقية ، ويتجه الطريق الآخر عبر الصحراء الى النيل فالقاهرة أو الى الاسكندرية ومنها الى أوروبا . ومع ذلك فأن هذا الطريق تعترضه صعوبتان ، أولهما المساحة البحرية الشاسعة التى تبدأ من الصين وحتى الهند بما فى ذلك البحر الأحمر ، وما فيها من تيارات بحرية وهوائية متعارضة معظم السنة ، وثانيهما كثرة الشعاب المرجانية التى تعترض الملاحة فى البحر الأحمر ، وقد ذلت الصعوبة الأولى بعد وصول السفن العربية الى المحيط الهندى فى وقت تقدمت فيه المعلومات الجغرافية ، فقد لائم البحارة أوقاتهم فى مواعيد هبوب الرياح الموسمية . وقد تم التغلب على الصعوبة الثانية بالإبحار الى مسافات بعيدة عن أماكن تلك الشعاب المرجانية . ومنذ النصف الثانى من القرن الثالث عشر ، أصبح طريق البحر الأحمر أكثر الطرق التجارية أهمية بين الشرق والغرب وسبب ذلك

يرجع الى الغزوات التى انتابت آسيا ، فهو بعيد عن ميادين الحرب التى نشبت بين المماليك والمغول ، كما كان بعيدا عن ميادين القتال بين العثمانيين والأوربيين والتركمان وامارات آسيا الصغرى ، والصفويين ، والمماليك فى مطلع القرن السادس عشر . فكانت هذه الاضطرابات السياسية والعسكرية سببا فى قطع الصلات التجارية وسد الطرق البرية القديمة بين الشرق والغرب . لهذا اضطر التجار الى اللجوء الى طريق البحر الأحمر الذى يمر من أملاك السلطنة المملوكية ، فكان أكثر الطرق أمنا ، وأن كانت مرحلة السير فيه تكلف كثيرا من الجهد والمال والحراسة . لذلك عمل المماليك على ضبط الطرق التجارية وحماية التجارة والتجار من عبث قطاع الطرق .

وقد أثرى عمال سلاطين المماليك من التجارة على هذا الطريق ، فقد عملوا أولا وسطاء بين تجار الشرق والغرب ، ثم تاجروا بأنفسهم واحتكروا هذه التجارة ، بعد أن انتزعوها من التجار (الكارمية) ، بل وغالوا فى إحتكارهم لها ، وبخاصة فى السلع النادرة فأدى ذلك الى مضاعفة أسعارها فى أوروبا الى أربعة أو خمسة أضعاف أسعارها فى الهند . أضيف الى ذلك أن المماليك فرضوا رسوما جمركية باهظة على كل سلعة تجارية تمر من البحر الأحمر الى مصر ودول أوروبا ، فالبضائع التى كان ثمنها ٢٠٠٠٠ جنيه كان يدفع عنها جمارك تقدر بنحو ٤٠٠٠ جنيه ، وفى ميناء بولاق النهري كانت البضائع التى تساوى ٣٠٠٠٠ جنيه ، كان يدفع عنها رسوما قدرها ٥٠٠٠ جنيه ، هذا بخلاف الهدايا التى كانت تقدم لرجال السلطان وعمال الميناء لتسهيل حركة الشحن وحماية البضائع .

ونتيجة لهذا فقد أصبحت بلاد السلطان المملوكى مقصد تجار البندقية وجنوه وفلورنسا ، وقطالونيا ، وفرنسا ، وأصبح لهم وكالات وغنادق ومعاملات وحسابات جارية ومصرفية ، مع السلطان والأهالى . وكان من أهم المدن التى خدمت التجارة على هذا الطريق القاهرة والأسكندرية ، وعلى البحر الأحمر القلزم والسويس والطور وجده وعدن ، وفى الشام دمشق وبغروت وحلب .

وحتى نهاية العصور الوسطى كان التنافس شديدا بين القاهرة والألكندرية ، في بيع وتوزيع سلع الشرق و سلع الغرب ، ولكن ظلت القاهرة نقطة تجميع السلع ، فكانت مركزا لتوزيع تجارة الشرق الى غرب أوروبا ومركزا لتوزيع تجارة الغرب الى الشرق ويرجع ذلك الى موقعها المتوسط ، كما كانت أقصى نقطة يصل اليها التجار الأجانب الوافدين الى مصر ، وكان بالقاهرة أحياء معينة مخصصة لتجارة التوابل والعطور والسلع الشرقية والعربية وكان يوجد للتجار مخازن وقياسر ووكالات وفنادق واماكن خاصة لدوابهم ولا سيما الوافدين من الشام وبلاد العرب والسودان ، وأحيانا من فارس (١) .

وكان من نتيجة هذا أن أصبح السلاطين المماليك في دولتي المماليك البحرية والبرجية في سعة عظيمة من المال ، وخير دليل على ذلك مبانيهم المشاهقة وآثارهم النفيسة ، فلم تكن موارد ثروتهم قاصرة فقط على الزراعة التي كانت أساس ثروة مصر ، بل أن الكثير من هذه الثروة كان يجمع من الضرائب المفروضة على التجارة الهندية ، عند مرورها من مصر الى أوروبا وبخاصة قبل أن تهتدى أوروبا الى كشف طريق رأس الرجاء الصالح الذي يربط أوروبا بالهند (٢) .

ويمكن القول أن لكل هذه الاسباب والمبالغات في فرض الضرائب على تجارة الشرق المرسله الى الغرب أثره في تفكير أوروبا في ضرورة السيطرة على تجارة الشرق . وقد كان على رأس دول أوروبا دولتان هما دولة البرتغال وأسبانيا ، وعلى الرغم من اتفاقهما على الفكرة الا أنهما اختلفتا في طريقة

(١) د . نعيم زكي غهمي : طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب
أواخر العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٧٣ ،
ص ص ١١٧ ، ١١٨ ، ١٥٤ ، ١٦٦ ، ١٢٥ ،
١٢٨ .

(٢) عمر الاسكندري ، وسليم حسن ، مراجعة ا . ج . سفدج تاريخ مصر من
الفتح العثماني الى قبل الوقت الحاضر .
القاهرة ، ١٩٢١ . ص ٧٢ .

التنفيذ ، ففي الوقت الذي وجهت فيه البرتغال جهودها نحو الجنوب ، كانت أسبانيا توجه جهودها صوب الغرب لكي تصل الى الهند .

وبعد ذلك أتحدث عن حركة الكشف الجغرافية البرتغالية والتي يرجع الفضل فيها الى الامير هنري الملاح الذي عاش في الفترة ما بين ١٣٩٤ ، ١٤٦٠ أى عاش ٦٧ عاما ، فهو ثالث أبناء الملك البرتغالي جون الأول * وقد أبلى بلاء حسنا في حروبه ضد المسلمين في مراكش وانتزع منهم سبتة Cebta عام ١٤١٥ م ، الواقعة على الشاطئ الشمالي لأفريقيا ، فعينه أبوه حاكما عليها ، وجاش في صدره طرد المسلمين من مراكش ، ولكنه أخفق في احتلال طنجة عام ١٤٣٦ (٣) عندئذ حول جهوده لاحتلال الشواطئ المراكشية الواقعة على المحيط الأطلسي وأخضاع أفريقيا الشمالية الغربية ابتداء من نهر السنغال ، وتم الاستيلاء بالفعل على غانا الغنية بالذهب ، وقام بنشر المسيحية هناك ، وقد أسس أكاديمية بحرية ومرصد في ساجرس Sagres الواقعة على الطرف الجنوبي للبرتغال ، وزوده بمجموعة ضخمة من المراجع والخرائط ، واستضاف صفوة من العلماء والجغرافيين الإيطاليين * وقد بدأت الكشف في عهده عام ١٤١٩ (٤) .

ويقول فيج في هذا الصدد أن الهدف من وراء جهود هنري الملاح هو الوصول الى مملكة الحبشة المسيحية ، حتى يكون له حليفا قويا في الجنوب ، وذلك عن طريق عبور القارة من الغرب الى الشرق ، ولكنه لم ينجح في ذلك ربما لوعورة الطريق وعدم مقدرة الجنود البرتغاليين على اتمام هذا الهدف . ونتيجة لذلك اضطر الى ارسال حملات كشفية على طول الساحل الغربي لأفريقيا ، وقد تمكنت هذه الحملات من الدوران من حول جنوب أفريقيا والسير بحذاء الساحل الشرقي ، ثم عبرت بعد ذلك

(٣) د . زينب عصمت راشد : المختصر في تاريخ أوربا الحديثة ، القاهرة ، ١٩٧٥ ، ص ٤٢ .

(٤) د . محمد شكرى ، د . محمد أحمد أنيس : أوربا في العصور الحديثة ، القاهرة ، ١٩٥٧ ، ص ٣٧ .

المحيط الهندي الى شبه الجزيرة الهندية مركز تجارة الشرق ، « ولا مجال هنا للاستطراد وسوف أكتفى بما جاء في هذا الكتاب في هذا الصدد » .

وبعد ذلك ننتقل الى الدور الأسباني لما له من أهمية ، لأنه لا يمكن اغفال هذا الدور لأن هدف اسبانيا كان الوصول أيضا الى الهند والسيطرة على تجارة الشرق شأنها في ذلك شأن البرتغال ، ولم يكن هدفها في حقيقة الأمر الوصول الى العالم الجديد ، فكتشف العالم الجديد تم بالمصادفة .

ودليلا على ذلك أنه في ٣ أغسطس عام ١٤٩٢ خرج كريستوفر كولمبس على رأس حملة كشفية من ميناء بالوس Palos في أسبانيا وكانت هذه الحملة الصغيرة مكونة من ثلاث سفن + وفي ٣ سبتمبر وصلت هذه الحملة الى جزر الكناريا ، ومنها استأنف كولمبس الرحلة في عرض المحيط الأطلسي ، واستمرت مدة الرحلة ٣٣ يوما وبعدها وصلت السفن الى جزيرة أطلق عليها كولمبس اسم سان سلفادور San - Salvador وهي من ضمن مجموعة جزر لوكس Lucayes الواقعة عند مدخل مضيق فلوريدا . ومنها اتجه جنوبا فوصل الى الجزيرة التي أطلق عليها اسم كوبا Cuba وأشار سكان هذه الجزيرة الى جزيرة تقع الى الشرق من كوبا ويعتقد أنه يوجد بها الذهب ، وقد وصل كولمبس في ٦ من شهر ديسمبر من نفس العام الى جزيرة هايتي Haiti وأسمها كولمبس هسبنيولا Hispaniola وكان سكانها يملكون مقادير كبيرة من الذهب .

وفي عام ١٤٩٣ م عاد كولمبس الى اسبانيا فوصلها في ١٥ مارس من نفس العام بعد أن كان قد زار ملك البرتغال ، وقد استغرقت هذه الرحلة سبعة أشهر وأحد عشر يوما ، وبعد وصوله الى بالوس غادرها متوجها الى برشلونة حيث كان في استقباله الملك والملكة اللذين رفعاه الى مصاف النبلاء .

وفي ٢٥ سبتمبر، عام ١٤٩٣ قام برحلة الى جزر الهند العربية أكتشف خلالها جزيرة دومينيكا Dominica وماري جالانت Mari Galante وجواديلوب Guadeloupe وبورتوريكو Porto Rico وجاميكا

Gamaica • وفي ٣٠ مايو سنة ١٤٩٨ قام برحلة أخرى اكتشف خلالها جزيرة ترينداد وكان ذلك في أول أغسطس من نفس العام ، الواقعة عند مصب نهر الأورينكو ثم سار بمحاذاة الساحل الشمالى لأمريكا الجنوبية •

وفي عام ١٥٠٢ قام على رأس بعثة أخرى سار خلالها بمحاذاة سواحل أمريكا الوسطى مبتدئاً رحلته من ساحل هندوراس الواقعة عند رأس جراسياس ديوس Gracias Dios ووصل الى بورتوبيلو Porto Bello أى وصل الى مضيق بنما • وعقب عودته بفترة قصيرة مات فى أسبانيا عام ١٥٠٦ ودفن فى أثبيلية فقد مات كولبس وهو يعتقد أنه وصل الى آسيا وأن الجزر التى اكتشفها هى جزر الهند الشرقية •

ومن بعده قام البحارة الشهير ماجلان على رأس حملة كشفية فى شهر أغسطس عام ١٥١٩ ، أى فى عهد ملك أسبانيا شارل الأول الذى تولى العرش عام ١٥١٦ م والذى توج امبراطورا بأسم شارل الخامس عام ١٥١٩ م • وقد أبحرت حملته من ميناء سان لوكار San Lucar وسارت عبر المحيط الأطلسى ، ووصلت الى ريودى جانيرو فى البرازيل واكتشف ماجلان ممر مائيا طبيعيا يفصل بين أمريكا الجنوبية وجبال ثلجية تقع الى الجنوب منها وقد أطلق ماجلان على هذا الممر ممر ماجلان • وفى ٢٠ من شهر نوفمبر دخلت الحملة المحيط الهادى وسماه ماجلان بهذا الاسم لأن مياهه كانت هادئة عن المحيط الأطلسى واتجهت الحملة بعد ذلك شمالا فمرت بجزر مريانا ومنها وصلت الى جزر الهند الشرقية وسماها ماجلان الفلبين تكريما لولى عهد أسبانيا فيليب بن شارل الخامس الذى سيتولى عرش أسبانيا بأسم فيليب الثانى ، ولقى ماجلان حتفه على أيدي سكان إحدى الجزر الفلبينية عام ١٥٢١ م • وتولى قيادة الحملة من بعده أحد رجاله ويدعى جون سباستيان ديلكانو John Sebastian Delcano وفى عام

١٥٢١ م وصلت الحملة الى جزيرة تيدور Tidor

وفى عام ١٥٢٢ م غادرت الحملة جزيرة التوابل ، فى طريق عودتها

الى أسبانيا فعبرت المحيط الهندي ، وفي ٦ مايو ١٥٢٢ دارت حول رأس الرجاء الصالح ثم دخلت مياه المحيط الاطلسي بعد أن قضت ثلاث سنوات • وكان عدد رجالها منذ بدء الرحلة أكثر من مائتي رجل ، ولكن بعد أن غادرت البعثة الفلبين أصبح عدد أفرادها ثمانية عشرة رجلا ، كما فقدت كل السفن ولم يبق الا واحدة فقط ، وعندما وصلت الى جزر ملوكس Moluccas المعروفة بجزر التوابل والواقعة الى الشمال الغربي من استراليا حصلت هذه السفينة على شحنة من التوابل كي تغطي بها تكاليف الرحلة التي بدأت من أسبانيا وحتى الفلبين •

وكان من أهم النتائج التي حققتها الحملات البرتغالية والأسبانية على حد سواء ، أن هذه الحملات وبخاصة البرتغالية منها قد تمكنت من فرض هيمنتها على تجارة الشرق التي كانت من أهم أهدافها • كما ان هذه الحملات الكشفية وجهت أنظار باقى دول أوروبا الى القارة الأفريقية خاصة ، لما تتميز به هذه القارة من خيرات بشرية واقتصادية ، كما وجهت انظارهم أيضا الى القارة الآسيوية بصفة عامة ، ففي الوقت الذي كانت فيه البرتغال تواصل رحلاتها حول أفريقيا كانت أسبانيا قد أكتشفت العالم الجديد وفتحت بذلك مجالا جديدا للارتياح والاستغلال والاستثمار ، وذلك لما تتميز به أمريكا من خصوبة التربة ووفرة الموارد الإقتصادية ، وقلة الأيدي العاملة عندئذ لجأ الأوروبيون الى استغلال أبناء أفريقيا في زراعة الأرض فنشأت نتيجة لذلك تجارة جديدة بالنسبة لأوروبا وتجارها هي تجارة الرقيق التي حققت نتائج اقتصادية باهرة وحققت نتائج سلبية بالنسبة لقارة افريقيا ، أذن يمكن القول بأن الكشف الجغرافية البرتغالية والأسبانية قد حققتا شيئين متكاملين أولهما يتمثل في اكتشاف البرتغاليين لسواحل افريقيا الغربية ، والتي ساهم أبناؤها في تقدم العالم الجديد اقتصاديا

(١) د . زينب عصمت راشد : المصدر السابق ، ص ص ٥١ — ٥٤ .

(م ٤ — المستكشفون)

ويتمثل ثانيهما في اكتشاف أسبانيا للعالم الجديد الذى ساهم فى فتح مجالات جديدة أمام دول أوروبا •

وفضلا عن هذا كله كانت هذه الحملات البداية الحقيقية لعصر المستعمرات وعصر الامبراطوريات والسيطرة والاستغلال ، الذى أستمروا زهاء خمسة قرون تقريبا • ولم تقتصر النتائج على هذا الحد ، بل كان منها الرواج الأقتصادي الذى ساد دول أوروبا الغربية والتي تمكنت من فتح أسواق جديدة فى البلاد التى سيطرت عليها ، وذلك لتوزيع الفائض من منتجاتها الصناعية فى هذه المستعمرات ، وأدى ذلك بالتالى الى أن عاد هذا بالنفع على أبناء الدول الإستعمارية •

ويضيف الدكتور / محمد أحمد أنيس فى هذا الصدد « أن الكشف الجغرافية البرتغالية والأسبانية قد حققتا لأوروبا زيادة كبيرة فى حجم تجارتها ، فضلا عن ذلك فأن أسبانيا تمكنت من جلب كميات كبيرة من معدن الفضة الى أوروبا ، هذا المعدن الذى تسبب نقصه فى عمل الأوربيين بجدية لكى يصلوا الى مناطق تجارة الشرق حتى يستولوا عليها من أيدي الوسطاء العرب أو المغاربة أو الأتراك • فقد أصبحت الفضة فى عهد غيليب الثانى ذات شأن كبير على مجرى الحياة فى أسبانيا ، بل وسيطرت على تطور الحياة السياسية والدينية والاجتماعية والأقتصادية فى أوروبا ، كما كان لها آثار بعيدة على مستقبل الطبقة المتوسطة ، وسبب ذلك راجع الى كثرة الموارد من الفضة مما جعل النقد المتداول متوفر فتسبب هذا فى رفع الأسعار ، فأرتفعت بالتالى تكاليف الحياة والمعيشة ، وشعرت بالضنك الطبقات الفقيرة وصاروا ينقمون على التجار وأصحاب المهن الذين يؤلفون الطبقة المتوسطة » •

الفصل الثالث

جيمس بروس James Bruce

في الحبشة

في عام ١٧٦٨ م قام رجل اسكتلندي يدعى جيمس بروس برحلة
كشفية الى أفريقيا ، وقد تميز بروس بقوة البنية ، فبلغ طوله ستة أقدام ،
وتتميز بصوته الجش وبشعره الأحمر . وقد أدعت أسرته أنها تنحدر من
سلالة الملك الأسكتلندي القديم روبرت بروس Robert Bruce
وكان جيمس بروس هذا قد ولد في عام ١٧٣٠م في مقاطعة كنيارد Kinnaird
وكان وريث الأسرة ذات منزلة رفيعة . فقد ماتت أمه عندما كان عمره
عامين وتزوج والده بعد ذلك للمرة الثانية ، وأصبح عنده أكثر من تسعة
أطفال . والتحق بروس بمدرسة في جنوب لندن عندما كان عمره اثنتى عشرة
سنة ، وذكر أستاذه أنه كان أثناء دراسته يتميز بالذكاء والجد . وكان
يميل لوظيفة قس والتي كانت تستهويه ، ولكن والده رفض هذه الوظيفة ،
وأصر على ضرورة أن يكمل بروس دراسة القانون التي يكرها بشدة ،
وبعد أن أمضى فترة دراسته للقانون الأسكتلندي ، بجامعة أدنبره
Edinburgh University وبعد أن مكث سنة أو سنتين
بالمنزل ، عاد بعد ذلك الى لندن ، وتولى وظيفة في شركة الهند الشرقية ،
ومع ذلك كان في امكانه أن يحصل على وظيفة في الهند أو في الشرق
الأقصى .

وفي لندن غير جيمس بروس وجهة نظره بعد أن وقع في حب فتاة
كانت ابنة لسيده أرملة ، وكانت هذه الأرملة تدير أعمال زوجها كتاجرة
للنبيذ . ولما تم زواجه من هذه الفتاة ، دخل مشاركا في شركة الخمور الخاصة
بهذه الأسرة . وكان بروس في خلال هذه الفترة يقدر زوجته المشابة . وبعد

مرور تسعة شهور من الزواج السعيد توفيت زوجته وتركته يائسا .
 وفي تلك الفترة ، قرر أن الحياة ممكن تحملها فقط في حالة بعده عن الأماكن
 التي عرفها ، وفي حالة تحقيقه عملا كبيرا ، لذلك اتجهت أفكاره صوب قارة
 افريقيا التي لا تزال أجزاء كثيرة منها غير معروفة للعالم ، وبخاصة الغموض
 الذي خيم على نهر النيل . وكان لمساهمته في تجارة الخمر أثره عليه ،
 فقد جعلته هذه التجارة يرغب في زيارة الأقطار المنتجة للكروم ، وعلى
 هذا الأساس قضى السنوات الأولى القليلة من هذه الفترة في السفر
 والدراسة . غفى بداية الأمر تعلم اللغة الأسبانية والبرتغالية ، وكذلك
 العربية ، وفيما بعد تعلم الأمهرية (اللغة القديمة لأثيوبيا أو لغة الحبشة ،
 كما كانت تسمى حينذاك) . وأيضا درس جيمس بروس فن العمارة
 والرسم ، وقرر أن يكون متفوقا في هذه الفنون وتجلى ذلك في زيارته
 لأيطاليا وقيامه بعمل رسومات على جانب من الدقة لمعابد الأغريق
 الرائعة في باسـتيوم Paestum

وكان هذا العمل من جانب بروس بمثابة الأعداد للرحلة المزمع القيام
 بها . وفي عام ١٧٦٣ م ، اتخذ بروس الخطوة الأولى صوب تحقيق هدفه ،
 فقد عينته حكومة الملك جورج الثالث King George III قنصلا
 لبريطانيا في الجزائر ، التي كانت في ذلك الوقت جزءا من الامبراطورية
 التركية . وكان ملك بريطانيا قد منحه تصريحاً يخول له التجول في الجزائر
 وتونس ، فضلا عن قيامه بعمل رسومات لبقايا الآثار الرومانية في هذه
 المناطق من شمال أفريقيا ، وسبب ذلك يرجع الى أن ملك بريطانيا كان
 جامعا للآثار القديمة بدرجة كبيرة ، وكان القصد من ذلك أن تضاف هذه
 الرسومات الى المجموعة الملكية .

وقبل أن يغادر بروس لندن أنشغل بزواجه من فتاة اسكتلندية ، تبلغ
 من العمر ست عشرة عاما . فقد وعدته هذه الفتاة بجدية بأن تنتظره ، حتى
 ينتهي من مهمته ، ولم يكن لدى أى منهما أدنى فكرة أنه ربما تمضى اثنتى
 عشرة سنة قبل أن يرى أسكتلندا مرة ثانية ، كما لم يعرف بروس الوقت

الذى سوف تتخلى فيه هذه الفتاة عنه سواء أكان ذلك بسبب الموت أم بسبب الزواج من شخص آخر .

ويمكن القول أن الظروف في الجزائر كانت تنذر بالخطر الآن الباي (الحاكم التركى) كان شريرا وقاسيا ، فكان يقتل أى شخص يضايقه أو يزوج به في السجن ، ولم يستثنى من السجن القناصل الممثلين للدول الأجنبية ، لهذا لم يشعر بروس بالامان أبدا ، ومع ذلك فقد تمكن من أن يكيف نفسه مع هذه الظروف الصعبة لعدة سنوات ، قضى خلالها وقت فراغه في انجاز تعلمه للغة العربية ، كما أنه أعد نفسه للقيام بالرحلة المرتقبة ، فضلا عن تعليمه مهنة الطب تعليما كافيا كى تمكنه هذه المهنة (مهنة الطب) من عبور الأقطار التى يمر من خلالها . زد على ذلك فإنه قام بشراء بعض الأجهزة العلمية ، التى تضمنت التلسكوبات وجهاز كبير لقياس الارتفاع والزوايا heavy quadrant وكاميرا متنقلة للتصوير .aportable camera - obscura التى بواسطتها يمكن رؤية صور الأشياء المحيطة ، وذلك من خلال حاجز . وفى الجزائر انضم اليه الفنان الايطالى Italian artist الذى يدعى لويجى بالوجانى Luigi Balugani والذى كان عليه أن يعمل كسكرتير لجيمس بروس ، وقد ساعده في الرسومات التى تجمع من أجل الملك ، فكل من الرجلين قام بعمل أو يرسم بعض الرسومات ، ولكن رسومات بالوجانى كانت أكثر دقة .

وفى عام ١٧٦٨ م ، تسلم بروس أيضا من حكومة بريطانيا التصريح الذى انتظره مدة طويلة ، كى يبدأ رحلته ، ففى بداية الصيف غادر بروس الجزائر متوجها الى الاسكندرية ويعتبر ذلك بداية لمغامرته . وفى الوقت نفسه بدأ رحلته وهو متخفيا في زى عربى ، فضلا عن إنه كان يتحدث اللغة العربية بطلاقة ، كما أنه تظاهر بأنه طبيب وفيلسوف ، ومع ذلك فقد سلح نفسه بمرسوم كان قد حصل عليه من سلطان مصر يوصفه فيه بأنه نبيل انجليزى ، وأنه أحد رعايا الملك جورج الثالث ملك بريطانيا ، وفى أثناء وجوده في مصر مارس مهنة الطب ، فاستمال بذلك البعض من مرضاه

من ذوى النفوذ ، وحصل منهم على خطابات توصية الى الشخصيات الهامة في سواحل البحر الأحمر والحبشة • فقد حصل على خطابين حرر أحدهما الى حاكم ميناء مصوع بالحبشة وحرر الآخر الى ملك سنار •

ولم يترك بروس أية فرصة دون اغتنامها فكان قد تعلم استخدام الأسلحة النارية ، لذلك حمل معه عددا من المسدسات والبنادق القصيرة ، فضلا عن أنه حمل معه كمية من ورق الرسم والكتابة • زيادة على ذلك فأنه قرأ كل شئ استطاع قراءته عن النيل ، حتى وصل به الأمر الى تمزيق صفحات بعض الكتب التى تتحدث عن النيل ، والاحتفاظ بها معه • وكان قد اصطحب معه عددا من الحمالين ، كما أنه أجر سفينة لنقله من القاهرة عبر النيل وحتى الشلال الأول الواقع الى الجنوب من أسوان •

وكان بروس قد تحمل كل تكاليف الرحلة على نفقته الخاصة • ومن الملاحظ عليه أنه لم يحاول أثناء قيامه بهذه الرحلة أن يرفع العلم البريطانى على أى إقليم أو مقاطعة مجهولة ، كما لم يكن فى نيته أيضا تحويل المسلمين أو الوثنيين الى العقيدة المسيحية أو أن يفتح طريقا عاما للتجارة ، بل كانت كل دوافعه علمية صرفة ، فكان هدفه الأساسى الكشف عن الغموض الذى خيم على منابع النيل ، بل وكشف كل ما يمكن كشفه من هذه المنطقة وشعبها • ولم يعرف من وجهة النظر الجغرافية أنه بحث أو اكتشف نهرا خطأ ، حيث أنه كان يعتقد فى أن النيل الأزرق يمثل الجرى الرئيسى للنيل • وكان بروس قد عرف كل هذه الادعاءات من الآباء بيز ولوبو ، ومع ذلك فأنه كان أكثر استعدادا فى عدم تصديقهما •

وقد تبع جيمس بروس طريق أسوان الذى سار فيه من قبل كل من بوكوك ونوردن ، وكان بروس قد توقف كى يتفحص بقايا طيبة القديمة ، وشجعه فى ذلك أن هذا الطريق المتجه جنوبا كان مسدودا بسبب نشوب الحرب الدائرة بين القبائل (القاطنة على جنباته) لذلك نجد بروس يعبر الصحراء الشرقية ويتجه الى ساحل البحر الأحمر • ومن هناك ذهب

على متن سفينة أقلته الى مصوع الواقعة على ساحل البحر الأحمر الغربى ،
 وفي ابريل من عام ١٧٦٩ م أبحرت السفينة من ميناء القصير الصغير المزدحم
 بالناس والذي لم يستحق الذكر • وبعد ذلك اتجهت السفينة صوب الجنوب
 فى خط متعرج عبر البحر الأحمر •

وكان بروس تواقا الى مشاهدة خليج السويس وعرف بنفسه كيف
 أن الشباب اليهود خططوا للعبور من مصر الى شبه جزيرة سيناء ، وسجلوا
 معلومات هامة عن الملاحة فى البحر الأحمر • وقد واجه بروس وجماعته
 وهم على متن السفينة ، نقص فى الطعام والحطب ، ففى أوقات كثيرة كان
 بروس وجماعته لا يجدون من الطعام شيئا يأكلونه ، فكان الطعام المتوفر
 لديهم ، عبارة عن خليط من الدقيق والمياه الباردة •

وفى شهر سبتمبر ، وبعد مضى خمسة شهور من بدء الرحلة وصلت
 السفينة الى ميناء مصوع الميناء الرئيسى للحبشة ، ويبدو أن رئيس ميناء
 مصوع كان خسيسا ، لانه رغم علمه مسبقا بأن بروس كان على وشك
 الوصول الى ميناء مصوع ، الا أنه لم يهتم بمجيئه ، بل تصور أن بروس
 كانت تربطه علاقة قرابة بالملك جورج الثالث • فدبر مكيده لسرقته ،
 حتى ولو أدى ذلك الى قتله (قتل بروس) • ولكن لما تبين لبروس ذلك
 لوح لحاكم مصوع بالتهديد بمرسوم السلطان المصرى الذى كان يحمله
 معه كجواز سفر • ومع ذلك فقد ظل جيمس بروس فى شبه أسر لمدة
 شهرين ، وبعد ذلك استماله بروس الى جانبه فتركه يغادر ميناء مصوع •
 وفى ١٥ نوفمبر عام ١٧٦٩ ، غادر بروس مصوع متجها صوب الداخل •
 وكان برفقته الرسام بالوجانى وباقى أفراد المجموعة المكونة من عشرين
 شخصا ، وكان من ضمنهم تاجر مسلم ، وحبشى أسمر اللون يدعى يس •

وكان الطريق الذى سلكه جيمس بروس طريقا وعرا وجبليا ، ولكن
 على الرغم من ذلك فقد تمكن بروس بمساعدة ياسين الحبشى من حمل
 أجهزته ، والوصول الى قمة المنحدر ، وقد أدى ذلك الى تمزق أقدمامة

وأدمائها . ولكنه نسي كل متاعبه في غمرة بهجته بتجهيز معسكر لاقامة
البعثة لأول مرة على أرض الحبشة .

ويصف بروس أرض الحبشة فيقول أنها عبارة عن هضبة يبلغ
ارتفاعها ٦٠٠٠ قدم تقسمها أودية الأنهار والسلاسل الجبلية . ولكن
على الرغم من ذلك تمكن بروس وجماعته من تسلق هذه الهضبة والوصول
الى عدوه Adowa ، وهي تمثل حصون الحبشة الرئيسية . ومن
المعروف أن اسم الحبشة اشتق من كلمة عربية تعنى التشويش أو اللخبطة
«Confusion» فلو كان هذا يعنى فى الأصل اللخبطة التى تتضمن
السلاسل ، فأنة من الممكن أن تمثل هذه اللخبطة أيضا الأشياء الغامضة وغير
المفهومة ، وكذلك تمثل الحرب الأهلية التى كان القطر ينغمس فيها ، ومن الممكن
أيضا أن تعنى هذه اللخبطة التقاليد الهمجية والعقيدة المسيحية الأسمية .
ويضيف بروس أن زمام السلطة فى الحبشة كان فى يد حاكم يدعى أنه ينحدر من
سلالة سليمان بن داود . ولكن على الرغم من ذلك فقد ضعفت سلطة
الأمبراطور ملك الملوك ، وكانت سلطة الحكومة فى البلاد قد قسمت بين
عدد من الحكام المحليين الذين كانوا فى صراع مستمر ، وفى ثورات أدت
الى ضعف المملكة ، بل وأدت الى انتشار الفوضى فى البلاد . ولم يكن
الأمبراطور هو أقوى رجل فى الدولة ، بل كان الرجل القوى هو الراس
The Ras (أو الفيزير Vizier or) ميتشل ، حاكم إقليم
Tigré ومن قبل ، تسبب الراس ميتشل فى قتل اثنين من الأباطرة ،
فقتل الأول عن طريق الاغتيال وقتل الثانى عن طريق السم . وفى ذلك الوقت
حكم الراس ميتشل كالثامبراطور للحبشة وكان يعرف باسم تكلا
هيما ثوت Tecla Haimanot

وكان من أهم الأبنية فى عدوة ، القصر الذى كان يحكم منه الراس
ميتشل تجرا . وكان هذا القصر عبارة عن سجن أكثر منه منزلا ، فبالقرب منه
كان يوجد المئات العديدة من الناس المكبلين بالسلاسل فقد ظل بعضهم
أسيرا لمدة عشرين عاما . وقد أدى ذلك الى أن أصبحت أسرهم تحيا حياة

ضنكا ، بحيث لم يكن لدى هذه الاسر المقدرة على تحرير الأسرى ، ودفع
الفدية ، للذين ظلوا في السجن ، وكثيرا منهم وضعوا في اقفاص حديدية
وعوملوا معاملة الحيوانات المتوحشة •

وعندما وصل بروس الى عدوة كانت الحرب على أشدها بين الراس
ميثشل وامبراطور الحبشة ، لذلك اضطر بروس الى الذهاب صوب اكسوم
العاصمة القديمة لأثيوبيا ، وفي خارج أطلال هذه المدينة تبع بروس وجماسته
بثلاثة جنود أثيوبيين كانوا يقيدون أمامهم بقرة ، وبعد ذلك أوقفوها
فأعتقد بروس أنهم سيقومون بذبحها ، ولكن حدث العكس ، فبدلا من ذبحها
قاموا بقطع قطعة من اللحم من جسم هذه البقرة ، ثم قاموا بعد ذلك بتغطية
المكان المقطوع بالصلصال ، عندئذ ، أجبر الجنود الأحباش البقرة على
النهوض وقادوها أمامهم ، كى تعد لهم وجبة أخرى ، عندما يلتقون مع
زملائهم في المساء • وأضاف بروس في قوله ما نصه « أننى لم اعتقد بعد ،
أن هذه الطريقة فى اعداد الطعام ، هى الطريقة المألوفة بالنسبة للمواطنين ،
وحتى بالنسبة لرجال الدين فى كل مكان من البلاد (الحبشية) •

واستمر بروس ورفاقه ثلاثة شهور فى تسلق كل الحواجز الجبلية
المواقعة بين مصوع وغندار العاصمة ، وكانت مبانى مدينة غندار عبارة عن
أكواخ مبنية من الطين وذات سقوف بارزة ، وبها قصر محاط بسور ،
ومطل على بحيرة تانا الواقعة الى الجنوب من غندار • وقد حصل بروس
على منزل فى مدينة غندار فى الحى الاسلامى • وفى ذلك الوقت كان
الراس ميثشل والامبراطور لا يزالان بعيدين • وقد وجد بروس أن الناس
يموتون بالمئات من مرض الجدري Small pox ويموت الآخرون بسبب
الحمى • لهذا اندهش بروس للغاية • وكان المواطنون يستخدمون فى علاج
هذا المرض دواء عبارة عن علب معدنية يضع بها البعض من الحبر
والصليب وصورة مريم العذراء •• وبعبارة المؤلف :

This was scarcely surprising, for the native «cures» ranged from
a medicine made of tinplate and ink to the application of a cross and
a picture of the Virgin Mary.

وكان ابن الراس ميتشل الصغير مريضاً بالجدرى Small - Pox مرضاً مزمناً أو ميؤس منه ، هذا فضلاً عن إصابة عدد من أطفال الأسرة المالكة بهذا المرض • وكان بروس قد نجح من قبل في علاج المرض في الحي الاسلامي ، لذلك استدعى لعلاج هؤلاء الأطفال • وكان بروس قد رفض علاجهم ما لم يقبلوا طريقه الخاصة في علاج هذا المرض • قال جيمس بروس ما نصه « أن الجدرى مرض من الواجب مطاردته ، والقضاء عليه ، وأضاف أن المريض يحتاج أثناء المرض الى فترة طويلة للعلاج ، فلو أطعم السكان المرضى طبقاً لأهوائهم (أهواء السكان) البدائية فأن نصيحتي للمريض ستضيع سدى » •

ولقد كان الأطفال شديدي المرض حتى أن بروس منح تصريحاً على وجه السرعة ليعمل أى شئ هو يرغب فيه ، وقد وجد المرضى نائمين في حرارة الشمس ، وفي حجرات سيئة التهوية وتحت أكوام من البطاطين • وكان أول شئ فعله بروس هو فتح النوافذ والابواب وغسل الحوائط بالخل والماء الساخن • وقد أصر بروس على ضرورة وضع قواعد صحية صارمة ، هذا فضلاً عن توفير كمية من الهواء النقي • وقد شفى المرضى في تلك الحالة واستطاع بروس بطريقته البسيطة أن يمنع انتشار التلوث •

ولقد نجم عن النجاح الذي حققه بروس في علاج المرضى قيام صداقة بينه وبين الأميرة الشابة زوجة الراس التي تدعى أثير Esther وكانت أثير هذه أما لطفل (ابن ميتشل) كما كان لها طفلين من زوجها السابق • ومن الممكن رؤية جمال الأميرة أثير في أحد النصوص الواردة في كتاب جيمس بروس • رحلات للكشف عن منابع النيل ، Travels to discover the source of the Nile وكانت أثير فائنة الجمال وذكية • وقد سلم بروس بأنه وجد أنه من المستحيل أن يكون الى جانب أثير مدة طويلة من الوقت ، دون أن يفكر في الارتباط بها الى الأبد •

وعلى الرغم من البهجة التي كان يعيشها بروس في رحاب الأميرة أثير

الا أنه أصبح نالغذ الصبر ، ويرجع ذلك الى رغبته فى التوجه الى مصادر النيل الأزرق ، الذى سماه الاثيوبيون آبيا Abia « مصدر المياه » وبعبارته أبو المياه «The Father of waters» ولم يكن النهر بعيدا عن المنطقة التى يقف عندها ، ومع ذلك فلم يستطع الذهاب اليها ليوصل بحته ، الا اذا حصل على تصريح من الراس ميتشل • وبعد أن عاد كل من الراس ميتشل والامبراطور من الحروب ، كان لديهم انطباع كبير عن هذا الرجل الاسكتلندى ذو الشعر الأحمر الغامق المحلوق من الأجانب والمفتول من أعلى والمعطر على حسب الأسلوب الأمهرى ، وبعبارة المؤلف :

Who had had his red hair cut round, curled and perfumed in the Amharie fashion, and was dressed, like a perfect Abyssinian, in a cloak over chain - armour, with pistols stuck in his wide belt.

والذى ترجمته الى العربية هكذا : « كان مرتديا زيا شبيه بالزى الكامل للمواطن الاثيوبى ، وارتدى أيضا معطفا ، من فوقه ارتدى درعا على شكل سلاسل حديدية Chain - armor ، وكان يعلق المسدسات فى حزامه العريض • وقد أعجب كل من الراس ميتشل والامبراطور بالحديث مع جيمس بروس لأنه كان يتقن الفروسية ، فضلا عن أنه كان ماهرا فى استخدام السيف واطلاق النار • كما اعجبا بأسلوب قيادته وبثقته فى نفسه ، رغم وجوده فى وطن يكتنفه العنف والموت ومع ذلك فلم يشعر بأدنى خوف ، وقد أشار بروس الى ذلك بصراحة ، وهكذا فقد سحرهم هذا الزائر القادم من العالم الآخر • وقد أجل كل من الراس ميتشل والامبراطور رحيل جيمس بروس ، حيث مرت الأيام وهو فى سعادة تامة ، فقد قضى هذه الفترة فى الصيد وفى القيام بالبعثات العلمية القصيرة ، وفى تلك الأثناء عرف بروس أن الراس ميتشل كان قاسيا وطاغيا ، ولكن عندما تم اللقاء بينهما شعر بروس بأنطباع غريب نحو ميتشل وفى هذا الصدد يقول بروس : « أن ميتشل كان اشيىب الشعر ، وكان مرتديا زيا عبارة عن خيوط كثيرة وقصيرة ، وكان منطلق التفكير ، بل ويتميز بحدة البصر • بينما كان الأمبراطور يتميز بالذكاء والوجاهة وحسن الإدراك ، وكان يصرف الأمور ويتحمل المسئولية كالبرتغاليين » •

وبعد أن مكث بروس مدة طويلة في هذه المنطقة ، طلب منه ميتشل والأمبراطور أن يصحبهما في حملتهما التالية الى القطر الواقع الى الجنوب من بحيرة تانا Lake Tana والذي كان يحكم بواسطة شيخ يدعى فاسيل Fasil وكان هذا الشيخ تابعا لقبائل الجالا الشرسة والوثنية • وقد أعد هذا الشيخ جيشا ليحارب به حكام اثيوبيا • وكانت هذه المنطقة هي المنطقة التي رغب بروس في كشفها • وقبل أن يصل بروس الى المنطقة القريبة من منبع النيل الأزرق ، كان فاسيل قد استسلم ، وبذلك نجح بروس في الوصول الى النهر أى بالقرب من المنطقة التي يتدفق منها ماء البحيرة (بحيرة تانا) عندئذ عاد بروس الى جهة الجنوب الشرقي في اتجاه الشلالات الكبيرة ، المعروفة بأسم (شلالات تسيسات The Tisisat falls) وبعد نصف ميل من خروج النهر من البحيرة ، يجتاز قنطرة مقوسة مبنية من الحجر a single - arched stone bridge كانت قد شيدت منذ مائة عام مضت بمعرفة البرتغاليين ، وقبل أن يصل بروس الى هذه القنطرة بمسافة طويلة استطاع سماع هدير مياه الشلال • وكتب بروس يقول ما نصه « لقد كان هذا المنظر أعظم منظر رأيته ، فقد كان الارتفاع مبالغ فيه ، لأن البشرين كانوا قد قالوا أن ارتفاع الشلال يبلغ حوالى ١٦ ذراع Ells أو يبلغ خمسين قدما • وفي الواقع أن معرفة ارتفاع هذا الشلال كان صعبا ولكن أغامر وأقول أنه يبلغ على وجه التقريب أكثر من ٤٠ قدما • والى حد بعيد ، فإن مياه النهر تزداد بواسطة الأمطار ، بحيث يشكل سقوطها مسطحا مائيا واسعا لا يفصله أى شئ ، ويبلغ عرض هذا المسطح المائى نصف ميل انجليزى ، وتمثل قوة اندفاع المياه والضوضاء رعبا حقيقيا ، ولدة من الوقت أصابنا الذهول والدوار التام • وقد خيم على المنطقة دخان سميك ، غطى منطقة الشلال وما حولها ، وقد خيم هذا الدخان على المجرى من أعلاه ومن أسفله ، وأدى ذلك الى أن حجب مجرى النهر ومياهه عن الرؤية وكان هذا منظرا رائعا فى تلك العصور ، بل وأضاف بروس فى قوله أن هذا المنظر سوف لا يمحى أو يتبدد من ذاكرتى على مدى الحياة البشرية ••• وكان واحدا من أهم المناظر الجميلة أو المدهشة

في شكلها ، وقد تعرض هذا المنظر لتضليل رجل دين متعصب وخسيس حيث أنه قلل من قيمة هذا المنظر ، بل أنه شوهه » •

وكان رجل الدين هذا هو الأب لوبو Lobo لذا عقد بروس العزم على أن يكون هو الأوربي الأول الذي تنجح عيناه على شلالات تسيسات Tisisat Falls وقد عمل كل شيء بحيث لا يشك أى شخص في قصته واستند في ذلك على افتراضين كي يدعم بهما ادعائه ، أولهما أن لوبو غالى في تقدير عمق الشلال ، رغم أنه أقر بنفسه ذلك بقوله :

« أستطيع القول بأنه لم يعد وقت باقى في حياتي أتعهد فيه على أقل التقدير بالدقة في كشفى لهذه المنطقة » ثم أضاف بروس يقول في الواقع أن كل من تقدير لوبو وتبشيره ثبت فيما بعد أنهما غير دقيقين مع أن لوبو كان قريبا أو أقرب الى الحقيقة • وأما الافتراض الثانى الذى افترضه بروس فيتمثل في أن الأب لوبو لم يتمكن من الوقوف بين المياه المنهمرة من المجرى وبين المنحدر الصخرى ، وعلى ذلك فهو كذاب وبخاصة عندما ادعى أنه اكتشف الشلال • مع أن بروس السباح القوى أو المتمرس لم يستطع القيام بمحاولة ايجاد ممر في الماء عند أسفل الجندل ، واقتنع أنه لا يوجد أى شخص آخر يقوم بمثل هذا العمل • وفي هذا فقد ارتكب بروس خطأ ، لأنه رأى الشلالات في فصل المطر ، بينما الأب لوبو رآهم (الشلالات) في فصل الجفاف • ولم تكذب تحل العشرينيات من القرن العشرين ، الا وقد ثبت بطريقة حاسمة أنه لم يكن من الصعب بالمره ، أثناء فصل الجفاف الوصول الى الأرضية الصخرية الواقعة خلف الشلالات ، بالضبط مثل ما ادعى الأب لوبو •

وقد اضطر بروس في ذلك الوقت الى العودة مع جيش الامبراطور الى مدينة غندار ، وقد مثل جيش الامبراطور بأسرى الحرب أى كان يقوم بقتلهم ، وفي تلك الأثناء مرض بروس بسبب تعرضه للحمى ، ورغم ذلك ، أنه بدأ بحته بكل حرية في شهر أكتوبر عام ١٧٧٠ ، فقد انطلق

ومعه بالوجاني الفنان الايطالى ورجل يونانى آخر يدعى اسـترـيـثـس Strates ، الذى كان يعيش فى أثيوبيا ، وعدد آخر من الحماليين الذين حملوا جهاز قياس الارتفاع والزوايا * وفى تلك الأثناء ، كان الراس ميتشل قد نصح الامبراطور أن يعين بروس حاكما على بلدة جيش Gish ، التى يوجد بها منابع النيل الأزرق والتى من المعروف أنها تنبع من هناك * وكانت جيش هذه لا تزال تحت سيطرة فاسيل Fasil رئيس الجالا المتورد ، والذى قام رجال قبيلته وللمرة الثانية بالاغارة على المنطقة الواقعة بالقرب من غندار * لذلك لم يستطع بروس المرور من خلال هذه المنطقة دون حصوله على تصريح من شيخ القبيلة * وفى تلك الأثناء ، وجد بروس فاسيل معسكرا بجيشه فى الشمال الغربى من بحيرة تانا ، فعندما استقبله بروس وجده جالسا فى خيمته على جلد أسد ، وكانت رأسه معصوبة ببعض الملابس القطنية الشبيهة بالفوط القديمة * فقد لف فاسيل بأحكام حول نفسه عباءة ملطخة بالشحم ، وعندما تقدم بروس منه كى يحييه التحية المعتادة قبل شفتاه فقط بعد أن ازالح ملابسه بعيد (أى ملابس فاسيل) *

وكان فاسيل على علم تام بأن الهدف من تعيين بروس حاكما لهذا الأقليم ، هو تمكينه من زيارة منبع النيل الأزرق ، ولكن مع ذلك فإن فاسيل قد تنصل من كل ما يعرفه عن أماكن تواجد منابعه ، وصاح فاسيل فى بروس بقوله هل تعرف ماذا تقول ؟ فقال بروس أعنى منابع الآبيا Abai ، فقال فاسيل لماذا منابع الآبيا يا بروس أن الله يعرف أن وطن الجالا Galla يسكنه شعب مرعب ومتوحش ، ثم أضاف فى قوله لبروس أيضا أأنت مجنون ؟ فمن المحتمل أن تعود من هذه الرحلة بعد عام *

وبعد ذلك ذكر فاسيل لبروس بتملق بأن منبع النيل معروف معرفة جيدة ، وأنه يوجد فى داخل الإقليمه ، وأضاف فى قوله أنه من الموثوق فيه أنك ستكون وحيدا فى هذه الرحلة ، فى الوقت الذى سأكون فيه أنا بعيدا عن

هذا المكان ، فرد عليه بروس بثقة اذا لم تحمن بقية الحبشة ، فأنا لن
استطيع حماية نفسي ، وعندئذ قال بروس لفاسيل أن كلمتك هي الوحيدة
التي يمكن أن تفعل هذا أى تحمينى •

وكان فاسيل يلطف من غضب بروس بأستخفاف ، ولكن جيمس بروس
ظل عنيدا • وكتب يقول ما نصه «أنا وجدتتها الآن ، كما اعتقدت ،
حيث أن أمالى فى الوصول الى منبع النيل الأزرق ، قد انتهت الى الأبد ،
كما ضاعت سدى ولسنوات عديدة كل متاعبى وكل أموالى وكل معاناتى ،
ليس فقط بسبب عقبة كثود ، ولكن بسبب نزوات Whimsies شخص
بربرى » •

ولقد فشلت المجادلة والمناشدة مع الشيخ فاسيل ، فأضطر جيمس
بروس الى التفكير فى استمالة هذا الشيخ وذلك عن طريق مهارته فى كبح
جماح الخيول البرية وفى اطلاق النيران على الطيور البرية
وإصابتها فى اجنحتها • عندئذ استسلم فاسيل لطالب جيمس بروس ،
والدليل على ذلك أنه أقرض بروس حصانه الخاص ، وطلب اليه أن
يقوده أمامه ، وكان الحصان فى أثناء ذلك مسرجا وملجما وهذه علامة
على العطف على بروس ، وكانت هذه العلامة يفهمها شعبه (أى شعب
فاسيل) بحيث يكن الاحترام لبروس وزوده فاسيل أيضا بدليل وبحماية
سبعة من صغار الشيوخ ، مع أن حمايتهم كان مشكوك فيها • وكتب
بروس يقول فى هذا الصدد ما نصه « أنا لم أر لصوصا فى حياتى أكثر
من هؤلاء اللصوص الذين رأيتهم فى هذه البلاد » وبعبارة :
I never saw more thief - like fellows in my life.

وهكذا فقد أعد بروس نفسه وذهب الى مكان بحثه ، وتمكنت بعثته
من الطواف حول الشاطئ الغربى من بحيرة تانا ، وبعد ذلك اتجهت صوب
الجنوب ، ومر أفرادها من خلال قطعة جميلة من قطر ، ومن هذه المنطقة
رأوا الجبال والأشجار الجميلة والشجيرات ، التى كانت تغطيها الورود
المختلفة ، وتتراحم عليها الطيور من كل الأنواع غير المألوفة والمزينة

بريشها الانيق المختلف الألوان * وفى الساعة الثانية من بعد الظهر وفى اليوم الثانى من شهر نوفمبر ، كتب بروس يقول « لقد أتينا الى شواطئ النيل » ، وبعد يومين وصل بروس الى نهاية مغامرته ، وقد تسلق ومعه بقية أعضاء البعثة الجبل الذى توجد على قمته كنيسة صغيرة * ويقول بروس عندما نظرنا من أعلى الجبل الى أسفل ، رأينا على الفور من أسفلنا ، النيل نفسه تناقص حجمه فى هذه المنطقة بطريقة غريبة ، بحيث أصبح شبه جدولاً من المياه ، وفى هذه الحالة أصبح من الصعب على مياهه أن تدبر طاحونة * ولم أتمكن من أشباع رغبتي أشباعاً كاملاً بهذا المنظر ، بل دار فى تفكيرى نبوءات قديمة كانت تدعوا الى التخلّى عن فكرة أن النيل سيظل غامضاً وخفياً *

ولقد أشار المرشد المرافق لجيمس بروس الى المستنقع الصغير الموجود خلف الكنيسة وقال ما نصه « أنظر يا بروس الى هذه الرابية المغطاة بالأخشاب الخضراء الواقعة فى وسط هذا المستنقع ، فهناك يوجد ينبوعان للنيل ، فإذا أردت يا بروس الذهاب اليهما فعليك أن تخلع حذاءك لأن الناس فى هذه المنطقة من الوثنيين فهم لا يعتقدون فى شىء تعتقد أنت فيه لكنهم يعتقدون فقط فى هذا النهر الذى يصلون له ، كما لو كان هو الاله الخاص بهم ، ولكن من المحتمل أن تفعل الكثير بنفسك » *

وقد توقف بروس ليخلع حذائه ، وبعد ذلك سار ببطء بجانب تل يقع فى اتجاه جزيرة صغيرة تكسوها أعشاب خضراء ، وقد غطيت كل جوانب هذا التل بغطاء كثيف من الورود ، وقد ظهر على سطح الأرض الجذور النباتية المنتفخة التى تتساقط قشورها بسبب المسير من فوقها ويضيف بروس فى قوله أن ذلك سبب لى السقوط مرتين أثناء مسيرى قبل وصولى الى حافة المستنقع Marsh * وقد نهض جيمس بروس بنفسه ، وبعد ذلك وصل الى جزيرة مغطاة بالأعشاب ، كانت فى شكل هيك أو مذبج كنيسة ، ويضيف جيمس بروس لقد وقفت وأنا فى غاية البهجة والسرور على الجبل الرئيسى الذى يبرز من وسطها *

واذا لم اعبد النهر بطريقة فعلية ، فأنه فى هذه الحالة سوف أصاب بشعور غير طبيعى ، وانه لمن السهل بالنسبة لى أن أخمن كثيرا ، بدلا من أن أصف ما يدور فى ذهنى فى تلك اللحظة ، واستمر بروس واقفا فى تلك البقعة التى حيرت تفكيره ونشاط وهمة القدماء والمحدثين على مدى ثلاثة آلاف عام تقريبا رغم ما قام به أحد الرعايا البريطانيين قديما • وأضاف بروس يقول « لقد حققت النصر هنا بتفكيرى على كل الملوك وعلى كل جيوشهم ، (أو بمعنى آخر لقد حققت بنفسى ما عجز الملوك وجيوشهم عن تحقيقه) •

ولقد تجاهل جيمس بروس ادعاءات الأب بيزبل وكان يشك فى كل ما قاله هذا القس الذى زار هذه المنطقة منذ ١٥٠ عاما ، وكان بروس قد جعل ادعاءاته فى القمة Bruce was pitching his own claims far too high; وصمم على أنه هو الأول على هذا المسرح بل وخدع بسبب ثقته العميقة فى نفسه • وعلى الرغم من أنه قام بالبحث عن المصدر الحقيقى للنيل ، الا أنه لم يجده • بل أنه اكتشف النيل الازرق الذى يزود النيل بمياه غـزيرة • ففى المواقع يمثل الفرع الرئيسى للنيل الأبيض ، الذى توجد مثابعه على مسافة ٢٠٠٠ ميل (من منبع النيل الازرق) •

وكان رد الفعل الذى اعقب لحظة انتصار بروس هو تفكيره فى الرحلة الطويلة الموجودة أمامه ، ولكن وبروح معنوية عالية ، التقط نصف جوزة هند مفرغة من الداخل وملاها بالماء من النيل وشرب نخب الملك جورج الثالث ، ودعى بروس ستراتيس Strates الإغريقى ليشرب معه ، ولم يوجد دليل فى كتاب بروس يدل على أنه كان قد دعى بالوجانى ليشرب معه من النيل • ومن المشكوك فيه أن بولوجانى كان قد مات بسبب مرض الدوسنتاريا فى غندار أثناء رحلة العودة • فكان بروس مصمما على أن يحتفظ بالمجد لنفسه ، فتظاهر أن الفنان بالوجانى قد مات قبل أن تبدأ

مرحلة البحث عن النيل • ولم يكن ستراتيس الرجل اليونانى الذى عاش فى أثيوبيا منافسا لبروس فكان بروس قد ودع بالنسيان كل من بالوجانى والأب بيز والأب لوبو •

وبعد أن أمضى بروس عدة أيام فى فحص وعمل المقاييس لتلك المنطقة عاد متخذاً طريقه الى غندار • وفى أثناء غياب بروس فى منطقة منابع النيل الأزرق هاجم رجال قبائل الجالا المدينة (يبدو أنها مدينة غندار) بعنف ، وعلى ذلك اشترك بروس فى الحرب ، بحيث كان على رأس الفرقة الخاصة بحماية الامبراطور • وفى أثناء المعركة كان بروس يمثل الجندى الماهر فى اطلاق النيران ، وكانت خدماته الطبية لها أثر كبير فى نفوس الجرحى ، وقد تمكنت قوات الامبراطور من هزيمة المتمردين ، وأجبر بروس على مشاهدة الأعمال الانتقامية المربعة التى يقوم بها الراس ميتشل ، واحتج جيمس بروس على هذه الأعمال البربرية ولكن احتجاجاته ضاعت سدى أمام أعمال الأعدام الوحشية • وقد تساءل الراس ميتشل بالقول موجها حديثه الى بروس ما نصه « هل من الممكن أن يتسع قلبك لكل هذه الأشياء ؟ وأضاف ميتشل يقول « أنت يا جيمس بروس رجل شجاع ، فنحن جميعا عرفناك ، ورأيثا هذه الشجاعة فيك ، ونحن جميعا نلومك كغريب فى هذا الوطن لأن عنايتك أو اهتمامك بنفسك ضئيل ، فأنت تتأثر من كل هذه الأشياء شأنك فى ذلك شأن امرأة جبانة أو فتاة أو طفل » • فأجاب بروس رداً عليه ما نصه « سيدى أنا لا أعلم هل أنا شجاع أم غير شجاع ، ولكننى لو رأيت رجالا يعذبون ، أو يغتالون أو يعيشون بين أجسام القتلى دون اكرثات فأنا فى هذه الحالة ليس لدى أية شجاعة » •

وقبل أن يغادر بروس الحبشة قضى عدة شهور فى اعداد دراسة عن الشعب الاثيوبى وعن تاريخه ، وجغرافيته ووطنه ، وقد ثبت أنها دراسة دقيقة للغاية وقد تمكن بروس من جمع مجموعة قيمة من الوثائق الأهمرية ، وجمع كذلك مجموعة من النباتات الحبشية والمعادن التى خطط أن يأخذها معه الى أوربا • وبعد ذلك حصل بروس على تصريح يخول له الخروج

أو مغادرة أثيوبيا • وقد أقام بروس حفلة وداع للأميرة أثير وولدها الصغير الذى أنقذ بروس حياته • وكانت الأميرة الأثيوبية وولدها يعيشان فى حالة تقاعد أو فى حالة عزلة أو كانا يعيشان بمفردهما • ووصف بروس حفلته هذه التى اقامها للأميرة أثير وولدها بأنها كانت واحدة من أعظم لحظات حياته » •

وفى شهر ديسمبر عام ١٧٧٢ ، غادر جيمس بروس أرض أثيوبيا وسافر فى اتجاه الغرب ، واستمر فى مسيره حتى وصل الى امبراطورية الفونج التى كانت تتكون من عدد من الأقاليم الصغيرة ، والتى يضم سكانها قبائل واجناس مختلفة ، وهم متقاربون فى اللون من البنى الفاتح الى الأسود Ebony • وقد وصف بروس كل شىء بعناية وبدقة ، ويعتبر بروس الأوروبى الاول الذى سجل أضرار ذبابة تسالتساليا Tsaltalya كحشرة خطيرة فهى مثل ذبابة تسي - تسي Tse - Tse fly التى تلدغ الحيوانات لتصيبها بالمرض المميت ، وتجبر رعاة القطعان على مغادرة الأرض الرعوية الى مناطق النباتات الصحراوية المتناثرة ، التى توجد فى الفصل المطير ، حيث لا تتوالد هذه الذبابة فى هذه المناطق الصحراوية •

وقد قضى بروس المرحلة الأولى من الرحلة فى قطر شبه صحراوى ، بحيث تشتد فيه حرارة الشمس ، حتى أن المجرى المائية والعيون الجوفية قد جفت ، وأدى ذلك الى أن الحيوانات (بالطبع حيوانات البعثة) ضعفت بسبب الجوع والعطش ، فضلا عن أن هذه الحيوانات كانت فريسة سهلة للأسود والضباع التى تكمن فى الأدغال • وفى نفس الوقت وصلت البعثة (بعثة بروس) الى صحراء شاسعة لا يوجد فيها أشجار على الإطلاق ، وبعد ذلك وصلت الى قرية مهجورة ، كان سكانها قد غادروها فى العام السابق وبخاصة عندما أصبحت محصولاتها الزراعية غير كافية للغاية • وقد كتب بروس يقول ما نصه « لقد عسكرنا بين عظام الموتى ، فلا يوجد مكان خالى من هذه العظام » • وكانت البعثة قد قطعت فى أسبوع مسافة طولها ٦٥ ميلا ، ولكن أفرادها كانوا فى ذلك الوقت على مقربة من حوض النهر الذى لم يعد جافا ، وعلى مقربة أيضا من مدينة تيوا Teawa

ولقد رحب الشيخ فضل شيخ مدينة تيووا بجيمس بروس وبرجاله ترحيبا حارا ، وكان بروس قد حذر من قبل من أن هذا الشيخ الشرير سوف يعمل بكل جهده على عرقلة البعثة من الذهاب الى سنار عاصمة امبراطورية الفونج ولكن بروس تمكن من استمالة هذا الشيخ عن طريق أجادته لفن الفروسية والصيد ، فضلا عن أجادته للأعمال الطبية ، وقد وصف بروس علاجا للشيخ فضل ولزوجاته ولبناته ، ولولا هذا لفقد بروس حياته ، وعندما بدا على الشيخ فضل علامات العداء لبروس ، تدخلت زوجاته لصالح بروس ، فكان لبروس علاقات حب مع زوجات هذا الشيخ . وفي هذا الصدد كتب بروس يقول ما نصه : « لم يكن هذا شيئا كريها في ربيع الحياة In the prime of life ، بل كان حيلة عرضية ، كما لم يكن ارتداء الزى والتحدث بلغتهم بسهولة وبطلاقة شىء ثلغه ، وأضاف أننى كرست جهدى فى صداقة الجنس الجميل ، ومداومة الاحترام والتواضع لرجال الحاشية ، وعلى وجه العموم كنت خائفا ، لأن هذا الأسلوب بصفة خاصة كان يلائم أمزجتهم وميولهم » .

ومن المحتمل أن يكون بروس قد أثار غيرة الشيخ فضل ، الذى رفض بأصرار أن يدع بروس يغادر مدينة تيووا ، ويرجع الفضل فى تحرير بروس من هذا الأسر الى صديقه الحبشى أو الأثيوبى ، الذى يدعى ياسين والذى تركه بروس يعود الى قريته الخاصة . وعندما سمع ياسين بالمأذق الذى وقع فيه بروس ، أرسل ثلاثة جنود من المخصصين لنقل البريد ، ومعهم خطابات تهديد بتدمير مدينة تيووا وحرق محاصيلها اذا لم يسمح لبروس بمغادرتها ، وعندئذ تراجع هذا الشيخ عن موقفه وبإيماءة تدل على الكرم ، قدم الشيخ لبروس حصانه الخاص وحذره أن الخيول لم تستطع أن تعيش فى سنار . عندئذ رحل جيمس بروس وبعثته بعد أن شكر الشيخ فضل . وكان بروس قد سافر ليلا كى يهرب من حرارة النهار الحارقة .

ومن قبل كان كل من بونسيه الفرنسى وكرمب الألمانى قد زار سنار أى

قبل ذلك التاريخ بسبعين عاما * وقد تأثر بونسيه بحجم وأهمية المدينة ، ولكن بروس وجدها في حالة بشعة للغاية بحيث يخيم عليها الاستبداد وكان بروس قد وصلها أثناء فصل الجفاف الذي ترتفع فيه نسبة حدوث المرض والموت بوضوح * ولاحظ بروس أن المدينة احتفظت بكثافتها السكانية بسبب خطفها للعبيد من الجنوب * وقد كره جيمس بروس الشعب في سنار ، لأنه وجدهم في حالة كئيبة ومريية * وكتب بروس يقول « يبدو أن الحرب والخيانة هما من أهم عمل هذا الشعب المرعب الذي يفصل عن بقية الجنس البشرى بواسطة سماء وصحارى لا يمكن اجتيازها ، وتعد هذه البلاد بقعة بغيضة » *

وقد قدم بروس لمقابلة الملك ، فوجده شابا ضعيفا متراخيا ، ذو بشرة بيضاء شبيهة بأمة العربية ، وذو ملامح خشنة واضحة بحيث لا يمكن معها معرفة شخصيته واندھش هذا الملك عندما علم بأن بروس اختار أن يقضى سنوات عديدة في أفريقيا وتساءل بالقول « كيف يكون هذا ؟ وأضاف قائلا مانصه « أنت يا بروس نبيل متعلم وتعرف كل شيء ، وتتحدث كل اللغات ، وأنت شجاع ، ولم تخف من السفر مع عدد قليل من الرجال المسنين ، من خلال أقطار مثل هذا القطر. ومثل أنثوييا ، أليس من الأجدر بك أن تمكث في بلدك لتستمتع بالمأكّل والمشرب ، بدلا من التجوال مثل الرجل الفقير ، متعرضا لكل أنواع الخطر » وبعبارة :
«Instead of wandering like a poor man exposed to all sorts of dangers».

ومن قبيل التفسير ، فقد أجاب بروس على تساءلات الملك بالقول « أن هذا التجول الذى أقوم به يعتبر نوع من أنواع الدروشة بحيث أن آخذ على عاتقى القيام بممارسة حياة التقشف والفقر ، وأنا مصمم على السفر في ظل ظروف صعبة وخطيرة ، بحيث أقوم بعمل كل الأعمال الطيبة التى أستطيع القيام بها الى الفقير والغنى على حد سواء ، كما ألتنى لا أقوم بإيذاء أى شخص » وبعبارة :

«By way of explanation Bruce replied that he was a sort of dervish,

pledged to lead a life of austerity and poverty, bound to travel in hardships and danger, doing all the good I can to poor and rich and hurting nobody.

ولما أخبر بروس الملك بأنه فى امكانه أن يسافر لسنوات عديدة ،
أسمنتج الملك أن بروس قد تورط Committed فى ارتكاب ذنوب
كثيرة عندما كان شابا ، فكان عليه أن يقضى مدة طويلة فى تأدية أعمال مثل
القيام بالتجوال فى المناطق المجهولة حتى يكفر عن ذنوبه His Sins
وأراد الملك أن يعرف من بروس هل كل الذنوب التى ارتكبها كانت
مع النساء ، فقد أجابه بروس بتواضع بقوله « من المحتمل أن يكون
بعضها قد ارتكب مع النساء ، وقد أقنعت هذه الاجابة الملك الذى
دعى بروس للجلوس على وسادة أثناء الوقت الباقى من المقابلة

The interview

وفى اليوم التالى ، عاد بروس ليحضر الهدايا ، وفى تلك الأثناء
شاهد أحد خدم الملك يقوم بتدليك جسم سيده (الملك) بدهن غيل كريبه
الرائحة • وكان الغرض من هذا التدليك أن يظل جسم الملك قويا وأن تظل
بشرته ناعمة • واقترح الملك على بروس أن يحاول معالجة جسمه بهذا الدهان
(المرهم الدهنى) ، وقال الملك لبروس أن هذا الدهان يمنع شعرك من الاحمرار •

وكان هيكال السلطة فى سنار ، كما فى الحبشة ، فأن الشخص المهيمن
على السلطة لم يكن الملك ، ولكن كان الوزير الذى يدعى الشيخ عدلان
والذى كان يمتلك قطيعا من الفرسان العربية ، هذا فضلا عن امتلاكه لجيش
من الخيالة الذين كانوا يرتدون الخوز والدروع • ولكن على الرغم من
ذلك فقد شاهد بروس أن امبراطورية الفونج كانت فى حالة من الفوضى
والحرب الأهلية ، مثل التى كانت فى أثيوبيا • وقد شكر بروس الملك ،
وطلب منه أن يسمح له بمغادرة سنار ، ولكن الملك لم يوافق له بمغادرة
البلاد الا بعد أن يستولى على كل ممتلكاته (ممتلكات بروس) •

وفى شهر سبتمبر من عام ١٧٧٢ ، اتخذ بروس طريقته الى النيل
الأبيض ، ثم يتوجه بعد ذلك الى القاهرة التى توجد على بعد ٢٠٠٠ ميل

من النهر ، واستغرقت هذه المسافة ثلاثة أسابيع من السفر حتى وصل الى نقطة التقاء النيل الأبيض بالأزرق أى عند موقع قرية الخرطوم فى ذلك الوقت ، ولاحظ بروس أن النيل الأبيض كان عميقا ، بل وكان أكثر استمرارا فى جريانه من النيل الأزرق • وينبع النيل الأبيض من منطقة خط الاستواء التى تهطل الأمطار عليها على مدار السنة ، وكتب بروس يقول ما نصه : « أن النيل الأبيض لم يعان من نقص المياه التى يعانى منها النيل الأزرق خلال فترة الجفاف التى تستمر شهور وكيفما كان الحال ، فأن هذا يدل على التناقض ، وقد أصر بروس على تسمية النهر السذى اكتشفه « بالنيل » وطبقا لتقديره ، كان النيل الأزرق يمثل المجرى الرئيسى للنيل ، ويمثل النيل الأبيض فرع للنيل الأزرق •

ورغم أن بروس كان يتمتع بقوة جسمانية وشجاعة غير مشكوك فيها ، ألا أنه كان يشعر فى نفس الوقت بالتعب والاحباط • ومما زاد الطين بلة فقد أصيب بروس بمرض دودة غينيا Guinea Worm ، التى تمثل مرضا طفيليا ، وكان قد أصاب المرض أحد رجليه ، مما جعل المشى بالنسبة له مسألة صعبة • ورغم ذلك فقد وصل بروس الى سوق مدينة شندى ، وكان ذلك فى شهر أكتوبر من نفس العام ، واستقر فى هذه المدينة لمدة أسبوعين • وبالقرب من هذه المدينة اكتشف بقايا مستعمرة قديمة وقضى بروس الوقت فى هذه المدينة فى فحص اطلال هذه المستعمرة • وعاش بروس هذه الفترة على نفقة بلاط ملكة شندى ، التى كانت امرأة غريبة الأطوار وتبلغ من العمر أربعين عاما فقد أصيبت بأحباط ولكنها فرحت عندما قبل بروس يدها وتعجبت سائلة هل تعرف انه لم يقبل يدى أحد من قبل ؟ فقال بروس « أن هذا التصرف من جانبى يعنى الاحترام ، وشرح لها أن هذا أمرا عاديا وأن ذلك يعنى التحية ففى انجلترا يقتصر ذلك على الملوك والملكات • وقد زادها ذلك سرورا ، ومع هذا فأنها فى الواقع كانت متملقة ، وقد منحت بروس دليلا كى يصطحبه فى الرحلة » • وفى نهاية الشهر واصل بروس مسيرته مع افراد بعثته المكونة من تسعة أفراد ، الذين كانوا جميعا يركبون الجمال ، وفى أثناء سير البعثة مرت

ببعض الأطلال ، التى أرجعها بروس الى أنها بقايا مروي القديمة عاصمة
النوبة ، وتقول الاسطورة أن مروي أسست بمعرفة موسى Moses
نثريفا لأبنة الفرعون مير in honour of Merr الذى كان قد
نثري موسى *

وقبل أن يعبر بروس نهر العظيرة الرافد الاخير للنهر ، أو آخر
روافد النيل ، مكثت البعثة بها بعض الوقت حتى يتمكن بروس من شراء
بعض الأبل ، لانه فى ذلك الوقت كان على بعثته أن تواجه عبور الصحراء
التي تبلغ مسافتها ٤٠٠ ميل ، وكان بروس قد اختار عبورها لأنه يفضل
أطول الطرق التي تتبع نهر النيل * وفى ١١ من شهر نوفمبر من نفس
العام ، وبينما كانت جمال البعثة محملة اغتسل جيمس بروس فى النيل
وقال ما نصه : « هنا اسمح لنفسى أن أقول لمعارفى القدماء أنه لمن
الأمور المشكوك فيها أن نتقابل هنا مرة ثانية » *

«And thus took leave of my old acquaintance, very doubtful if we
should ever meet again.

وكان بروس يعتبر الرحلة فى الصحراء كالكابوس بسبب حرارة
الشمس وبسبب العواصف الرملية * ففى تلك الأثناء ، كانت رجله قد
آلمته كما تقرحت رقبته وأدميت قدماء ، وعلاوة على ذلك فقد نفقت
الجمال الواحدة تلو الأخرى وعندما وصلت البعثة الى بئر ماء a waterhole
كانت الفرصة سانحة لملئه بالجمال الميتة (البئر) * وبعد ثمانية عشر يوما
من المسير وصلت البعثة الى أسوان ، وإبحرت مع النيل الى القاهرة *

وقد قضى جيمس بروس عدة شهور فى أوروبا قبل عودته الى إنجلترا *
وفى إيطاليا غضب بروس عندما قابل النبيل الايطالى الذى عرف بروس
أنه كان قد تزوج من الفتاة التي تركها بروس فى اسكتلندا متحديا بذلك
الرجل سىء الحظ (بروس) وبذلك نشبت مبارزة كلامية فيما بينهما *
وقد كتب الأمير الايطالى الذى لم يسمع أبدا عن بروس اعتذارا جاء
فيه « أنه يعتذر وأنه أخطأ خطأ غير مقصود » ، عند ذلك رحل جيمس

بروس الى لندن التى وصلها فى شهر يونيو عام ١٧٧٤ ، بعد غياب دام
أحد عشر عاما *

ويقول الكاتب هورس وول بول Horace walpole أن بروس خلق
إحساسا مختلفا فى الدوائر الرسمية البريطانية ، وأن كل أوربا لا يمكنها
أن تذكر فقرة جديدة عن أفريقيا زيادة على ما ذكره بروس ، حيث
أنه المسبب الأول فى ظهور أفريقيا الى حيز الوجود *

ويرجع الفضل فى ذلك الى المستر جيمس بروس الذى عاش ثلاث
سنوات فى البلاط الأثيوبى ، فكان يتناول أفطاره كل صباح مع حاشية
القصر الذين يتناولون لحوم الأبقار النيئة *

وقد اعتبرت قصص ومغامرات جيمس بروس قصصا من نسج الخيال
بحيث أن معظم أجزائها لا يصدقها أحد ، وقد أعد الملك جورج الثالث
استقبالا رسميا لبروس وتسلم منه بكل امتنان جميع الرسومات التى
قام هو والفنان بالوجانى برسمها ، ومع ذلك فلم يحظ بأى اعتراف رسمى ،
حتى أن الجمعيات العلمية انكرت ادعاء بروس الخاص بالكشف عن منابع
النيل *

وكان الدكتور جونسون Dr. Johnson واحدا من خصوم بروس
المشهورين ، وكان جونسون هذا فى ذلك الوقت رجلا مسنا . وقد ألف
جونسون كتابا بعنوان راسليس أمير أثيوبيا Rasselas the prince of Abyssinia
وقد قدم جونسون الحبشة فى هذا الكتاب على نحو مثالى ، بحيث أنها
تختلف عن الواقع ، كما أنه ترجم الى الإنجليزية رحلة الأب لوبو الى
الحبشة Father Lobo's A Voyage to Abyssinia . وكان جونسون
معجبا بالجزويت ، وغضب عندما نعته بروس بالكذاب والأفك . وقد
رد جونسون على ذلك بقوله أن بروس غير جدير بالثقة تماما *

أدى الأستقبال المفاتر لجيمس بروس الى الأذى والأهانة ، مما حثم عليه التقاعد ومراعاة شئونهِ في اسكتلندا ، وعاش حياة زوجية سعيدة ولكنها كانت حياة قصيرة . وعندما ماتت زوجته طلب منه أحد أصدقائه بالحاح أن ينسى حزنه ، وذلك عن طريق كتابة تقرير عن مغامراته . وبالفعل كتب بروس مذكراته في كتاب بعنوان « رحلات للكشف عن منبع النيل » Travels to discover the source of the Nile . وقد نشر هذا الكتاب عام ١٧٩٠ م ، أى بعد سبعة عشر عاماً من عودته من افريقيا ومن الممكن قراءة هذا الكتاب اليوم ، بحيث يحس القارئ بمتعة كبيرة . وقد أرتاب بروس في أن الكتاب سوف يقوده الى المتاعب . وعلى هذا ، فقد ذكر بروس في مقدمة هذا الكتاب أنه سوف لا يجيب على أى اعتراضات تافهة ، أو تحامل Captious أو تفاهات من المحتمل أن توجه ضده ، وقال بروس ما نصه : « عندما رغبت في كتابة التقرير كتبتهُ » وبعبارة : «What I have written, I have written»

وكان بروس على حق من كل هذه المضايقات . فقد تناول النقاد الكتاب وقاموا بنقده بطريقة قاسية وجاء في مقدمهم أن القصص التي وردت في كتاب بروس كانت عبارة عن سخریات ، ورفض كثير من الناس تصديقها ، بل قالوا أنه لم ير أبداً أثيوبيا ، ولكن على وجه التقريب زار منبع النيل .

وبسبب كل هذا ، فقد أصبح بروس معتاباً ومتشائماً وتفوق أكثر من مرة في صومعته التي ظل بها حتى وافته منيته عام ١٧٧٩ م ، وهو في سن الرابعة والستين من عمره ، وقد حكم معاصروه على معرفته لرحلته بأجحاف Unfairly .

ولقد استمر الجدل حول المسائل الصحيحة والمسائل الخاطئة في تقرير بروس عن مغامراته ، وحتى الى ذلك اليوم ، فهناك يوجد كثير من الناس الذين اعتقدوا في أن بروس كان أفاقاً لأن كتابه في الحقيقة ،

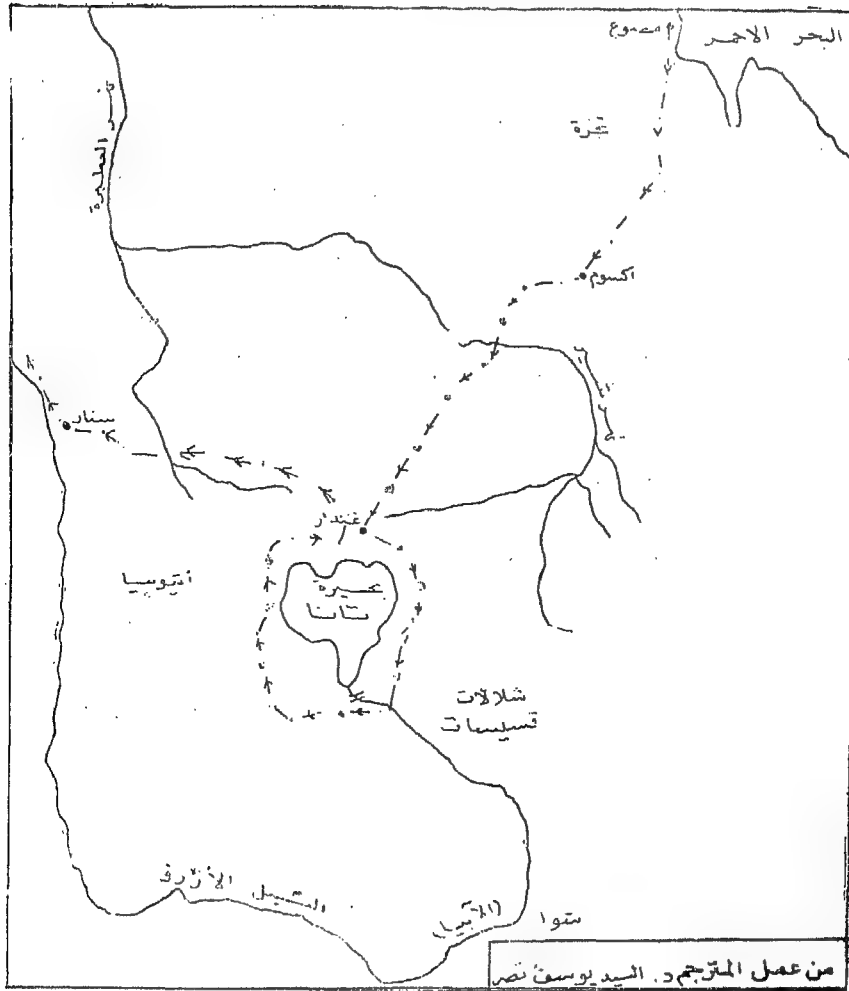
كان *** يضم بين صفحاته بعض المبالغات Exaggerations والمتناقضات inconsistencies ولكن فيما بعد وجد الرحالة والمكتشفون أن كتابه يعتبر على جانب من الأهمية حيث أنه كان صحيحا ودقيقا ، ولا يوجد شك بالمرّة في سفر بروس الى الحبشة ، وزيارته لمنبع النيل الأزرق • ومن المؤسف حقا أن كبريائه وطموحه قاداه الى أن يجحف أسماء مثل القسيسان بيز ولوبو ، وأن يخفى حقيقة أن بالوجاني كان قد رأى أيضا منبع النيل الأزرق The fountains of the blue Nile وكان هذا عيبا defect خطيرا في رجل عرف بالشجاعة وسعة الحيلة ، والشهامة ، والود والإنسانية •

وأخيرا فإذا كان بروس قد أكد ما رآه المكتشفون الأوائل ، فإنه قد سافر مسافات طويلة وتجول في مساحات شاسعة وقدم ثروة ذات قيمة عظيمة من المعلومات • وبهذه الطريقة فإنه فتح آفاقا جديدة للرحالة الذين جاءوا من بعده ، ويمكن القول عنه بحق أنه أول مكتشف علمي لأفريقيا •



صورة المفكر جيمس بروسن الذي جاء إلى الحبشة عام ١٧٦٨ ليكشف
منابع النيل الأزرق . من اعداد المترجم

الخريطة رقم ١٥ الخاصة
ببعثة جيمس بروس عام ١٧٦٩



بدأ جيمس بروس رحلته من مصوع مارا بأكسوم فغندار ، ثم طاف حول بحيرة تانا وشاهد شلالات تسييسات . وبعد ذلك واصل رحلته حتى سنار ، ومنها وصل الى مصر ، ثم سافر بعد ذلك الى إنجلترا .

التعليق على الفصل (٣)

نستخلص من دراستنا للفصل الثالث عبرا تاريخية على جانب كبير من الأهمية ، أولها أن الإنسان من الممكن أن يكره المعيشة في موطنه الأصلي الذي عاش فيه طفولته ، والذي كان يحبه ، اذا تعرض لظروف صعبة للغاية يتحتم معها عدم مقدرته على المعيشة في موطنه الأصلي (أقصد مسقط رأسه) • لهذا علينا ان نتساءل عن الاسباب أو الدوافع التي دفعت جيمس بروس أن يتخذ مثل هذا القرار الخطير فيمكن القول أن جيمس بروس رغب في أن ينسى مشاكله وهمومه ، هذا الرجل الذي لم يتحمل صدمة وفاة زوجته المحبوبة اليه ، فعلى أثر وفاتها كره بروس كل شيء بل ورفض كل شيء ، وفكر في الرحيل الى مكان آخر جديد يبدأ فيه صفحة جديدة ، وينسى همومه ومشاكله حتى يتمكن من أن يحقق لنفسه الجدد •

ويمكن القول أنه عندما تعرض بروس الى صدمة وفاة زوجته انتابه اليأس ففكر أول ما فكر في السفر الى افريقيا ، القارة التي كانت أجزاء كبيرة منها لا تزال مجهولة ، كي يحقق لنفسه مجدا في مجال الكشف الجغرافية الأفريقية ، هذا من ناحية ، ولكي يشغل نفسه حتى ينسى همومه ، هذا من ناحية أخرى ، ولكن قبل قيامه برحلته هذه كان عليه أن يعد نفسه اعدادا جيدا ، فكان من هذا الأعداد أنه تعلم عددا من اللغات التي يحتاج اليها • وكان من هذه اللغات التي تعلمها بروس الأسبانية والبرتغالية والفرنسية والعربية ، فضلا عن تعلمه الأمهرية (لغة الأحباش) وكان الهدف من وراء ذلك كله مواجهة كل الاحتمالات التي من الممكن أن تصادفه أثناء الرحلة فيكون لديه المقدرة على التحدث مع أي شخص من غير بنى جنسه ، أو قراءة أي مرجع بأي لغة • زيادة على ذلك ، تعلم مهنة الطب كي يستخدمها أولا كوسيلة الاستجداء عطف المسؤولين في أي بلد يصل اليه ، والحصول منهم

على ما يريد (وهذا ما حدث بالفعل مع بروس في الإسكندرية عندما قُتِلَ بمعالجة كبار القوم فيها الذين حصل منهم على توصيات الى حاكم مصوع وملك سنار) • وثانيا كى يقى نفسه من الأمراض التى يتعرض لها وبخاصة وأنه كان ذاهبا الى قارة هوبوءة بالأمراض المختلفة •

والى جانب ما سبق فقد أجاد بروس فن التنكر ، وذلك بأرتدائه للزى العربى ، فأصبح وكأنه عربيا تماما ، ولا شك أن هذا الأسلوب سوف يمكنه بكل سهولة من التوغل فى داخل هذه البلاد التى يتكلم سكانها العربية ، والذين يرتدون أيضا الجلباب ، وبهذه الطريقة تمكن جيمس بروس على أقل تقدير أن يسهل لنفسه مهمته •

والى جانب هذا فأن جيمس بروس تميز بالجلد والجدية ، ويتضح ذلك من أنه تمكن ومجموعته من الصعود الى تلال الحبشة والمسير بين صخورها ووديانها ، مما أصاب اقدامه بتقرحات كانت تؤلمه ، ولكن على الرغم من ذلك فأنها لم تمنعه من مواصلة مهمته ، وكان من الممكن أن تصيبه بمضاعفات خطيرة ، ولكنه تمكن بأسلوبه من التغلب على كل هذه العقبات التى اعتبرها بسيطة فى سبيل تحقيق هدفه الأسمى ، الا وهو الوصول الى منبع النيل الأزرق •

وقد تميز بروس أيضا بسعة الحيلة والذكاء ، ويتضح ذلك من مواقفه فى مضر وذلك باستمالة كبارات القوم والحصول منهم على تصاريح تخول له تسهيل مهمته • كما نجح أيضا فى استمالة حاكم مصوع الذى رفض أن يسمح له بمغادرة الميناء الا بعد أن يجرده من كل أمتعته ، ولكنه المح له بالتصريح الذى كان يحملته معه من مصر ، فيبدو أن هذا الحاكم قد خاف من ذلك وسمح له بمواصلة المسير الى داخلية الحبشة ومن الجدير بالذكر أن منطقة البحر الأحمر كانت تخضع للدولة العثمانية فى ذلك الوقت وبالتالى فأن حاكم مصوع كان يتبع لهذه الدولة حتى ولو اسميا • ومن حيله أيضا أنه عندما توطدت علاقته مع الأميرة أثير زوجة الراس ميتشل اضطر الى التخلص من هذه العلاقة حتى لا يتورط فى مالا يحمد عقباه ، بل ويدخل نفسه فى مشاكل هو فى غنى عنها •

وتتضح لباقيقته أيضا مع الشيخ فاسيل حاكم منطقة بحيرة تانا الذى رفض السماح لبروس بزيارة النهر ، وقال بروس فى هذا الصدد ما نصه :

« لقد تعرضت لما كنت اتوقعه ، فقد ضاعت آمالى فى الوصول الى منبع النيل الأزرق ، بل انتهت آمالى الى الابد ، وكما ضاعت ولسنوات عديدة كل متاعبى وأموالى ووقتى وكل معاناتى ، ليست بسبب عقبة كأداء ولكن بسبب حقد رجل همجى » • ولكن رغم ذلك فقد تمكن بذكائه من استمالة هذا الشيخ ، وذلك بمهارته فى الفروسية وفى اطلاق النيران مما جعل هذا الشيخ أن يسمح له بالسفر تقديرا لكفاءته •

ولم تقف حيل بروس عند هذا الحد بل أنه قام بتصرفات ، ربما كان هو نفسه غير راض عنها ، ولكن مادفعه لاقترافها هو رغبته فى تحقيق هدفه الذى كرس حياته من أجله (كشف منابع النيل) • ويتضح ذلك من موقفه من شيخ مدينة تيوا ، الذى شك فى سوء سلوك بروس مع زوجاته ، ولكن بروس تدارك الأمر قبل غوات الأوان ، وكف عن ممارسة هذا السلوك • الذى من المحتمل أن يكون قد اقترفه عن طيب خاطر ، أو اقترفه لكى يحقق لنفسه التقرب من نساء القصر ويضمن لنفسه الاستمرار والاستقرار ، ومما لا شك فيه أن هذا العمل الذى قام به بروس كان عملا كبيرا وخطيرا لا يقوم به أحد الا بروس نفسه فلو تصورنا الرحلة الطويلة التى قطعها لوجدناه حقا ، أنه بطل وكفاء ويستحق كل تقدير •

ولكن على الرغم من أنه أنهى رحلته التى بدأت من أسوان فصحراء شرق السودان فالبحر الأحمر ، فمصوع فغندار فسنار فأسوان فالقاهرة وأخيرا وصل الى إنجلترا ، الا أنه لم يلق ترحيبا من المسؤولين فى بريطانيا بل قوبل بالذكران وعدم التصديق ، حتى أن الملك جورج الثالث نفسه لم يستقبله الاستقبال اللائق بمكتشف له قدره ، بل أستقبله بصفة عادية ولم يأخذ عمله مأخذ الجد ، مع أن هذا الملك كان قد تسلم منه الكثير من الرسومات التى كان قد طلبها من بروس قبل بدء الرحلة •

وفضلا عن ذلك كله ، فإن الجمعيات العلمية في بريطانيا لم تعترف بعمل بروس بل ورغضت تصديقه • ولم تنته المأساة عند هذا الحد ، بل نجد بروس يتعرض الى النقد اللاذع من جانب الكتاب • ويعتبر هذا في حد ذاته صدمة قوية لا تقل في ضراوتها عن الصدمة الأولى التي تعرض لها عند وفاة زوجته ، وربما لو كان بروس في كامل قوته لبحث عن مكان آخر يريح فيه نفسه أو لبحث عن شيء آخر يقوم به كي يحقق مجدا آخر •

وظل بروس هكذا يتعرض للنقد مدة طويلة وسبب ذلك يرجع الى أنه لم يكن لديه أجهزة تصوير يصور بها كل الأشياء التي لمسها ورآها حتى تكون دليلا ماديا على صحة رحلته ، وعلى صحة ما ذكر ، ولكن لسوء حظه لم تكن أجهزة التصوير قد وجدت بعد • ومما لا شك فيه أن عدم وجود أجهزة للتصوير لعبت دورا هاما فيما تعرض له بروس من نقد واهانات •

ورغم ذلك كله فإنه يعاب على بروس أنه كان محبا لنفسه بل ومحبا للظهور وتحقيق المجد على غيره ، وقد أدى به ذلك الى أن يكون ناكرا لجهد الغير ، ويتضح ذلك جليا من مهاجمته للقسيسين بيز ولوبو اللذين كانا قد سبقاه في الوصول الى منبع النيل الأزرق • كما أنه اغفل حق بالوجانى الرسام الإيطالى ، الذى كان يرافقه في هذه الرحلة حيث قال بروس أن بالوجانى قد مات قبل أن يصل الى منبع النيل الأزرق • وفي الحقيقة كان بالوجانى يرافقه في زيارته لمنبع النيل الأزرق •

ولكن على الرغم من كل المصاعب التي واجهها جيمس بروس والتي اتعبت حياته وجعلته يعيش حالة من اليأس أشد مما كان عليه الحال عقب وفاة زوجته وقبل بدء رحلته ، الا أن الجمعيات العلمية في لندن ، وكذلك الرحالة الذين زاروا افريقيا فيما بعد أقرؤا جميعا بأهمية الرحلة التي قام بها بروس ، بل وأقرؤا بدرجة كبيرة بما جاء في كتابه من معلومات ، فقد تأكد بصورة لا تقبل الشك من أنه كان على صواب بل واعتبروه من

الرحالة العظام الذين ساهموا بحق في الكشف الافريقية . ولكن لسوء الحظ فإن هذا التبجيل قد جاء متأخراً أى بعد فوات الأوان .

وكان من أهم نتائج رحلة جيمس بروس أنه تمكن من اللقاء الضوء على أحوال الحبشة فتعرض لعادات سكانها ولنظامها السياسى والاجتماعى كما قدم وصفا غاية فى الروعة لناظرها الطبيعية ، هذا فضلا عن أنه نقل لنا صورة عن حياة السكان فى كل الممالك التى مر من خلالها مثل مملكة سنار وتيوا Tewa ومنطقة النيل النوبى .

وأخيرا اختتم تعليقى بأن بروس كان رجلا عظيما ورحالة على جانب من الأهمية ، حيث أنه لعب دورا بارزا رغم كل الصعاب التى اعترضت طريقه فهو على أى مقياس من الابطال ولا يمكن بأى حال انكار جهده فى مجال الكشف الافريقية ، وبخاصة أنه ذهب الى افريقيا فى وقت كان لا يمكن للإنسان الوصول الى هذه المناطق الا اذا كان مغامرا حقا ، بمعنى أنه كان لا يخشى الموت سواء أكان ذلك بسبب الأغتيالات أو بسبب الأمراض المتوطنة . فلا يمكن للإنسان المعاصر الذهاب الى ماذهب اليه جيمس بروس لا رتياد هذه المناطق الأفريقية المجهولة ، سيرا على الاقدام ويعرض نفسه لمخاطر جسيمة .

وبقى لى أن أضيف هنا أن بروس لم يشر الى سوق شندى ربما لأنه كان قد وصل الى شندى فى غير موعد انعقاد سوقها . مع أن جيون لويس بركهاردت كان قد ذكر أن شندى ملتقى طرق التجارة ، فيخرج منها طريق يتجه الى مصر وآخر يتجه شرقا الى الجزيرة العربية وثالثا الى جنوب الحبشة ، ورابعا يتجه غربا الى بحيرة تشاد . وكان من أهم السلع التى ترد الى سوقها الابل والعبيد واللحم واللبن والتبأك والبن وكان التجار يروجون لتجارة ريش النعام ، بأصوات مرتفعة ، هذا فضلا عن وجود التوابل والاحجية والسروج .

وكانت الخيول تأتى الى سوق شندى من د نقله والذهب من الحبشة ،

والخرز من مصر والملابس الجميلة من الهند ، والعطور من الجزيرة العربية ، والأدوات الزجاجية من فينيسيا (البندقية) وأمواس الشفيرة من ألمانيا ، والورق من إيطاليا ، أى أن هذا السوق كان سوقا عالميا . ولكن رغم ذلك فأن كل هذه السلع المختلفة كانت لا تقارن بالسلعة البشرية (العبيد) فقد قدر جون لويس بركهاردت عدد العبيد الذين كانوا يصدرون من سوق شندى كل سنة بنحو ٥٠٠٠ عبد . وكان هذا العدد يشتمل على الفتيات اللاتي يبلغن من العمر أقل من خمسة عشرة سنة ، وكان سعر الفتاة الواحدة ٢٥ دولارا أسبانيا ، بينما بلغ سعر الفتى ١٥ دولارا أسبانيا . وكانت أعمار الأطفال الذين يعرضون للبيع في سوق شندى تتراوح فيما بين ٤ ، ٥ سنوات (١) . وللاستزادة أنظر كتاب النيل الأزرق لأن مورهد .

(1) Elspeth Huxley : Encyclopedia of Discoveries and Exploration, the challenge of Africa. No. 12 London, 1971. p. 81.

الفصل الرابع

منجـوبـارك ونهر النيجـر

عندما كان بروس يواصل تجواله (في الحبشة) اندلعت الشرارة الأولى في الحرب الطويلة ضد تجارة الرقيق . وقد ساهمت الدول الأوروبية في هذه الحروب . ففي عام ١٧٧٢ م ، أصدر اللورد مانسفيلد Lord Mansfield قاضى محكمة انجلترا العليا حكما قضائيا يقضى بتحرير كل العبيد الذين يعيشون على التراب الإنجليزي .

وقد تمثلت المرحلة التالية في إلغاء تجارة الرقيق البريطانية وبعد ذلك بدأ التدخل في افريقيا ، وكان على المؤيدين لالغاء تجارة الرقيق ان يخوضوا حربا طويلة الأمد ضد المعارضين بقوة لسياسة إلغاء الرقيق ، حيث كان لهم مصالح ثابتة في استمرار هذه التجارة . وفي عام ١٨٠٧ ، أصدر مجلس العموم البريطاني مرسوما يقضى بأنه بعد شهر يناير من عام ١٨٠٨ ، ينتهى التعامل في تجارة الرقيق سواء في داخل افريقيا أو في نقل العبيد منها الى أى مكان آخر ، وقد أعلن أن هذه التجارة أصبحت محظورة وغير شرعية unlawful . وفي عام ١٨٠٧ ، خصصت نسبة من الأرض التى كان قد تم شراؤها من الملك المحلى عام ١٧٨٨ م ، كى تنشأ عليها مستعمرة تكون بمثابة مستوطنة للعبيد الأفريقيين المحررين ، وأصبحت مستعمرة تابعة للتاج البريطانى Crown Colony

وفي غضون ذلك ، كانت السلطات أو الحكومات (الأوروبية) على علم بأنه في حالة إلغاء تجارة الرقيق فمن المحتمل على هذه الحكومات أن تحل تجارة شرعية محل تلك التجارة ، على أن تحدد المنطقة التى يمكن ارتيادها ومسحها وكشفها قبل أن تبحث امكانيات هذه التجارة مع داخل افريقيا .

وكان النصور الأول للكشف الأفريقي هو السير جوزيف بانكس Sir Joseph Banks والعالم البريطاني الذي أبحر حول العالم مع الكابتن كوك Captain Cook فقد ولد بانكس في عام ١٧٤٣ م ، وهو ابن رجل من ملاك الاراضى الأثرياء ، وتولى بانكس رئاسة الجمعية الملكية لما يزيد على ٤٠ عاما ، وتعتبر هذه الجمعية أقدم هيئة علمية بريطانية ، بل وأكثرها شهرة . ويعتبر بانكس أيضا العضو المؤسس للنادى الذى كان يلتقى فيه كل أسبوع ليتناول العشاء ، ومناقشة المواضيع العلمية . وفى السابع من شهر يونيو عام ١٧٨٨ م ترأس بانكس الحديث الذى انصب على افريقيا وعلى داخلها المجهول ، وقبل نهاية الجلسة المسائية كون الأعضاء من أنفسهم جمعية كان الهدف منها تنشيط حركة الكشف الجغرافى للأقاليم الداخلية من افريقيا ، وعرفت بأسم الجمعية الأفريقية «Association for promoting the Discovery of the Inland Districts of Africa» or the African Association as it came to be called.

وكان من أهداف الجمعية الجديدة ايجاد تجارة بين بريطانيا وغرب افريقيا ، على أن تتبع مجرى النيجر، هذا النهر الذى لم يراه أى أوربى والذى تقع على شواطئه مدينة تمبكتو المتألقة . وقد اعتقد بعض الجغرافيين أن نهر النيجر فرع من فروع نهر النيل ، ولكن على الرغم من ذلك فأنهم لم يستطيعوا أن يقرروا أن هذا النهر ينبع من الغرب أم الشرق ، واعتقد البعض الآخر من الجغرافيين بأنه من المحتمل أن يكون هذا النهر أحد فروع نهر الكونغو أو ربما يكون هو نهر الكونغو نفسه . ومع ذلك فقد كانت هذه تخيلات ، والسبب فى ذلك يرجع الى أن الكشف البريطانى لهذه المنطقة لم يكن قد تعدى بعد أنهار السنغال وجامبيا ، بل كان كل ما تم كشفه من هذه المنطقة هو عبارة عن كشف مسافات قصيرة كانت قد تمت فى شبكة أنهار الزيت التى تصب مياهها فى ساحل خليج غينيا .

وكانت الحاجة الملحة أمام الجمعية الأفريقية أن تقوم بتجنيد المتطوعين الذين يرغبون فى الذهاب الى غرب افريقيا على وجه السرعة .

وقد سر سكرتير الجمعية الأفريقية عندما استدعاه أحد المتطوعين في صباح أحد الأيام وقال له أنه على أتم استعداد للقيام برحلة كشفية في اليوم التالي • وكان هذا المتطوع مغامر أمريكي ، يدعى جون ليديارد John Ledyard الذي يبلغ من العمر سبعة وثلاثين عاما • وقد ولد ليديارد في بلدة جروتون الواقعة في ولاية كونيتيكت Groton Connecticut ، وعندما وصل ليديارد الى إنجلترا أول الأمر التحق بالقوات البحرية البريطانية ، ثم أبحر بعد ذلك مع الكابتن كوك في رحلته الأخيرة الى البحار الجنوبية • وكان ليديارد قد تقابل مع السير جوزيف بانكس ، الذي أرسله على رأس بعثة تنطوي عليها مخاطر جسيمة الى كامشاتكا Kamchatka في سيبيريا Siberia وهناك لم يقدم طلبا للبقاء في سيبيريا ، فأبعدهت السلطات الروسية عن البلاد ، وعلى أثر ذلك عاد الى لندن لخواوى الوفاض • وفي ذلك الوقت وجهت الجمعية الأفريقية الدعوة اليه كي يذهب الى مصر ، ومنها يعبر الصحراء الليبية حتى يصل الى نهر النيجر • وكان ليديارد مصمما على الوصول الى مدينة تمبكتو ، ولكنه لم يتمكن من الذهاب أبعد من القاهرة ، وذلك بسبب تعرضه للمرض الذي أودى بحياته •

وفي الوقت الذي كان فيه ليديارد في طريقه الى مصر ، أرسلت الجمعية الافريقية متطوعا آخرأ الى شمال أفريقيا ، يدعى لوكاس Lucas وكانت الجمعية الافريقية قد زودته بتعليمات مفادها القيام بعبور الصحراء ، ثم التوجه بعد ذلك الى نهر النيجر • وكل ما أمكن لوكاس القيام به هو جمع كمية من المعلومات التي تشير الى وجود طرق تجارية تمر من الصحراء • وفي عام ١٧٨٩ م ، جاء من بعده رحالة آخر يدعى فردريك هورن Frederick Horne man الذي بدأ رحلته من مصر ثم عبر الصحراء الليبية ووصل بعد ذلك الى واحة مرزوق Marzuk التي كانت تمثل مركزا تجاريا هاما في ذلك الوقت ، وتمثل كذلك عاصمة لمنطقة فزان Fezzan ، وبعد أن غادر فردريك واحة مرزوق ، اختفى دون أن يترك أى أثر • ومن بعد اختفاء فردريك ، جاء رحالة رابع ، يدعى

الميجور هوفتون Major Houghton الذى وصل الى الساحل الغربى ، وبدأ سيره مع نهر جامبيا ووصل بعيدا الى ميديثا Medina فى السنغال ، وبعد ذلك نصب له رجال القبائل كميتا فاغتالوه وسلبوه أمتعته

وبعد هذه النكسات الأولية تذكر بانكس طبيبيا شابا كان يعمل على متن سفينة ، وكان قد أحضر معه مجموعة من النباتات أثناء الرحلة التى قام بها الى جزر الهند الغربية ، وكان هذا الطبيب يدعى الدكتور منجوبارك Mungo Park ، الذى ولد فى عام ١٧٧١ م ، وكان هو الطفل السابع لفلاح اسكتلندى ، يعيش فى سلكيرك شير Selkirkshire الواقعة بالقرب من نهر يارو Yarrow ، وكان بـارك قد تلقى تعليمه فى المدرسة الثانوية بالمنطقة The local grammar school وبعد ذلك أكمل دراسته الطبية فى جامعة أدنبره The University of Edinburgh

وكانت ممارسة مهنة الطب البسيطة فى ذلك الوقت فى اسكتلندا لا تشجع طموح ونشاط وتطلعات بـارك حيث كان تواقا للقيام بأى مشروع أو عمل يختبر فيه قوته وجسارته لذلك فأنه سافر الى لندن حيث تقابل مع بانكس ، ولما علم بانكس برغبة بـارك فى السفر ، استخدم بانكس نفوذه فى الحصول على وظيفة لبـارك ، بحيث يعمل كطبيب على ظهر سفينة ، وعندما سأله بـارك عن نتائج رحلته الأخيرة دعاه بانكس للذهاب الى غرب افريقيا ، وذلك للبحث عن نهر النيجر .

وكان بـارك طموحا ، وكعهد بانكس به بل وكان لديه حب استطلاع ، وكان يتميز بقوة الملاحظة الدقيقة التى تكون علامة حقيقية من علامات العالم . ولهذا قبل العرض الذى تقدم به بانكس على وجه السرعة . وفى عام ١٧٩٥ م ، أى وهو فى سن الرابعة والعشرين أبحر منجوبارك من ميناء بورثس موث Portsmouth ووصل الى نهر جامبيا بعد شهر من بدء الرحلة الخالية من الأحداث .

وكان باريك قد عرف جيدا أن الرحلة في الداخل لن تكون خالية من الأحداث وكان لديه ايمان لا حدود له infinite في قدراته الخاصة capabilities وفي نوايا الجمعية الأفريقية * وفي هذا الصدد أعلن باريك ما نصه « ينبغي على أن أهلك في رحلتى ، كما ينبغي أن تهلك معى آمالى وتوقعاتى ، وينبغي على كذلك أن أنقل جغرافية افريقيا بحيث تصبح معروفة أكثر لأهل بلدى ، وأن أفتح أمام طموحاتهم وأمام صناعتهم مصادر جديدة من الثروة ، وقنوات جديدة للتجارة ، وأننى على يقين من أننى فى أيدي رجال شرفاء ، هؤلاء الرجال الذين لم يرضوا بالبذل والعطاء ، وذلك لان خدماتى الناجحة سوف تظهر لهم جدارتى » *

وقبل أن يبدأ باريك رحلته ، قضى عدة شهور فى تعلم لغة الماندينجو Mandingo التى يتحدث بها سكان منطقة كبيرة من الداخل ، وكان باريك يهدف من وراء تعلم هذه اللغة التحدث الى السكان المحليين دون مترجم * وفى نهاية العام ، غادر باريك بيزانيا Pisanja الواقعة على نهر جامبيا ، وكان بصحبته اثنين فقط من الخدم الأفريقيين ، بالإضافة الى أنه حمل معه كميات صغيرة من المعدات * وكان باريك فى تلك الأثناء مرتديا زيه الوطنى (الزى الأسكتلندى) وقد تكون هذا الزى من بنطلون مثبت أسفل الركبة ، ومن معطف ثقيل زاهى الزرقة a Heavy bright blue Coat with gilt buttons ، مزود بزراير مذهب ، كما كان يرتدى قبة صلبة وطويلة * وقد ثبت أن هذه الزراير كانت مغرية للغاية ، وأنه من الضرورى مقاومة هذا الأغراء ، وقبل أن يمضى على بدء رحلة باريك وقت طويل ، سرق معطفه ومعظم أمتعته أو ممتلكاته ، ومع ذلك فقد نجح فى الاحتفاظ بقبعته ، التى لم يقتصر استخدامها كغطاء للرأس ، ولكنه استخدمها كمكان يخفى فيه ملاحظاته التى شملت سكان غرب افريقيا ومنتجاتهم وتجارهم ، ونباتاتهم وحيواناتهم ، وكان منجوبارك دقيقا فى ملاحظاته تماما لدرجة أنه لم يسجل حقيقة قابلة للشك أو للنقاش *

وفى البداية كان كل شىء على ما يرام حيث كانت البعثة تتجه صوب

الشرق مارة من خلال دول صغيرة يحكمها ملوك من الزنوج الذين كسب بارك صداقتهم عن طريق استعداده العاطفى وعن طريق أسلوبه السهل اللطيف ، وعن طريق مزاجه المعتدل غير المتغير . وفضلا عن ذلك فقد زودت هذه الصفات الجميلة بشجاعة هائلة .

وكان بارك مدركا تماما لمصير أسلافه ، ومع ذلك فإنه لم يتراجع عندما رأى المكان الفعلى فى الغابة ، هذا المكان الذى اغتيل فيه الميجور هوفتون Major Houghton

وكان ملوك هذه الدول الوثنية فى حالة حرب كل مع الآخر ، وكان هدفهم الوحيد من وراء هذه الحروب هو الاستيلاء على المساجين (أسرى الحرب) وبيعهم كعبيد ، وكانت تجارة الرقيق هى الشكل التجارى الوحيد ، حيث كانت تجارة مربحة للغاية ، وقد قرر بارك بأن مالا يقل عن ثلاثة أرباع السكان من مجموع ما قابلتهم كانوا عبيدا ، أما عن طريق أسرهم فى الحرب أو أنهم ارتكبوا احدى الجرائم أو أنهم لم يتمكنوا من دفع ديونهم . ولكن رغم ذلك فإن ملوك هذه البلاد نهبوا أمتعة بارك بل وعطلوه ، ولكنهم لم يصيبوه بضرر ، وفى الواقع ، أهتم هؤلاء الملوك بسلامته ، فقد توسلوا اليه الا يذهب بعيدا عن بلادهم .

وفى ميدينا Medina الواقعة بالقرب من النقطة التى قتل فيها هوفتون Houghton يقول يارك ما نصه : « وفى ميدينا طلب منى ملك وولى Woolli بكل لطف أن أتخلى عن غرضى فى السفر الى الداخل ، وقال لى . . لو تتبععت (خطوات هوفتون) فأنة من المحتمل أن ألقى نفس المصير . وأضاف أتنى أسيطر على السكان الذين يقطنون الجهة الشرقية مثلما أسيطر على سكان الولى ، الذين سبق لهم أن شاهدوا الرجل الأبيض من قبل ويكنون له الاحترام . مع أن السكان فى الشرق أو فى الجهة الشرقية لم يروا الرجل الأبيض ، وأنه من الممكن أن يدمرونى . بعد ذلك شكرت الملك على قلقه على بأخلاص ، وأخبرته أننى مهتم بهذه المسألة ومصمم على تنفيذها ، على الرغم من not withstanding

تل الأخطار التي تحيط بها ، فأئننى سوف أقوم بالسفر. وعندئذ هز الملك رأسه ، ولم يثنين عن عزمى » •

وقد زود هذا الملك منجوبارك بمرشد ليساعده فى المرحلة التالية من رحلته • وكان بارك متجها الى نهر النيجر • وفى الطريق كان بارك يسجل كل ملاحظاته • وعلى الفور توقف بارك ليتفحص نوع من الأثواب الخاصة بالفتكر والمصنوع من لحاء الشجر ، وكان هذا الثوب يخص غول غريب a strange bugbear وكان هذا الغول مألوفا بالنسبة لسكان مدن الماندنجو Mandingo وعرف بأسم ممبوجومبو Mumbo Jumbo وكان الرجال هم الذين يرتدون هذا الثوب (ثوب الغول) كى تبقى نسائهم خاضعة لهم ، وفيما يتعلق بالرجال فى هذه القبائل فأنهم لم يتقيدوا بتعدد الزوجات • فكل رجل يتزوج أكبر عدد من السيدات ، يمكن أن يحتفظ به بسهولة ، وكثيرا ما يحدث أن الزوجات لا تتفق فيما بينهن ، وفى بعض الأحيان كان النزاع الأسرى يصل الى الذروة لدرجة أن سلطة الزوج لم يعد فى مقدورها حفظ السلام فى بيت الزوجية House hold • وفى هذه الحالة يستدعى الممبوجومبو وهو فى كل الأحوال يكون الفيصل الحاسم •

وكان هذا الوزير القريب للعدل (والذى من المفترض أن يكون فيه الزوج نفسه أو أحد الأشخاص الذين يختارهم الزوج أيضا) ، يرتدى هذا اللبس الحقيقى والذى أشرنا اليه فيما قبل ، وأن يتسلح بصولجان يمثل السلطة العامة ثم يعلن عن قدومه ••• بصرخات مرتفعة وحزينة ••• وبعد ذلك يبدأ تمثيله الصامت pantomime وبخاصة عند اقتراب الليل ، وعلى الفور يحتشد سكان المدينة وبعد ذلك يبدأ الحفل بالأغاني والرقص الذى يستمر حتى منتصف الليل ، وعند هذا الحد يستقر رأى الممبوجومبو على المذنب ، وبعد ذلك يلقي القبض على الضحية ، وتنزع ملابسها وتصبح عارية ، وترتبط فى عمود وتجلىد بعصا الممبوجومبو وسط صياح وسخرية المحتشدين ، ومن الملاحظ أن بقية السيدات يصحن بأعلى أصواتهن فى هذه المناسبة على أخواتهن غير السعيدات •

وقبل أن يعبر منجوبارك الحدود بين دولة الولى ودولة البوندو Bondu شاهد مباراة فى المصارعة بين بطلين ، ولاحظ بارك فى تلك الأثناء قرع الطبول ، التى بواسطتها تنتظم العابهم على أى مقياس • وعند الرقص الذى يعقب المباراة تواصل هذه الطبول القرع ••••• كى تحفظ النظام بين المتفرجين حيث كانوا يقومون بتقليد بعض من جمل الماندنجو Mandingo • وهكذا فقد اكتشف بارك حقيقة مفادها أنه طالما أن القرع على الطبله يشبه أصواتا للغة بسيطة فأنها واضحة ككلمة منطوقة لأى واحد يفهم اللغة •

ولقد واصل منجوبارك أبحاثه بكل جد واستقصاء فوصف فى مذكراته الأساليب التى استعملها تجار الرقيق مع عبيدهم ، لمنعهم من الهروب ، كما قام بارك بفحص تراب الذهب وكذلك قام بفحص صبغ الملابس القطنية بالنيلة وذلك من أجل الحصول على اللون الأزرق الممتاز ، وحتى عندما سجن بارك وأحيط بالخيالة الذين جروا من خلفه وحاصروه والذين كانوا يدورون بهنادقهم التقليدية من حول رؤوسهم كما لو كانوا يعذبون حيوانا متوحشا ، فقد هدأ بارك من روع نفسه ، وذلك بتدوين الملاحظات عن الفروسية عند هؤلاء الناس •

ومع ذلك ، فقد انتظرتة متاعب فيما وراء حدود الدول الوثنية الصديقة وقبل أن يبدأ بارك رحلته أعاد تجهيز نفسه بالأمكانيات المتواضعة المتاحة وذلك بمساعدة أحد التجار الأوربيين ، وبعد ذلك واصل مسيره فى داخل الممالك الإسلامية الكبيرة ، التى كانت شعوبها تعمل على نشر العقيدة الإسلامية بين الشعوب الوثنية • ويمثل هؤلاء المسلمون (أو المراكشيون) جزء من العرب وجزء من الترنوج ، الذين كانوا يحكمون بمعرفة سلاطين أو امراء • وعلى الفور مر بارك من خلال مقاطعة يحكمها حاكم مسلم ، وفى تلك الأثناء تعرض للهجوم والسرقة • وعند هذه المنطقة أعلن خدمة الترنوج أنهم لن يستطيعوا الذهاب أبعد من ذلك لخوفهم من وقوعهم فريسة فى أيدي تجار الرقيق • لهذا اضطر بارك الى مواصلة السفر بمفرده •

ولو أن خدم بارك أسرعوا بالعودة فكان من المحتمل نجاتهم من الأسر ، ونظرا لأنهم لم يفعلوا ذلك فقد تم أسرهم ، ولم يتمكن بارك من مساعدتهم لوقوعه هو أيضا في الأسر ، وعاد بارك من الطريق الذي تبعه عند الحدود ، وطوال بقية حياته فأن منجوبارك كان دائما يحلم بتلك الايام التي قضاها في السجن بواسطة المراكشيين ، الذين عاملوه بمنتهى القسوة ، وكان من أمثلة هذه القسوة أنه في احدى المرات طلب أن يشرب ماء من أحد الآبار فأضطر رجل مسن الى جذب دلوا وملاء بالماء ، وبمجرد أن اقترب بارك من الدلو ليمسكه بيده ، تذكر هذا الرجل المسن على الفور بأن بارك رجلا أوربيا « لهذا خشى الرجل المسن أن يتنجس دلوه من شفتى (. . . . بارك) ، فسارع بسكب الماء في حوض كانت ثلاث أبقار تشرب منه ، وكان على بارك في هذه الحالة أن يشرب مع تلك الدواب beasts

وعلى الرغم من كل الأضطهادات التي تدعو الى الشفقة والتي أجبر على تحملها من أجل حصوله على المعلومات كما أنه لولا وجوده لكان خدمه حتى الآن ينعمون بالحرية ، وأن بارك نفسه لم يفقد أعصابه وراح عقله من دراسة اللغة العربية ، ولم يكن الموت بعيدا عنه . فلولا شفقة بعض النساء لكان من المحتمل أن يموت جوعا ، اذا لم يمت هو مقتولا ، هذا فضلا عن أن المراكشيين كانوا يجتفرونه بصفته مسيحيا ، ولم يصدقوا ببساطة أنه كان مكتشفا ، بل أنه كان رسولا لغزو مسلح ، والسمة الوحيدة التي بدا أنهم يقدرونها فيه هي لحيته الحمراء الوقورة ، وفي هذا الصدد يقول بارك ما نصه : « اعتقد في نفسي أنهم رأوا في هذه اللحية وقارا بالنسبة لى كمسيحي » وبعبارة :

«Ithink, in my conscience he wrote they thought it too good a beard for a christian».

وبعد ثلاثة شهور تقريبا قرر بارك بصفته أسيرا ، أن فرصته الوحيدة في الحياة هي الهروب . ويقول في هذا الصدد « أننى لو ذهبت الى الأمام بمفردى ، فأن ذلك يعنى أننى سوف أواجه صعوبات جمة ومن ناحية

أخرى ، فأن عودتى الى انجلترا ، دون أن أنجز هدف بعثتى سوف يكون أسوأ من الحالة الأولى ، وبعبارة :

«And yet, if I went forward singly, it was evident that I must sustain great difficulties. On the other hand, to return to England, without accomplishing the object of my mission, was worse than either».

ولهذا تستر في أحد خدمه السابقين والذي تصادف أنه كان مسجوناً في نفس المعسكر حيث تمكن من الهرب ، عندما كان المراكشيون نائمين وواصل منجوبارك مسيره بصعوبة لمسافة ميلين ، وعند ذلك سمع طلق نارى وقفز عليه ثلاثة من المراكشين وهم يصيحون ويلوحون بأسلحتهم ذات الأنبوبتين أو ذات الماسورتين • وعندما يكون العقل البشرى في حالة تأرجح بين الأمل واليأس لفترة من الوقت ، فأن الإنسان قد يصاب بالقلق والضيق ، بحيث لا يستقر على حال ، وفي هذه الحالة يصاحب الإنسان حالة من الراحة الكئيبة ، حيث يدرك أسوأ ما يمكن أن يحدث وهكذا كان موقفى • وبعبارة :

«He added tortured with anxiety, and hurried from one extreme to another, it affords a sort of gloomy relief to know the worst that can possibly happen; such was now my situation...»

ومن حسن الحظ أن هؤلاء المراكشين أرادوا أن يسرقوه ، ولم يرغبوا في أخذه (بارك) أسيراً أو سجيناً ، بل رغبوا في الحصول على حزمة صغيرة كانت معه بها قليل من الملابس ، وبعد ذلك تركوه وحال سبيله ، وكان بارك في حالة شديدة من الضعف بسبب الجوع والعطش والحمى ، بل وانتابته الهواجس بصفة مستمرة ، بسبب خوفه من وقوعه في الأسر مرة ثانية ، لهذا ناضل بارك طوال هذه الرحلة حيث كان متوجها الى الجنوب الشرقى • وفي شهر يوليو عام ١٧٩٦ م ، التحق بجماعة من الهاربين من بطش المراكشين ، وصحبهم الى السوق الكبير في مدينة سيجو Segou الواقعة على نهر النيجر وفي النهاية رأى منجوبارك نهر النيجر العظيم بعد بحث طويل تتلأأ مياهه تحت اشعة شمس الصباح ،

ونهر النيجر متسع مثل نهر التيمز Thames الموجود في وستمنستر Westminster ، وتتدفق مياه نهر النيجر ببطء في اتجاه الشرق •
وقال بارك « أسرعت الى الحافة ، وشربت من مياهه ونهضت وقدمت الشكر بحرارة في صلاتي الى الحاكم الأعظم لكل هذه الأشياء • وعند هذه النقطة كللت مساعي بالنجاح » •

«I hastened to the brink, and having drank of the water, lifted up my fervent thanks in prayer to the Great Ruler of all things, for having thus for Crowned my endeavours with success.»

ولم ير منجوبارك نهر النيجر فقط ، ولكنه حل واحدة من المشاكل التي حيرت الجغرافيين في أوربا ، فقد ثبت أن النهر يتدفق من الشرق وليس من الغرب •

وعند هذا الحد كان منجوبارك متعبا ، ومرتديا زيا عبارة عن خرق بالية ولكن مع ذلك ، كان لا يزال متمسكا بالقبعة الطويلة التي كان يحفظ فيها ملاحظاته السابقة ، وفي الغالب ناضل منجوبارك حتى قطع مسافة طولها مائة ميل ، بطول الشاطئ الشمالي للنهر ، فقد بذل جهدا كبيرا كي يتتبع مجراه • وفي ذلك الوقت كان فصل الأمطار قد بدأ ، وأرتفع بذلك منسوب ماء النهر بصورة مخيفة ، ولم يعد مع بارك أموال • ولكن لكي يواصل سيره ، كان عليه أن يتوغل أكثر من مرة في داخل قطر اسلامي معاد ، وكان عليه أيضا أن يتواجد بين شعب لا يستطيع أن يتحدث بلغة سكانه ، لهذا تخلى عن هدفه ، وواصل المسير لمدة اثني عشر يوما الى تمبكتو •

وقد عاد بارك من هذه الرحلة وهو في غاية الضيق ، وكان أثنائها مضطربا ، ومع ذلك فقد كان عليه أن يقطع مسافة طولها ٣٠٠ ميل تجاه الغرب ، حتى يصل الى كماليا Kamalia ، وقد خابت آماله بدرجة كبيرة ، وبعبارة : At the very lowest ebb of his fortunes •
وقد رحب به تاجر رقيق مسلم ، يدعى كارفاتورا Karfataura الذي

أبقى منجوبارك طرفه مدة سبعة شهور ، ولم يكن بارك أثناء هذه المدة أسيرا ولكنه كان ضيفا شرفيا ، وقد عالج هذا التاجر المسلم بارك من نوبة حمى انتابته مدة طويلة • وعندما شفى بارك تماما من مرض الحمى التحق بقافلة الرقيق التابعة لكارغا بحيث صاحبها منجوبارك مسافة ٥٠٠ ميل ، حتى وصل الى نقطة البداية في جامبيا • وهناك استقبله أحد أصدقائه من التجار الأوربيين ، كواحد خرج من القبر. ويعبارته : «As one risen from the dead» فمن مدة طويلة كان هؤلاء التجار الأوربيين قد تخلوا عن بارك لاعتقادهم أنه فقد ، وخشوا عليه أن يلقي نفس مصير هوفتون Houghton الذي كان قد اغتيل من قبل في نفس المنطقة •

وبعد ذلك ، وصل منجوبارك الى لندن ، وكان ذلك في عام ١٧٩٧ م ، ومن محاسن الصدق أن يوم وصوله الى لندن كان يوم عيد رأس السنة الميلادية ، وعلى الفور أخبر بارك السير جوزيف بانكس Sir Joseph Banks الذي كان غخورا بإنجازات بارك لدرجة كبيرة ••••• وعلى أثر ذلك قررت الجمعية الأفريقية The African Association أن تبقى بارك في خدمتها ، حتى ينتهي من كتابة مذكراته في صورة كتاب • وبعد ذلك عاد بارك الى اسكتلندا لمقابلة والدته التي أصبحت في ذلك الوقت أرملة Widow

وقد عنوان بارك كتابه بـ «رحلات في الاقاليم الداخلية من افريقيا» • وبالانجليزية يكون عنوان هذا الكتاب على النحو التالي : «Travels in the Interior Districts of African» وقد نشر هذا الكتاب عام ١٧٩٩ م • وكان متداولاً لدرجة كبيرة ، كما ثبت أنه لا غنى عنه بالنسبة للمكتشفين التاليين أو الذين أتوا بعد ذلك الى افريقيا • وفي هذا الوقت ، تزوج منجوبارك من محبوبته أيلي Ailie ، ابنة الطبيب الجراح الذي درب بارك على مهنة الطب ، بحيث أصبح بارك في ذلك الوقت يمارس هذه المهنة كطبيب • وفي تلك الاثناء رغب جوزيف بانكس رئيس الجمعية الأفريقية في أن يرسل منجوبارك الى أستراليا كي يكشف داخلية هذه القارة المجهولة • ولكن بارك رفض هذا العرض والسبب في ذلك يرجع الى زواجه

السعيد للغاية ، لذا أصبح في هذا الوقت غير راغب في السفر الى مسافات بعيدة .

وفي صباح عام ١٨٠٤ م ، سعد صديق يارك الذي يدعى Sir Walter Scott السير وولتر سكوت الروائي المشهور ، التلأل كى يزور الطبيب (منجوبارك) فوجده يلقي بالأحجار في بركة عميقة واقعة بين سلسلة صخور يارو Yarrow ، وكان منجوبارك في تلك الأثناء يراقب عن كثب الفقعات المائية أثناء صعودها الى السطح ، وقد وصف لوكارت سكوت Lockart Scott كاتب تاريخ حياة المشاهير هذا اللقاء الذى جاء فيه ما يلى :

« وهكذا ، قال سكوت ، يبدو أن هذه تسلية عديمة الجدوى ، بالنسبة لأنسان كان قد رأى دوافع كثيرة للقيام بمغامرة ، فرد منجوبارك بالقول ربما لم تكن تسلية عديمة الجدوى مثلما تفترض ، ولكن كان هذا الأسلوب الذى استخدمته هو بهدف التأكد من معرفة عمق نهر فى افريقيا ، قبل أن أغامر بعبوره ، فمن المؤكد أن تكون محاولة الحكم صادقة ، وبخاصة أثناء تصاعد فقعات الهواء الى أعلى » .

وحتى هذه اللحظة ، لم يعرف سكوت Scott شىء عن مقصد منجو بارك الخاص بإمكانية قيامه ببعثة ثانية . ولكن سكوت قرر على الفور أن هذه التجارب التى أجراها بارك فى يارو كانت متعلقة بغرض ما .

وكان سكوت على صواب ، لأن بارك كان قد تقرب من قبل الى اللورد كامدن Lord Camden وزير المستعمرات الذى أخبر بانكس بما يلى :

« يبدو أن المستر بارك له الرغبة فى التعهد بالقيام ببعثة استقصائية الى داخل أفريقيا ، وعلى وجه الخصوص كمحاولة للتأكد من مجرى نهر النيجر » .

وقد أذهش سكوت من جرأة صديقه بارك الذى قبل قيادة بعثة أخرى (الى غرب افريقيا) وكان السبب فى ذلك يرجع الى رغبة منجوبارك القوية فى الأبصار نحو مصب نهر النيجر ، لدرجة أن زوجته المحبة اليه وأطفاله الثلاث لم يثنوه عن عزمه بحيث يبقوه بالمنزل • وعندئذ بدأ الرجلان معا (بارك وسكوت) رحلة وداع ، وفى نقطة معينة ودع كل من الرجلين الآخر ، وعند هذه النقطة تعثر حصان بارك فى حفرة عميقة • وقد بدأ هذا التعثر للروائي فألا سيئا ، فضحك بارك وقال معقبا على ذلك بما نصه :

« أن التفاؤلات تتبع الذين يبحثون عنها ، وأضاف بأن سكوت لم يره مرة ثانية » •

ولقد كان موقف المستكشف موقفا خفيف الظل ، بل وموقفا شجاعا راسخا ، مع أن هذا الموقف لم يكن له ما يبرره • وفى الواقع كانت خفة الروح عند بارك فجائية • وكانت مقدرته قد دفعته على انجاز الكثير ، وجعله هذا عديم الصبر أو التأخير ، ومن ناحية أخرى ، فإن التفاؤل ساعده على تحمل المشاق بصورة قوية بل وكان يثق كثيرا فى غيره من الناس • ويتضح ذلك من تفسيره للمخاطرة التى شرع فى تنفيذها • وكانت خطته الرئيسية أن يسافر بالطريق البرى من جامبيا الى نهر النيجر وبخاصة فى فصل الجفاف ، وكان عليه أن يبحر هابطا مع النهر ، عندما تسقط الأمطار ، ويرتفع منسوب المياه فى النهر بحيث يكون فى الأماكن عبور الشلالات • ومن الملاحظ أن بعثة منجوبارك هذه المرة كانت على نفقة الحكومة البريطانية ، ولم تتكفل بها الجمعية الافريقية • وفى عام ١٨٠٤ م ، وقبل وقوع معركة الطرف الأغر بفترة قصيرة كانت الحكومة البريطانية قلقة من امكانية غزو نابليون لانجلترا ، لدرجة أن الأعداد لحملة بارك قد تأجل وفى الوقت •••• الذى اكتملت فيه الاستعدادات الخاصة بهذه البعثة (بعثة بارك) أدرك بارك أنه من المؤمل فيه أن يصل الى نهر النيجر وبخاصة عند بداية فصل المطر لو سار كل شىء طبقا للخطة • وفى

تلك الأثناء ، لم يجرؤ باريك أن يطلب التأخير أكثر من ذلك ، فمن المحتمل أنه كان فخورا لقيامه على رأس هذه البعثة ، وكان بانكس قد ذكر من قبل أنه من الممكن أن تكون هذه الرحلة واحدة من أعظم الرحلات التي ينطوي عليها مخاطر جملة ، وأضاف بانكس في قوله أنه من رآيه أن الأخطار لم تكن كبيرة لدرجة يصعب معها مواجهتها ، لأنه بدون مخاطر ، فإن المكشوف الجغرافية العظيمة لا يمكن أن تتم أبداً •

وفي بعض الأحيان ، تعرض بانكس وزملائه للنقد بسبب المخاطر التي أودت بحياة الرجال الآخرين • مع أن بانكس كان قد خاطر في شبابه وبكل سرور بحياته بسبب الأهتمام العلمي • فلم يكن هناك بعثة قط يمكن أن يكفل لها قدر معقول من الأمان • ولم يكن لدى باريك نفسه أية مشاعر أو أحاسيس • ورغم أنه كان معروفا بتحفظه ، وهدوء طبعه ، فإن مشاعره نحو الثروة والنفوذ والرعاية أخذت كثيرا من اهتمامه في هذه الأيام ، حتى أنه كان دائما يخاطب بانكس في كل مراسلاته بكلمة « صديقي العزيز » •

وفي ٢ من شهر يناير عام ١٨٠٥ م ، وصل منجوباريك الى ساحل غرب افريقيا ومن هناك كتب خطابا أرسله الى منزله ، وقد جاء في هذا الخطاب ما نصه : « لو أن السيد جوزيف بانكس استفسر عنى أخبروه أنني أواصل عملي ، بقدر ما تمليه على ارادتي ، وآمل في أن اكتب خطابا آخر من منطقة نهر النيجر في الرابع من شهر يونيو من نفس العام » •

ولو سافر منجوباريك بمفرده ، فمن المحتمل أن يصل الى نهر النيجر مع بداية شهر يونيو ، وفي هذه المرة كانت بعثته تضم أكثر من ٤٠ شخصا من الأوروبيين كان معظمهم من الجنود ، كما كانت تضم واحدا أو اثنين من الأصدقاء ، كما تضمنت أخو زوجته الذي يدعى الاسكندر أندرسون Alexander Anderson وقد أدرك باريك أن السفر في أثناء فصل

المطر سوف يكون له نتائج خطيرة بالنسبة للرجال البيض ، الذين كانت تنقصهم مقدرة بارك وقوته البدنية غير العادية ، فعلى الفور صادف افراد البعثة مصاعب جمّة ، وفي نهاية شهر ابريل (من نفس العام) كتب بارك من جامبيا الى بانكس « يؤكّد عليه أنّه في حالة سماعه اشاعات عن أحداث مؤسفة قد وصلت ، فينبغى عليه بقدر الامكان أن يمنعها من الوصول الى الجرائد ، كما يمنعها بكل الطرق من الوصول الى آذان زوجته العزيزة أو أمه » •

وقد بدأت الأمطار في شهر يونيو ، واستمرت حتى منتصف أغسطس ، ومع ذلك استطاع إحدى عشر أوربيا من الوصول الى نهر النيجر ، وأما الآخرون فقد ماتوا أثناء الطريق بسبب ضربة الشمس والحمى ، أو الدوسنتاريا • وقد زادت آمال بارك عندما رأى النهر ، وعندما حقق الوصول الى قمة الحافة التي تفصل نهر النيجر عن الأفرع البعيدة لنهر السنغال ، قال منجوبارك ما نصه : « لقد واصلت المسير الى مسافة قليلة قبل ذلك ، حتى وصلت الى حافة التل ، ورأيت أكثر من مرة مياه نهر النيجر تتساب في مجراه الواسع على طول السهل ، ولم يتبق سوى عدد قليل من أفراد البعثة على قيد الحياة لكي يشاركوه هذه الفرحة : فقد مات منهم ستة أشخاص قبل وصولهم الى الجزء غير المكتشف من النهر ، وكان حزن منجوبارك ينصب على شقيق زوجته الذي كان ضمن الستة أشخاص المتوفين ، ولم تحدث أية حادثة طوال الرحلة حتى تنصيف أقل قدر من الكأبة على تفكيرى حتى وارىت شقيق زوجتى السيد أندرسون فى قبره • ويقول منجو بارك مانصه : « عندئذ أحسست بأننى تركت وحيدا وبدون أصدقاء للمرة الثانية فى وسط أحراش افريقيا » وبعبارة :

«I then felt myself as if left a second time, lonely and friendless, amid the wilds of Africa.»

ومهما كانت المشاعر التي تنتابه ، الا أن جهوده لم تضعف • وبدأ بارك للأحياء أنه فى إمكانه الانتقال الى أى مكان على وجه السرعة فى الوقت الذى كان يعتنى فيه بمرضه ، وكان يعيش على المؤن الجافة

المنقوعة في الماء ، هذا فضلا عن أنه كان يبعد الأسود التي تهاجمه كما كان يطارد اللصوص •

وفي أحد الليالي عبر منجوبارك نهر (النيجر) ما لا يقل عن ستة عشر مرة كتمساح مندفع من تماسيحه ، وفي تلك الأثناء كان بارك يقوم بحمل الرجال (بالطبع المرضى) والأمتعة وبعد أن أدى هذا العمل بمغامرة شديدة ، سلم بأنه شعر ببعض التعب ، ولما رقد بسبب مرض الدوسنتاريا تناول دواء الكالوميل Calomel بكثرة ، فعلى أثر ذلك لم يستطع الحديث ، ولا النوم لمدة ستة أيام بلياليهم • ومع ذلك فقد شفى بارك من هذا المرض تماما ، وبدأ في تشييد سفينة مسطحة ، تصلح للمسير في المياه الضحلة ، وكانت تعرف هذه السفينة بأسم إسكونر Schooner ، وقد تم بناؤها من بقايا قاربين كانا يتسرب منهما الماء ، وساعد في هذا العمل الذي استغرق ثمانية عشر يوما جندي واحد ، وعندما اكتمل العمل في بناء هذه السفينة ، كان الأشخاص الذين ظلوا على قيد الحياة على أتم استعداد لإنزالها الى الماء •

وقبل أن يغادر منجوبارك هذا المكان ، أرسل دليله الماندنغو Mandingo guide الى جامبيا وهو يحمل تقريره •••• وخطاباته • وقد كتب بارك الى جوزيف بانكس يقول « إن مرشده الجديد ، المدعو أمادي فاتومي Amadi Fatoumi يقول أن نهر النيجر بعد أن يمر من كاشنا Cashna يسير مباشرة الى الجانب الأيمن أو الى الجنوب ، ولم يسمع بعد ذلك من أى شخص أنه رأى نهاية هذا النهر » • وقد أعطت هذه المعلومات الدليل الواضح عن إنحناء نهر النيجر الجنوبية • وكتب بارك أيضا الى زوجته يقول ، « أنه في صحة طيبة ، وأن معنوياته مرتفعة ، ويضيف في قوله ما نصه « أعتقد أنه من غير المحتمل أنني سأكون بأنجلترا قبل أن تتسلمى هذا الخطاب » • ويضيف بالقول « يجب أن تشعرى وتتأكدى أنني أشعر بالسعادة عندما يتجه وجهى الى وطنى » كما كتب بارك الى وزارة المستعمرات « يخبرها بأنه يأخذ على عاتقه مواصلة العمل حتى

النهاية • وعلى الرغم من أن كل الأوربيين الذين كانوا برفقتي قد ماتوا ، ورغم أنني كنت نصف ميت ، إلا أنني لازلت أواظب على العمل ، وإذا لم أستطع أن أحقق هدف رحلتي بنجاح ، فأنا سأكون على أقل تقدير قد أدركت الموت على ضفاف نهر النيجر •

وفي التاسع عشر من شهر نوفمبر عام ١٨٠٥ م ، شرع بارك في السفر بجوار النهر ، ووصل الى مدينة سان ساندنچ Sansanding ، وكان برفقته ضابطا واحداً ، هو الملازم ثان مارتن Lieutenant Martyn وثلاثة جنود ، كان واحد منهم نصف مجنون ، هذا فضلا عن ثلاثة عبيد من الأفريقيين ، وفي العام التالي وصلت اشاعات عن موت بارك عند ساحل جامبيا ، وقد مضت فترة من الوقت قبل أن تتأكد هذه الاشاعات • ولكن لما وصل أمادي فانتومي الى الساحل عقب على ذلك ، فأعطى ملخصا عن القصة (قصة بارك) فقال أنه عندما كان يحاول شراء المؤن علم بالكارثة من أحد الأفارقة الذين ظلوا على قيد الحياة ، وفي السنوات القليلة التالية سدت بعض الشغرات في هذا الموضوع بمعرفة المستكشفين الآخرين ، ولكن مع ذلك فأن القصة الكاملة لم تعرف بعد •

وقد نجح بارك في الوصول الى مملكة اليوري Yauri بعد أن قطع مسافة تبعد عن نقطة البداية بـ ١٠٠٠ ميل ، وقد وصف بارك وهو في منتصف الطريق الجانب الشرقي من النهر الضخم • ويمثل هذا العمل من جانب منجوبارك في حد ذاته عملا كبيرا في مجال الملاحة • ولسوء الحظ ، فأن بارك أهمل أن يقيم علاقات صداقة مع الشيوخ المحليين الذين كان بارك يمر من خلال أقاليمهم ، ومن المحتمل أن يكون السبب في ذلك راجع الى أن منجوبارك كان متسرعاً في انجاز مهمته ، بينما كان لا يزال لديه قوة كافية • وقد سبقته التقارير التي كتبت عن قدوم رجل أبيض كافر an infidel white man ، لذلك نجده عندما يصل الى شلالات بوسا يقع في Ambush شرك ، ومن الممكن أن تكون السفينة الأسكونر Schooner قد ارتطمت بصخرة أو أن السفينة قد هوجمت من جانب الوطنيين ، وأن

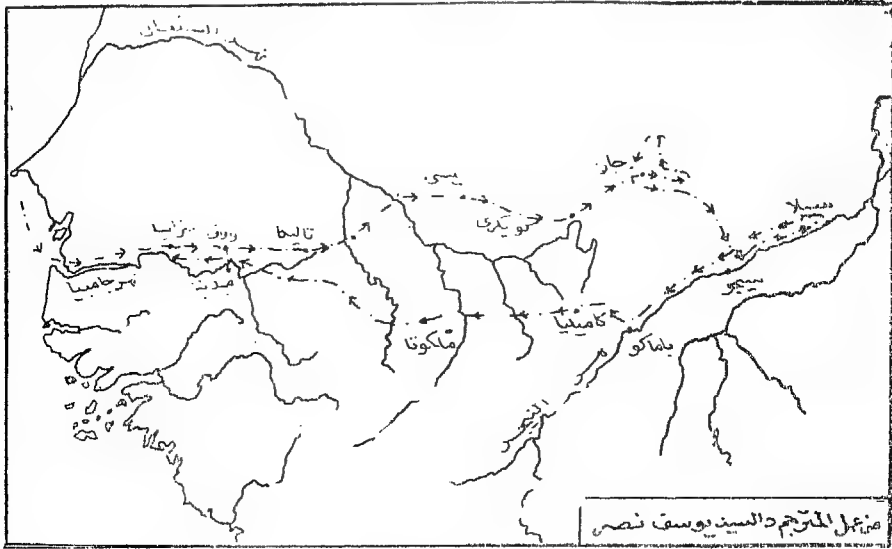
طاقمها دافعوا عن أنفسهم • عند هذا الحد أصبح الموقف ميؤوس منه •
ومن المحتمل أن يكون كل من بارك ومارتن وواحد أو كل أفراد البعثة
قد جرحوا ، لذلك اضطروا جميعا الى القفز فى الماء بهدف الهروب من موت
محقق ، عندئذ غرق جميع الرجال •

ومات بارك ، وهو على بعد مسافة ٧٢٠ ميل من هدفه ، وقد وقعت
الحادثة مع أن البعثة كانت قد بدأت مهمتها فى الموعد المحدد ، فلو
كان بارك قد سلك فى أسلوبه العادى أسلوب الصداقة ، ولو كان أكثر
دبلوماسية فى معاملاته مع الشيوخ الوطنيين ، فمن المحتمل جدا أن يكون
قد نجح ، ولكن مع ذلك فأن إنجازاته كانت علامة بارزة (على الطريق) •
ويعتبر بارك الأوربى الأول الذى وصل الى النيجر ، ولاحظ أن منبع
هذا النهر يقع فى مكان ما عند المنحدرات الشرقية للجبال التى تشكل الحد
الشمالى لما يعرف فى الوقت الحاضر بدولة سيراليون • وكان بارك قد أبحر
فى النهر لما يزيد عن ١٠٠٠ ميل ، واعطى الدليل الأول عن انحنائه الجنوبية ،
ولكن على الرغم من أنه لم يعط الأجابات الكاملة لكل الأسئلة المطروحة ، ألا
أنه فتش الطريق أمام الآخرين من المستكشفين كى يجدوا حلا لهذه المشكلة •



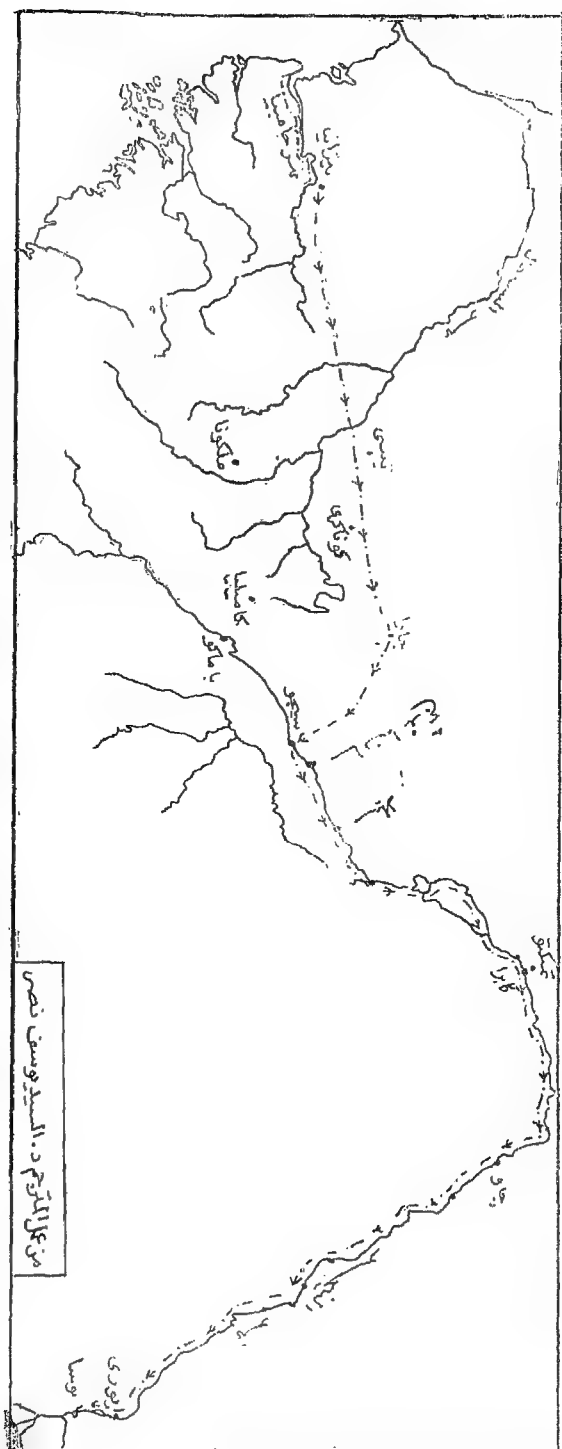
صورة المفامر منجو بارك الذي جاء الى منطقة غرب افريقيا عام ١٧٩٥ م
ليكتشف منابع نهر التيجر . من اعداد المترجم .

خريطة رقم ٢ والخاصة
برحلة منجو برك الأولى عام ١٧٩٥



بدا منجو برك رحلته الأولى من بلدة بيزانيا الواقعة على نهر جامبيا عام ١٧٩٥ ، ومنها عبر منطقة منابع نهر السنغال ، ثم وصل إلى بلدة سيجو الواقعة على نهر النيجر ، وسار بعدها مسافة ولكنه اضطر بعدها للعودة مع قافلة فوصل إلى نقطة البداية . وبعد ذلك سافر إلى لندن فوصلها عام ١٧٩٧ م .

خريطة رقم ٣ والكنا صفة
بعمق منبحو بارك الثانية عام ١٨٠٥ م



غار منحو بارك بلدة بيزانيا في اتجاه الشمال ، توصل الى بلدة جارا ،
ومنها اتجه جنوبا الى سيجو الواقعة على نهر النيجر . ومن سيجو سار بجوار
الضفة الشرقية لنهر النيجر ، حتى وصل الى تمبكو ، ومنها سار جنوبا مع نهر
النيجر ، ثم بلدة يوري ، ومن بعدها وصل الى بلدة بوسا ، ولكنه اغتيل في
هذه المنطقة .

التعليق على الفصل (٤)

أوردت مؤلفة هذا الكتاب ، في هذا الفصل عددا من النقاط الهامة والجديرة بالدراسة ، ولكنها مرت عليها بصورة سطحية • وكان من أهم هذه النقاط ، تجارة الرقيق في افريقيا ، وجوزيف بانكس وجون ليدارد ولوكاس وفردريك ، وهورن مان والميجور دانيال هوفتون • ولكن على الرغم من أهمية هؤلاء الأشخاص ودورهم في كشف الأجزاء المجهولة من القارة الأفريقية ، الا أن مؤلفة الكتاب لم توضح بشيء من التفصيل دورهم • لذا كان من الضروري على أن أقوم بأضافة ما يمكن أضافته حتى نفى هؤلاء حقهم •

وبدء ذى بدء ، أقول أن بريطانيا بدأت في نهاية القرن الثامن عشر في إلغاء تجارة الرقيق • فكان قاضى محكمة انجلترا العليا قد أصدر قرارا يقضى بإلغاء تجارة الرقيق عام ١٧٧٢ م ، والسبب في ذلك يرجع الى أن تجارة الرقيق لم تعد ذات قيمة بالنسبة لبريطانيا ، أو بالأحرى لم يعد لها نتائج ايجابية وربما يرجع ذلك الى أن مزارعها في العالم الجديد لم تعد في حاجة الى أيدي عاملة ، بل وأصبح نقل العبيد يمثل عبئا ثقيلا على الخزانة البريطانية • ومن المحتمل أيضا أن الأوروبيين في العالم الجديد أصبحوا يعتمدون على الميكنة الزراعية ، ولم يصبحوا في حاجة الى استخدام عبيد افريقيا • وبخاصة بعد أن أصبحت بريطانيا متقدمة صناعيا فهي أصبحت تعتمد على الألة بدلا من إعتماها على الفرد • وكان من نتيجة ذلك أن أصبح لديها فائض في الانتاج الصناعى ، لهذا كان من المحتم عليها البحث عن أماكن جديدة لتصريف هذا الفائض من انتاجها (يعنى ذلك فتح أسواق جديدة) فلم تجد أمامها الا افريقيا الميدان الخصب الثانى بعد العالم الجديد • ولكن السؤال هنا كيف تصل بريطانيا الى افريقيا • لكى تصل بريطانيا الى افريقيا كان عليها أن تتذرع بإلغاء تجارة الرقيق المنتشرة في هذه القارة ، لأنها تجارة ذات جذور متأصلة في كيان المجتمع

الافريقي ، ولم تكن هذه التجارة وليدة التاريخ الحديث أو وليدة الرجل الأبيض ، بل يرجع تاريخها الى عصور سابقة * ولكن زادت أهمية هذه التجارة بعد كشف ما يعرف بالعالم الجديد لخصوبة تربته وحاجته الى الأيدي العاملة القوية والرخيصة * ولكن بعد اعتماد الأوربي في العالم الجديد على الميكنة الزراعية الحديثة الناتجة عن التقدم الصناعي ، لم يعد في حاجة الى عبيد افريقيا ، ومن هنا وجدت بريطانيا السبيل الى التدخل والوصول الى افريقيا *

ولكن قبل أن تصل بريطانيا الى إفريقيا كان لابد لها من معرفة المناطق التي لازالت مجهولة من هذه القارة ، وشجعها على ذلك ما قام به جوزيف بانكس عالم الطبيعة البريطاني الذي عاش في الفترة ما بين ١٧٤٣ ، ١٨٢٠ ، والذي كان قد رافق الكابتن كوك في رحلته حول العالم * وكان بانكس قد ساهم في هذه الرحلة بمبلغ ١٠٠٠٠ جنيه استرليني (أي ما يعادل ٢٥٠٠٠ دولار) وقام بانكس أثناء هذه الرحلة بعمل دراسة على النباتات التي جمعها من المناطق التي زارها كما ساهم في إنشاء الحدائق الواقعة الى الغرب من لندن (١) *

وكان بانكس قد أسس الجمعية الأفريقية الخاصة بتنشيط حركة الكشف للمناطق المجهولة من افريقيا The Association for promoting the discovery of the Interior parts of Africa in London in 1788, introduced a new era in Africa Exploration (2).

وفي عام ١٨٣٠ ، أدمجت الجمعية الافريقية The African Association في الجمعية الملكية التي عرفت بأسم The Royal Geographical Society

وأما عن الكابتن كوك James Cook زميل بانكس والذي عاش

(1) Encyclopedia of discovery and Exploration, No. 13, London, 1971. p. 11.

(2) David Mountfield : A history of African Exploration. England, 1976. p. 67.

في الفترة ما بين ١٧٢٨ ، ١٧٧٩ م • فكان ملاح بريطاني قام بثلاث رحلات حول العالم ، على جانب كبير من الأهمية ، بحيث أنها ساهمت في معرفة العالم بالمحيط الهادى واستراليا ، ودحض نظرية القارة الجنوبية المجهولة Terra Australis in Cognita وأثبت أن نيوزيلاند تتكون من جزيرتين منفصلتين بمضيق ضيق ، وتمكن كوك من ملء الفراغات الباقية على خريطة الباسفيك ، وذلك باكتشافاته الكثيرة لجزر ساندويش Sandwich Islands ، وقد تمت بعثته الأولى في الفترة ما بين ١٧٦٨ ، ١٧٧١ ، فكان قد أبحر في محاولة لزيارة تاهيتى Tahiti ودار حول نيوزيلاند ، ورسم أثناء هذه الرحلة خريطة لجزء من الساحل الإسترالى ، وقد تمت الرحلة الثانية في الفترة ما بين ١٧٧٢ ، ١٧٧٥ م ، وذلك عندما قام بمغامرة الى المنطقة الجنوبية The Antractic Circle وزار جزر عديدة في الباسفيك ، وقطع مسافة ٦٠.٠٠٠ ميل • وتمت الرحلة الثالثة في الفترة ما بين ١٧٧٦ ، ١٧٧٩ م ، وقام كوك أثناءها بالبحث عن طريق الشمال الغربى ، وقام بمسح ساحل امريكا الشمالية ، ووصل الى مسافات بعيدة من الاسكا ، وأبحر من خلال مضيق بيرنج The Bering Strait وفي جزر هواين Hawaiian Islands ، قتل جيمس كوك بمعرفة واحد من سكان هذه الجزر (٣) •

وبعد ذلك ، نعود الى دور الجمعية الأفريقية ، التي بدأت مهامها الكشفية في منطقة غرب افريقيا ، ربما لقرب هذه المنطقة من الجزر البريطانية ، ومن المحتمل أن يكون ذلك راجع الى وفرة مواردها الاقتصادية وبخاصة معدن الذهب الذى كان من أهم ثروات مملكة غانا في العصور الوسطى ، وكانت مدينة تمبكتو في ذلك الوقت مشهورة بالذهب أيضا (سبق التعليق عليها) • وكما كان على الجمعية الأفريقية ضرورة القيام بالكشف عن

نهر النيجر (ليس حبا في الكشف ولكن حبا في البحث عن الثروات الطبيعية التي كانت لا تزال مجهولة) ، الذي لازال مجهولا ، والذي يعتبر ثالث أكبر نهر في افريقيا ، فهو ينبع من غرب القارة ويسير مجراه مسافة طولها حوالى ٣٦٠٠ ميل ، وقد تمت محاولات عديدة لتتبع مجرى هذا النهر (٤) •

وكان من الرحالة الذين حاولوا الكشف عن مصادر نهر النيجر والذين لم تتعرض لهم المؤلفة بشئ من التفصيل حتى يمكن اعطاء فكرة شبه وانفية عن كل شخص منهم الرحالة جون ليديار John Ledyard الذى قضى بعض السنوات مع الهنود الأمريكيين ، وبعد ذلك أبحر مع الكابتن كوك حول العالم • وسافر سيرا على الأقدام فى فصل الشتاء من السويد مارا بفنلندا Finland الى روسيا Russia ، وبعد ذلك عبر سيبيريا ، وكان يقصد من وراء ذلك الأبحار الى أمريكا ، حتى يكون أول شخص يعبر القارة الأمريكية ، ووصل تأثيره الى أبعد مدى • وعاد مرة ثانية الى سيبيريا فى فصل الشتاء ، وخرج من الجهة الغربية وهو فى حالة أفلاس • وأخبر بانكس أنه تمكن من اقتراض مبالغ بسيطة بأسمه كى يتمكن من العودة To get Back to England ، واقترح بانكس على الفور أنه يجب أن يسافر ليديارد الى افريقيا ، وأجاب ليديارد أنه يوجد فى فكره رحلة تالية وسأله بيوفوى Beaufoy ، متى يكون جاهزا للقيام بهذه الرحلة ، فأجاب ليديارد صباح باكر Tomorrow morning ، وقد بدأ ليديارد رحلته فى يوم ٣٠ يونيو عام ١٧٨٨ م ، وكان عليه أن يذهب الى مصر ، بعد ذلك يتجه الى النوبا ومنها الى جهة الغرب فى داخل افريقيا •

ومن القاهرة ، كان فى امكان ليديارد ان يرسل بعض المعلومات عن الطرق التجارية الموجودة على مسافات بعيدة فى الجهات الجنوبية والغربية من تمبكتو ، وعن سوق الرقيق ، وعن أى مكان آخر • ولكنه لم يذهب أبعد من ذلك ، وكان قد أعطى نفسه جرعة زائدة من (دواء الكبريتات) كى

(4) Encycolopedia of discovery and Exploration. Ibid. p. 59.

يعالج نفسه من مرض الصفراء الذي كان يشكو منه ، ثم تناول بعده ماع
الطرطير القوي المقيء فمات من شدة الألم مع أنه عاش قويا وشجاعا (٥) .

ومن بعده ، قام المستر سيمون لوكاس Mr. Simon Lucas الذي
كان يترجم عن الشرق ، والذي كان قد قضى ثلاث سنوات في مراكش
كعبد ، وبعد أن حصل على حريته شغل وظيفة نائب قنصل لبريطانيا في
مراكش لمدة ستة عشر عاما . وقد أهله خبرته ومعرفته للعربية بأن يقوم
على رأس بعثة كشفية من السواحل الشمالية لأفريقيا تجاه الجنوب (أى
فيما وراء الصحراء) . وقد بدأ رحلته في شهر أغسطس عام ١٧٨٨ م .

وبعد أن وصلت البعثة الى طرابلس ، حصل لوكاس على حماية وأمان
الباشا ، وكان ذلك بمثابة مساعدة بسيطة يتمكن بها من الوصول الى
الداخل . وكان لوكاس قد التحق بقافلة سارت على طول الساحل لمسافة
بعيدة من مصراته Mesurata . ولكنه بسبب المتاعب التي اعترضته اضطر
للمعودة الى مصراته . وفي مصراته هذه علم من أحد الأشراف العظام
والذي يدعى محمد ، بوصول تقرير مفصل عن بورنو ، وكان هذا التقرير قد
وصل من فزان ، الواقعة في الجنوب الليبي . وكان هذا التقرير يخص
بورنو Borno ، وكاتسينا Katsina الواقعتين فيما وراء الصحراء ،
كما يتضمن وصفا عاما عن أقطار الزنوج الواقعة في جنوب النيجر ، وبعد
ذلك لم يعرف أى شئ عن مصير لوكاس . من المحتمل أنه مات في مصراته
ولم يكمل مهمته ، وربما عاد الى لندن بعد فشل بعثته في تحقيق هدفها .

ولكن في عام ١٧٩٠ م ، قدم بيوفوى Beaufoy تقريرا الى
الجمعية الأفريقية ، أيد فيه بوضوح المعلومات التي أوردها لوكاس في
تقريره ، واستشهد بيوفوى بمصادر أخرى . ومن هذا المنطلق يمكن القول

(5) Kenneth Lupton : Mungopark, the African traveler. Oxford, 1979.
pp. 27, 28.

بأن لو كاس كان قد مات ، لأنه لو كان على قيد الحياة لكان من الأجدر به أن يقدم هو تقريره الى الجمعية الأفريقية بدلا من بيوفوى *

ومن بعد الرحالة السابقين يأتي دور دانيال هوفتون Major Daniel Houghton ، الذي كان في بعثة رسمية في مراكش عام ١٧٧٢ م وفي الفترة ما بين ١٧٧٩ ، ١٧٨٣ م ، كان الميجور دانيال يمثل الشخصية القوية في منطقة الجوري Gorée ، وفي تلك الأثناء تعلم بعض اللغات المحلية ، وبعد ذلك قدم خدماته بدون أن يحقق نجاحا يذكر الى الحكومة البريطانية . فقد قام بارتياح المنطقة الواقعة الى الجنوب من جامبيا Gambia ، وذلك في أكتوبر من عام ١٧٩٠ م ، فقد أبحر دانيال هوفتون من ميناء بليموث Plymouth ، ولكنه عندما كان في جونكاكوندا الواقعة على نهر جامبيا سمع خلسة من زوجات التجار الأفريقيين عن مكيدة تعرض حياته للخطر ، فأضطر بسرعة الى الهرب صاعدا مع النهر ، وكان قد حصل على معلومات من تاجر يدعى جون لايدلي Dr. John Laidly ، عن هذه المنطقة ، ولكنه بعد ذلك واصل السفر الى عاصمة مملكة الولاى الواقعة الى الشمال من النهر . وعندما التقى بملك الولاى ، طلب منه هذا الملك أن يقوم ببناء حصن تجارى في بلدة فئاتندا Fattatenda ، الواقعة على نهر جامبيا ، لأنها منطقة جميلة ولأن الملك رغب في أن يؤجرها الى دانيال هوفتون بعشرة جنيهات في السنة . وكان الكابتن ليتليتون Littleton قد عاش فيها من قبل مدة أربع سنوات وفر خلالها مبالغ كافية ، ولكن هوفتون رفض عرض ملك الولاى ، لأنه كان عليه مواصلة السفر مهما كان الحال ، وبخاصة بعد أن فقد كل أمتعته بسبب نشوب حريق في بلدة « الميديتا » فضلا عن ذلك فأن المترجم الذى كان مرافقا له قد اختفى . وعندئذ ، لم يكن الذهاب مهما الى ما وراء البوندو Bondu ، لأنه لم يوجد هناك مركز تجارى ، فأضطر بعد ذلك الى الذهاب الى بامبوك ، فهناك كانت توجد تجارة نشطة وبخاصة في الأسلحة ، وقد استقبل هوفتون استقبالا باردا *

وبينما كان هوفتون في بامبوك قابل شريف من تمبكتو ، كان قد تعرف عليه أثناء تواجده في مراكنس . وقد عرف هوفتون أن هذا الشريف ذاهب ليكتشف نهر النيجر . وقد زخرف التجار مراكبهم بالصواري Masts ، هذه المراكب التي كانت تحمل السلع التجارية من تمبكتو وتتجه بها صوب الشرق الى وسط افريقيا ، وكان دانيال هوفتون قد رغب في السفر على متن واحدة من هذه المراكب التي سوف تتجه الى جين Jene الواقعة في اقليم بامبارا Bambara . ويمثل هذا في حد ذاته البعض من المعلومات الهامة التي قام دانيال هوفتون بأرسالها . فكان قد عرف أسماء لبعض الأماكن الواقعة في كل من الطريق الشمالى والجنوبى ابتداء من بامبوك وحتى تمبكتو ، كما تضمنت هذه المعلومات باماكو Bamacoo وسيجو ويامينا Yamina ، وجين التي كانت عاصمة للامبارا . وذكر هوفتون أن النهر يتجه شمالا الى تمبكتو ، وبعد ذلك يتجه نحو الشرق .

وفي عام ١٧٩٣ م ، قدم رينيل Rennell ايضا حات جديدة عن جغرافية افريقيا ، فقد وفق بين المعلومات التي حققها دانيال هوفتون وبين المعلومات التي حققها دانفيل D. Anville ، وبين التقارير التي كتبت بمعرفة القناصل ، وكان رينيل هذا قد أغفل تقرير شابيني Shabeni مع أنه كان من الممكن أن يكون على جانب من الأهمية . وكان على رينيل أن يغير فكرته عن أماكن مصادر نهر النيجر ، فكان قد سلم بأنه لا يزال يوجد هناك غموض ، وتساءل في كيفية وضع حد لهذا الغموض Discounted وكان هيودوت قد ذكر من قبل أن النيجر يتصل بالنيل ، وجاء هوفتون من بعده ليؤكد هذا القول . وذكر كل منهما أن شعب الهوسا يمثل مدينة أو وطن أو الكل معا ، واعتقد أيضا أن وطن الهوسا هذا يقع بالقرب من النيل أى على بعد مسيرة أيام قليلة الى الجنوب أو الجنوب الشرقى من تمبكتو .

وكان سكرتير الجمعية الافريقية قد تسلم ملحوظة موجزة من دانيال هوفتون ، كانت هذه الملحوظة مؤرخة في الأول من شهر سبتمبر عام ١٧٩١ م ، وقد أرسلت هذه المعلومة من مكان يسمى سمينج Simbing (م ٨ — المستكشفون)

الواقعة فيما وراء بامبوك • وتضمنت الرسالة التي تحوى هذه المعلومة تحيات دانيال هوفتون الى الدكتور ليدلى Dr. Laidley وقد ورد بها أنه فى صحة جيدة In good Health ، وأنه فى طريقه الى تمبكتو ، وأشارت الى أن كل أمتعته كانت قد سرقت بمعرفة شخص يدعى ابن بوكرفندا Fenda Bucar's Son • وبعد ذلك تسلم سكرتير الجمعية الافريقية تقارير عن موته ، ولكن لم يعرف مكان مقتله ، ولا ظروف الحادث ، وكانت الجمعية قد ترددت فى اذاعة خبر موت هوفتون ، وتناست ذلك فى نشوة الفرح الخاصة بتحقيق هوفتون النجاح فى الوصول الى هذه المناطق ، وبخاصة لم يكن منجوبارك قد وصل اليها بعد •

وعلى الرغم من موت هوفتون ، الا أن الجمعية لم تكثر فيما يبدو بهذا الحادث لأنها اعتبرت الكشف عن منابع نهر النيجر مسألة على جانب من الأهمية بل ومسألة قومية أن صح التعبير • لهذا عقد اجتماع عام للجمعية عام ١٧٩٢م تقرر فيه أن تستمر الجمعية فى مواصلة إرسال البعثات الكشفية الى منطقة غرب افريقيا • وفى مايو من العام التالى عام ١٧٩٣م وقع اختيار الجمعية على شاب يدعى جيمس ويلز James Willis ، الذى كان من المحتم تعيينه قنصلا فى تلك المنطقة (٧) •

ولكن لم نسمع عن أى عمل قام به جيمس ويلز بعد أن اختارته الجمعية الأفريقية للذهاب الى منطقة غرب افريقيا ، فمن المحتمل أن تكون الجمعية استبدلته بشخص آخر ، ربما لعدم كفاءته ، أو ربما لتعيينه فى وظيفة قنصل فأضطرت الجمعية ازاء هذا الموقف أن تبحث عن رحالة آخر •

وفى يونيو من عام ١٧٩٧ م ، وقبل عودة بارك من رحلته الأولى من غرب أفريقيا اختارت الجمعية الأفريقية شاب ألمانى يدعى فردريك هورن مان Friedrich Hornemann ، الذى ذهب الى القاهرة فى الوقت الذى

كانت فيه قوات نابليون تغزوها ، وكان نابليون قد قابله وتعرف عليه . وبعد ذلك بدأ فردريك رحلته صوب الغرب مع قافلة التجار والحجاج العائدين من مكة . وفي تلك الأثناء تلقى فردريك هورن مان رسائل عن الغزو الذى تعرضت له منطقة غرب افريقيا من جانب الشماليين ، وقد حمل له ذلك الخوف والرعب ، ففى ذلك الوقت كانت الاتصالات الاسلامية بشمال وغرب افريقيا قوية ، ولكن فردريك تحدى كل هذه المصاعب وذلك بتكره فى زى رحالة مسلم ومع ذلك فقد انتابه الخوف ، وبعد رحلة مسلية قطعها من الشمال عبر الصحراء الأفريقية وصل الى واحة مرزوق فى غزان . وكان فردريك قد أرسل قبل بدء هذه الرحلة تقريراً من طرابلس الى انجلترا .

وفى مرزوق سمع عن تيبو Tibu ، وعن قبائل الطوارق Tuarge وعن الأراضي الصحراوية ، وعن الجنوب وعن الأقطار الواقعة فى الشرق ، ابتداء من بورنو وحتى النيل .

وقد دونت هذه المعلومات فى تقرير براون Browne W. G. الرحالة الذى لم يعمل لحساب الجمعية الافريقية ، بل كان يعمل لحسابه الخاص . وكان براون هذا قد بدأ رحلته من دارفور الواقعة فى غرب جمهورية السودان الحالية والتي تبعد عن القاهرة مسافات بعيدة . وقد قام براون هذا بهذه الرحلة فى الفترة ما بين ١٧٩٣ ، ١٧٩٦ م .

وكان هورن مان قد اكتشف أن كلمة الهوسا تطلق على مجموعة من الأقاليم التى تضم كانو Kano ، وكاتسينا Katsina ، التى لم تكن دولة منفصلة ، ورسم خريطة وضح عليها مواقعهم بطريقة دقيقة . وذكر فردريك هورن مان أن نهر النيجر يتدفق صوب الشرق ويمر من خلال اقاليم الهوسا . وفى عام ١٨٠٠ ، أرسل خطابين مختصرين من واحة مرزوق ولكن لم يتسلمهما أحد . وفى عام ١٨٠٥ ، علم بأنه فى كاتسينا منذ سنتين مضت ، وبعد ذلك سمع عنه أنه يواصل سفره صوب الجنوب . ولكن فيما بعد سمع أنه هلك بسبب تعرضه لمرض الدوسنتاريا عند بلدة باكانى Bakkane

الواقعة في اقليم النوب Nupe ، ومن المحتمل أن تكون باكانى هذه قرية من التقاء الطريق الرئيسى بحوالى ٣٠ ميل شمال جيبا Jebba ، الواقعة على نهر النيجر ، وفيما وراء أبعد نقطة وصل إليها يارك. * وكان فردريك على مسافة ٣٠٠ ميل من الشاطئ (من المحتمل أن يكون شاطئ المحيط) ومع ذلك فلم يتمكن من حل الغموض الخاص بأرض الهوسا أو بالنيجر (٨) *

ورغم كل هذا الجهد الذى قامت به الجمعية الافريقية من أجل الكشف عن مصادر نهر النيجر ، الذى سوف تتخذ بريطانيا فيما بعد طريقا تجاريا هاما بحيث يمكن من خلاله الوصول الى ثروات القارة الأفريقية ، الا أن هؤلاء الرحالة كانوا قد فشلوا جميعا في مهامهم *

ومع ذلك فلم تذكر المؤلفه الأسباب التى عوقبت هؤلاء الرحالة عن تأدية مهامهم ، ومن المحتمل أن يكون السبب وراء فشلهم راجع الى صعوبة المسير ، ومن المحتمل كذلك أنهم قد تعرضوا للأمراض خطيرة أودت بحياة الغالبية العظمى منهم ، زد على ذلك أنه لم يكن هناك وسائل مواصلات شبه حديثة ، يمكن استخدامها لتحقيق أهدافهم على الوجه الأكمل ، كما لم يكن لديهم المواد الغذائية الكافية التى تعينهم على مواصلة سفرهم ، علاوة على ذلك كله ، فلم يكن هناك طرق مدروسة أو معروفة لهم ، فلا شك أنهم لاقوا مصاعب جمة فاقت كل تقدير ويرجع الفشل في مهمتهم أيضا الى أنهم كانوا يأتون على نفقة الجمعية الأفريقية التى كانت تقوم بتزويدهم بما يلزمهم من أمتعة ومؤن ، ولكن رغم ذلك فأنها لم تستطع أن تقدم لهم المعون العسكرى لأنها كانت جمعية خاصة ، بينما لو كان هؤلاء الرحالة يرسلون من قبل الحكومة البريطانية لكنت قد زودتهم بما يلزمهم من عتاد وجنود وأدوية ومؤن * وفي هذه الحالة يكون في امكانهم تحقيق الهدف المنشود *

ولكن على الرغم من فشل هؤلاء الرحالة إلا أن الجمعية الأفريقية African Association ، لم تتوقف عن القيام بمحاولات أخرى ، وهذا في حد ذاته يجعلنا نكن الاحترام والتقدير لهذه الجمعية العلمية التي أخذت على عاتقها القيام بمثل هذه الأعمال النبيلة .

وفي عام ١٧٩٥ م وقع اختيارها على طبيب شاب يدعى منجوبارك وكلفته بالقيام بمهمة الكشف عن منابع نهر النيجر ، ولكن على الرغم من فشله إلا أنه حقق نتائج على جانب كبير من الأهمية منها أنه القى الضوء على تجارة الرقيق التي كانت سائدة في هذه البلاد ، وأوضح لنا الطرق التي بواسطتها كان يمكن الحصول على العبيد سواء أكان ذلك بالحرب أم بالقتل ، كما القى الضوء على العادات الاجتماعية لهؤلاء السكان والتي كان الجغرافيون في أوروبا في أمس الحاجة إليها كما قام بتفحص تراب الذهب ، أي أن ذلك يعنى إشارة على وجود معدن الذهب في هذه البلاد ، وأيضا على تقدمهم في صناعة الأقمشة واستخدام النيلة في صبغها .

وبقى لى أن أضيف في قولى أنه مما لا شك فيه أن منجوبارك كان شخصية غير عادية ، شخصية تغلب عليها الجرأة والجسارة والأصرار على ضرورة نقل جغرافية افريقيا الى أوروبا ، ويتضح ذلك من قوله « ينبغي على أن أهلك في رحلتى كما ينبغي أيضا أن تهلك معى كل آمالى وتوقعاتى ، وينبغى على كذلك أن أنقل جغرافية افريقيا بحيث تصبح أكثر ألفة لأهل بلدى ... » وأن أفتح أمامهم مصادر جديدة للثروة والتجارة ... » أذن واضح من هذا التعبير أن الهدف من الكشف ليس في حد ذاته بقصد الكشف ، ولكن كان الهدف هو استغلال موارد افريقيا ، وجعلها سوقا رائجة للصادرات الأوروبية ، زد على ذلك فإن بارك كان شخصية جسورة وجريئة ، والدليل على ذلك أنه عندما قابل ملك الولى الذى حذره من الذهاب أبعد من مملكته خشية أن يلقي نفس المصير الذى لقيه من قبله الميجور دانيال هوفتون إلا أن منجوبارك أصر على الذهاب الى أقصى نقطة يمكن الوصول إليها .

وبعد أن أنهى رحلته الأولى عاد الى انجلترا ولكنه لم ينسى
افريقيا التي عاد اليها مرة ثانية دون أن يتأثر بأطفاله الصغار بل تركهم
في سبيل أن يحقق هذا الهدف النبيل .

وفي النهاية ، يمكن القول بأن بارك كان شخصية غدة لا تنقل عن
شخصية جيمس بروس في الجرأة وحب المعرفة وتحقيق المجد لنفسه ولوطنه
ولكنه يختلف عن بروس في أن بارك كان يريد أن يحقق لبريطانيا مطالعها
في موارد افريقيا وتجارتها ، بينما كان بروس يريد أن يحقق لنفسه المجد .

الفصل الخامس

حل مشكلة النيجر

لقد كانت حياة منجوبارك قصيرة ولكنها كانت حافلة بالأعمال الهامة ، ومع ذلك فقد انتهت نهاية مخزنة ، فبعد موته باءت بالفشل كل المحاولات العديدة التي اتخذت لتتبع مجرى نهر النيجر حتى منبعه • ففي عام ١٨١٥ م ، أرسلت ثلاث بعثات الى منطقة غرب افريقيا ، بدأت إحداها من بلدة كليبار الواقعة على ساحل غينيا ، وبدأت الثانية من مراكش ، والثالثة من مصر • ولكن هذه الخطة باءت بالفشل (لأسباب غير معروفة) • وعلى ذلك فقد اختارت الجمعية الأفريقية African Association رجل عظيم وشجاع ومثزن ، هذا الرجل هو جون لويس بركهاردت John Lewis Burchardt الذي كان عليه ان يتخذ الطريق المصرى •

وكان بركهاردت سويسرى الجنسية ، فقد عاش في انجلترا ، ودرس العربية في جامعة كامبريدج Cambridge University ، وكان عالما لامعا بحيث إنه في عام ١٨٠٩ عرض خدماته على السير جوزيف بانكس ، الذى وافق على شرط أن يقضى جون لويس بركهاردت سنتين في سوريا كي يتقن خلالهما لغته العربية ، وبعد ذلك تجول في بلاد الشرق الأوسط للاستزادة بالمعلومات ، قبل القيام بمهمته الخاصة بنهر النيجر • وقد درب جون لويس بركهاردت نفسه على الحياة القاسية قبل أن يبدأ مهمته ، فعود نفسه على النوم في العراء ، والمشى حافى القدمين فضلا عن عدم تناوله الطعام باستثناء اعتماده على الخضروات ، وكان الهدف من وراء ذلك كله أن يعود نفسه على تحمل المشاق أثناء مروره من خلال الأقطار الإسلامية ، ويتضح ذلك من قوله الذى جاء فيه ما نصه : « لقد تقدمت من هنا كتاجر هندی مسلم ، وبسرعة تلاشيت وسط الزحام في حلب Aleppo

وقد أخبر بركهاردت الجمعية الأفريقية بذلك في خطاب أرسله من مالطة •
 وفضلا عن ذلك فقد قام بسفريات واسعة النطاق ، فزار أماكن أخرى
 كثيرة منها مدينة باترا القديمة ~ The ancient City of Petra التي
 لم يرها أوربي منذ مئات السنين ، ثم وصل بعد ذلك الى القاهرة عام
 ١٨١٢ م وفي هذا الوقت كانت معرفته للغة العربية تكاد تكون كافية ،
 وكان يرتدى زيا عربيا وبذلك تمكن من المرور من خلال مصر كعالم شريعة
 مسلم ، وبعبارة المؤلف «He passed as a learned doctor of Muslim law»

ومن القاهرة تتبع مجرى النيل ، وكان يسجل الملاحظات المفصلة
 عن الناس وعن الوطن الذى يمر من خلاله ، وعن الحياة البدائية والآثار
 القديمة • وكما قام بفحص المعابد العظيمة والمباني الأثرية الضخمة في
 أبى سمبل ، وبعد ذلك سافر الى مسافة بعيدة صوب الجنوب حتى وصل
 الى سوق مدينة شندى ، هذه المدينة التي كان بروس يتمتع بالغزل مع
 ملكتها • وعندئذ عبر جون لويس بركهاردت الصحراء النوبية الى ميناء
 سواكن الواقعة على الساحل الغربى للبحر الأحمر • وبعد ذلك عبر البحر
 الى الجزيرة العربية حيث كان متفكرا في زى تاجر سورى • وهناك
 أدى غريضة الحج في المدينة الإسلامية المقدسة (مكة) • ومن المحتمل
 أن يكون بركهاردت قد أصبح مسلما حقا (والدليل على ذلك أنه عندما
 توفى دفن على الطريقة الإسلامية كما لو كان مسلما) • ولو كان أى
 شخص قد ظن أن بركهاردت مسيحيا ، فمن المحتمل أن يكون قد لقي حتفه •
 ولكن لحسن حظه لم يشك أحد من الناس في ذلك ، وقبل مغادرته لهذه
 المنطقة كان قد تمكن من كتابة تقريراً عن المدينة (مكة) وعن الحجاج
 وعن الاحتفالات الخاصة بهم • وفي النهاية ، وبعد أن سافر شمالا الى
 فلسطين كى يزور جبل سيناء ، كان عليه بعد ذلك أن يبدأ بحثه الخاص

• لقد رفعت بنجاح هذه المعابد حديثا من مواقعها الأصلية لكي تنقذ من
 الغرق بسبب تخزين المياه المتكونة من بناء السد العالي في جنوب أسوان •

بنهر النيجر ، ولكن حدث ذلك بعد فوات الأوان ، لهذا انتظر بركهاردت في مصر (بلاد النوبة) حتى تصل أية قافلة يستطيع اللحاق بها أو الانضمام اليها كي تنقله الى منطقة منابع نهر النيجر ، ولكنه مات في هذه الفترة بسبب مرض الدوسنتاريا ، وكان آنذاك في الثالثة والثلاثين من عمره .

وفي عام ١٨١٦ ، قاد الكابتن تاكي Captain Tackey الذي كان يعمل في الأسطول الملكي (البريطاني) بعثة مكونة من ٥٦ فردا من العلماء والجنود كي يكتشف نهر الكنگو ، ويكتشف أيضا هل نهر الكنگو له اتصال بنهر النيجر أم لا . ومع ذلك فقد باءت جهود هذه البعثة بالفشل ، بل وانتهت بكارثة ، فقد مات بسبب المرض الكثير من رجالها ومات تاكي نفسه بعد أيام قلائل من وصول البعثة الى الكنگو .

وفي الوقت الذي كانت فيه بعثة تاكي في طريقها الى الكنگو انطلق كل من الضابطين العسكريين الميجوربيدي Major Peddie والكابتن كامبل Captain Campbell من الساحل الغربى لأفريقيا ، ولكن مات الكابتن بيدي بينما أضرط الكابتن كامبل الى الرجوع الى الساحل بسبب مرضه بعد أن كان قد قطع مسافة مع نهر السنغال (لم يعرف طولها) . ثم تبعه بعد ذلك الكابتن وليام جري Captain William Gray الذي اصطحب معه الطبيب دوتشارد الجراح Staf-Surgeon Dochart حيث أنهما أبحرا مسافة وهما صاعدين مع نهر جامبيا ، وبعد ذلك ذهبا بالطريق البرى تجاه نهر السنغال . وقد نجحا في الوصول الى منابع النهر The upper waters وواصل دوتشارد تقدمه الى الأمام كي يصل الى النيجر ، وبخاصة عند النقطة القريبة من سيجو Segu التى لم تبعد كثيرا عن النقطة التى ركب منها بارك سفينته (أى عند مدينة سان ساندنج) . عندئذ التحق دوتشارد بالبعثة الرئيسية ، ولكن الشيوخ عرقلوا تقدمه بصورة واضحة بسبب خوفهم من قيام البعثة

بالبحث عن الذهب • وهكذا فشل كل من جرى ودوتشارد Docharad •
وعادا الى الساحل •

وبعد ثلاث سنوات ، وعلى وجه التحديد عام ١٨١٨ م ، وصل طبيب
شاب يدعى جوزيف ريتشى Joseph Ritchie الذى كان برفقته الضابط
البحرى جورج ليون George Lyon الى طرابلس Tripoli ، وكان ريتشى
هذا قد عين نائبا للقنصل البريطانى فى فزان ، وحسب التعليمات التى
صدرت اليه يتضح الآتى : « أن الهدف الأساسى من وراء تعيينك هو
التقدم تحت الحماية المناسبة الى مدينة تمبكتو على وجه السرعة •••
فلو تمكنت من الوصول الى هذه المدينة ، فعليك الا تفشل فى جمع كل
ما يمكن جمعه من المعلومات الخاصة بمجرى نهر النيجر ، وكذلك معرفة
إمكانية تتبعك بأمان لمجرى ذلك النهر حتى نهايته » •

وكانت تمبكتو نقطة التقاء للطرق التجارية التى تأتى من الشمال
الأفريقى ، ومن المنطقة الواقعة فى جنوب الصحراء ، فكانت معروفة
للأوروبيين ، وبصفة أساسية من خلال وصف ليو الأفريقى ، الذى قال
أنها تمثل مركزا للثروة والثقافة •

وقد سافر كل من ريتشى وليون الى الجنوب من طرابلس لى
يصلوا الى مرزوق Murzuk عاصمة فزان • وهناك مات ريتشى بسبب
تعرضه لمرض الحمى • لهذا لم يتمكن ليون من الوصول الى تمبكتو ،
ولكنه تمكن من جمع قدر كبير من المعلومات عن مرزوق ، والقطر الواقع
الى الجنوب منها ، قبل أن يضطر الى العودة بسبب قلة التمويل ،
وكما أن بارك قد صدم بسبب حجم تجارة الرقيق ، فأن ذلك قد
حدث أيضا لليون ، فكان تجار الرقيق العرب يقومون بالإغارة على
القرى ويأسرون الرجال والنساء الذين يشترون ويبيعون كالماشية تماما ،
فضلا عن ذلك كله ، فأن هؤلاء العبيد كانوا يسيرون مسافة طولها ١٥٠٠ ميل
حتى يصلون الى ساحل البحر الأبيض المتوسط ، وفى أثناء هذه الرحلة
الخطيرة ، كان الكثير منهم يفشل فى الوصول حيا • وفى رحلة العودة

التحق ليون بقافلة الرقيق وقد تأثر بسبب المعاملة الوحشية التي كان يلقاها الرقيق . ولاحظ ليون أن أصحاب الرقيق كانوا لا يسيرون دون أن يكون في أيديهم الكرابيج ، التي كانوا يستخدمونها على الدوام . ويقول ليون ما نصه : « أنني لاحظت أن واحدا من تجار الرقيق يجلد عبيده بصفة مستمرة ، وقد اضطرت مرارا إلى تجريده من هذا الكراباج » . وأضاف ليون في قوله « أنه عندما يستسلم عبد للموت يشك التاجر في وجود شيء مريب داخل أحشائه ويأسف هذا التاجر لعدم استخدامه بشجاعة للعلاج المعهود ، الذي يتمثل في كي العبد في بطنه بقطعة من الحديد الساخن لدرجة الأحمرار » .

وعندما كان ليون في مرزوق ، لاحظ أن هذه القرية نفسها كانت مركزا من مراكز الرقيق ، وهناك سأل ليون التجار الذين يزورون هذه القرية عن تمبكتو وعن النيجر . واكتسب ليون أنطباعا مفاده أن هذه المدينة الأسطورية (مدينة تمبكتو) لم تكن مدينة على جانب من الثراء والأهمية مثلما تخيلها الأوروبيون . فلم ير واحداً من هؤلاء التجار الذين تواجدوا في مرزوق يعرفون بالفعل نهر النيجر ، ولكن يبدو أن الرأي العام كان يشير إلى أن هذا النهر يصب في بحيرة تشاد ، الواقعة في مملكة البرنو في السودان الأوسط . وعلى هذا الأساس أرسل ليون هذا الكم من المعلومات إلى لندن ، ونتيجة لذلك فقد صدرت إليه التعليمات بالتخلي عن بحثه الخاص بتمبكتو ، وعليه أن يرحل تجاه الجنوب إلى بورنو Bornu . ولكن هذه التعليمات لم تصل إليه لأنه كان قد بدأ الرحلة قبل ذلك إلى انجلترا .

ولقد مرت حتى الآن ثلاثين عاما على إرسال الجمعية الأفريقية للرحالة الأول كي يحاولوا حل لغز النيجر . فقد مات الكثير من الرجال الشجعان ، ولكن على الرغم من ذلك ، فلم تكن هناك نتائج ملموسة قد تحققت من استكشافات بارك ، بل ظل اللغز دون حل . وفي عام

١٨٢٠ م مات بانكس ، وبعد ذلك كان من المحتم أن تخضع الجمعية الأفريقية الى سلطة أجنبية ، ولكن السير جون بارو Sir John Barrow الرجل المتحمس ، وراعى Patron حركة الكشف في القارة الجنوبية ، والسياسى الذى عمل سكرتيرا في رئاسة البحرية في الفترة ما بين ١٨٠٤ ، ١٨٤٥ ، قد طلب بصفة مستمرة من الحكومة البريطانية ، أن تزوده بالأموال اللازمة لإرسال بعثات الى المناطق النائية (في افريقيا) • فكان هو الأداة الخاصة بتنفيذ الرحالة ، وهو المخطط لبعثاتهم ، بل وهو الحارس لمصالحهم ، في الوطن عندما يكونون في افريقيا •

وكان بارو هذا قد واصل البحث من حوله على الشخص المناسب الذى يحل محل ليون ، وقد عثر على الميجور الأسكندر جوردون لينج Major Alexander Gordon Laing الذى كان يبلغ من العمر آنذاك سبعة وعشرين عاما • فقد خطط لينج بنفسه للقيام بمغامرة الى تمبكتو • وكان لينج اسكتلنديا وسيمًا ونحيل البنية ، بحيث لم يكن قوى الجسم ومع ذلك فإنه كان يثق بنفسه • وعمل مدرسا قبل أن يقرر التحاقه بالجيش ، وبدأ أهتمام لينج بالكشوف الأفريقية ، عندما تركزت كتيبته في سيراليون التى أنشئت لتكون مستعمرة للعبيد المحررين •

وكان ظموح لينج الأكبر هو أن يكون الأوربى الأول الذى يرى تمبكتو وقد طلب الحصول على تصريح ، فرفض طلبه • ولكن في عام ١٨٢١ م سمح له بالحصول على التصريح الذى يخول له قيادة بعثة صغيرة الى الداخل (داخل افريقيا) من أجل البحث عن منابع نهر النيجر • وقد تمكن من تحديد أماكن هذه المنابع على الرغم من عدم وصوله اليها ، كما أنه وصل الى نتيجة لم يستطع برهنتها وهى أنه لا توجد هناك امكانية تدل على أن النيجر والنيل يمكن أن يكونا نهرا واحدا ، وكان لا يزال يحلم بتمبكتو وبخاصة عندما تم تكليف بعثة في العام التالى بحيث تتبع ارشادات ليون التى تقول أنه من المحتمل أن يصب نهر النيجر في بحيرة تشاد •

وقد خطط لهذه البعثة تخطيطا جيدا ، بل ونظمت أكثر من أى من البعثات السابقة سيئة الحظ منذ موت منجوبارك ، وكان على رأس هذه البعثة وولتر أودنى Walter Oudney ، الطبيب الأسكتلندى ، الذى كان يبلغ من العمر واحدا وثلاثين عاما ، وكانت إهتماماته الأساسية تتمثل فى الكشف ومعرفة التاريخ الطبيعى . وكان أودنى هادىء الطبع ، ورجل متواضع ، وضعيف البنية Physically Frail ومع ذلك فقد كان مملوءا بالحماس . وكان العضو الثانى فى هذه المجموعة شخص اسكتلندى ، يدعى هيو كلايرتون Hugh Clapperton الذى كان طويل القامة ، ووجيه الشكل ، ومزح exuberant ويكبر أودنى بسنتين فقط وقد ذهب كلايرتون الى البحر فى سن الثالثة عشرة عاما ، حيث كان يعمل خادما سفينة تجارية As a Cabin-boy in a merchantman وفى جبل طارق هرب كلايرتون ، ولكنه أسر وغرض عليه العمل فى الأسطول الملكى وأبحر حول العالم من الشرق الى جزر الهند الغربية وكندا . وفى كندا قام كلايرتون برحلات صيد مع الهنود الحمر ، وقد قبله الهنود الحمر على أنه واحدا منهم ، وكان كلايرتون يأمل فى الزواج من أميرة من الهنود الحمر .

وفى عام ١٨١٧ ، عاد الى وطنه فى أدنبره Edinburgh ، وأصبح فى تلك الأثناء بلا عمل مع أنه كان يتقاضى نصف مرتب من الأسطول . وفى أدنبره قابل أودنى الذى عاش معه فى نفس الشارع ، وعلى الرغم من اختلافهما فى الطبائع الا أنه كانت تربطهما صداقة متينة .

وكان الأوربى الثالث فى هذه البعثة الملازم ديكسون دنهام Lieutenant Dixon Denham ، الذى كان يعمل ضابطا بالجيش (البريطانى) وكان فى سن كلايرتون . وكان دنهام هذا متعجرفا arrogant ومغرورا Conceited ، ومثيرا للمتاعب a born trouble-maker . وكان يختلف جدا عن أودنى المستقيم الطبع the straight for ward وعن كلايرتون ، الذى كان يحقره علنا despised ، وكان دنهام قد

قابل ليون الذى ملاه بالحماس للقيام بكشف افريقيا • ولما كان له
أصدقاء كثيرون فى الوطن من ذوى النفوذ ، فأنه كان فى استطاعته ايجاد
وظيفة على قدم المساواة مع أودنى وأعلى من وظيفة كلايرتون •

وفى بداية عام ١٨٢٢ رست هذه البعثة فى طرابلس ، وبعد ذلك
أخذت طريق القوافل الصحراوى الذى يصل الى واحة مرزوق • وقد
تأخر تقدم البعثة ، وكان من بين الأشياء الأخرى التى ساهمت فى
تأخيرها قلة التمويل ، وكان دنهام يحاول فى الظاهر أن يخفف المصاعب ،
ولكن فى الحقيقة كان يعمل على تحسين مركزه ، وبعد ذلك رحل الى لندن •
ثم عاد مرة ثانية ، وانتابه الغضب الشديد ، لأنه وجد كل من أودنى
وكلايرتون يشغلان وقتهما فى كشف المنطقة الواقعة بين واحة مرزوق
وبين واحة غات Ghat الواقعة فى الجنوب ، دون أذن منه ، وغضب
كل من أودنى وكلايرتون من دنهام ، بسبب تركه موقعه فى هذه اللحظة
المرجة *a critical moment* ، ولكن على الرغم من ذلك فقد سويت
الخلافت فيما بينهم ، وعلى هذا التحقت بعثتهم بقافلة كانت متجهة
الى بورنو •

وقد عانت البعثة من السفر تجاه الجنوب عبر الصحراء بسبب
حرارة الشمس الشديدة ، والعواصف الرملية العنيفة ، وبسبب النقص
الشديد فى المياه الذى يدعو لليأس ، وفى نهاية يوم ملئ بالمتعاب
وصلت البعثة الى بئر ، ولكنها وجدت مردوما بالرمال ، وكان على
أفرادها أن يقضوا عددا من الساعات فى حفر هذا البئر كي يحصلوا
على المياه ، وكان عليهم أيضا أن يقضوا ساعات أكثر حتى يمكن للجمال
أن تشرب ، وهكذا ، فقد ناضلوا بجهد مضنى ومتعب يوما بعد يوم على
طول الطريق الذى تتناثر strewn على جنباته الألاف من الهياكل
البشرية ، إنه لتذكارا كئيب عن العبيد الذين هلكوا أثناء عبورهم للصحراء •

وعلى الرغم من كل هذه المصاعب التى واجهت البعثة ، الا أن أفرادها

ظلوا على قيد الحياة ، وكلما كانت الصحراء خلفهم أصبح السفر سهلا حيث كانوا متجهين في طريقهم الى بورنو ، وفي الرابع من شهر فبراير عام ١٨٢٣ م ظهر فجأة وعلى مرمى البصر تماما هدفهم الأول . فقد كتب دنهام يقول ما نصه : « أن بحيرة تشاد الكبيرة بدأت إلينا على مسافة ميل واحد من النقطة التي وقفنا عندها ، وكانت أشعة الشمس القوية المتوهجة الذهبية اللون تسقط عليها . وفي هذه اللحظة خفق قلبي عند رؤيتي لهذا المنظر ، واعتقدت أن هذه البحيرة هي المفتاح الى الهدف الكبير لبحثنا
« »

وكان كل من دنهام وأودنى وكلايرتون من الأوروبيين الأوائل الذين رأوا بحيرة تشاد ، وكان دنهام على خطأ حينما اعتقد أن أفراد البعثة وجدوا المفتاح الى لغز النيجر . وعند هذه المرحلة افترق دنهام عن كل من أودنى وكلايرتون ، والتحق بمجموعة كبيرة من جنود البورنو المسلحين ، والمتجهين الى قطر الماندارا الجبلى ، الذى يقع الى الجنوب من بحيرة (تشاد) . وكان يبدو على أودنى علامات السمل ، ومع ذلك فإنه كان شجاعا ، (بل وأن روحه المعنوية كانت مرتفعة فقد سافر كل من أودنى وكلايرتون الى الجنوب الشرقى كى يكتشفا نهر شارى Shari River ، وأثبتا أن هذا النهر لم يكن نهر النيجر . وبعد ذلك ، عاد دنهام الى البحيرة (بحيرة تشاد) بعد أن تبين له Turned Out أن هذه البعثة (التى كان قد التحق بها) هى بعثة لصيد العبيد . فغضب دنهام غضبا شديدا مثلما كان عليه الحال فى واحة مرزوق ، وذلك لأن أودنى وكلايرتون كانا يواصلين الكشف بدونه ، وفى الواقع فإنه كان قد غضب حتى وصل به الأمر الى إخفاء تقرير كلايرتون الخالص بهذه البعثة .

وكان من الحكمة للبعثة أن تنقسم الى قسمين ، قسم تحت رئاسة دنهام الذى كان عليه أن يكتشف نهر شارى والطرف الجنوبى لبحيرة تشاد ، وقسم يضم كل من أودنى وكلايرتون والملايين كانا عليهما التجول

غربا في اتجاه نهر النيجر ، وكانا برفقتهم محمد الوردى M. ELWordec وهو تاجر مسلم من فزان • وقد قادتهما رحلتهم باتجاه مملكة كانو Kano التى كانت قد هزمت حديثا بمعرفة مسلمى الفولانى وقد تميز الشعب الفولانى بالوجهة وبلون البشرة النحاسى ، وكان هؤلاء الفولانيون قد أسسوا امبراطورية خاصة بهم ، وفرضوا سيطرتهم على شعب الهوسا • وكانت المهارة المحترقة الأودنى مطلوبة فى ذلك الوقت بدرجة كبيرة • وكتب كلايرتون يقول ما نصه : « لقد تحمل أودنى متاعب جمة أكثر مما تتحمله صحته ، وقد وصلت أخبار البعثة قبل مجيئها الى المدن والقرى التى مررنا بها ، لذلك أحضر لنا سكان هذه المدن والقرى جميع المرضى لكى نعالجهم » •

وكان العمل شاقا بالنسبة لأودنى الذى مات بمرض السل tuber culosis ، والذى قاومه بشجاعة منقطعة النظير • وقد حزن كلايرتون عليه حزنا عميقا بصفته قائدا وصديقا •

ولقد برهن فقدان هذا الصديق على أنه ضربه عنيفة a severe trial فى أى مكان وزمان ، فبالنسبة لكلايرتون فإنه كان صديقه وزميله فى السفر ، ويقول كلايرتون « لقد كان أودنى يعمل تحت وطأة المرض ، والآن تركنى وحيدا بين شعب غريب ، ولكننى سأواصل تقدمى من خلال قطر لم تطأ قدما أوربية حتى الآن ، فقدان أودنى كان خسارة كبيرة ذات تأثير قاسى لأقصى درجة » •

ولم يستطع كلايرتون العودة فى ذلك الوقت ولكنه اضطر فى نهاية يناير عام ١٨٣٤ م ، الى الذهاب الى مدينة كانو المسورة ، وعاصمة المملكة ، ودخل كلايرتون المدينة فى شىء من الأبهمة pomp ، وكان مرتديا زيه البحرى ومتوقعا أن يستقبل ببعض مظاهر الحفاوة ، ولكنه حزن لخيبة أمله فيما وصفت به هذه المدينة • ويقول كلايرتون ما نصه : « توقعت أن أرى مدينة مزدهرة وعظيمة ، ولكننى وجدت العكس من ذلك ، فقد

بلغ طول المسافة البنية بالمنازل ربع ميل تقريبا ، وفي أجزاء كثيرة من المدينة انتشرت في داخلها مجموعات منفصلة من البرك الكبيرة للمياه الراكدة • ويضيف كلايبرتون في قوله « ليتنى وفرت متاعبى التى بذلتها فى التزنى وأصاف بحزن أو بمرارة ruefully ما نصه : « فلم أر أى شخص يلفت رأسه نحوى ، ولكن الجميع قصدوا مصالحهم الخاصة ، وسمخوا لى بالمرور دون أى ملاحظة » •

وقد أدرك كلايبرتون أن مدينة كانو كانت مكان التقاء القوافل العربية القادمة من طرابلس ، وكان سوق الرقيق يتوسطها أو يمثل البؤرة أو يمثل مركز هذه المدينة • وبعد أيام قلائل رأى كلايبرتون هذا السوق محتشدا بأفراد من جميع أجزاء أفريقيا ؛ من منطقة البحر المتوسط ، ومن جبال القمر ، ومن سنار ، ومن بلاد الأسانتى ، وهنا أدرك كلايبرتون مغزى عدم اهتمام أهل البلد بدخوله الى البلدة فى زيه البحرى • وقد تفحص كلايبرتون سوق كانو بآهتمام مصحوب بالرعب • ولاحظ فى هذه المناسبة أن العبيد المعدين للشحن كان يعنى بهم عناية خاصة ، فكانوا يفحصون من جانب المشتريين المنتظرين كما لو كانوا حيوانات • وكان من نتائج هذه التجارة أن تفرقت الأسر بلا رحمة ، فلم يكن فى استطاعة أى أم أن تحتفظ بأطفالها ، كما لم يستطع أى رجل أن يبقى على زوجته • وعلى الرغم من أن العبيد كانوا يعاملون معاملة حسنة فى أغلب الأحيان ، إلا أنهم كانوا يهلكون بسبب العبودية الأبدية •

ولقد لاحظ كلايبرتون أثناء مروره من خلال مملكتى كانو وسكنو ، اللتين كان حاكمهما يحكم أيضا امبراطورية الفولانى ، أن جميع مدنهم كانت خالية من السكان بل ومهجورة ، لأن السكان كانوا يؤسرون ويباعون فى أسواق الرقيق ، وكان كلايبرتون قد تقرب من الحاكم المسلم الذى استقبله بكل ود • ويقول بيرتون لو أوقف هؤلاء الحكام تجارة الرقيق ، ففى هذه الحالة يكون فى أمكانهم الاتجار مع بريطانيا فى السلع المربحة ،

لأن بريطانيا كانت قد ألغت تجارة الرقيق ، وعلى هذا فلا يمكن ملك بريطانيا توقيع معاهدة مع أى حاكم لا يزال يتجر في الرقيق .

ولقد وافق الحكام الأفارقة على أن ينظروا هذه المسألة ، بينما كان كلايبرتون قد عاد الى إنجلترا كي يحيط الحكومة (البريطانية) علما بذلك . وكان كلايبرتون قد طلب من الحاكم الرئيسى ، السلطان بللو ، سلطان سكونتو ، أن يسمح له بالتقدم الى نهر النيجر ، الذى كان يوجد على مسافة مسيرة أيام قلائل الى جهة الغرب . وكان السلطان بللو رجل نبيل وكان مرتديا قميصا فضفاضا أزرق اللون مصنوع من القطن ، وكان النصف الأسفل من وجهه مغطى بشال يمثل عمامته المصنوعة من الشاش الأبيض ، كما كان هذا السلطان شخصية لطيفة ، ومع ذلك كان جافا فى تصرفه لذلك لم يسمح للرجل الأبيض بالمسير الى النهر (نهر النيجر) .

ولهذا فقد اضطر كلايبرتون الى التخلّى عن مهمته وأن يلحق بدنهام ، الذى كان ينتظره فى كوكا Kuka القريبة من بحيرة تشاد . وقد عبر الرجلان اللذان لم يكونا أصدقاء أبدا الصحراء مرة ثانية فى أمان وعادا معا إلى إنجلترا ، ووصلا الى لندن فى شهر يونيو عام ١٨٢٥ م ، أى بعد ثلاث سنوات ونصف من تاريخ رحيلهما . وعلى الرغم من فشل البعثة فى تحقيق واجبها الأساسى ، ألا أنها اكتشفت بحيرة تشاد ، وقد دحضت امكانية وجود اتصال بين النيجر والبحيرة ، وقد شاهد الرجلان شعوبا غريبة وبلادا جديدة ، ومدن كبيرة وطرق تجارية قديمة . وعلى هذا ، فلم يعد الجغرافيون فى حاجة الى الاعتماد Rely on على ليون الأفريقى فى معرفتهم للجزء الغربى من داخل افريقيا ، لأنهم فى ذلك الوقت ، كانوا قد حصلوا على كل المعلومات الجديدة والهامة .

وبعد ذلك ، شرع دنهام على الفور فى اعداد كتاب بعنوان « سرد للأسفار والاستكشافات فى شمال نيجريا »

(Narrative of travels and discoveries in Norther/Nigeria)

وفي هذا الكتاب أدمج inserted دنهام وصف كلايرتون لرحلته الى
كانو وسكونو ، وبذل جهده ليبرز دوره الخاص في البعثة ، على حساب كل
من كلايرتون وأودنى وبعبارة المؤلف :
«but he did his best to play up his own part in the expedition at the
expense of Clapperton and Oudney's».

ولم يذكر في كتابه هذا كشف كل من كلايرتون وأودنى لنهر الشارى •
وفي الوقت الذى كان فيه دنهام مشغولا بإعداد كتابه ، كان كلايرتون
يعانى من تدهور في صحته ، ومع ذلك فلم تنهار معنوياته فكل تفكيره
كان منصبا فقط في العودة الى افريقيا كي يكمل (مهمته) •

وقد اضطرب الأكسندر جوردون لينج من أن كلايرتون أو بعض
المستكشفين الآخرين قد هزموه في السباق الى تمبكتو ، فضاغف من
مجهوداته • وعندما كان في انجلترا فى أجازة حصل على التصريح
اللازم لكي يقود بعثة من طرابلس Tripoli الى تمبكتو ، ومن تمبكتو
يتتبع مجرى نهر النيجر حتى منبعه • وقد أبحر لينج في الخامس من
شهر فبراير عام ١٨٢٥ م ، وكان برفقته رجل زنجى يعمل خادما له
والذى كان معه في سيراليون من قبل ، كما اصطحب معه أيضا اثنين من
الأفارقة من صناع المراكب في غرب أفريقيا ، وقد قصد الأكسندر جوردون
لينج من ذلك أن يبحر هابطا مع النهر مثلما فعل بارك من قبل • وقد تعطل
لينج في طرابلس عدة شهور ، وكانت هذه المدة كافية بالنسبة له كي يقع
في حب مع إيماورينجتون Emma Warrington ، الفتاة الجميلة
ابنة القنصل العام البريطانى ، الذى كان هو نفسه الراعى الأكبر للكشوف
الأفريقية • وقد تزوج الاثنان في الرابع عشر من شهر يوليو من نفس
العام ، وبعد يومين من الزواج رحل لينج مع قافلة صغيرة تتضمن مترجم
فضلا عن خادم وعدد من صناع المراكب • وفي هذا الصدد يقول لينج :
« سأعمل أكثر مما عمل غيرى من قبل ، وأضاف يقول في تباه أننى سأوضح
بنفسى أننى رجل المهام العبقري » وبعبارة

«I shall do more than has ever been done before, he boasted' and shall show myself to be what, I have ever considered myself, a man of enterprise and genius».

ومع أن لينج كان متعجرفا arrogant ، ومغرورا Conceited ، إلا أنه كان يختلف عن أودنى المتواضع وعن كلايرتون الذى اعتبره لينج متنافسه ، كما أنه كان شجاعا وذو عزيمة قوية . وقد اضطر لينج الى مواصلة الكشف والتجول على أوسع نطاق على الرغم من اشتعال الحرب بين القبائل المحلية . وبعد شهرين من مغادرته طرابلس كان لا يزال أمامه مسافة يبلغ طولها أكثر من ١٠٠٠ ميل كى يحقق هدفه . وكان لينج فى تلك الأثناء وحيدا ومشتاقا الى زوجته . وقد علم من الخطابات العديدة التى وصلت من (زوجته) عندما كان فى القرية المجاورة لواحة غدامس Ghadames ، بأن كلايرتون كان قد وصل الى نقطة على الساحل (ساحل غرب افريقيا) ، والذى لم يعرفه لينج هو أن الشاب الفرنسى الذى يدعى رينيه كاييه René Caillié قد انضم فى السباق الى تمبكتو .

وانطلق لينج مرة ثانية ، وعبر الصحراء الى الجنوب ، وبعد ذلك كان عليه أن يصل الى واحة صالح فوصلها فى ديسمبر عام ١٨٢٥ م ، وكان أول أوربى زار واحة صالح ، كما أنه كان يثير فضول الأهالى . ولقد دعى مرة ليظهر على سطح المنزل الذى يعيش فيه فوجد مائة امرأة تحملن بثبات اليه . هذا فضلا عن أن لينج كان هدفا للشك . وقد ازدحمت واحة صالح بالتجار القادمين اليها من الشمال الغربى لأفريقيا ، وقد اذاع أحد هؤلاء التجار قصة مفادها أن لينج كان فى واقع الأمر منجوبارك . وكان هذا التاجر الذى اذاع هذه القصة قد جرح فى وجهه بطلق نارى من مركب بارك ، لهذا أصر على قصته ، على الرغم من أن رحلة بارك الأخيرة قد انتهت ، ومضى عليها أكثر من عشرين عاما ، فضلا عن ذلك فإن لينج كان وقتها شابا صغيرا .

واستنتج لينج أنه لا يزال يوجد أعداء لبارك فى هذه المنطقة ، لهذا

كان من الخطر بالنسبة له محاولة الإبحار هابطا مع النهر (أى متجها نحو مصب هذا النهر) وعلى أية حال ، فأن تمبكتو كانت تعنيه أكثر من النهر . وفى هذا الصدد كتب لينج الى والد زوجته يقول « أنا لم أتواجد فى تمبكتو بعد ، ولكننى أحاول الاقتراب منها ... أنا سوف لا أصل الى العاصمة الخبيرة قبل منتصف أو نهاية شهر يناير ، ولكن هذا فى حد ذاته كان ذات أهمية ضئيلة ، وسوف أعمل كثيرا ، بحيث أجعل رحلتى أكثر أهمية ، وذلك بالتقدم بهدوء وبرزانة من خلال هذا القطر ، بدلا من القيام بسباق مع كلايرتون الذى يبدو أن هدفه فقط هو حرمانى من الكشف ... » وعند هذه النقطة وصل كلايرتون الى مملكة اليوروبا ، التى كان يقطنها شعب ودود وعطوف . وبينما كان كلايرتون فى أقصى الجنوب من تمبكتو ، كان لينج فى أقصى الشمال منها (تمبكتو) . وكان لينج يحاول الوصول الى كانو وسكوتو ، ولم يحاول الوصول الى تمبكتو .

وعندما غادر لينج واحة صالح مع قافلة كبيرة من التجار ، كان يأمل فى أن تكون متاعب الرحلة قد انتهت to be over ، وفى هذه الفترة كان عليه أن يعبر الجزء الأوسط من الصحراء ، فكانت هذه المنطقة خالية من الواحات الكبيرة وتسكنها قبيلة الطوارق البدوية الشرسة . وفى أحد الليالى ، وبينما كان لينج نائما هاجم الطوارق المعسكر ، فقد جرح لينج فى البداية بواسطة طلق نارى ، وعندما قفز ليدافع عن نفسه ، ضرب ضربة مريعة بالسيف ، كما طعن thrust طعنات فى رأسه ورقبته وفى ذراعيه ويديه . وكان التجار قد هربوا عند أول علامة على بداية المتاعب ، وكان قد قتل كل من مترجم لينج وواحد من صانعى المراكب ، بينما جرح بجروح بسيطة كل من صانعى المراكب الآخر ، وقد حمل لينج والخادم على ظهر الجمل وهو ميت أكثر منه حى ، كى يسير مسافة تزيد على ٤٠٠ ميل على طول طريق الصحراء ، حتى وصل ومن معه الى مركز قيادة صديقه الشيخ سيدى محمد المختار الذى سمح للينج أن يمكث فى قريته حتى يشفى من جراحه . وفى تلك الأثناء ، أجتاح مرض الحمى الوبائى قرية

هذا الشيخ ، فمات من بين سكانها الشيخ نفسه ومترجم لينج ، بينما ظل الرجل الذى يقوم ببناء المراكب حيا يرزق والذى كان مرافقا للينج .
وقد أصيب لينج نفسه بمرض الحمى ولكنه شفى منه ، وبعد أن تأخر مدة طويلة ، تمكن أثنائها من استمالة الشيخ الجديد الذى خشى على سلامة لينج من أن يدعه يواصل السفر . وقبل أن يغادر لينج منطقة هذا الشيخ الجديد فى أول أغسطس من عام ١٨٢٦ م ، كتب لينج الى والد زوجته خطابا ، أعطاه الى الجمل الذى كان عائدا الى طرابلس (طرابلس الغرب) . وقد جاء بهذا الخطاب ما نصه :

« أنا الآن العضو الوحيد من أفراد البعثة الباقى على قيد الحياة ، وموقفى مرض للغاية ، وقد حصلت الآن على تصريح للسفر الى تمبكتو ، ولكن ذلك على حساب كل الذى حققته ، لأنه لم يكن أمامى خيار غير ذلك ، وكنت قد قبلت ذلك Consented ، لأننى كنت مدركا تماما ، أننى اذا لم أقم بزيارتها فإن العالم سيقضى يجهل هذا المكان ، وأننى لا أدعى تحقيق المجد الزائف حينما أقول أن هذه المدينة لن يزورها أبدا رجل مسيحي بعدى وقد شفيت بسرعة ، ولكنى عرضة الآن الى آلام مرعبة فى رأسى وهذه الآلام نابعة من قسوة جرحى وأرسل تحياتى وحبى الى عزيزتى ايما التى أدعو لها أن تباركها السماء » .

وقد أقرض هذا الشيخ الشاب لينج حرسا مسلحا ، ففى الثالث عشر من شهر أغسطس ، وصل لينج منتصرا الى تمبكتو ، بعد أن قطع مسافة طولها ٢٦٥٠ ميلا ، ويعتبر الأوروبى الأول بل والرحالة الأول ، الذى وصل فى العصور الحديثة الى هذه المدينة بمجهوداته الخاصة .

✽ هناك احتمال قوى يفيد أن بحارا أمريكيا يدعى بنجامين روز Benjamin Rose (الذى عرف أيضا باسم روبرت آدمز Robert Adams) كانت سفينته قد ارتطبت بساحل غرب أفريقيا عام ١٨١٠ م ، وعندهذ أخذ الى تمبكتو كعبد ، وفيما بعد أطلق سراحه ، وأخذ الى مراكش ، لكى يفندى بمعرفة القنصل البريطانى ، ويرسل الى لندن . وهناك أخبر بنجامين روز بانكس الذى قباله بأن تمبكتو كانت مكانا بانسا . وتختلف الآراء ، فيما اذا كان روز قد وصل بالفعل الى تمبكتو أم أن ذلك مجرد اختلاق .

وكانت مدينة تمبكتو هذه بعيدة كل البعد عن مدينة أحلام لينج ، فهي مدينة مملّة وكثيفة باستثناء مساجدها ، وكانت منازلها مبنية من الطين ، كما لم يوجد لهذه المنازل أسوار لحمايتها ، أو لم يكن لها (أى لهذه المنازل) دفاعات طبيعية • وكان سكانها من شعب الصنغى الذى يقطن فى منطقة النيجر ، وكان هذا الشعب يتعرض للسلب من جانب قبيلة الطوارق التى تقطن الصحراء ، وكان لينج قد خاب أمله لذلك نجده لم يسمح لنفسه بمواصلة هذا الفشل ، فقد أمضى بالمدينة خمسة أسابيع ، ومن الواضح إنه قضاه فى التجول فى انحاءها ، ولما كان خائفاً من خطر تعرضه للهجوم من جانب الطوارق ، فأنه ذهب ليلا الى كابرا Kabra ، ميناء تمبكتو الواقعة على نهر النيجر ، وعلى بعد مسافة خمسة أميال منه •

وهناك معرفة ضئيلة عن كيفية قضاء لينج بقية الوقت ، فقد وصل خطاب واحد فقط منه الى القنصل العام فى طرابلس جاء فيه ما يلى :

« من المحتمل أن تخبرك هذه الرسالة المختصرة جدا ، بما أريد أن أخبرك به ، هذا فضلا عن اخبار عزيزتى ايما ، وعن وصولى ورحيلى من العاصمة الكبيرة لأفريقيا الوسطى ، فلم يعد لدى وقت كى أعطيك تقريرى عن تمبكتو ، ولكننى سأذكر لك باختصار شديد أنها التقت تماما مع كل توقعاتى باستثناء حجمها (الذى لا يزيد فى الأتساع عن أربعة أميال فى المحيط) •

وفى هذا الوقت تخلى لينج عن أمله فى تتبع نهر النيجر بحيث يصعد معه حتى يصل الى منبعه • لذا قرر الا يعود من الطريق الصحراوى الوعر ، ولكن كان عليه محاولة الوصول الى سيراليون والى ساحل غرب افريقيا ، لهذا التحق بقالفة هذا الشيخ الذى قدم له الحماية فى جزء من الطريق ، وبعد أن غادر لينج المدينة ، وقطع مسافة ٣٠ كيلو متر ، هاجم الشيخ وعبيده المسيحي الأوربي (لينج) وقتلوه فى منطقة منزلة تسمى بهاب Sahab •

وفي تلك الأثناء ، كان لينج في لحظة انتظار (أى لحظة مغادرته بلدة الشيخ الذى أواه) بحيث بدت عليه الشجاعة والجسارة • وكان يرغب في كتابة كتاب ، ولكن مذكراته لم تعينه على ذلك ، كما أن تقريره كان قد اختفى ، وهكذا ، فقد ترك لينج من خلفه معلومات قليلة جدا ، عن مساحة شاسعة من افريقيا المجهولة •

وفي الوقت الذى قتل فيه لينج ، كان كلايرتون يتعقبه في افريقيا منذ أكثر من عام ، وقد حمل كلايرتون معه أوامر من الحكومة البريطانية تخبره بتأسيس علاقات صداقة بين بريطانيا والسلطان بللو ، سلطان سكونو ، وأخذ معه أيضا الهدايا المناسبة وخطابا من الملك جورج الرابع (ملك بريطانيا في ذلك الوقت) الى السلطان الأفريقى • وقد أحيط كلايرتون علما بأن يضغط على السلطان ويتضح ذلك من الخطاب التالى : « أنه من أهم المزايا التى سيحققها السلطان أن يضع حدا نهائيا لبيع العبيد الى التجار المسيحيين (الأوربيين) وأن يعمل أيضا على منع القوى الأفريقية الأخرى من تسير قوافل الرقيق التابعة لها من خلال أملاكه (أى أملاك السلطان بللو) وأن يخبره بالرغبة الملحة في الإلغاء الكلى لهذه التجارة غير الإنسانية وغير الطبيعية ، وبمجرد فتح الطريق بين راکا Rakah الواقعة على النيجر وبين ساحل البحر (ساحل المحيط الأطلسى) ، فسوف ينسلم ما يرغبه من السلع التجارية وبأسعار أرخص عن الأسعار التى يشتري بها السلع التجارية التى تأتى اليه من خلال الطريق الطويل الذى يعبر الصحراء » •

وقد أخبر كلايرتون بأن يجمع معلومات عن كافة أعمال تجارة الرقيق ، ويتضح ذلك من الخطاب التالى : « عليك أن تتبع مجرى ذلك النهر الذى عرف في الماضى بأسم كابرا Kabra (ميناء تمبكتو) وعرف في العصور الحديثة بأسم النيجر Niger فإذا كان هذا النهر مخالفا للأدلة Testimonies القديمة والحديثة ، فينبغى أن يوجد له انحناءة في مجراه من جهة الجنوب حتى يصب هذا النهر مياهه بعد ذلك عند انحناءة البنين ، بدلا من استمراره في الجريان الى جهة الشرق ، ولو وجد

أنه يصلح للملاحة خلال مروره من مقاطعات السلطان ، أو وجد أى جزء منه يصلح للملاحة فمن المحتمل أن يؤكد الكشف الأهمية القصوى لتسهيل أهداف البعثة الحالية ، وفي المستقبل سيجعلنا ذلك نتعامل مع ذلك الحاكم » .

وأخيرا كان على كلايرتون أن يكتشف بصفة شخصية منابع الأنهار التى تتدفق مياهها فى البنين والبيافرا ثم تصب فى خليج غينيا ، كما كان عليه أن يثبت وبطريقة عملية أنه لم يسمع من قبل بأن الميجور لينج قد أخبره بأنه أنجز ذلك الهدف ، كما كان على كلايرتون أيضا أن يزور تمبكتو .

وكان بارك قد أعطى دليلا واضحا عن انحناءة النيجر التى توجد فى الجنوب ، ومع ذلك فإن تقريره لم يبرهن على ذلك . وقد اعتقد كلايرتون أن نهر النيجر يصب مياهه فى خليج البنين ، كما لم يكن لهذا النهر اتصال ببحيرة تشالاد ، ولكن الآخرين وبصفة خاصة السير جون بارو Sir John Barrow كان مقتنعا بأن الرحالة سيبرهنون على أن نهر النيجر هو نهر النيل .

وفى نوفمبر ، عام ١٨٢٥ م ، قام كلايرتون على رأس بعثة من باداجرى Badagri الواقعة على خليج البنين (لمقابلة) السلطان بللو سلطان سوكتو ، وكان برفقته أربعة أشخاص من الأوربيين ، وقد تناقصوا فى خلال أسابيع قليلة الى واحد فقط وكان هذا الشخص هو الخادم الشخصى لكلايرتون ، فكان شابا واسع الحيلة a resourceful young Cornish man يدعى ريتشارد ليمون لاندن Richard Lemon Lander وقد ضمت هذه البعثة أيضا باسكو Pascoe ، وهو رجل مسن من بلاد الهوسا ، وكان باسكو هذا يثير بعض المضايقات أثناء الرحلة ، ومع ذلك فقد ثبت أنه كان يقدم أعظم مساعدة تطلب منه فى أوقات الشدة أو فى الأوقات العصيبة .

وأثناء مرور بعثة كلايرتون من خلال أراضي اليوروبا احتفى بهم

في كل مكان بالغناء والرقص • وفي مدينة الواوا Wawa التي لم تبعد كثيرا عن مدينة بوسا Bussa الواقعة على النيجر ، أقتفى أثر البعثة أرملة ثرية تدعى زوما Zuma ، فهي امرأة باشوشة وبدينة ، وقد كتب لاندري يقول : « تشبه زوما بالضيظ برميل المياه » ومع ذلك فإن زوما هذه كانت كريمة للغاية ، فقد قدمت الأطعمة لأفراد البعثة ، فضلا عن أنها شملتهم بحبها ، وفي البداية حاولت أن تستميل لاندري ، الذي كان حديث عهد بفنون الغزل ، لهذا فقد أخذ المسألة على أنها فكاهة ، بحيث لم يبذل أى جهد لإبطال هذا المزح ، ولما تبين له أن زوما تأخذ المسألة بطريقة جدية ، رفضها رفضا قاطعا • لذلك فقد إتجهت زوما بعواطفها نحو كلايرتون الذي خلص نفسه من هذه العواطف عن طريق مغادرته للمدينة على وجه السرعة • وبعبارة المؤلف :

«Zoma who was extremely generous with presents of food and offers of love, first tried her arts on lander, who was but a novice in the art of courtship, and imagining it to be altogether in jest, took little pains to spoil the fun by shrinking from it., when he realized that she was in earnest the young mangave her' a flat refusal; where upon she transferred her affections to clapperton, who extricated himself by leaving the town in a hurry.

وفي تلك الأثناء ، فإن النحس قد أصاب أفراد البعثة وبخاصة في المدة الباقية من الرحلة • فكان كلايرتون قلقا لأنه أراد أن يعرف حقيقة موت باريك ، في كل من بلدة واوا Wawa وبوسا Bussa ، حيث غرق باريك ، ووجد كلايرتون الناس في هاتين البلدين غير راغبين في التحدث في هذا الموضوع • وفي هذا الوقت وصل أفراد البعثة الى مدينة بوسا التي يزيد عدد سكانها عن ١٠٠٠٠ نسمة ، ومريض كل من كلايرتون ولاندري بالدوسنتاريا ، وقد شفى كلايرتون أولا ، وقام بحمل خادمه وعبر به المجارى المائية التي لم يستطع هذا الخادم أن يعبرها بسبب ضعفه وعدم مقدرة على السباحة • وبعد أن غادر أفراد البعثة بوسا عبروا نهر النيجر بواسطة معدية كومي Komie Ferry وسافروا جنوبا الى مسافة كبيرة ، واتجهوا بعد ذلك الى الشمال الشرقي متوجهين نحو مملكتي الزاريا Zaria

وكانو Kano وقد سلك أفراد البعثة طريقا جيدا ، وفي الوقت نفسه كان لاندن Lander لايزال مريضا ، وفي كانو انقسمت البعثة الى قسمين ، ضم القسم الأول لاندن وباسكو اللذان مكثا في الخلف ومعهما أمتعة البعثة ، وأما القسم الثاني فضم كلايرتون الذي أسرع بمفرده الى سكوتو . وفي النهاية قابل السلطان مرة ثانية فوجده متورطا في حرب مع حاكم بورنو ، وكان هذا السلطان بعيدا أيضا ومشغولا في خطته العسكرية بحيث لا يمكنه أن يعطى أية معلومات عن العلاقات التجارية التي ستنشأ مع بريطانيا .

وقد عقد كلايرتون العزم على تنفيذ تعليمات هذا السلطان ، وأدى فشل البعثة ، الى تحطيم روح كلايرتون المعنوية . وأما لاندن فقد بدأ طريقه من كانو ، ووصل الى المكان الذي يتواجد فيه كلايرتون ، فوجده مريضا وبائسا وزاد ضعفه يوما بعد يوم ، بسبب حرارة الشمس الشديدة .

وفي يوم رأس السنة ، من عام ١٨٢٦ ، كتب كلايرتون في تقريره ما نصه « لقد أعطيت خادمي ريتشارد جنيه انجليزي One Sovereign من السنة جنيهاً التي تبقت معي ، وكان هذا الجنيه بمثابة هدية رأس السنة ، لأن ريتشارد كان يستحق هذا المبلغ ، ولم ير في أية مرة من المرات أنه في حاجة الى شجاعة رجل انجليزي ، وبعد ثلاثة أسابيع علم كلايرتون بهجوم الطوارق على ليننج ، ولكنه لم يعرف أن ليننج قد مات من عدة شهور مضت .

وفي هذا الوقت ، كان كلايرتون ضعيفا ، حيث كان يرقد طوال اليوم على السرير الذي أعده له لاندن والذي وضعه في الظل خارج الكوخ ، وبعد خمسة أيام متتالية كتب لاندن ، يقول « لقد كنت أحمل (كلايرتون) على أذرعى من الكوخ الى السرير ، ثم أرجعه مرة ثانية عند الغروب » . وبعد ذلك زاد عليه المرض وأصبح غير قادر على الحركة ، وفي خلال الأسابيع الأخيرة من حياته عرف كلايرتون أنه سوف يموت وكان يهرقه شغور بالفشل والقلق على مصير لاندن عندما يموت

هو نفسه (كلابيرتون) • وعمل لاندر كل شيء حتى النهاية لكي يتمكن من تخفيف معاناة سيده ، فقام بتمريره وإطعامه كما كان يمزح له لعدة ساعات حتى يخفف عنه شدة المرض وحرارة الحمى ، كما كان يقرأ له يوميا في الإنجيل •

وعندما تحقق كلابيرتون من أن نهايته أصبحت وشيكة ، نادى على الشاب (لاندر) وقال له ما نصه « ريتشارد بعد وقت قريب سوف لا يكون لى وجود ، فأنا أشعر بالموت ، وغالبا ما هزنى الحزن » وقال ريتشارد « الله يرفع سيدي العزيز ، الذى سيعيش سنوات عديدة بعد ذلك » فقال كلابيرتون « لا تتأثر كثيرا يابنى العزيز فأنا أتوسل اليك ، لأنها إرادة الله ، وأنت لا تستطيع مساعدتى » •

وقد أخبر كلابيرتون لاندر أن يطلب من السلطان بللو Bello قرضا ليشتري به جمالا وطعاما ، وبعد ذلك كان عليه أن يلتحق بأية قافلة تتجه الى قرآن ، فإذا رفض السلطان طلبه فعليه أن يرسل خطابا الى القنصل (البريطانى) العام فى طرابلس ، والذى سوف يرسل اليه المساعدة التى يحتاج اليها ، وأنه سوف يتأكد بأن لاندر سيعود بأمان الى انجلترا •

وبعد ثلاثة أيام ، أى فى يوم ١٣ من شهر ابريل عام ١٨٢٧ ، مات كلابيرتون بين أيدي لاندر • وبوقار شديد نكس لاندر العلم البريطانى The Union Jack ، ويقول لاندر ما نصه « عندئذ كشفت رأسى وفتحت الكتاب المقدس (الإنجيل) والدموع تنهمر من أعينى ، ومع ذلك بدأت أقرأ الترانيم المؤثرة الخاصة بالجنازة ، على جثمان سيدي المحترم والتى كانت الكنيسة البريطانية تقوم بها ، وفى نفس اللحظة كان العلم البريطانى يرفرف ببطء وبحزن على هذا الجثمان » •

ولم يكن يبلغ كلابيرتون من العمر أربعين عاما عند موته ولكن على الرغم من ذلك ، وبدون شك ، فإنه كان من أعظم الأشخاص الذين ساهموا فى الكشف الأثريقية لسنوات عدة ، ومع ذلك فإن انجازاته لم تعط حقها • وكان دنهام مسئولاً الى حد ما عن هذا الأهمال ، وكذلك السير جون بارو ،

الذى أصر على اعتقاده بأن النيجر هو نهر النيل ، رغم كل الدلائل التى تشير الى عكس ذلك •

وكان هناك أمر آخر يدعم صدق كلايرتون هو أنه ترك خادمه لاندر بيذل قصارى جهده فى تحقيق ما فشل هو فى تحقيقه ، وكان لاندر هذا يتمتع بصفات ممتازة قوت من عزمته التى لولاها لكان اليأس قد أصابه • وقد فقد لاندر سيده ، الذى قال فى حقه أنه كان بمثابة والده (أى والد لاندر) • وفى تلك الأثناء كان لاندر مريضا ومفلسا ، كما كان هو الرجل الأبيض الوحيد الذى بقى فى هذه المنطقة الشاسعة والمجهولة فى معظمها ، وكان صديقه الوحيد فى هذا الوقت هو باسكو ، أحد شيوخ قبائل الهوسا الذى طلب لاندر منه بكل شجاعة أن يمكث معه بدلا من أن يظل فى وطنه •

وكان لاندر أيضا واحدا من الأشخاص البارزين فى مجال الكشف الأفريقية ، فكان قد ولد فى عام ١٨٠٤ م ، وكان الرابع من ستة أطفال لرجل يملك فندق فى كورنش Cornish ، وكان لاندر حفيدا لمصارع مشهور ، كما كان قصير الطول ، وذو شكل مربع ، وقوى مثل جده ، وكان يتميز بعقل ناضج ومتفتح ، وإنه شخصية ساحرة وجادة ، ورغم أنه كان خادما منذ الحادية عشر من عمره ، الا أنه كان دائما يميل الى السفر • وقد رفض Turned down وظيفة بأجر كبير وفضل السفر الى افريقيا مع كلايرتون •

والآن لن يتخلى عن الذهاب (الى غرب افريقيا) مع أن كلايرتون كان قد نصحه بالذهاب الى الشمال بدلا من المخاطرة فى الطريق الى الساحل الغربى • وأنه بعيدا جدا عن أن ينجس فى توقعات حل أكبر مشكلة جغرافية موجودة ، والتى حيرت الأوربيين لمدة طويلة الا وهى التأكد من أن نهر النيجر يتصل بالفعل بالبحر • لذلك عاد لاندر الى كانو، وعندئذ توجه صوب الجنوب فى اتجاه شوندا Fundah الواقعة فى بلاد

النوب Nupe ، وهناك بسمع الناس يتحدثون عن مدينة تقع على نهر النيجر •

وبعد اثني عشر يوما من بدء الرحلة التي قام بها لاندنر من مدينة فوندا ، هاجمته عصابة من المسلحين التابعين للأمير الزاريا Zaria وحاولت اعتقاله • ففنى الظاهر كان على هذه المجموعة أن تحمية من حكام الفوندا ، الذين كانوا أعداء لسلطان مهلكة سكوتو ولما تحقق لاندنر من سوء نية هؤلاء المسلحين اضطر للتخلي عن بحثه ، واتخذ طريقه عائدا إلى باداجرى • وبصحبه ناسكو الذي لا يزال معه ، وكان على لاندنر أن ينتظر سفينة تنقله إلى انجلترا •

وقد استغرقت هذه الرحلة سنتين ، منذ أن رسا لاندنر وكلايبرتون في باداجرى • وقد وجد لاندنر هذا المكان مكتظا بتجار الرقيق المولدين (المهجنين) Half - Caste Slave traders الذين قدموا من البرازيل ، وكان هؤلاء التجار البرازيليين ، أعداء للبريطانيين ، وكانوا يسعون لتحطيم تجارة الرقيق الدولية • وأعتقد هؤلاء التجار البرازيليين أن لاندنر من المحتمل أن يكون جاسوسا بريطانيا a British Spy ، لذا أقنعوا بسهولة أحد الشيوخ المحليين الذي كان يعيش أيضا على تجارة الرقيق بأن هذا الشاب (لاندنر) يهدده في رزقه •

وكان هذا الشيخ المحلي ، هو الذي يحض على التضحية البشرية ، ويشجع الأعمال العنيفة الأخرى ، لذا قرر أن يبعد هذا الدخيل بعيدا ، وأمر أن يظهر لاندنر أمام الكبار ، ويتضح ذلك من النص التالي :

« أحتشد هؤلاء الكبار عند كوخ ضخم ••• وفي طريقى إلى هذا الحشد تجمع ما بين ٥٠٠ ، ٦٠٠ شخص ، بحيث أنني استطعت التقدم بصعوبة • وكان هناك عدد كبير منهم مسلح بالبيلط Hatchets ، والأقواس

* في الواقع أن فوندا هذه لم تقع على نهر النيجر ، ولكن تقع على رانده البنوى .

bows ، والسهام Arrows ، والحراب Spears ، وانتظروا خارج الكوخ حتى خرجت • وحال دخولي الى الكوخ قدم الى هؤلاء الرجال وعاء ، كان مملوءا ••• الى الربع بسائل شبيه بالماء ، وأمرني هذا الرجل أن أشرب هذا السائل ، قائلا « اذا كنت قد قدمت الى هنا لتقوم بأفعال سيئة فأن هذا الشراب سيقنك ، وأما اذا كنت لم تأت لفعل السوء ، فأن هذا الشراب لا يؤذيك بسوء ، ولم يوجد أمامي حيلة أو وسيلة resource تخلصني من هذا الموقف ، فعلى الفور وبدون تردد شربت كل محتويات الوعاء وجريت بسرعة الى خارج الكوخ من خلال الرجال المسلحين الى مكان أمتعتي ، وهناك تناولت دواء قويا وكمية من المياه الدافئة ، فعلى الفور طرد هذا الدواء الذي تناولته كل محتويات معدتي ، ولم أشعر بأي مؤثرات مؤلمة من هذا الطقس الديني • وكان هذا الشراب من المذاق ، بل ومذاقه غير مقبول ، وقد علمت أن هذا المشروب ثبت بصفة دائمة إنه قاتل » •

واندهش الرئيس المحلي بسبب بقاء لاندر حيا ، واعتقد فقط انه من المحتمل أن يكون لاندر تحت حماية مقدسة ، وينبغي على لاندر نفسه أن يزود هذا الرئيس بعناية أرضية • ولذلك حذر الشيخ لاندر بأن تجار الرقيق ينتظرونه في خارج هذا المكان ليقتلوه • ونصحه بالا يخرج من كوخه بدون سلاح • وفي خلال الشهرين التاليين انتاب لاندر خوفا على حياته ، ولكنه انقذ بسبب وصول سفينة بريطانية أقلته عائدا الى إنجلترا • وقد صحب باسكو المخلص لاندر في طريق العودة الى إنجلترا ولكنه بناء على رغبته عاد الى وطنه افريقيا •

ولقد وصل لاندر الى إنجلترا في شهر أبريل عام ١٨٢٨ ، أى بعد عام من وفاة كلايرتون • وفي هذا الوقت كان الشاب الفرنسي الجسور الذي يدعى رينييه كاييه R. Caillie والذي كان يكبر لاندر بخمس سنوات ، قد حقق طموحه • وكان رينييه هذا ابنا لأبيرة فقيرة ، فقد تعلم في مدرسة خيرية Acharity School ، وبعد ذلك تدرب على الأعمال التجارية ، ولكن بعد ذلك كره (العمل التجاري) وشغل وقته

بالقراءة والتأمل • وقد كتب عن قصة روبنسون كروزو Robinson Crusoe في مذكراته يقول :

« لقد الهبت هذه القصة مشاعري القومية ، وكنت عديم الصبر ، فكنت تواقا للقيام بمغامرات مثله (روبنسون كروزو) ، وكنت قد شعرت من قبل بظموح بحيث اجعل من نفسي شخصية بارزة ، وذلك بقيامي ببعض الاستكشافات الهامة الآن خريطة افريقيا لم أر عليها أشياء محددة بل بلاد وأفكار تحدها الصحراء ، أو حتى بدون حدود ، فقد أخذت هذا مأخذ الجد أكثر من أي شيء آخر » •

وفي سن السادسة عشر ، ترك رينيه تجارته ، وذهب الى البحر في سفينة كانت متجهة الى السنغال • وهناك علم بأن الكابتن جـرى Captain Gray كان يتتبع طريق باريك حيث صعد مع نهر جامبيا • عندئذ شرع رينيه كاييه في السير على الأقدام كي يلحق ببعثة الكابتن جـرى ووصل كاييه الى نهر السنغال ، ووجد أن جـرى غير قادر على الوصول الى دوتشارد Dochar ، عندئذ كان على بعثة جـرى أن تتخلي عن مهمتها (وعاد رينيه كاييه بالتالي الى فرنسا) •

ولكن في عام ١٨٣٤ عاد رينيه كاييه من فرنسا الى السنغال مع أنه كان فاقداً للأمل • ولكن على الرغم من ذلك وصل السنغال وهناك زوده الحاكم الفرنسي لهذا الأقليم بالسلع والمؤن ومكنه هذا الحاكم أيضا من البقاء في السنغال وقتا كافيا ليبدأ في تعلم اللغة العربية ، كما كان عليه في هذه الفترة أيضا أن يدرس الاحتفالات الدينية للمراكشيين ، وبعد ذلك سوف يتمكن رينيه كاييه من تهداة Lull غيرتهم وشكوكهم • وهكذا تمكن كاييه بسهولة من النفاذ الى مسافات بعيدة ، في داخل افريقيا •

وكان لدى كاييه فكرة جريئة تتمثل في أنه يسافر بمفرده ، وهو متنكر في زي رجل وربع مسلم ، وعلى هذا الأساس ، فقد مكث في السنغال ثلاث سنوات كي يتمكن من اتقان هذه الخطة • وكانت القصة التي دبرها

كاييه ، أو التي إختلفها تتمثل في أنه كان قد ولد في مصر من أبوين عربيين ، وأثناء الغزو النابليوني لمصر ، أخذته البحارة الفرنسيون وهو طفل الى فرنسا ، وهناك عمل كاييه خادما في فرنسا عندما كان طفلا ، ومع ذلك فأن سيده أحضره الى السنغال ومنحه حريته ، والآن يرغب في أن يصبح مسلما ويتخذ طريق العودة الى مصر ، كي يبحث عن أسرته .

وقد أثنى كاييه التنكر ، وذلك بأرتدائه الزي العربى ، فضلا عن أنه أجاد العربية ، فعرف محتويات القرآن ، وألم بعادات المسلمين . وفى عام ١٨٢٧ م التحق رينيه كاييه بقافلة كانت متجهة الى تمبكتو ، وقد صدم رينيه للوهلة الأولى ، وبخاصة عندما رأى مقبرة كل من الميجور بيدى Major Peddie ومقابر الأعضاء الآخرين الذين كانوا ضمن أعضاء بعثة النيجر المشؤمة .

وعلى الرغم من بشرته البيضاء وأنفه المستقيم الذى جعله أكثر وضوحا الى الفولانيين الذين يتميزون بالبشرة النحاسية ، الا أنه تمكن من تهدئة شكوكهم وذلك عن طريق ورعه الواضح . ومع ذلك كان عليه أن يأخذ حذره ، بحيث لا يراه أحد أبدا عندما يكتب تقريره ، وهكذا ، وبمكر كان كاييه يضع أوراق بيضاء بين صفحات القرآن لكي يستخدمها في كتابة مذكراته .

وقبل أن يصل كاييه الى الشاطئ الأيسر لنهر النيجر ، أصابه المرض والأنهاك بل وكان يعاني من تقرح في قدمه ، لم يلتئم أبدا ، عندئذ كان عليه أن يدع القافلة تواصل المسير بدونه ، وظل لمدة شهور عديدة غير قادر على الحركة ، لأن الإسقربوط كان قد هاجم عظامه ، مثل منجوبارك من قبله ، فهو مدان بحياته الى شفقة سيدة عجوز كانت تقدم له الطعام ، بل وتتقوم بتمريضه ، حتى أصبح قادرا على مواصلة رحلته .

واستغل رينيه فترة النقاهة في تجهيز أفضل الوسائل التي تمكنه

من التقدم الى النيجر بحيث أنه كان يأمل في الوصول الى تمبكتو المدينة الغامضة والتي كانت هدفاً رحلته .

وبعد السير لمدة شهرين كان كاييه لا يزال ضعيفا وخاضعا لنوبات متكررة للمرض ، ثم وصل بعد ذلك الى أحد فروع نهر النيجر ، وعبر النهر بمعدية الى جزيرة جين Jenne . وهناك رحب به بعض الأثرياء الذين 'خدعوا' Hoodwinked بتفكره وعملوا كل ما في استطاعتهم كي يساعدوه في طريقه . وفي نهاية مارس عام ١٨٢٨ م ، ركب رينيه كاييه مركب عبيد كانت متجهة الى تمبكتو . وقد تبعت هذه المركب مجرى النهر (نهر النيجر) لمدة ثلاثة أسابيع ، وفي صباح التاسع عشر من شهر ابريل من نفس العام ، القى كاييه نظرتة الأولى على الكابرا Kabra ، وهي ميناء تمبكتو . وقد استغرقت هذه الرحلة سنة بالضبط ، منذ التحاق كاييه بالقافلة التي بدأت المسير من السنغال . وفي خلال هذه الفترة تمكن رينيه كاييه من قطع مسافة طولها ١٥٠٠ ميل سار منها ١٠٠٠ ميل على الأقدام .

وعندئذ اتجه كاييه الى تمبكتو في اشتياق لرؤية عجائبها ، وكانت الحقيقة خيبة أمل محزنة . فبدت المدينة وكأنها لم تكن شيئا يذكر ، بل كانت عبارة عن كتل من المنازل الرديئة ، المبنية من الطين ، ولم ين كاييه أى شىء في جميع الاتجاهات ، ولكنه رأى سهولا للرمال المتحركة ذات اللون الأبيض ، الذى يميل الى الأصفرار ، وبينما هو في حالته هذه فقد ملئ بالاعجاب لهؤلاء الرجال الذين شيدوا هذه المدينة في الصحراء ، وانتهت خيبة الأمل الذى كان قد أصيب بها أولا .

وقد حمى كاييه نفسه بسبب تفكره هذا ، فقد عومل على أنه ضيف ممتاز ، وسمح له بالذهاب الى أى مكان يرغب في زيارته ، فتنجول في شوارع المدينة ، وزار المساجد وسوق الرقيق . فلم تكن المدينة كبيرة ، ولا مزدحمة بالسكان ، كما كان يتوقع ، وكتب كاييه يقول ما نصه :

« لم تكن المدينة كبيرة ، بحيث تتناسب مع شهرتها فلم يوجد هناك ،

مثلما يوجد في جين ، حيث يلتقي الغرباء من كل أجزاء السودان ، وذكر رينيه كاييه أنه رأى في شوارع تمبكتو الجمال فقط ، التي وصلت من Kabra وهي محملة بالسلع التجارية التي أحضرها الأسطول Flotilla ، ورأى أيضا السكان يجلسون على الحصر بحيث يتبادلون الحديث ، كما رأى المراكبيين وهم نائمون في الظل أمام أبواب منازلهم • وباختصار فقد بدأ كل شيء له مملا » •

واعتقد رينيه كاييه أن عدد سكان تمبكتو يتراوح فيما بين ١٠٠٠٠٠ ، ٢٠٠٠٠٠ نسمة • ولازال سكان تمبكتو ينتابهم الخوف من قبيلة الطوارق المفترسة Rapacious Tuareg • وقد علم رينيه كاييه عن موت لينج عندما كان في مدينة جين ، ولم يتمكن كاييه من أن يتخلص من القلق على مصيره ، وعلى وجه الخصوص عندما استأجر لنفسه المنزل القريب من المنزل الذي كان يسكنه لينج ، ويتضح ذلك من قوله « فلقد كنت على دراية تامة بما يحيط بي من مخاطر ولم أستطع أن أبعد عن إحساسي انه يمكن أن يكتشف أمرى ، وفي هذه الحالة فأن مصيرى سوف يكون أقسى من الموت أو العبودية » •

ومن حسن الحظ فأن تنكر كاييه كان تنكرا جيدا ، حتى أنه تمكن من أن يخدع شيخ تمبكتو الذى أستقبله في قاعة أستقبال ، وسأله عن كيفية معاملة المسيحيين له في فرنسا infidel Christians ، وبعد أن قضى كاييه أربعة عشرة يوما في مدينة تمبكتو غادرها دون أن يكتشف أمره حتى هذه اللحظة ، والتحق بقافلة متجهة bound الى مراكش • واعتقد أنه اذا عاد بمفرده الى الساحل الغربى فأنه لا يمكن لأى شخص أن يعتقد أنه زار تمبكتو •

وبلغ طول الرحلة التي قطعها رينيه كاييه عبر الصحراء ٩٠٠ ميل ، ويقول كاييه « أن العواصف الرملية قد أحاطتنا بطبقة سميكة من الضباب المظلم ، حتى أن معظم المسافرين المنهكين قد قاسوا من متاعب العطش •

واستمرت هذه الرحلة مدة ثلاثة شهور تقريبا ، قبل أن تدخل القافلة مدينة فاس Fez المراكشية • وكان كاييه لايزال مبتكرا حتى هذه اللحظة ، وواصل مسيره الى طنجه حيث هرب على متن سفينة فرنسية • وقد قطع كاييه أثناء رحلته التي استغرقت ثمانية عشرة شهرا ، مسافة طولها ألفين وخمسمائة ميل ، قطعها في أقل من شاسع غير مكتشف • وكان رينيه كاييه الأوربي الأول الذي زار تمبكتو وعاد حيا كي يتهيأ لكتابة تقريره ، وقدم كاييه وصفا جديدا لتمبكتو في كتابه « رحلات من خلال وسط أفريقيا الى تمبكتو » « Travels through Central Africa to Timbuctoo » ، وقد حصل على مكافأة صغيرة منحتها له الجمعية الجغرافية الفرنسية ، كما استحق وسام الشرف وهو عبارة عن معاش « a richly deserved Cross of the legion of Honour » ومات رينيه كاييه عام ١٨٣٩ م ، وكان عمره آنذاك أربعين عاما •

وفي نفس الوقت ، عاد ريتشارد لاندر Richard Lander الى (انجلترا) وكتب تقريرا عن مغامراته ، كي يضمه الى تقرير كلايرتون الناقص ، وبعد أن أكمل ريتشارد لاندر تقرير كلايرتون قام بنشر التقريرين في كتاب بأسم ، تسجيلات البعثة الأخيرة للكابتن كلايرتون « Records of Captain Clapperton's last Expedition ».

وقد تلقى ريتشارد لاندر العون من أخيه الأصغر جون لاندر John Lander الذي تمرن ليصبح طباعا وجماعا لأحرف الطباعة في جريدة كورنيش Cornish ، وكان جون لاندر الذي كتب عدة مقالات في النثر prose ، وبعض قطع الشعر verse ، مهتما أكثر بالسفر عن أن يحيا حياة كاتب أو طباع • ويرجع الفضل الى أخيه ريتشارد لاندر في حبه الى سحر افريقيا • ولما طلب ريتشارد لاندر تصريحاً رسمياً يخول له السفر الى افريقيا كي يحل مشكلة النيجر ، فإن جون لاندر رغم عدم محاولته السفر ، طلب أن يذهب مع شقيقه •

ولم توضع عقبات في طريقيهما (ريتشارد لاندر وأخيه جون) فقط • وضح على الفور أن جون لاندر كان شريكا مثاليا •

وفي يوم التاسع من شهر يناير عام ١٨٣٠ م ، أبحر الأخوان من ميناء بورتسموث Portsmouth ، وفي هذه المناسبة كتب رينشارد لاندرك الى وزارة المستعمرات البريطانية يقول « على أن أقضى على كل خطر وكل ازدراء وكل صعوبة من المحتمل أن تهدد وتعرقل تقدمنا » . وكانت التعليمات الصادرة اليه أن يتبع مجرى نهر النيجر للوصول الى نهايته ، ومعرفة امكانية أنه يصب في البحر ، أو في بحيرة تشاد ، وبعبارة :

«His instructions were to follow the course of the Niger, if possible to its termination, wherever that may be, either in the sea or in lake chad».

وقد رسا الأخوان على ساحل غرب افريقيا بحيث توقفوا عند قلعة رأس الساحل وهما في طريقهما الى باداجرى لأستئجار بعض الخدم الإفريقيين ، الذين كان من بينهم باسكو المسن ، والذي أحضر معه زوجته الاثنين ، وفي باداجرى كان الأخوان البريطانيين غير مألوفين تماما ، حيث أن رينشارد لاندرك قد هرب من موت محقق ، وعلم الأخوان أن رئيس المنطقة كان يعد ضحية بشرية مكونة من ثلاثة مائة شخص . ولم يستطع الأخوان القيام بأى عمل من شأنه منع هذه المذبحة الجماعية ، وكان الأخوان قد سرا لأنهما تمكنا من مغادرة هذا المكان قبل أن تبدأ هذه المذبحة .

وقد سافرت البعثة بطريق البر تجاه النيجر ، واستخدمت في ذلك الطريق القديم الذى قادها من خلال وطن اليوروبا . وقد دهش الناس المحليون بدرجة كبيرة لرؤية أفراد البعثة وأحاطوا بالأخوين وهم يصيحون Shouting ويهللون بصوت مرتفع Squealing ، ولم يمنح السكان أفراد البعثة الراحة حتى عندما كان أفراد هذه البعثة في مسيس الحاجة إليها ، وبخاصة عندما سقط الأخوان فريسة لمرض الملاريا . وكان الملك موجوداً في العاصمة كاتونجا Katunga ، واستطاع أن يرى كيفية ما يعانيه أفراد هذه البعثة ، فأصدر أوامره الى الأيبر Ebo رئيس الحرس ، وقد جاء بهذه الأوامر ما يلي :

« أنه في حالة قيام أى شخص سليل بمضايقتنا في أى وقت ، فإن

الأيبو Ebo له الحرية في قتل هذا الشخص الذى يضايقنا ، ومن المحتمل أن يكون لهذا الإعلان نتائج مرضية ، والسبب فى ذلك يرجع الى الخوف من الأيبو الجراد العام الذى ينفذ العدل ، حيث كان فى نفس الوقت رئيسا للحرس ، لذلك فأن سكان كاتونجا Katunga قد أخفوا فضولهم وحبسوا أنفاسهم فى مساكنهم abodes » •

وعندما وصل الأخوان الى بوسا Bussa قابلا زوما الأمثلة المشهورة القديمة Richard's Old Flame, the widow Zuma وكانت زوما هذه المرة بدينة عما كانت عليه من قبل ، ولم تحمل ضغينة لريتشارد لرفضه لعروضها ، وشرحت زوما لريتشارد لاندر ill - will أنها قد تتساجرت مع رئيسها المحلى وهى الآن تعيش فى المنفى •

وقد قصد ريتشارد أن يسير مع النهر حتى يصل الى بوسا ، ولكنه واجه مشكلة كبيرة تمثلت فى كيفية توفيره للمراكب اللازمة وللمتطوعين اللازم تجنيدهم • وبعد أن تأخرت البعثة بعض الوقت ، تمكنت من شراء قاربين Canoes عن طريق المبادلة بعدد من أبر الخياطة ، ثم شرع الأخوان بعد ذلك فى الرحيل فى العشرين من شهر سبتمبر عام ١٨٣٠ م • ولم يكن لدى البعثة أى فكرة على الإطلاق على المنعطفات التى تصادفها فى هذا النهر الكبير ، ولا عن المخاطر والمصاعب التى من المحتمل أن تقابلها •

وكانت أولى هذه المشاكل التى واجهتها تتمثل فى أن المياه قد تسربت الى المركب الكبير بدرجة كبيرة ، حيث أعيد تجديده فى آلاف الأماكن • واستخدمت البعثة هذين المركبين أطول مسافة ممكنة ، وبعد ذلك تخلت عنهما فى مقابل حصولها على مركب أصغر ، كان قد قدم اليها من شيخ رحيم a sympathetic chief •

وبعد أن بدأت البعثة مهمتها ، بدأت أول مشكلة تواجهها ، وقد تمثلت هذه المشكلة فى النزاع — الذى وقع بينها وبين أغراس النهر التى ظهرت فجأة — والذى لا يمكن تصديقه ، ويتضح ذلك مما يأتى : —

« ظهرت هذه الأفراس بالقرب منا ، فكأنت تخوض في المياه (نطرطش) وتزأر (أى يسمع لها شخير) وتغوص جميعها من حول المركب ، بحيث أصبحت البعثة معرضة لخطر وشيك * وانصب تفكيرنا في كيفية تخويفهم ، وذلك بأن نطلق عليهم عياراً أو عيارين من الأسلحة ، ولكن كل ما حدث أن أصوات الطلقات النارية أخرجت من المياه ومن المستنقعات كثيراً من رفاقهم غير المتوحشين ، بحيث أصبحت الحيوانات على مقربة منا ، كما أننا أصبحنا في خطر شديد » *

وقد دب الرعب الى (البحارة) boatmen وصاحوا بصوت مرتفع من أن هذه الدواب (أفراس النهر) سوف تقلب المراكب وأنهم سوف يغرقون عن آخرهم ، ولكن الأخوين تحدثا بهدوء وبرزانة ، وحثا البحارة على التجديف بسرعة ، وحتى يتبع ذلك صوت صادر من التجديف مما يدعو الأفراس الى المسير الى الأمام *

وعند ايجا Egga وهى مدينة تقع في إقليم النوب Nupe الواقع على نهر النيجر ، هدد البحارة بالهروب ، وكانت مدينة الأيجا هذه واحدة من المدن الواقعة على حدود الهوسا ، وفيما وراءها يوجد قطر مسكون بقبائل متوحشة وهمجية ، وقال اللذين زارا هذه المنطقة من قبل وهما باسكو Pascoe ، ورجل آخر إنهما لا يستطيعان الذهاب أبعد من ذلك لخوفهما من أن يقتلا ، ولكن من المحتمل أيضاً إنهما يتعرضان لخطر مساوى لذلك الخطر لو مكثا في الأيجا ، لذلك إستمالهما الرجلان البيض (ريتشارد لندر ، وأخيه جون لندر) على البقاء معهما *

وبعد أيام قلائل أصبح خوفهم له ما يبرره فقد عسكرت المجموعة (البعثة) على شاطئ نهر النيجر وبالتحديد أسفل المنطقة التى يلتقى عندها نهر النيجر بفرعه البنوى ويتضح ذلك من النص التالى :

« لقد شاهدنا مجموعة كبيرة من الرجال كانت غالبيتها عارية الأجسام ، تجرى بطريقة غير منتظمة ، نحو معسكرنا الصغير ، وكانت

ملاحج هؤلاء الرجال غير مألوفة بالنسبة لنا • وكانوا جميعا مسلحين بأسلحة مختلفة ، منها البنادق القديمة الطراز Muskets ، والأقواس bows ، والسهام arrows ، والسكاكين knives ، والسيوف Cutlasses ، والأشواك barbs ، والحرايب الطويلة Long Spears ، هذا فضلا عن أنهم كانوا يحملون معهم أدوات أخرى للتدمير instruments of destruction ، وكانت مجموعتنا أكثر انتشارا ولكن لحسن الحظ غائنا رأيناهم من مسافة قريبة قادمين إلينا ، وكان لدينا الوقت كي نجتمع رجالنا ، وكان تصميمنا أن نمنع اراقاة الدماء كلما أمكن ذلك ، لأن عددنا كان قليلا ، وهذا يتيح لنا فرصة الهروب بأى طريقة أخرى ، لهذا لم نضيع لحظة واحدة من وقتنا • ورغبنا بإسكو وجميع الناس التابعين إلينا فى السير من خلفنا ، وذلك لمسافة قصيرة ، بحيث يحملون معهم البنادق والمسدسات Pistois • واشترطنا عليهم بكل دقة عدم اطلاق النيران اذا هم لم يبدأوا بأطلاق النيران علينا • وقد ثبت أن الرئيس كان واحدا من الوطنيين فحسبنا أن هؤلاء الرجال جميعا كانوا فى صحبته ، ومشيت أنا وشقيقى ببطء ، وبدون سلاح تجاه هذا الرئيس • وبينما كنا نقترب منه قمنا بعمل كل الإشارات والحركات التى يمكن عملها بأذرعنا لنمنعه deter وشعبه من اطلاق النيران علينا • وكان هذا الشيخ يحمل معه خنجرأ يتدلى الى جانبه وقوسا منحنيا وسهما مصوبا الى صدورنا • وعندما كنا على بعد ياردات قليلة من هذا الرئيس كان قد شد حبل القوس ، وبالفعل كانت هذه لحظة حرجة ، وربما كانت اللحظة التالية هى آخر لحظة فى حياتنا ، ولكن يد القدر منعت هذه الضربة ، وفى اللحظة التى كان فيها هذا الرئيس يجذب الحبل المميت اندفع نحوه الرجل القريب منه وشل حركة ذراعه ، وفى تلك اللحظة كنا نقف أمامه ، وعلى الفور رفعنا أيدينا الى أعلى فكل الرجال (رجال البعثة) أصبحوا كالأوراق المهترئة أو أصبحوا يهترون كالأوراق • وقد نظر هذا الرئيس إلينا بوجهه نظراته الى وجوهنا ، وكان فى تلك الأثناء راكعا فى الأرض وبدأ الضوء الوامض ينبعث من عينيه السودائين المتقلبة ، وكان كل

جسمه يهتز عن آخره • وبينما كنا نكابد التعذيب والخوف torture & timorous اللذين لم ينصرفا حتى أن تعبيرات ملامحنا وكل انفعالاتنا اختلطت بشيء غريب ، تمثل في خفض هذا الرئيس لرأسه ، وبجسارة أمسك أيدينا الممتدة الى أعلى وانفجر في البكاء ، ويعتبر هذا علامة من علامات الصداقة ، واصطحبتنا السعادة ، ولم تعد الحرب وسفك الدماء قائمة أكثر من ذلك • وقد ساد بيتنا السلام والصداقة • وكان الشيء الأول الذى ينبغى عمله هو أن نقوم برفع الرئيس المسن من على الأرض ، وأن نوصله الى معسكرنا •

وفي البداية لم يستطع أفراد البعثة أن يفهموا ، بماذا كان الشيخ يحاول أن يخبرهم ، ولكن عندئذ ظهر رجل كان على دراية بلغة الهوسا ، وترجم ما يقوله هذا الرجل ، ففسر بأن هذا الرئيس لم ير من قبل رجالا بيض ، ، وخشى هذا الرئيس أن يكون هؤلاء البيض « أبناء السماء » Children of Heaven الذين سقطوا كى يثأروا منه بسبب ارتكابه لبعض الجرائم • وأسرع الأخوان ليؤكدوا للرئيس المسن بأنهما لم يأتيا من مكان طيب كالسماء مثلما كان يتخيل ، وهنأنا أنفسنا بالأضافة الى تهنة هذا الرئيس على أن هذه المسألة انتهت بسلام •

وكان لتصرفهما الرفيع الشجاع الذكى ، أثره بدون أدنى شك فى انقاذ حياة كل أفراد البعثة • وقبل أن تغادر البعثة قرية هذا الرئيس المسن قبلت بكل سرور هدية من الكولا وجوز الهند واليام ويرجع السبب فى قبول هذه الهدية الى نقص الأموال معها ، فأن ذلك جعل الأمر مستحيلا عليهما كى يقوما بشراء مزيد من الطعام • عندئذ شرعا فى بدء رحلتها هابطين مع نهر النيجر • وكان كل شيء ساكن ومقفز Solitary ، وكانت البعثة قد سجلت ذلك فى تقريرها • ويقال أنه لا يمكن التمييز بين أصوات أفراد البعثة وصدى طرطشة المجاديف كما لم يسمع تغريد الطيور ، ولم يتمكن أفراد البعثة من رؤية أى حيوان ، وبدأت شواطئ النهر مهجورة تماما ، وكان نهر النيجر العظيم صامت بعظمته •

وقبل مضي وقت طويل تحقق أفراد البعثة من أنهم يبحرون على مقربة من البحر (المحيط الأطلسي) • حيث أنهم وصلوا الى الأقليم الذى لم تعد بشرتهم البضاء تجعلهم موضع شك ، ويعنى هذا أن هذه المنطقة كان يزورها التجار الأوربيين القادمين من الساحل الغربى • وفى الخامس من شهر نوفمبر رأى أفراد البعثة خمسين قارباً كبيرة قادمة نحوهم ورافعة الأعلام الأوربية وكانت هذه المراكب مسحوبة بواسطة الأفرقة الذين كانوا مرتدين زياً أوربياً • وتخللوا أنهم سوف يستقبلون بمودة ، ولكنهم على الفور اكتشفوا خطأ تفكيرهم • وقام الأفرقة المسلحين بمهاجمة الرجلين البيض بسرعة واستولوا على كل أمتعتهم ، التى تضمنت جاكته وحذاء ريتشارد الذى ذكر النص التالى :

« ففى نفس الوقت ، شوهد بعض الأشخاص الآخرين الذين أخذوا زوجة باسكو بعيداً ، وفقدت كل سيطرتى على نفسى ، وعزمت على أن أضحي بحياتى وهى أغلى شئ أملكه • وشجعت رجالى على ان يسلحوا أنفسهم بمجاديفهم ويدافعون عن أنفسهم حتى النهاية • وعلى الفور استعدنا زوجة باسكو ، وبمساعدة شخص آخر من رجالى سحيناها من قبضة الرجل الذى يمسكها • وفى نفس الوقت كان باسكو قد وجه ضربة الى رأس الرجل الذى كان يمسك بزوجه بأحد المجاديف المصنوعة من الحديد والخشب ، عندئذ أرداه فاقد الوعي ، ولم نره بعد ذلك » •

ولحسن الحظ غاب الأفريقيين لم يتسموا بالشجاعة ولكن جون لاندن الذى كان فى المركب الثانى ، كاد أن يغرق تقريبا فى وسط هذه المضوضاء •

وقد تعقب الأخوان (ريتشارد لاندن ، وجون لاندن) اللصوص بكل شجاعة ، ولكن بدون ثريث الى مكان السوق المجاور لمدينة كبرى الواقعة على النهر • وبدلاً من أن يستردان أمتعتهم نجد أنهما يقعان فى الأسر ، كما قيد أتباعهما الثمانية بالحديد ، وقد أرسل الأخوان هابطين مع النهر الى مدينة أبيبو Ebo الكبيرة ، وهناك علما بأنهما وأتباعهما

سوف يدفعان فدية ، وقد توقعنا أن كابتن السفينة البريطانية التى لم تكن راسية بعيدا عن نهر النون River Nun ، سوف يدفع فدية مجزية بالنسبة لهما . وعند هذه النقطة كان هناك تاجر إفريقى أطلق على نفسه اسم الملك بوى King Boy ، وكان هذا الشخص قد طلب أن يقوم بدفع هذه الفدية ، وذهب الكنج بوى ومعه ريتشارد لاندر ليبحث عن السفينة البريطانية . وفجأة عرف ريتشارد لاندر أن كابتن السفينة موجود فى منطقة مياه المد والجزر ، بحيث سمع « تلاطم الأمواج على الشاطئ » « The sound of surf on the beach » وعندئذ تحقق أو أدرك أن نهاية بحثه قد اقتربت . وفى اليوم التالى ، الموافق الثامن عشر من شهر نوفمبر عام ١٨٣٠ م ، دخل ريتشارد نهر النون The Nun المصب الرئيسى لنهر النيجر ، وفى تلك الأثناء رأى ريتشارد السفينة البريطانية ، عندئذ صعد على ظهرها ، فوجد أن أربعة أشخاص من طاقمها قد ماتوا ، بسبب تأثرهم بمرض الحمى ، ووجد أن قبطان السفينة وأكثر من أربعة من طاقمها مرضى . وفى ظل هذه الظروف الرهيبة ، رفض هذا القبطان أن يساهم بأى شئ فى هذه العملية المالية Transaction ، ويتضح ذلك من النص التالى :

« لم أسمع أبدا عن استعمال هذه الألفاظ المخجلة العنيفة والهجومية » . فقد قال قبطان السفينة البريطانية الراسية على ساحل المحيط الأطلسى المشرقى ما نصه : « تكون مخطئا لو توقعت أننى سوف اتعامل معك وأن أعطيك مطلبك (دفع حسابك ، لن أدفع شيئا) وقال ريتشارد لاندر ، لقد أصابتنى الدهشة بحيث أصبحت لم أستطع الرد ، بل وأصابنى الرعب ، بسبب هذا المسلك الذى سبب هذا الفزع ، وانكمشت منه واستطعت بصعوبة أن أصدق ما سمعت حتى أن أذى قد توقفت عن السمع بسبب تكرار نفس هذه الألفاظ ، وخاب أملى لهذا المسلك الهمجى من جانب شخص من أبناء وطنى ، فبقدر الأمكان لم أستطع أن أصدق كل ما حدث ، بل وقهرتنى مشاعرى ، وكنت على أتم استعداد أن أغرق بحزنى وخجلنى » .

وفي ذلك الوقت كان على ريتشارد لاندن أن يخبر الملك بوى بأنه لم يستطع دفع الفدية عندئذ وافق التاجر بكرم على التخلي عن مطلبه حتى ترسل النقود من إنجلترا • وعلى هذا فإن الحكومة البريطانية سوف تقوم بدفع الكفالة (الفدية) وتسلم للملك بوى المبلغ نقدا ، بحيث يكون أكثر من الفدية The ransom - money • وفي نفس الوقت أخذ الأخوان ريتشارد لاندن وجون لاندن وأتباعهما على متن السفينة البريطانية ، بحيث أنجحت بهم جميعا الى جزيرة فرناندو The Island of Fernando po ، ثم عادا بعد ذلك الى إنجلترا عن طريق البرازيل التي وصلها في شهر يونيو عام ١٨٣١ م •

ووافق يوم الثامن عشر من شهر نوفمبر عام ١٨٣٠ م ، اليوم الأول الذي رست فيه سفينة ريتشارد لاندن على الساحل الأفريقي ، فكان هذا اليوم يوما عظيما بالنسبة لتواريخ الكشف الأفريقي • فكان ريتشارد لاندن قد تتبع مجرى نهر النيجر ، كي يبرهن بأقناع عن أنه يصب في جداول خليج البنين ، وبهذا أنهى العمل من أطول بحث ، فالأخوين أكملوا معا ، وبأنتصار عمل باريك ولينج وكلايرتون • ومن أجل القيام بكل هذا الكشف الهام لمجرى ومصب نهر النيجر ، كافأت الجمعية الجغرافية الملكية لاندن بالمدالية الذهبية

The first Gold Medal of the recently founded Royal Geographical Society.

وكانت الجمعية الجغرافية الملكية قد ضمت اليها في ذلك الوقت الجمعية الأفريقية African Association المحتضرة • وبعد ذلك كتب الأخوان مذكراتهما في كتاب بعنوان : تقرير عن بعثة كشف مجرى ومصب نهر النيجر

«Journal of an Expedition to explore the course and termination of the Niger»

وعلى الرغم من العنوان الضخم The pompous title ، إلا أن هذا الكتاب

كان كتابا متواضعا وخفيفا ومسليا ، ويشتمل على مادة علمية على جانب كبير من الأهمية •

وكانت المحاولة الثانية لتحرك الحكومة البريطانية هي كيفية استخدام نهر النيجر كطريق عام للتجارة مع داخل غرب افريقيا • ولكن في ذلك الوقت كان جون لاندنر لا يزال يعاني من مؤثرات الرحلة السابقة ، ومع ذلك فقد حصل على عمل في انجلترا ، بينما ذهب ريتشارد لاندنر كمرشد مع البعثة التجارية الأولى • ومن البداية ، فقد سار كل شيء بطريقة خاطئة ، فكانت هذه البعثة التجارية قد وصلت بصعوبة الى دلتا نهر النيجر قبل أن ينتشر مرض الحمى بين الرجال البيض • فالرؤساء وشعوبهم خافوا جدا من أن تدمر تجارتهم الخاصة ، وعلى هذا الأساس لم يقيموا علاقات صداقة مع البعثة التجارية ، أو بمعنى آخر أنهم عقدوا العزم على معاداتها • ورغم ذلك فإن ريتشارد لاندنر ، كان لديه إيماننا قويا عن طيبة قلوب هؤلاء الناس ، ولكن عندما وصل أفراد البعثة التجارية الى مصب نهر النون The Nun mouth تصادموا مع الملك جاكيت King Jacket ، وهو رئيس عديم الرحمة وكثير • وقد أعطاه أفراد البعثة هدية من التبناك والخمور Rum التي قبلها بحقد ، وسمع أفراد البعثة هذا الرئيس يقول بلغته الخاصة To say in his own tongue أن الرجل الأبيض سوف لا يصل هذه المرة الى مدينة ايبو Ebo •

وبعد ذلك ، ألقى ريتشارد لاندنر الضوء على التهديد (الذي تعرضت له البعثة التجارية من جانب الوطنيين) • فبعد أن سار أفراد البعثة مسافة طولها حوالي ٦٠ ميلا أطلق رجال القبائل المختبئين تحت أشجار شاطئ النهر النيران على مركب ريتشارد لاندنر ، فأصابته هذه الأعيرة النارية بجروح ، ومع ذلك فقد زادت ثقته بنفسه للغاية ، ويتضح ذلك جليا من وقوفه في المركب وتلويحه بقبعته ، وحاول في يأس أن يقنع

البحارة بأن هذه الأعيرية النارية كانت صورة من صور التحية • وعلى الرغم من أن جرحه لم يكن خطيرا الا أنه تسمم Septic ، وعلى أثر ذلك مات المكتشف الشاب المواتق من نفسه ، ومات أيضا باسكو Pascoe عند النهر ، بسبب السم الذى دسه له الشيخ المحلى •

وكان ريتشارد لاندر قد مات قبل سن الثلاثين أى فى عام ١٨٣٤ م ، بينما عاش أخوه جون من بعده أربع سنوات فقط •

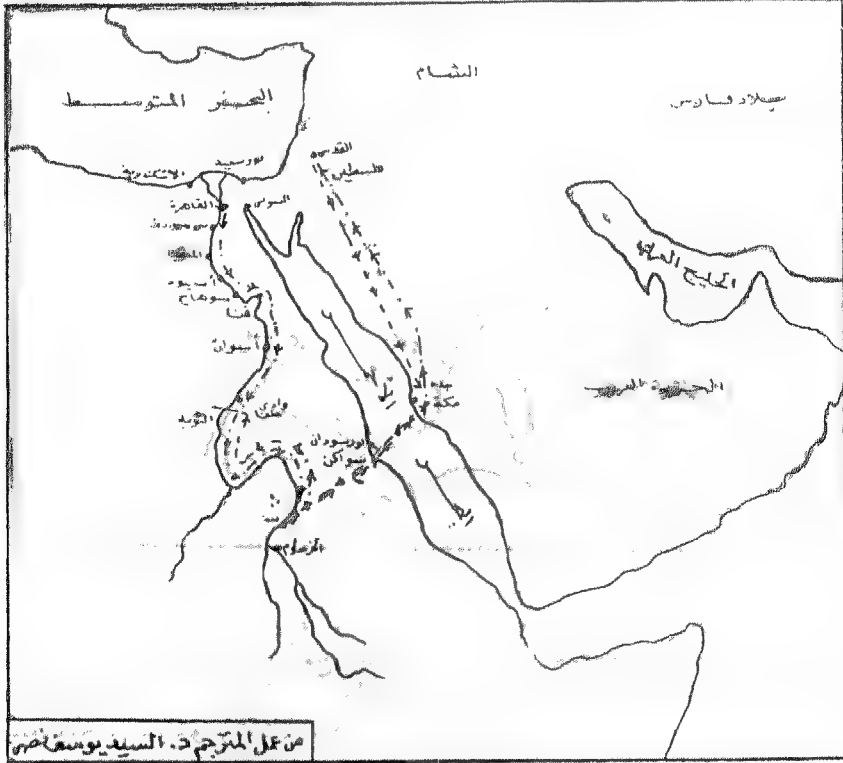


صورة المغامر جون لويس بركهاردت الذى جاء الى بلاد النوبة عام ١٨١٢ ، ليكتشف نهر النيجر من جهة الشرق . من اعداد المترجم .



صورة المفكر كلément الذي جاء الى غرب افريقيا ليكتشف
بحيرة تشاد ومنابع نهر النيجر عام ١٨٢٢ . من اعداد المترجم .

الخريطة رقم ٤ والخامسة
بعثة جون لويس بركهاردت ١٨١٢



بدأ جون لويس بركهاردت رحلته عام ١٨١٢ من القاهرة ، ثم وصل الى مدينة شندى ، ومنها وصل الى سواكن ، ثم عبر البحر الاحمر الى مكة ، ثم سار شمالا الى فلسطين لزيارة الأماكن المقدسة ، ثم عاد من نفس الطريق فوصل الى بلاد النوبة ، وهناك لم يتمكن من اللحاق بأية قافلة متجهة الى غرب افريقيا ، ولكنه مات متأثرا بمرضه عام ١٨١٥ م وكان عمره آنذاك ٣٣ عاما .

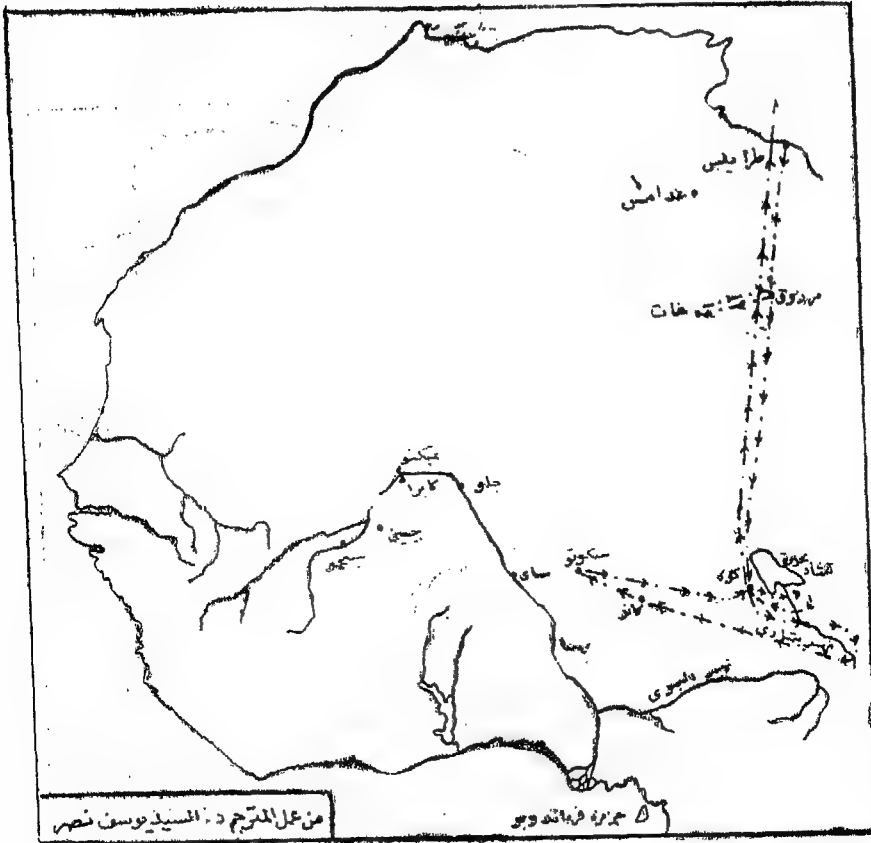
(١١ - المستكشفون)

الخريطة رقم ٥ والخامسة
بمقتضى لينج عام ١٨٢٥



بدأ لينج رحلته عام ١٨٢٥ م من طرابلس مارا بفدامس فواحة صالح
فتبكتو ، وبعد أن مكث لينج فيها مدة خمسة أسابيع غادرها متجها صوب
الغرب نحو نهر السنغال . ولكنه اغتيل من قبل رجال الشيخ الذي كان
يستضيفه في تبكتو والذي صاحبه الى جهة الغرب .

الخريطة رقم ٦ والخاصة
بعثة أودني وكلايرتون ودينهام عام ١٨٤٢



بدأت هذه البعثة مهمتها من طرابلس مارة بواحة مرزوق ثم تجولت في المنطقة الواقعة بين مرزوق وغات ، وبعد ذلك وصلت الى بحيرة تشاد ، وعندها افترق افراد البعثة ، فذهب دينهام الى جنوب بحيرة تشاد ليكتشف أرض الماندار ، بينما ذهب كل من أودني وكلايرتون الى جهة الجنوب الشرقي ليكتشفا نهر الشاري . وبعد ذلك اتجها جهة الغرب ليكتشفا نهر النيجر . ومن هناك اتجها الرجلان الى كانو ولكن مات أودني قبل الوصول الى المدينة ، ومن بعدها وصل كلايرتون الى سكوتو ، وبعد ذلك رحل الى كوكا حيث كان دينهام في انتظاره ، وسافر الرجلان في اتجاه الشمال عبر الصحراء الكبرى ، حيث وصلا الى انجلترا عام ١٨٢٥ م .

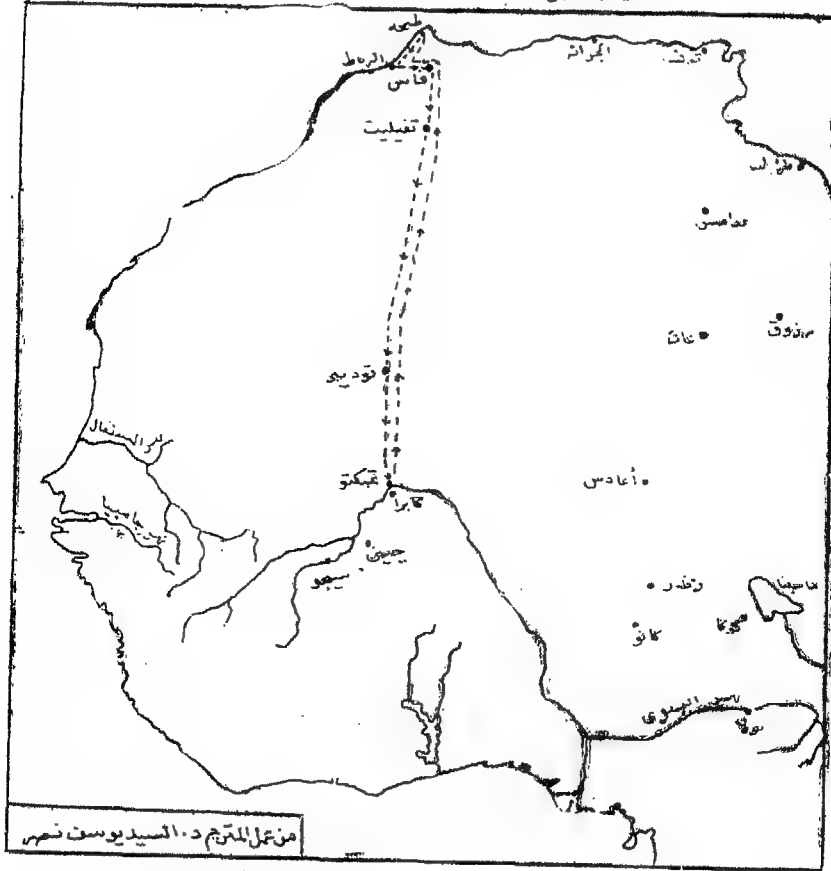
الخريطة رقم ٧ والخاصة
ببعثة كلايرتون الثانية عام ١٨٢٥



بدأت هذه البعثة مهمتها في نوفمبر عام ١٨٢٥ ، من بلدة باداجرى الواقعة على خليج البنين ، ومرت بمدينة كاتونجا وواوا ، ثم وصلت الى بوسا ويورى . ومن هناك عبرت البعثة نهر النيجر واتجهت الى الشمال الشرقى الى مملكة الزاريا وكاتو . وبعد ذلك واصل كلايرتون المسير الى سكوتو ، وهناك مرض ومات في ١٣ من شهر ابريل عام ١٨٢٧ م . وبعد ذلك عاد لاندر من سكوتو الى كانو ، ومنها اتجه الى الجنوب نحو غوندا الواقعة على نهر البنوى ، ثم شادرها الى باداجرى ، ومنها سافر الى انجلترا على سفينة بريطانية فوصلها عام ١٨٢٨ م .

الخريطة رقم ٨ والمخاضة

بيعتة رينية كاييه عام ١٨٢٧ - ١٨٢٨



بدأ رينيه كاييه رحلته عام ١٨٢٧ من طنجة فالرباط ففاس فتفليت فتوديني تمبكتو ، التي مكث بها أربع عشر يوما ، واستغرقت رحلته ١٨ شهرا ، قطع مسافة طولها ٢٥٠٠ ميل .

الخريطة رقم ٦ والمخاصة
بمقتضى ريلشارد لاندرو وجون لاندرو عام ١٨٣٠



بدأت بعثة كل من ريتشارد لاندر وجون لاندر مهمتها في يناير عام ١٨٣٠ من ميناء بورتسموث الى ساحل غرب افريقيا ، ومن باداجرى بدأ رحلتهما فمرا بمدينة كاتونجا وواوا ، ثم وصلا الى بوسا ، ومنها رحلا الى مدينة ايجبا الواقعة في اقليم النوب ، ومنها اتجهت البعثة صوب الجنوب فوصلت الى مدينة كيرى ومنها الى مدينة ايبو ، ثم دخلت البعثة بعد ذلك الى نهر النون وهو الفرع الرئيسى لنهر النيجر ، وكان ذلك عام ١٨٣٠ م . وبعد ذلك سافر أفراد البعثة الى انجلترا فوصلها عام ١٨٣١ م .

التعليق على الفصل (٥)

من الملاحظ على هذا الفصل ، أنه يتميز بكثرة عدد صفحاته ، أى أنه أكبر حجما عن باقي فصول الكتاب ، والسبب في ذلك يرجع الى أن المؤلف كانت قد ضمنته أكثر من رحالة ومكتشف ، سواء الذين كانوا قدموا من شمال افريقيا الى وسطها أم الذين قدموا من جهة الغرب ، وكان من الأفضل أن تقسم المؤلف هذا الفصل الى قسمين قسم تقصره على الرحالة القادمين من شمال افريقيا (من طرابلس ومصر) وقسم آخر تقصره على الرحالة القادمين من مراكش وجامبيا ، حتى يكون هناك تناسق بين فصول الكتاب .

وبعد ذلك علينا أن نوضح أنه على الرغم من فشل المحاولات الأولى التي قامت بها الجمعية الأفريقية ، ألا أنها لم تتوقف عن إرسال البعثات الكشفية الواحدة تلو الأخرى ، حتى تتمكن في نهاية الأمر من الكشف الكلى عن هذه المناطق المجهولة من أفريقيا ، فأختارت الجمعية الأفريقية أول ما اختارت جون لويس بركهاردت John Lewis Burckhardt الذى بدأ مهمته الكشفية عام ١٨١٢ م .

وكان بركهاردت هذا قد بدأ مهمته من القاهرة ، متتبعا مجرى نهر النيل حتى وصل الى أسوان ، ومن هناك واصل المسير حتى وصل الى شندى ، التي قام بوصف سوقها (الذى سبقت الإشارة اليه في تعليقي على الفصل الثالث) ، وتمكن بركهاردت أيضا من القاء الضوء على كافة النواحي في البلاد التي مر من خلالها ، فكان قد زار آثار أسوان وسوق أسنا للابل ، ثم قام بوصف النيل فضلا عن مشاهدته للأماكن الخالية من الصخور ، وقد سجل ملاحظاته عن الهجمات التي قام بها المماليك ضد الشايقية ، وذكر أنه ليس أمام المماليك في الحالة الراهنة الا واحدا من اثنين ، إما أن يوجهوا للصعيد ضربة يائسة وأخيرة اذا وائتهم الفرصة واحتمال نجاحهم في ذلك ضعيف ، نظرا ليقظة محمد علي ، وأما أن

يحاولوا الاستيلاء على ميناء من موانئ البحر الأحمر ، وهناك يعززون قواتهم بأمدادات جديدة وبخاصة من رقيق جورجيا ، لأنهم كانوا لا يقبلون بين صفوفهم غير هؤلاء الأفراد . فضلا عن ذلك فإنه ألقى الضوء على أحوال سكان هذه المناطق من الناحية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية (١) .

وبعد ذلك سافر بركهاردت الى الجزيرة العربية ، وهناك أسلم وأدى فريضة الحج وسمى نفسه « ابراهيم بن عبد الله » ثم عاد بعد ذلك الى النوبة ، حيث أنتظر قدوم أية قافلة متجهة الى تشاد ، ولكن لسوء حظه لم يعثر على أية قافلة ، وسبب ذلك يرجع الى أنه من المحتمل أن تكون القوافل المتجهة من النوبة الى غرب أفريقيا قد مرت أثناء الفترة التي قضتها في الجزيرة العربية ، ومن المحتمل أيضا أن تكون هذه القوافل قد توقفت بسبب الاضطرابات السياسية التي سادت هذه المناطق ، وبسبب الهجمات التي يقوم بها المماليك ضد الشايقية ، وضد غيرهم من السكان وهذا احتمال ربما أن يكون قريبا الى الواقع ، ومن المرجح أيضا أن تكون طرق القوافل قد انتقلت الى جهة أخرى بعيدا عن هذه المنطقة ، وكان بركهاردت في حالة من اليأس الشديد لأنه كان يخشى أن تنتهمه الجمعية الإفريقية بالكل والخمول . واستمر هكذا حتى وافته منيته عام ١٨١٧ م ، ودفن بمصر وانتهت مهمته بالفشل ، لأنه لم يلتزم بتعليمات الجمعية الإفريقية ، بل أنه أخذ يتجول في بلاد النوبة والجزيرة العربية دون أن يحقق أية نتيجة (٢) .

ومن الواضح أن فشل بركهاردت في الوصول الى نهر النيجر عن

(١) جون لويس بركهاردت ، ترجمة فؤاد اندراوس : رحلات بركهاردت في بلاد النوبة والسودان ، ١٧٨٤ م ، ١٨١٧ م . القاهرة ، بدون تاريخ . من ص ١٠ وما بعدها .

(2) John Lewis Burckhardt : Travels in Nubia. Published By the Association For promoting the discovery of the Interior parts of Africa. London, 1819.

ضريق النوبة ، جعل الجمعية الأفريقية تتجه الى تغيير خططها فقررت أن توفد عددا آخراً من البعثات الكشفية ، بحيث تسلك طريق غرب أفريقيا (البعض منها) بحثاً عن منابع نهر النيجر الذى كان من المعتقد أنه يمثل أحد فروع النيل ، أو أنه هو النيل نفسه • ويسلك البعض الآخر من هذه البعثات طريق شمال أفريقيا بحيث تتجه الى مدينة تمبكتو الأسطورية • فقد جاء فى كتابات ابن بطوطة وليفو الإفريقى أن مدينة تمبكتو كانت مدينة غنية بثرواتها الذهبية وثقافتها ، بل ووصل الأمر الى القول بأن منازلها وقصورها كانت مبنية بالواح من الذهب • وقد أثار ذلك حفيظة الأوروبيين الذين رغبوا بشدة فى الوصول الى هذه المدينة ، حتى أن الجمعية الفرنسية The French Geographical Society قررت منح مكافأة مالية لأول رحالة أوروبى يصل الى هذه المدينة ثم يعود بعد زيارته لها حياً •

وقد وقع الاختيار على الرحالة الفرنسى رينيه كاييه الذى خاب أمله بعد وصوله الى مدينة تمبكتو التى وجدها على غير ما قرأ عنها فى الكتب بل وعلى غير ما سمع • فقد ذكر أن هذه المدينة كانت عبارة عن مجموعات من المنازل الرديئة المبنية من الطين والمسقوفة بالقش ، والى جوارها رأى كاييه سهولاً للرمال المتحركة ذات اللون الأبيض المصفر ، ولكن رغم خيبة أمله فى رؤيته لهذه المدينة ، الا أنه أعجب اعجاباً شديداً بالرجال الذين قاموا ببناء هذه المدينة فى هذه المنطقة المقفرة ، وقد تجول رينيه كاييه فى شوارعها ، وزار مساجدها وسوق الرقيق فيها ، وكتب يقول ما نصه :

« لم تكن تجارة المدينة كبيرة بحيث تتناسب مع شهرتها فلم يوجد فيها ما يوجد فى مدينة جين » • ورأى كاييه فى شوارعها الابل وهى محملة بالسلع التجارية التى أحضرها أسطولها الصغير ، أى أن حركة التجارة فيها كانت مزدهرة • ورأى كاييه السكان وهم يجلسون على الحصر فى الشوارع ويتبادلون الحديث ، وشاهد أيضاً المراكشيين نائمين فى الظل أمام أبواب بيوتهم ، عندئذ بدأ كل شىء بالنسبة له مملاً • وذكر

كاييه أن عدد سكانها كان يبلغ ما بين ١٠.٠٠٠ ، ٢٠.٠٠٠ نسمة ، ولاحظ أن الخوف كان ينتاب سكانها بمجرد سماع اسم قبيلة الطوارق الهمجية ، المتى يقطن أبناؤها الصحراء الكبرى •

واستغرقت رحلة كاييه الى تمبكتو ثمانية عشرة شهرا ، قطع خلالها مسافة طولها ٢٠٠٠ ميل ، وبذلك يكون كاييه الأوربي الأول الذى زار تمبكتو وعاد حيا •

وبعد عودة كاييه كتب كتابا عن تمبكتو بعنوان Travels through Central Africa to Timbuctoo • وقد منحته الجمعية الجغرافية الفرنسية المنحة المالية التى كانت قد وعدته بها • وبعد ذلك مات رينيه كاييه عام ١٨٣٩ ، وهو فى الأربعين من عمره •

ومما لا شك فيه أن رينيه كاييه قد أزاح الغموض عن هذه المدينة (تمبكتو) ، التى زادت شهرتها بعد كتابات كل من ابن بطوطة ، وليو الأفريقى •

وكان لينج قد أضاف بعد زيارته لهذه المدينة أنها مملّة وكثيرة ، باستثناء مساجدها • وذكر أنه لا توجد فيها أية دفاعات لحمايتها • وذكر أيضا أن سكانها كانوا من الشعب الصنغى الذى يقطن منطقة النيجر ، فكثيرا ما يتعرض هذا الشعب للغزو والسلب من جانب قبيلة الطوارق •

ويمكن القول بأن الجمعية الأفريقية لم يكن لها الفضل فى كشف الغموض عن مدينة تمبكتو ، بل يرجع الفضل الى كل من رينيه كاييه ، ولينج الذى وصل اليها على نفقته الخاصة •

ومن الجدير بالذكر أن هؤلاء الرحالة الذين أرسلوا عن طريق الجمعية الأفريقية ، أو الذين ظالموا برحلات على نفقتهم الخاصة ، كانوا على جانب كبير من الاخلاص فى العمل والمثابرة والتضحية • ولكن رغم

ذلك فأن درجة التضحية كانت تختلف من رحالة الى آخر * وفي الغالب
وبدون استثناء فأنهم ضحوا بحياتهم عن طيب خاطر ، فمنهم من مات
في افريقيا موته طبيعية ، ومنهم من مات نتيجة لاغتيال القبائل ، أو نتيجة
لتعرضه لمرض خطير *

ومن الملاحظ أيضا أن الجمعية الأفريقية لم تقم بهذه الأعمال حيا في
افريقيا وشعبها ، ولكن حيا في البحث لمعرفة ما تحويه هذه القارة البكر من
ثروات بشرية وطبيعية ونباتية وحيوانية ، حتى تفتح الطريق أمام
بريطانيا بصفة خاصة ، والدول الأوروبية الأخرى بصفة عامة لاستغلال
هذه الموارد * هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى كى تفتح هذه الدول
الأوروبية أسواقا جديدة لها في هذه المناطق الأفريقية ، لتصرف
الفائض من انتاجها الصناعى بين السكان الأفريقيين *

ولكن لنا أن نتساءل بالقول ، لماذا سبقت بريطانيا غيرها من دول
أوروبا في مجال الصناعة ؟ والاجابة على ذلك هو أن الصناعة قد ظهرت
في بريطانيا في النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، ففى حين ظهرت فى
فرنسا في الربع الأول من القرن التاسع عشر ، وفى ألمانيا في الربع الثانى من
النصف الأول من القرن التاسع عشر ، وفى بقية دول العام بعد
ذلك التاريخ (٣) *

ويمكن تعليل سبق بريطانيا في مجال الصناعة الحديثة بالنسبة
لأوروبا ، الى أنها تقع على هامش أوروبا ، فقد أثر هذا الموقع تأثيرا كبيرا
على اقتصادياتها وتطور الحكم والحياة السياسية فيها ، فأنفصالها عن
أوروبا جعلها فى مأمن عن موجات الغزو ، التى كانت تجتاح أوروبا من وقت
لآخر ، ومنح شعبها قسما كبيرا من الأمان ، بحيث مكنهم ذلك من متابعة

٣ — دكتور أمين مصطفى عفيفى ، ود . أحمد عزت عبد الكريم : تاريخ
أوروبا الاقتصادى . القاهرة ، ١٩٥٤ . ص ٢٠١ وما بعدها .

نشاطهم السياسى والاقتصادى دون ضغط واستبداد ، فشحاع فى انجلترا
جو من الحرية السياسية والحكم الدستورى (٤) .

زيادة على ذلك فإن انتاج انجلترا الصناعى يتميز بالتنوع والدقة
والمتانة ، كما أنها حققت أرباحا طائلة من التجارة الخارجية التى لم
تتافسها فيها دولة أوروبية أخرى ، وكانت لندن تمثل أكبر الأسواق المالية
والتجارية ، فقد تجمعت فيها رؤوس الأموال ، بسبب ممارستها للتجارة
الخارجية منذ القرن ١٦ ، وبسبب انشاء بنك انجلترا عام ١٦٩٤ ، الذى
كان له أكبر الأثر فى زيادة رؤوس الأموال ، وفى تنظيم الأعمال الاقتصادية .

وقد ساهمت الأيدى العاملة فى هذه النهضة الصناعية فى بريطانيا ،
بسبب تمتع انجلترا بالحرية السياسية والدينية ، حيث كانت انجلترا ملجأ
للمضطهدين من الأوربيين ، فلبجأ إليها الفلمنكيون من الأراضي المنخفضة
والهجنوت من فرنسا . وامتازت هذه العناصر بنشاطها وحدة ذكائها
ومهارتها فى الصناعة ، فقد أنشأت هذه العناصر المصنوعات عليها فى أوروبا
صناعات كثيرة ومختلفة فى انجلترا ، منها صناعة المنسوجات الحريرية
والتييلية والورق والأواني الخزفية (٥) .

وكان من نتيجة ذلك أن بريطانيا كانت سبلة فى مجال الكشف
الجغرافية الأفريقية ، ليس من أجل الكشف فى حد ذاته ، ولكن من أجل
إيجاد مناطق نفوذ كى تجعل منها مناطق تجارية جديدة ، وخير دليل على
ذلك أنه بعد أن اكتمل الكشف عن منطقة غرب أفريقيا ، ونهر النيجر
سارعت بريطانيا بأرسال بعثة تجارية كان على رأسها ريتشارد لاندر ،

(4) Shaikh, A. J. and Mannur. H. G. : A short Economic History. Delhi,
1971. pp. 3 - 16.

(٥) حسين كامل سليم : تاريخ أوروبا الاقتصادية فى القرن التاسع عشر .
القاهرة بدون تاريخ ، ص ١٨٦ - ١٨٩ .

الذى يرجع الفضل اليه والى أخيه جون لاند فى الكشف النهائى عن نهر النيجر ، وكان ريتشارد لاند. هذا على دراية تامة بهذه المناطق ويسكانها . ومن المعروف أن الهدف من هذه البعثة التجارية هو معرفة مدى صلاحية نهر النيجر للملاحة ، لاستخدامه كطريق نهري تجارى ، هذا فضلا عن معرفة ما تحويه هذه البلاد من موارد اقتصادية هامة ، زيادة على معرفة الكثافة السكانية لهذه المناطق ، التى ستكون سوقا استهلاكيا لمنتجات بريطانيا الصناعية (٦) .

(٦) فيج جى ، دى ، ترجمة د . السيد يوسف نصر ، مراجعة د . بهجت رياض صليب . تاريخ غرب أفريقيا . القاهرة . ١٩٨٢ ، ص ص ٢٥٠ — ٢٥٣ .

الفصل السادس

الرحلات في شمال وغرب افريقيا

لقد فقد أفراد كثيرون حياتهم بسبب البحث عن نهر النيجر ، لذلك فإنه بعد موت ريتشارد لاندر تم تحذير المكتشفين ، بالألا يضحوا بأرواحهم في مخاطر غير ضرورية ، مع أنه كان لا يزال هناك مناطق لم تكتشف بعد في منطقة النهر (أى نهر النيجر) وفي المناطق المجاورة لحدود الصحراء ، ولكن في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وجد أشهر ثلاثة رحالة ، كان اثنان منهما من الألمان ، هما العالم هنريش بارث

Scientist Heinrich Barth ، وجرهارد رولفس Gerhard Rohlfs
الذى بدأ حياته في افريقيا بالعمل في الكتيبة الفرنسية التي تعمل بالخارج ،
وأما الثالث فكان رجل فرنسي يدعى لويس جوستاف بنجر
Louis - Gustave Binger

ولد هنريش بارث في عام ١٨٢١ ، في هامبورج Hamburg ، وأكمل دراساته في جامعة برلين Berlin University ، وزار بعد ذلك أفريقيا للمرة الأولى . وفي عام ١٨٤٩ ، انضم تحت رعاية البعثة البريطانية ، التي أرسلت لتقوم بكشف المنطقة الواقعة جنوب الصحراء ، وهناك زار الممالك الإسلامية ، وقد قاد هذه البعثة رجل انجليزي ، يدعى جيمس ريتشاردسون ، الذي كان برفقته أيضا رجل ألماني يدعى لودويج أفرويج
Ludwig Overweg

وكان بارث هذا شابا على قدر كبير من التعليم ، لهذا كان لديه مقدرة لتعلم اللغات Had a gift for Languages ، فقد تعلم الإنجليزية والعربية ، كما لم يكن لديه صعوبة في اتقان لغات الشعوب الأفريقية المختلفة ،

He had no difficulty in mastering the tongues of various African peoples

وكان قبل ذلك قد تجول في أجزاء قليلة الأهمية من سوريا وآسيا الصغرى Asia Minor ، وكان بارث يعمل على تحقيق المعرفة أكثر من رغبته في حب المغامرة ، التي دفعته الى الألتحاق ببعثة ريتشاردسون Richardson expedition . وكان قويا لدرجة كبيرة ، ومع ذلك فإنه كان مرنا ، ولكن عندما تدعو الحاجة الى الشدة كان عليه أن يثبت أنه يجمع بين الشجاعة وسعة الحيلة resourceful .

وكان ريتشاردسون يزيد على الأربعين عاما ، لذا فهو أكبر كثيرا من بارث والفروبيج ، الذى كان يبلغ من العمر ستة وعشرين عاما . وكان ريتشاردسون رجلا جادا ، ومتخصصا أصلا فى شؤون الكنيسة ، (أى كانت مهمته نشر العقيدة المسيحية) ، فكان قد نزل الى طرابلس Tripoli عام ١٨٤٣ م تحت رعاية جمعية الأنجيل Under the aegis of a Bible Society ومنها سافر تجاه الجنوب الى واحة مرزوق Murzuk ، وكانت أهدافه محددة ، فهي تتمثل فى نشر المسيحية ، كما كان عليه أن يستبدل تجارة الرقيق بالتجارة المشروعة . وأما الأعمال الكشفية فلم يكن مكلف بها بصورة رسمية ، لهذا كان يقوم بكشف ما ترغب الحكومة البريطانية فى كشفه ، وينتصح ذلك من النص القالى :

« أنا مقتنع للغاية بأن السفر الى افريقيا ينبغى أن يلقى عناية خاصة ، ليس فى محاولة تحقيق السرعة ، ولكن ينبغى التقدم ببطء ، كما ينبغى أن نتحسس طريقنا ، ونؤمن أنفسنا ضد أية مفاجأة Surprise ، فعلينا أن نقلل ونحدد مناطق استكشافنا كي نسجل المسائل بصدق كلما أمكن ذلك ، ويمكن أن ننجز السفر فى افريقيا بنجاح لو تم خطوة خطوة piecemeal or bit by bit ، فهنا بعض الشئ وهناك البعض الآخر ، والآن نكتشف جزيرة ، وفيما بعد نكتشف خط على الساحل ، ثم نكتشف فيما بعد اقليما داخليا ، وبعد ذلك نكتشف اقليما صحراويا وهكذا »

وعلى هذا ، فأن الحذر يلزم بارث الذى كان يرغب بصفة مستمرة فى أن يكون بعيدا هنا وهناك ، فكان قد غادر طرابلس فى بداية عام ١٨٥٠ م فقد عبرت بعثته الصحراء ، ووصلت فى خلال شهر الى واحة مرزوق • وقد خطط أفراد البعثة لمواصلة المسير تجاه الجنوب ، مارين من خلال غات Ghat ، وأغادس Agades ، لكى يصلوا الى مملكتى كانو Kano ، وبورنو Borno ، وفى النهاية وصلت البعثة الى غات التى كان قد زارها من قبل كل من أودنى وكلايرتون عام ١٨٢٢ م ، وفى الوقت الذى كان فيه بارث متعبا وثقلا والصبر انطلق بمفرده ليتسلق صخرة عالية ، ورغم ثقته بنفسه ، ألا أنه ضل طريقه فى أراضي رملية فى الصحراء ، بحيث ظل بمفرده لما يزيد على ٢٤ ساعة ، عانى خلالها آلام العطش ، فاضطر لفتح وريد to open a vein من جسمه وشرب البعض من دمه ، وكان سيهلك لو لم يعثر عليه أحد أفراد قبيلة الطوارق ، الذى بدافع انساني حمله على ظهر جملة الى المعسكر ، وتساءل ريتشاردسون متعجبا ، لقد مكثت أنت يا بارث فى الصحراء ٢٨ ساعة بدون مياه ، لذا يمكن للأفراد الجماعة أن تصدق بصعوبة إنك على قيد الحياة ، وقالوا أنه لا يمكن لأى فرد أن يحيا بدون مياه لمدة أكثر من ١٢ ساعة عندما يضل طريقه فى الصحراء خلال حرارة الصيف •

وقد استوعب بارث الدرس • وكتب يقول :

« أنه من الملاحظ أن الإنسان الأوروبى يفقد قواه بسرعة تحت وطأة هذه الظروف المناخية القاسية فى يوم واحد ، اذا لم يتناول طعامه العادى » وأضاف يقول بفخر يشوبه التواضع ، « ولكنى تمكنت من أن أظل على قيد الحياة لليوم الثانى » •

وقضى أفراد البعثة أسبوعا فى غات Ghat ، ولكن لم يمض وقت طويل على مغادرتهم غات ، الا وقد أسرتهم جماعة من الطوارق ، فأستولت هذه الجماعة على ثلث المؤن والأمتعة ، التى كانت بحوزة أفراد

البعثة قبل أن تطلق هذه الجماعة سراهم * وبعد ذلك انقسمت البعثة الى قسمين ، قسم تحت رئاسة بارث الذى كان عليه الذهاب الى كانو ، وقسم تحت رئاسة ريتشاردسون الذى كان عليه الذهاب الى مدينة زندر Zinder ، الواقعة الى الشمال من كانو والخاضعة خضوعا اسميا الى مملكة البورنو ، وكان افرويج قد اتجه الى بحيرة تشاد ، واتفق أفراد البعثة على أن يلتقوا جميعا في كوكا القريبة من بحيرة تشاد * وكتب ريتشاردسون بكتابة يقول ما نصه : « لقد ترك كل منا الآخر ، وهو يحمل معه بعض الانفعال * وقد تفرق هؤلاء الرحالة في وسط أفريقيا ، وساروا في طرق مختلفة divergent routes ، وكان من الصعب عليهم أن يضعوا في حسابهم أنهم سوف يلتقون مرة ثانية » *

وكان ريتشاردسون هو الشخص الوحيد الذى فشل في الوصول الى المكان المتفق عليه * فكان قد وصل الى زندر ، في الرابع من شهر يناير عام ١٨٥١ م ، وهناك انزعج من التقاليد البربرية التى يعصدها السلطان المحلى والتى تتمثل في معاملة العبيد * فكان السلطان هو الذى عين نفسه جلادا ، بحيث كان يقوم بقتل ضحياءه ، وذلك بفتح شروخ في صدورهم ، ثم يقوم بتمزيق قلوبهم واخراجها من صدورهم * وكانت عمليات الأعدام Executions مستمرة ، وفي هذا الجو المكثب مرض ريتشاردسون ومات *

وفي تلك الأثناء ، وصل بارث الى مدينة كانو وهو في حالة تعب شديد ، ولكن نزعت له لخلق صداقات ولعرفته باللغات جعلاه يستغيث بالأمير * وعندما انتهى بارث فحصره للمدينة (مدينة كانو) ، قدم له الأمير هدية كانت عبارة عن ٦٠٠٠٠ كاورييز Cowries (الكاورييز عبارة عن عملة كانت تستعمل في هذه المنطقة) ، وتمكن بارث بهذه النقود أن يشتري جمالا لتقله الى بورنو ، حيث كان يهدف من وراء ذلك الى استقصاء أحوال تجارة المملكة * وكانت رحلته مليئة بالمخاطر * لذا كتب بارث يقول في هذا الصدد ما نصه « بالأمس كان الطريق معرضا لمهاجمة infested اللصوص robbers وكان لدى خادمي واحدا فقط كنت أعتمد عليه ، فهو الذى كان في حقيقة

الأمر. يلزمنى عندما كنت على غير ما يرام ، أى عندما كنت لم أتمكن من النهوض من فراشى Couch ، وعلى الرغم من ذلك فقد كنت مملوءاً بالثقة »

وقد وصل بارث الى كوكا Kuka ، قبل شهر من وصول أفروييج Overweg اليها ، ولما علم بارث بموت رينثساردسون ، تولى هو مسئولية قيادة البعثة ، وقام بتنفيذ فحصه لبحيرة تشاد . وكتب بارث عن خصائص Characters هذه البحيرة يقول ما نصه « من الواضح أن هذه البحيرة تتميز بالضخامة ، بحيث تتغير حدودها كل شهر ، لذلك يكون من غير الممكن رسم خريطة دقيقة لها ، وفي المواقع كنت قد رأيت في هذا اليوم (يوم الرابع والعشرين من شهر أبريل عام ١٨٥١م) أن الأراضي التي تحيط بالبحيرة أراضي منخفضة وكلها مستنقعات ، وعلى الفور أصبحت مدركا ، أنه من المستحيل تماما القيام بعملية مسح شاملة لشواطئها ، حتى ولو سمحت لنا دول الأقطار المحيطة بها بالدخول الى منطقة البحيرة كي نتتمكن من القيام بعملية المسح الشاملة » .

وأصبح بارث منزعجا بشكل متزايد عن أفروييج الذى كان مريضا ومكتئبا بحيث رأى عليه علامات الاختلال العقلى . ومع ذلك فأن الرجل الشاب (بارث) رفض أن يتخلى عن مهمته ، وبدأ الاثنان معا في الذهاب الى يولا Yola الواقعة الى الجنوب ، والتي تمثل المدينة الرئيسية لاقليم أداماوا Adamawa ، ومن هناك واصلا الرجلان طريقهما الى منابع نهر البنوى The upper waters of the Benue أكبر غرور نهر النيجر ، والذي كان جزءه الأسفل فقط هو الجزء المعروف ، وفي يولا كتب بارث يقول ما نصه :

« أن البنوى Benue تتدفق مياهه من الشرق الى الغرب ، في مجرى عريض ، ويمر من خلال قطر مفتوح تماما ، ويوجد في هذا القطر سلسلة متقطعة من الجبال الواقعة على مسافة بعيدة detached mountains, standforth ويضيف بارث في قوله : لقد حددت الآن بعيناي وبكل وضوح

اتجاه وطبيعة هذا النهر العظيم ، فقد نظرت نظرات طويلة وصامتة على هذا المجرى ، ومرت بذلك لحظة من أسعد لحظات حياتي » •

ومن المحتمل أن يكون كشف أعالي البنوى مساهمة أساسية من بارث في مجال المعرفة الجغرافية ، وبعد ذلك كان يريد الذهاب يعيدا تجاه الجنوب ، ولكن حاكم اليولا رفض أن يدعه يواصل السفر . لذلك تتبع طريقه الى كوكا Kuka ، بحيث قام برحلة قصيرة الى الشمال من بحيرة تشاد • وترك أفرويج يواصل فحصه للبحيرة ، وبعد ذلك شرع بارث في محاولة الوصول الى المناطق الواقعة جنوب باجرمى Baghirmi ، واكتشف بعد ذلك شهر شارى Shari R. الواقع في بوجومان Baugoman ولم ير بارث أى شئ بالكامل رغم ما بذله من جهد وتنقيب في تاريخ المدينة ، هذا فضلا عن بحثه عن ظروفها الحاضرة ، وقد لاحظ أن حاكمها كان عليه أن يدفع جزية سنوية تقدر بمائة من العبيد الى سلطان بورنو • عندئذ عاد بارث الى كوكا حيث وجد أفرويج مريضا ومختل العقل Raving mad • وبعد ذلك بفترة قصيرة مات أفرويج ، وظل بارث الأوربى الوحيد الذى ظل حيا ، ولكنه كان في حالة ضعف تام Completely destitute .

واتخذ بارث من موت صديقه فلسفة له حيث أعلن ما نصه : « لقد عزمت على الفور في الشروع للقيام برحلتى الى نهر النيجر ، لمعرفة بلاد وشعوب جديدة » • فلم يثبط موت أفرويج من عزيمة بارث • وكتب بارث خطابا أرسله الى أهله جاء فيه ما نصه : —

« وجدت قوايا تتضاعف فشعرت بأنى عملاقا كبيرا وكنت غارقا في أحلام تحقيق النجاح ، في مهمة بارك المستكشف الوحيد الذى أكن له أعجابا غير محدود » •

وبعد أن حقق بارث هذه الإنجازات وصلت اليه من انجلترا التقود والتعليمات التى تخبره بالتقدم على وجه السرعة نحو تمبكتو • فساغر:

بارث عن طريق سكوتو وساي Say الواقعة على نهر النيجر • وفي سكوتو استقبله السلطان ، الذى أعطاه بارث عددا من الهدايا التى تضمنت زوج من المسدسات المرصعين ترصيعا ثميناً ، هذا فضلا عن منحه عباءة من الحرير الأحمر المخطط بخطوط صفراء ، وكذلك منحه بنطلون أحمر اللون ، وثلاث من العمام ، وزوجين من أمواس الحلاقة ، ونصف درسته من المرايا ، وكان هذا السلطان هو ابن السلطان بللو الذى رفض الأهتمام بالمعاهدة التجارية مع بريطانيا والتى بسببها تحطمت مشاعر كلايرتون الذى مات كسير القلب • وقد عبر بارث عن أسفه بطريقة كلها تأثر عندما سمع عن الحادثة •

واقترب بارث من تمبكتو مارا من خلال الطريق الذى تبعه الرحالة الفرنسى العظيم رينيه كاييه René Caillié ، فقد فعل بارث مثلما فعل كاييه ، فقام بأرتداء الزى العربى مع أن هذا المسلك كان مخالفا لضميره ، ولكن بينما كان كاييه يهتم اهتماما كبيرا بالمحافظة على تنكره ، نجد أن بارث ، كان يعتمد على Rely on الشيخ باكى Bakay ، وعندما دخل بارث المدينة كان منهك القوى ، واختابه اليأس بسبب عدم وجود شيخها فيها • ولما علم أحد أبناء الشيخ بدخول كافر مسيحى (أوربى) A Christian infidel الى المدينة ، أشاع على أثر ذلك إشاعة مفادها أن هذا المسيحى هو فى الحقيقة ابن لينج ، وقد أقسم هذا الابن (ابن الشيخ) أنه سوف يقتل بارث • وفى أثناء هذه الأزمة مات هذا الرجل (ابن الشيخ) فجأة وفى غموض • وقد استقبل أتباعه موته بأنه علامة على التدخل الإلهى ، وكدليل على أن بارث يجب الا يتعرض للأذى • وأرجعت العناية الإلهية الشيخ الباكي El-Bakay ، الذى أتاح الفرصة لبارث بأن يقوم بعمل دراسة متأنية عن المدينة ، وعلى الرغم من أن بارث كان يؤكد الدقة المتناهية فى تقرير رينيه كاييه عن رحلته (أى رحلة كاييه) الا أنه لم يلبث أن علق بقسوة على عدم الدقة الكبيرة التى تميز بها تقرير كاييه • وكان بارث دائما كثير النقد للناس ، بخلاف منجوبارك ، فقد كان متسرعاً فى توجيه النقد الى المستكشفين الذين سبقوه فيما يتعلق

بعدم دقة ملاحظاتهم ، وفى هذه المناسبة يقول بارث ما نصه « وبالأجمال on the whole فإنه وصف شكل منازل تمبكتو وصفا جيدا ، وكان الخطأ الوحيد الذى ارتكبه فى تقديمه هو ذكره بأن منازل المدينة كانت تبدو متفرقة ومنعزلة ، وكانت سوارعها فى الواقع مغلقة تماما ، أى أن هذه المساكن كانت تشكل بصفة مستمرة صفوفًا متعرجة » .

فبقاء بارث على قيد الحياة ، جعله فى الواقع يتمكن من قضاء مدة طويلة تصل الى ثمانية شهور فى تمبكتو . وفى الواقع يرجع ذلك الى علمه والى مقدرته على تكوين صداقات بحيث أن الباكي Bakay كان مسرورا لمقابلته للرجل الأوروبى ، الذى تمكن من قراءة القرآن ، والذى تمكن من مناقشة مفاهيم الإسلام Muslim Observances ، وكتب بارث ما نصه :

« أنا لم أتقدم الى الأمام ، دون أن أترك صديقا مخلصا من خلفى ، وهكذا تأكدت من أننى لو رغبت فى أن أقتفى أثر خطواتى السابقة ، فأننى من المحتمل أن أفعل ذلك بأمان » .

وبعد أن غادر بارث تمبكتو أبحر هابطا مع نهر النيجر الى مدينة ساي Say ، عندئذ سافر بالبر من خلال سكوتو الى بورنو ، ولازال حتى ذلك الوقت يحمل معه أنواعا مختلفة assortment من الهدايا المناسبة ، وفى كل مكان كان يقف فيه stoping-place كان بارث يقدم امرأة looking-glass الى أجمل امرأة ، أما باقى النساء فكان يتسلمن منه أبر الخياطة . وفى مرة من المرات طلب من بارث أن يرتدى ملابسه الأوربية ، فأخرج من أمتعته بدلة سوداء ولبسها فأدت الى خلق فكرة غير محببة عن الزى الأوروبى .

وكان قد وصل الى علم بارث أن بعثة بريطانية أخرى فى طريقها الى أواسط افريقيا ويرأسها عالم ألماني شاب هو الدكتور أدوارد فوجيل Edward Vogel ، ولم يمض وقت طويل على مغادرته كانوا الا وقد رأى شخصا ذو ملامح غربية يتقدم نحوه ، كان هذا الشخص رجلا شابا

ذو هيئة جميلة ، وكان مرتديا زيا مثل الزى الذى كان يرتديه بارث • فكان مرتديا على رأسه عمامة بيضاء ملفوفة بكثافة حول رأسه • وبرفقتة اثنين أو ثلاثة رجال من السود ، كانوا ممتطين الخيول •

وقد أخبر أحد الأفارقة ، وهو خادم سابق لبارث بأن الرجل الشاب ، هو المستر فوجيل Vogel ، الذى أندفع نحو بارث بحيث أصابت الدهشة كل من الرجلين واستقبل كل منهما الآخر من على ظهر حصانه بحماسة شديدة •

وقد علم بارث أن فوجيل كان متضايقا لاعتقاده بأن بارث كان قد مات ، وإذ أرسل تقريراً إلى أهله عن وفاته • وعندئذ قرر بارث أن يعود بنفسه إلى الوطن كي يثبت أنه لا يزال على قيد الحياة ، ولم يمت بعد • وبعد ذلك تفرق الرجلان ، فكان على فوجيل أن يكمل اكتشافات بارث ، فأتجه إلى جنوب بحيرة تشاد لكي يكتشف الأقليم الواقع بين البحيرة ونهر النيل • ووصل فوجيل أثناء رحلته عبر إفريقيا إلى بلدة واداي Wadai التى تقع فى ثلث المسافة من النيل • وهناك تم اغتياله • وبعد مقتله أرسل من أجله مالا يقل عن سبع بعثات للبحث عنه وإيجاده • وقد نجحت بعثة واحدة فقط من السبع بعثات فى الوصول إلى واداي ، وكانت هذه البعثة تحت قيادة رجل ألماني آخر يدعى فون بورمان Maurice Von Beurmann وفى عام ١٨٦٣ م أغتيل بورمان أيضا •

وفى هذا الوقت عبر بارث الصحراء ، إلى واحة مرزوق ، ومنها إلى طرابلس ومن الأخيرة وصل إلى إنجلترا ، وكان ذلك فى خريف عام ١٨٥٥ م ، بعد رحلة دامت lasting أكثر من خمس سنوات • وتعتبر هذه الرحلة سجلًا للتحمل البطولي ، حيث نتج عنها نتائج جغرافية عظيمة أو على جانب كبير من الأهمية • وفى عام ١٨٦٥ م ، كافأت الجمعية الجغرافية الملكية بارث بميدالية الجمعية

The Ryal Geographical Society

• وحتى ذلك التاريخ فلم تتبع كشوف بارث بجهود Patron's Medal

كشفية أخرى ، حتى أن بارث ظل غير معروف للعامة ، ولكن فيما بعد جذب الاهتمام والانتباه الى الاكتشافات الهامة في جنوب افريقيا ، وذلك عن طريق كتابه « رحلات واكتشافات في شمال ووسط افريقيا في الفترة

ما بين ١٨٤٩ ، ١٨٥٥ ، Travels and discoveries in North and Central Africa, 1849-1855. * وقد شرح بارث في هذا الكتاب العمل الضخم الذى قام به *

وفي هذا الصدد يقول ما نصه « تضمنت سفريائى منطقة شاسعة من هذا القطر الذى يمتد فيما بين خطى عرض ٢٤° شمال وجنوب خط الاستواء ، ويمتد كذلك فيما بين خطى طول ٢٠° الى الشرق والغرب ، بحيث تعتبر هذه المنطقة أعرض جزء في القارة الأفريقية * وقد اشتملت رحلاتى أيضا على موضوعات كثيرة ومتنوعة * فبعد أن عبرت Traversed الصحراء الشاسعة التى تتميز بالتربة القاحلة والمناظر الكئيبة ، صادفت أثناء سيرى أراض خصبة بها أنهار كبيرة ، وصالحة للملاحة تمتد حتى البحيرات الوسطى Extensive Central lakes. * وتقرين هذه الأراضى بأجمل أنواع الشجر ، وتنتج أصنافاً مختلفة من الحبوب Producing various species of grain مثل الأرز rice ، والسهم Sesame ، والفول السودانى ground - nuts ، الذى ينتج بوفرة غير محدودة ، وقصب السكر Sugar - Cane ، النخ * علاوة على ذلك فأن هذه الأراضى تنتج القطن Cotton ، والنيلة Indigo ، ويعتبر معظم هذه الغلات سلعا تجارية ذات قيمة ، فكل افريقيا الوسطى Central Africa ابتداء من باجرمى Baghirmi في الشرق ، وحتى تمبكتو في الغرب ، غنية Abounds بهذه المنتجات * ولم ينسج الوطنيون الذين يعيشون في هذه المناطق قطنهم فقط بل كانوا يصبغون القمصان التى يصنعونها صناعة محلية made shirts بالنيلة التى يزرعونها * وكان نهر النيجر ، هو النهر الذائع الصيت عندهم ، The far famed Niger ، والذى يعتبر منفذا لهذه المناطق ، وذلك بأستخدام

فرعه الشرقي البنوي Benue ، الذى تم اكتشافه بمعرفتى (بارث) ، وقد زودت الطبيعة هذا الفرع بمسطح مائى شاسع وصالح للملاحة ، ويبلغ طوله فى داخل القطر ، أكثر من ٦٠٠ ميل . أما فرعه الغربى فتكتنفه التلال Rapids فى مسافة يبلغ طولها ٣٥٠ ميلا من الساحل . ولكن حتى عند هذه النقطة فأنه من المحتمل أن يكون صالحا للملاحة فى الحالة الراهنة حيث أننا اذا سرنا الى المنبع فأن النهر يمثل طريقا عاما للملاحة لما يقرب من ١٠٠٠ ميل فى قلب وسط افريقيا الغربية ، الغنى بكل ما ينتج .

وكان بارث متباه تماما بسبب ادراكه لأهمية انجازاته التى تمثلت فى رحلته الى تمبكتو . واكتشافه الأجزاء من نهر النيجر . ويتضح ذلك من قوله :

« ورغم أن مصير منجوبارك ظل غير محدد ، وغير معروف للعالم المتحضر ، الا أنني نجحت لدرجة كبيرة فى كل توقعاتى ، بحيث لم يعد تاريخ مقتله معروف فى كل هذه المناطق الشاسعة التى قام باكتشافها ، والتى كانت غير مكتشفة حتى أمام التجار العرب على وجه العموم ، بل وظلت غامضة أكثر من أى جزء آخر فى افريقيا . وفضلا عن ذلك كله نجحت أيضا فى تأسيس علاقات صداقة مع معظم الرؤساء الأقوياء القاطنين على طول النهر من ناحية منبعه ، وحتى المدينة الغامضة نفسها . لذلك لا يوجد مجال للشك فى الطريق الذى تعقبته بنفسى ، ومع ذلك فقد تركت مقدارا كبيرا من العمل لخلفائى من بعدى كى يطوروه . وكان لدى اقتناع بالشعور بأننى فتحت أمام المهتمين بالنواحى العلمية فى أوربا منطقة شاسعة من القارة الأفريقية المنعزلة عن العالم

A most extensive tract of the secluded African world.

فلم يقتصر العمل على هذه المنطقة المعروفة معرفة بسيطة فقط ، بل فتحت اتصالا منتظما بين الأوربيين وبين هذه المناطق كلما أمكن ذلك » .

وقد عاد بارث الى ألمانيا ، وبعد ذلك قام بنشر كتابه . وفى عام

١٨٦٣م عمل بارث استاذا للجغرافيا ، ومات بعد ذلك بسنتين two Years Later أى وهو فى الرابعة والأربعين من عمره • وكان بارث أثناء السنتين اللتين سبقتا موته يقوم بالسفر الى بلاد الشرق الأوسط •

ولقد مضى بعض الوقت قبل أن يتم تقييم وتقدير الأعمال الكشفية التى قام بها بارث • ولكن فى عام ١٨٩٠ م وصف مكتشف آخر يدعى جوزيف تومسون Joseph Thomson عمل بارث فى كتابه الذى كتبه بعنوان منجوبارك والنيجر Mungo Park and the Niger ، يقول فيه ما نصه : « لم يسبق من قبل أن كتب عن حقائق جغرافية A rich harvest of Geographical وسائلية Thnographical ولغوية philological ، فى المجال الأفريقى كالتى كتبها بارث » •

وقبل ذلك بسنوات عديدة ، وعلى وجه التحديد عام ١٨٥٤م ، أى فى أعقاب تقرير فوجيل عن موت بارث ، أرسلت بعثة الى افريقيا تحت قيادة قبطان بحرى يدعى وليام بلفور بايكى A Naval Surgeon, William Balfour Baikie ولكن هذه البعثة فشلت فى عمل اتصال مع بارث ، وتمكنت فقط من إثبات أن نهر النيجر وبعض فروع مثل البنوى Benue كانت صالحة للملاحة السفن التجارية • وكان الأكثر أهمية من ذلك أن هذه البعثة أثبتت القيمة الحقيقية للكنين Quinine المانع للملاريا المخيفة Dreaded Malaria ، حيث أن البعثة قطعت رحلة طولها ٣٠٠٠ ميل الى منبع نهر البنوى ، دون أن يموت أى عضو من أعضائها متأثرا بمرض الحمى •

وبعد ذلك ، فقد اكتشف رحالة ألماني آخر يدعى جيرهارد رولفس Gerhard Rohlf. ، مناطق شاسعة ومجهولة فى الشمال الأفريقى ، فقد بدأ هذا الرحالة عمله عام ١٨٥٥ ، عندما كان يبلغ من العمر ٢٣ عاما ، فكان قد التحق بالكتيبة الفرنسية التى تعمل فى الجزائر The french foreign legion in Algeria كمساعد صيدلى as an apothecary's assistant ، وقد اشترك جيرهارد عام ١٨٥٧ فى الحملة الفرنسية التى أرسلت الى

افريقيا ، والتي كان من نتائجها هزيمة الكابيلي Kabylie ، وبعد ذلك بخمس سنوات بدأ جيرهارد رولفس رحلاته الكشفية التي بدأها من طنجة Tangier ، متكررا في زى طبيب مسلم . As a Muslim physician.

وفي السنة عشرة سنة التالية تجول جيرهارد رولفس في مساحات شاسعة (من افريقيا) فزار فاس Fez ، ومراكش Morocco ، وأتجه بعد ذلك في مسيره الى الساحل الشمالى الغربى هابطا الى وادى سوس Wady Sus قبل عودته الى الداخل ، أى الى تيفليت Tafilet التى زارها رينيه كاييه René Clillié ، فى أثناء رحلة العودة من تمبكتو . وفى عام ١٨٦٣ م ، حاول أن يعبر الصحراء الى تمبكتو ، ولكنه فشل فى ذلك ، وفى السنة التالية وبعد زيارته الى تيفليت Tafilet للمرة الثانية ، سافر الى الجنوب الشرقى ليكون الأوروبى الأول الذى زار واحة توات Tuat وبعد ذلك بدأ العودة الى طرابلس عن طريق واحة غدامس ، بحيث كان لينج قد اعتقل Detained فيها أثناء رحلته الى تمبكتو . وفى عام ١٨٦٥ م ، عبر الصحراء من طرابلس وتقدم الى بورنو ، ومن بعدها توجه الى البنوى ، ثم هبط بعد ذلك مبحرا حتى وصل الى التقائه بالنيجر .

وبعد سنوات قليلة أى فى عام ١٨٦٩ م ، كان هناك فى نفس المنطقة الشاسعة ألماني آخر يدعى ناشتيجال G. Nachtigal ، الذى بدأ رحلته من طرابلس ومنها نفذ الى الصحراء الكبرى حتى وصل بعيدا الى هضبة تيبستى As far as Tibesti ، وهناك وجد طريقا جديدا يوصل الى كوكا Kuka ، وتمكن هذا الرحالة من اكتشاف المناطق الواقعة فى الشمال والجنوب الشرقى من بحيرة تشاد ، وبدلا من أن يعبر الصحراء الى طرابلس ، عاد الى القاهرة مستخدما طريق وادى Waday الذى قتل فيه فوجيل . وتقع وادى فى اقليم دارفور التابع الى إقليم كردفان .

وفى عام ١٨٧٤ م ، وبعد أن قضى رولفس سنتين تجول أثناءهما فى أثيوبيا قاد بعثة عبر الصحراء الليبية الى واحة سيوه ، وقد استغرقت

هذه الرحلة وقتنا أقل من شهر * وفي عام ١٨٧٨ م ، ذهب رولفس مرة ثانية الى طرابلس ، وهناك خطط للذهاب الى وادى ، ولكنه فشل ، ولم يصل الا الى واحة الكفرة Kufra ، وتمثل هذه الرحلة رحلته الرئيسية والأخيرة ، والتي بسببها كان قد كوفىء بالميدالية الذهبية من قبل الجمعية

الجغرافية الملكية For which he had already been awarded the patron's Medal of the Royal Geographical society.

وفي عام ١٨٨٥ م ، أى وهو فى سن الثالثة والخمسين عين فى وظيفة جديدة ، هى وظيفة قنصل عام للألمانيا فى زنجبار ثم مات بعد ذلك فى عام ١٨٩٦ م *

وبعد ذلك يأتى لويس جوستاف بنجر Louis Gustave Binger وهو ثالث الاكتشفين الأساسيين ، والذي كان قد ولد فى عام ١٨٥٦ م ، وعاش حتى أصبح معمرًا Lived to a ripe old age ، ومات فى عام ١٩٣٧ م * وكان بنجر جنديا ، وجاء فى بادىء الأمر الى افريقيا فى خدمة عسكرية * وكانت رحلاته التالية تهدف الى تحديد خطوط الحدود الدولية ، وفى الوقت نفسه أهتم لويس جوستاف بنجر بالكشوف الجغرافية أكثر من اهتمامه بضم هذه المقاطعة الى فرنسا * وكانت رحلته الأولى هى أهم رحلاته التى استمرت من عام ١٨٨٧ م ، وحتى عام ١٨٩١ م ، فقد قاد هذه البعثة الى وطن مجهول ، يقع جنوب انحناة النيجر * وكان الاعتقاد السائد فى ذلك الوقت أن وادى النيجر كان عريضا للغاية ، ولكن أثبت بنجر عكس ذلك ، اذ أثبت أن وادى النيجر كان ضيقا تماما * وقد أثبت بنجر كذلك أن نهر الفولتا ينبع بالقرب من مجرى نهر النيجر ، وتمكن لويس جوستاف بنجر أيضا من أن يدحض وجود سلسلة لجبل ضخمة ، كانت قد ظهرت على عدد من الخرائط الموجودة فى ذلك الوقت ، وكان هذا القطر يمتد فى غير انتظام حتى يصل الى خط عرض ١٠° شمال خط الاستواء *

وقد كافأت الجمعية الجغرافية الملكية بنجر بالميدالية بسبب الكشوفات

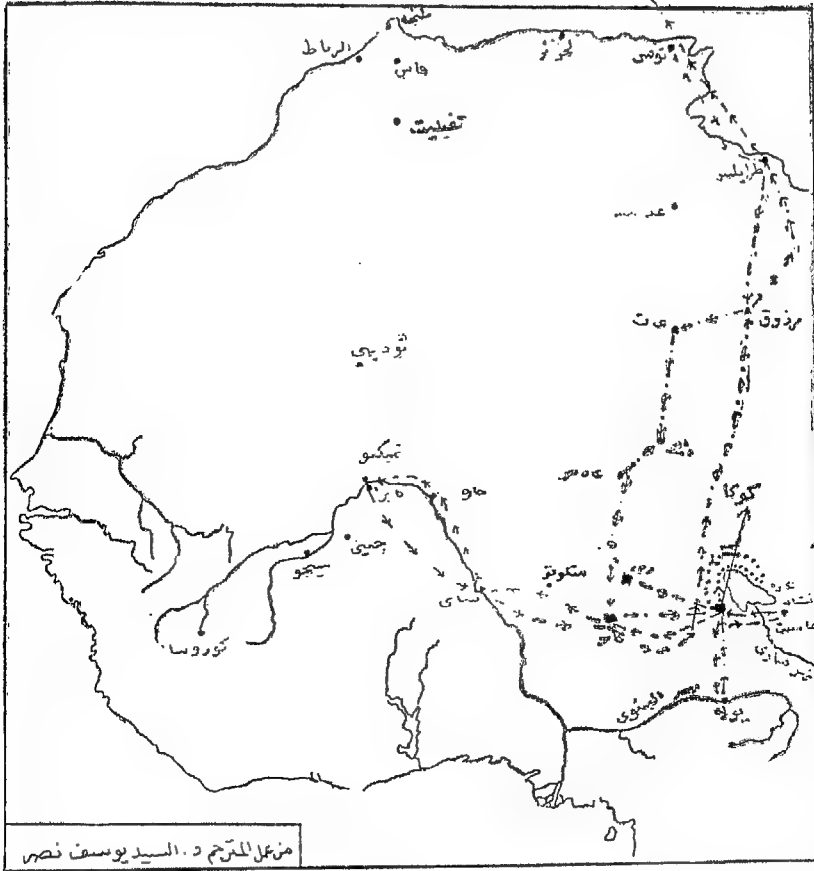
التي قام بها Binger was awarded the founder's Medal the Royal Geographical society for his discoveries.

وفيما بعد ، أى فى عام ١٨٩٢ م ، توغل لويس جوستاف بنجر فى داخل قطر مجهول وكبير جدا الى أكثر من ١٢٠٠ ميل • وكان بنجر يهدف من وراء ذلك الى إقامة خط للحدود بين ساحل الذهب البريطانى The British Gold Coast (غانا فى الوقت الحاضر) وبين ساحل العاج الفرنسى The French Ivory Coast ، وقد عين بنجر حاكما لساحل العاج عام ١٨٩٣ م •

واكمل المكتشفون الآخرون كشوفات بنجر ، وعلى وجه الخصوص ، ما قام به رجل فرنسى يدعى مونتيل P. L. Monteil الذى بدأ رحلته من السنغال عام ١٨٩٢ م ، ثم عبر انحناة النيجر عند ساي Say ، وسافر الى بحيرة تشاد عن طريق سكوتو وبورنو ، وبعد ذلك عبر الصحراء من عند بحيرة تشاد متجها الى طرابلس •

وحتى ذلك الوقت كان يوجد فى مجال الكشوف الجغرافية الأفريقية ما يمكن القيام به ولكن بحلول هذا الوقت كانت الكشوف الجغرافية الأفريقية قد أفل نجمها ، بسبب تقسيم القارة الأفريقية International Scramble for Africa بين بريطانيا الدولة الاستعمارية ، وبين بقية القوى الأوروبية الأخرى (الرئيسية) •

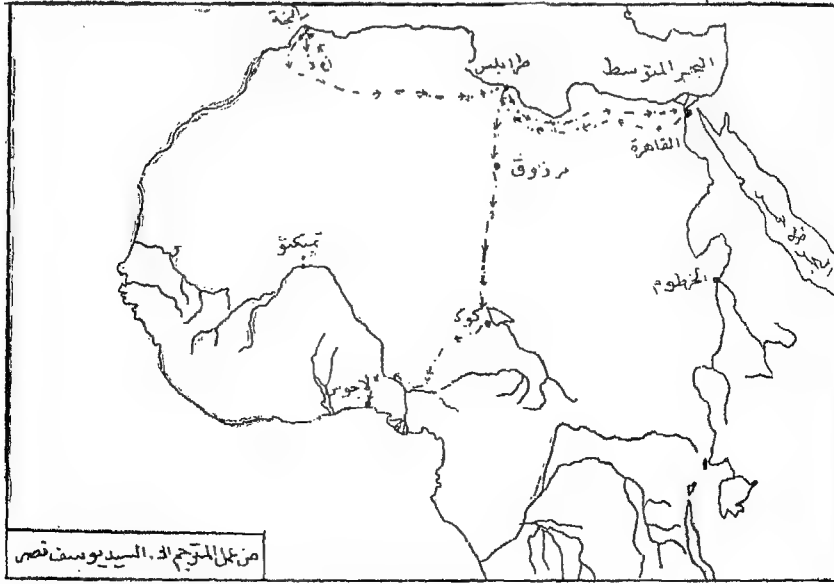
الخريطة رقم ١٠. والخاصة
بعثة ريتشاردسون عام ١٨٥٠



مزعج المترجم د. السيد يوسف نصر

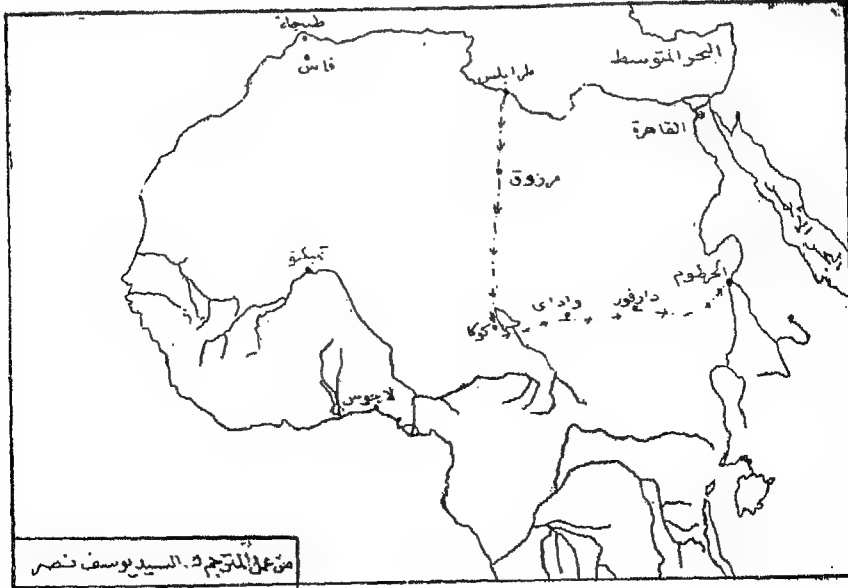
بدأت هذه البعثة مهمتها من تونس عام ١٨٥٠ م ، فمرت بطرابلس واير
واغاديس . ثم اتجه قسم منها برئاسة ريتشاردسون الى زندر ومنها يتجه الى
كوكا . واتجه القسم الثانى الذى كان تحت رئاسة بارث الى كانو ، وبعد ذلك
يلتقى أفراد البعثة فى كوكا ، ثم يتجه بارث بعد ذلك شمالا لكشف المنطقة
المحيطة ببحيرة تشاد . ولكن بعد ذلك وردت تعليمات الى البعثة من انجلترا
تحثها على السفر من كوكا الى كانو فسكوتو فجاءو فتمبكتو ، ثم تعود من نفس
الطريق الى كوكا ، ومنها تتجه شمالا عبر الصحراء الكبرى الى انجلترا التى
صلتها عام ١٨٥٥ م .

الخريطة رقم ١١ والخاصة
بعثة رولفس عام ١٨٦٢



بدأ رولفس رحلته في الفترة ما بين ١٨٦٢ وحتى عام ١٨٧١ من طنجة ،
ففسس ثم عاد الى طنجة ، ومنها اتجه الى طرابلس فمصر ، ثم مرة ثانية الى
طرابلس ، ومنها اتجه جنوبا الى واحة مرزوق فكوكا ، ثم اتجه غربا وعبر نهر
النيجر الى لاجوس .

الخريطة رقم ١٢ والخاصة
ببعثة ناشتيجال عام ١٨٦٩



بدأ ناشتيجال رحلته من مراكش عام ١٨٦٩ ، واتجه جنوبا الى مرزوق ،
ومنها اتجه الى كوكا ، ثم مر من جنوب بحيرة تشاد مارا ببلدة واداي ودارفور ،
ثم وصل بعد ذلك الى الخرطوم عام ١٨٧٤ م .

التعليق على الفصل (٦)

في هذا الفصل تناولت المؤلفة عددا كبيرا من الرحالة والمستكشفين ، ولكنها لم توضح بصورة كاملة دور كل رجال على حدة ، في مجال الكشف الأفريقي ، بل نجدها تركز على ثلاثة أو أكثر فقط وأشارت مجرد إشارة الى باقى هؤلاء الرحالة الذين لا يقلون في الأهمية عن غيرهم * فليس من المعقول أن يترك هؤلاء الذين جاءوا الى افريقيا ، دون ابراز دورهم مهما كانت قيمته *

وفضلا عن هذا ، فأنة كان يوجد هناك عدد آخر من الرحالة لم تتعرض المؤلفة اليهم نهائيا ، لا من قريب ولا من بعيد مع أن البعض من هؤلاء الرحالة أما أن يكون قد قام برحلة بمفرده أم قام برحلة من قبل حكومته ، والأمثلة على ذلك كثيرة ، نذكر منها على سبيل المثال وليس الحصر ، الرحلة الخاصة التي قام بها رينتسادسون الى افريقيا ، ثم يعد ذلك أختارته بريطانيا لقيادة بعثة أخرى الى الصحراء الكبرى نظرا لخبرته السابقة في هذا المجال *

وزيادة على ذلك غأن المؤلفة لم تقم بتوضيح البعثات الألمانية والفرنسية بل تركت للقارئ التخمين في هذا الموضوع ، واكتفت بعرضها لعدد كبير من الرحالة من مختلف الجنسيات ، مما يجعل القارئ في حيرة من عدم معرفته لطبيعة هذه البعثات ، فهل هي بعثات رسمية ، أى أنها أرسلت من قبل حكومات أوروبا أم هي بعثات غير رسمية ، يقوم بها أفراد مغامرون مثل لويس جوستاف بنجر Louis - Gustave Binger وجيمس رينتساردسون James Richardson في رحلته الأولى ، وأدوارد فوجيل Edward Vogel وموريس فون بورمان Maurice Von Beurmann وجوزيف تومسون Johseph thomson ، ووليام بلفور بياكى William Balfour Baikie ، وجوستاف ناشتيجال Gustav Nachtigal وبى * الى * مونتييه P. L. Monteil ' (م ١٣ - المستكشفون)

ولكن على الرغم من كثرة أسماء هؤلاء الرحالة الا أن المؤلف لم تبرز الا دور عددا قليلا جدا منهم ، فقد ذكرت ذلك آنفا • لذلك رأيت أن أقوم بالقاء الضوء بإيجاز على الرحالة الذين لم تتعرض المؤلف لتاريخهم ، ومن المعروف أن هؤلاء المنسيين كان لهم دورا لا يقل في أهميته عن الدور الذى قام به غيرهم •

وكان من هؤلاء الرحالة الذين لم تتعرض لهم المؤلف بالدراسة جون دافيدسون John Davidson الذى كان قد سافر من قبل ، وعلى نطاق واسع إلى أوربا الشرقية ، وإلى وسط وشمال أمريكا • وبعد ذلك وجه اهتمامه إلى الصحراء الكبرى ، وكانت خطته أن يعبر الصحراء من خلال طريق القوافل ، الذى يمر من أرض موريتانيا الصحراوية Waste land ، ولكنه كان قد حذر من اختيار هذا الطريق بسبب الحرب القبلية ، ومع ذلك فلم يرجى دافيدسون الرحلة put off بل بدأها عام ١٨٣٦ م ، من موجدور Mogador (تعرف في الوقت الحاضر بأسم الساويرا Essauira) الواقعة على ساحل مراكش وقد استغرقت هذه الرحلة ستة أسابيع • ولكنه لم يكملها لأن التجار العرب قاموا بقتله ، حيث أنهم خشوا على أن يكون مجيئه مقدمة لتدمير تجارتهم • وبعد ذلك أبدت بريطانيا اهتماما خاصا بطريق الصحراء وبصفة خاصة منذ السبعينات من القرن ١٩ •

ومن بعده قام جيمس ريتشاردسون James Richardson الذى ينتمى الى جمعية الأنجيل البريطانية A British Bible Society عام ١٨٤٥ م برحلته الأولى من طرابلس ، وتجول على نطاق واسع كرجل أوربي ، ففي البداية كان قد تقدم صوب الجنوب الغربى من واحة غيدامس Ghudamis • ومنها اتجه الى الجنوب حتى وصل الى واحة غات Ghat • وقد تمكن من قطع مسافة طولها ٤٠٠ ميل • وفي غات قوبل جيمس ريتشاردسون بحفاوة بالغة من قبل السلطان الذى أعطاه هدايا ليأخذها معه الى الملكة فيكتوريا • وفي تلك الأثناء سجل ملاحظات تفصيلية عن تجار الرقيق •

وبعد ذلك ، بدأ رحلة العودة الى ساحل البحر المتوسط ، ومن هناك سافر على متن سفينة الى لندن •

وقد قطع جيمس ريتشاردسون أثناء هذه الرحلة مسافة طولها ٧٠٠٠ ميل عبر الصحراء • وكان لتقريره آثار بالغة الأهمية وبخاصة بالنسبة لما يتعلق منه بالمعاملة القاسية التي كان العبيد يلقونها من قبل تجار الرقيق (النخاسة) • وقد حرك هذا التقرير مشاعر الناس في بريطانيا بصورة فعالة ، ومن الجدير بالذكر أن المؤلفة لم تتناول هذه الرحلة ، بل تناولت المرحلة الثانية التي قام بها ريتشاردسون •

ونتيجة لهذه الرحلة أصبحت الحكومة البريطانية مهتمة اهتماما كبيرا بفكرة حصر طرق القوافل التي تربط بين واحات الصحراء وبين المدن الواقعة على الحافة الجنوبية للصحراء • وبعد عودة ريتشاردسون من رحلته بسنوات قليلة ، قررت الحكومة البريطانية ، ارسال بعثة رسمية وهى التى أشارت اليها المؤلفة لكشف هذه الطرق لكى تحصل على معلومات أكثر عن تجارة الرقيق • وكانت الحكومة البريطانية قد قررت أن يتولى ريتشاردسون رئاسة هذه البعثة والذى طلب أن تكون بعثته هذه على المستوى العالمى ، كما طلب أن يكون أعضاؤها أكثر تقدما فى مجال الكشف الجغرافى الأفريقى ، منه فى مجال المغامرات الرومانسية التى كانت تحدث فى الماضى •

وعندما علم السفير الروسى فى لندن بذلك اقترح على ريتشاردسون اسم شاب ألمانى يدعى هنريش بارث الذى كان له خبرة سابقة فى مجال الكشف فى الشرق الأوسط وفى شمال افريقيا ، وعندما سأل ريتشاردسون هنريش بارث أن ينضم الى بعثته وافق على الفور ، وبدأ هنريش بارث فى تدريب نفسه تدريباً جيداً ، كى يعد نفسه على تحمل مهام البعثة • وكان العضو الثالث فى هذه البعثة هو أدولف أفرويج Adolf Overweg ، وفضلا عن ذلك فحقو ضمت هذه البعثة عددا آخر من المرشدين والخدم ،

وكانت قد بدأت مهمتها عام ١٨٥٠ ، ويبدو أنها كانت معدة اعدادا جيدا .

وكان أفراد هذه البعثة قد حملوا معهم الى جانب الأمتعة والمؤن مركبا صغيرا ، كان الغرض منه استخدامهُ فوق مياه بحيرة تشاد . وبعد أن بدأت البعثة مهمتها دب الخلاف بين كل من (ريتشاردسون وبارث) لذلك انقسمت البعثة الى قسمين ، ضم القسم الأول الألمانين اللذين سارا في المقدمة ، ومن بعدهم بمسافة كبيرة سار القسم الثانى برئاسة ريتشاردسون ومعه البحار الانجليزى الذى كان قد قدم للعمل على المركب ، وفى المساء عسكرت البعثة فى معسكرين . وفى عام ١٨٥٠ م ، وصلت المجموعتان الى واحة مرزوق ، ومنها واصلتا السفر الى واحة غات Ghat وهناك قضت البعثتين عدة أيام خارج هذه الواحة ، حيث قرر بارث أن يتسلق جبل أدنين المجهول Mysterious Mount of Idinen ويحسب

ما ذكر رجال الطوارق فأن هذا الجبل كان مسكونا بالأرواح الشريرة Inhabited by evil spirits ، وبعد فترة من المسير نفذ الماء من بارث ، بل وضل طريقه ، وسقط على الأرض وهو شبه فاقد للوعى Semi Conciousness ، ولكنه نجح فى تجنب الخطر بسبب فتح أحد شراينه وشرب دمه ، وفى تلك الأثناء عثر عليه رجال الطوارق الذين أرجعوه الى أفرويج .

وبعد ذلك اتجه ريتشاردسون الى بحيرة تشاد واتجه بارث الى كانو وكاتسينا . وكان الرجال الثلاثة قد اتفقوا على الالتقاء فى كوكا فى شهر ابريل عام ١٨٥١ م . وعلى الرغم من ذلك فلم يحافظ ريتشاردسون على موعد هذا اللقاء ، مع أن أفرويج كان قد وصل الى بحيرة تشاد ، وهو فى حالة منهكة ، بل وكان يعانى من الحمى ، وفى هذا الوقت كان بارث قد اكتشف المقاطعة الواقعة الى الجنوب الشرقى من بحيرة تشاد . وبعد أن كان عليه أن يستكشف البحيرة نفسها . ومكث بارث وأفرويج فى منطقة البحيرة ١٥ شهرا . وفى تلك الأثناء مات ريتشاردسون . ولما علمت الحكومة البريطانية بوفاة عث بدلا منه بارث قائدا لهذه البعثة ،

وزودته بالأموال لكي يواصل سفره حتى يصل الى هدفه الثانى وهو مدينة تمبكتو • اذن يمكن القول أن الهدف من بعثة ريتشاردسون الرسمية كان الوصول الى بحيرة تشاد وتمبكتو •

وقبل أن يبدأ الرجلان رحلتهم مات أفرويج بسبب مرض الملاريا اذن يمكن القول أن البعثة فقدت من أعضائها اثنين هما ريتشاردسون وأفرويج الذى كان عمره آنذاك ٢٩ عاما •

وبعد ذلك ، كان بارث قد تعرض لمرض الدوسنتاريا والحمى ، كما تعرض أيضا لفقدته لكل من ريتشاردسون وأفرويج ، ومع ذلك فإنه قرر مواصلة السفر • ففي نهاية ١٨٥٢ م ، غادر بارث عاصمة البورنو ، بعد أن قضى ٣٢ شهرا فى الرحلة ، ابتداء من طرابلس • وفى سبتمبر عام ١٨٥٣ م وصل الى تمبكتو ووجدها فى حالة رخاء ، ولكنها لم تستعيد مركزها التجارى التى كانت تتمتع به فى التسعينات من القرن الخامس عشر وما قبله •

وفى بداية عام ١٨٥٤ م ، غادر بارث تمبكتو واتخذ طريقه تجاه الشرق الى بحيرة تشاد • وفى الطريق الى هذه البحيرة كان قد علم بأن الحكومة البريطانية قد أرسلت بعثة أخرى للبحث عنه ، وكانت هذه البعثة قد وصلت بالفعل الى بحيرة تشاد • وكان على رأسها أدوارد فوجيل A German Edward Vogel • وبعد مقابلة دامت فترة قصيرة سافر بارث بعدها الى كوكا ، وسافر فوجيل الى زندر وهى مدينة تقع على مسافة ٣٠٠ ميل غرب تشاد وكان عليه الانضمام الى بارث الذى سوف يبدأ رحلته الأخيرة عبر الصحراء الى انجلترا ، ولكن فوجيل غير رأيه واتجه صوب واداي الواقعة فى غرب السودان •

وفى النهاية عبر بارث الصحراء فى ما يو ١٨٥٥ م ، رغم الحرارة الشديدة وتمكن من الوصول الى طرابلس • ومنها سافر الى لندن بعد أن مكث فى افريقيا خمس سنوات •

ومن بعد هنريش بارث يأتي دور أدولف لودويج أفرويج Adolf Ludwig Overweg الذى عاش في الفترة ما بين ١٨٢٣م، ١٨٥٢م، فهو مستكشف ألماني ساهم في كشف افريقيا . غفى عام ١٨٥٠ م ، التحق بالبعثة التي ضمت كل من جيمس ريتشاردسون وهنريش بارث ، وكانت هذه البعثة قد بدأت مهمتها من طرابلس متجهة صوب بحيرة تشاد ونهر النيجر وقبل أن تصل هذه البعثة الى بحيرة تشاد انفصل الرجال الثلاث عن بعضهم . ولما وصل أفرويج الى بحيرة تشاد قام بكشفها ثم مات بعد ذلك قبل أن يبدأ الرحلة الى تمبكتو والنيجر (١) .

ومن بعد أفرويج يأتي دور الطبيب وليام بلفور بياكي William Balfour Baikie ، الذى أرسله السير رودريك مارشيزون Roderick Murchison رئيس الجمعية الأفريقية عام ١٨٥٤ م الى افريقيا ، ليقوم بمعالجة أفراد البعثة التي أرسلت الى نهر النيجر عام ١٨٥٤ م ، وكانت هذه البعثة قد سارت مسافة طويلة مع نهر البنوى ، ويرجع الفضل كل الفضل في عدم تعرض أفرادها الى المرض الى الطبيب بياكي الذى استخدم الكينين Quinine في علاجهم ، فلم يمض عضو واحد من أفراد هذه البعثة .

وبعد عودة هذه البعثة الى لندن عاد بياكي الى النيجر عام ١٨٥٧ م ، وكان بصحبته كل من كروثر Samuel Crowther والملازم جلوفر Lieutenant Glover ، وكان الهدف من هذه البعثة هذه المرة هو التأكد من أن التجارة هي أحسن وسائل الإتصال مع السكان (الأفارقة) ، ولهذا قام كروثر بتأسيس أول مركز لأول بعثة تبشيرية مسيحية في نيجيريا عند التقاء النيجر بالبنوى . واستقر بياكي مدة ست سنوات في هذه المنطقة وكان يقوم خلالها بشغل وظيفة الفئصل البريطانى ، بالإضافة الى أنه كان حاكما لمقاطعة النوب Nupe وفي تلك الأثناء ، كان بياكي يمارس مهنة

(1) Encyclopedia of discovery and Exploration, London, 1971. No. 3. pp. 58, 61, 82.

الطب ، كما أنه كان يمارس التجارة ، ومع ذلك فأن الحكومة البريطانية كانت قد أهملته وبخاصة في بداية ممارسته لهذه الأعمال ، وعندما شعر بذلك رفض التعاون مع الحكومة البريطانية ، ولكن كان هذا الرفض بطريقة مهذبة . وفي عام ١٨٦٤ م أصبح بلفور بياكى أفريقيا أكثر منه أوربيا ، ورأى بياكى أنه في امكان الأوربيين أن يعيشوا في افريقيا بدون تعرض لأى خطر على جنبات نهر النيجر . وبعد ذلك مات هذا الطبيب الشاب في سيراليون وهو في طريق عودته الى وطنه (٣) .

وكان من الرحالة الذين ساهموا في مجال الكشف الأفريقى جوزيف تومسون Joseph Thomson الذى عاش في الفترة ما بين ١٨٥٨ ، ١٨٩٥ م . كان جوزيف هذا جيولوجيا اسكتلنديا ساهم في كشف افريقيا . غفى عام ١٨٨٢ م ، قام تومسون برحلتين الى افريقيا ، لأن الجمعية الأفريقية الملكية كانت قد طلبت منه أن يستكشف طريق آمن يمر من خلال وطن المسائ . لهذا كان عليه أن يبدأ رحلته من ساحل شرق افريقيا وحتى بحيرة فيكتوريا ، فكانت بعثته قد غادرت زنجبار في مارس عام ١٨٨٣ م ، ووصلت الى بحيرة فيكتوريا في شهر ديسمبر من نفس العام وعادت بعد ذلك الى الساحل في مايو من العام التالى ، بعد أن كانت قد اكتشفت بحيرة بارانجو Baringo وجبل النجون Elgon Mountain ، وقد قام تومسون بعدد من الرحلات الى افريقيا كان منها الرحلة التى قام بها في الفترة ما بين ١٨٩٠ ، ١٨٩١ م ، فكان قد سافر الى الشمال من نهر الزمبىزى حتى وصل الى المنطقة الواقعة بين بحيرتى نياسا وبنجويلو ، وقد قطع أثناء هذه الرحلة ١٠٠٠ ميل في اقليم مجهول ، وعقد اتفاقيات تجارية مع الشيوخ المحليين . وفي رحلته التالية كانت صحته قد تدهورت ومات وهو في سن السابعة والثلاثين من عمره .

ومن بعده قامت امرأة هولندية تدعى المسز تننيه برحلة كشفية عام

(2) David Mountfield : A history of African Exploration, London, 1976. p. 85.

١٨٦٩ من طرابلس ، وقد تكونت هذه البعثة من اثنين من البحارة الهولنديين ، وبعد ذلك التحقت بقافلة كانت متجهة صوب الجنوب ، فوصلت الى واحة مرزوق ، وربما يرجع السبب في ذلك الى أن المسز تنبيه لم تكن على دراية بطريق الصحراء .

وبعد ذلك غادرت بعثة تنبيه واحة مرزوق في طريقها صوب الجنوب ، وفي تلك الأثناء التقت هذه البعثة مع أحد شيوخ طوارق الحجار الذى استمالها لكى يقوم بحراستها حتى تصل الى واحة غات Ghat . وبعد مضى أيام قلائل على بدء الرحلة هاجمها هذا الشيخ ورجاله من الطوارق ، وقطعوا أحد أذرعها ، ومن المحتمل أن يكون السبب في ذلك هو منعها من استخدام مسدسها ، وظلت هذه السيدة ملقاة على رمال الصحراء في حرارة الشمس الشديدة وهى تدمى ببطء حتى فارقت الحياة . ويقال أن السبب في اغتيالها يرجع الى أن قافلتها كانت تحمل معها برميلين للمياه ، فأعتقد هذا الشيخ بأن هذين البرميلين كانا مملؤين بالذهب . فقد أثار ذلك رغبة هذا الشيخ في التخلص منها والاستيلاء على هذين البرميلين . ومن المعروف أن المسز تنبيه كانت قد قامت قبل ذلك ببعثة الى منطقة بحر الغزال ، وقد نجحت في الوصول الى هذه المنطقة ثم عادت سالمة .

وقد انتهت حياة المسز تنبيه هذه النهاية المفجعة في الصحراء الكبرى ، نتيجة حبها في الكشف والأرتياد ، ونتيجة لتحقيق الشهرة في مجال الكشف الجغرافية الأفريقية ، ولكن أن دل هذا على شيء فأثما يدل على العزيمة الصادقة المخلصة ، حتى ولو كان وراء ذلك الرغبة الشخصية في تحقيق المجد والرفعة .

وبعد ذلك يأتى دور المستكشف جوستاف ناشتيجال Gustav Nachtigal ، الذى عاش في الفترة ما بين ١٨٣٤ ، ١٨٨٥ م والذى أوفد من قبل ملك بروسيا عام ١٨٦٩ ، لكى يوصل الهدايا الى سلطان بورنو ، فسافر الى غزان ، ومنها توغل في الصحراء ، فأكتشف حضبة تبستى في

الفترة ما بين ١٨٧٠ ، ١٨٧٤ • ومن هناك عبر ناشتيجال الصحراء الى منطقة بحيرة تشاد ، وواصل المسير حتى وصل الى دارفور وكردفان ، وبعد ذلك أتخذ طريق النيل الى القاهرة • وفي عام ١٨٨٢ م ، عين ناشتيجال قنصلا لألمانيا في تونس ، وبعد سنتين زار غرب افريقيا ، فقد زار توجو والكاميرون بصفته نائبا للأمبراطور الألماني •

ومن الرحالة الذين لم يلقوا الاهتمام من جانب المؤلفة ، الرحالة الألماني جيرهارد رولفس Gerhard Rolfos ، وهو جندي ألماني كان قد أعد نفسه للسفر الى الصحراء فالتحق بالقوة العسكرية المذهبة الى الجزائر عام ١٨٦٢ م ، وتذكر في زي رجل دين • وبدأ رحلته الى داخل مراكش ، ومنها سافر الى واحة تيفيليت ، وكان الأوربي الأول الذي زار هذه المنطقة منذ أن كتب رينييه كاييه تقريراً عنها • وكانت الرحلة الثانية التي قام بها جيرهارد رولفس أكثر طموحاً ، فمن تيفيليت تقدم رولفس صوب الجنوب الشرقي من واحة صالح الواقعة في قلب الصحراء وكان رولفس هذا يهدف من وراء ذلك الى زيارة تمبكتو ، ولكن مشروعه لم ينته بعد الآن نقوده كانت قد نفدت ، فأضطر الى التخلي عن هذا المشروع • وبدلاً من ذلك اتجه شمالاً ماراً من خلال غدامس Ghidamis الى طرابلس ومنها الى ألمانيا •

وبعد ذلك نتحدث عن دور اوسكار لينز Oscarlenz الذي لم يلق الاهتمام من جانب مؤلفة الكتاب ، والذي كان عليه أن يعبر الصحراء من مراكش حتى يصل الى مصب نهر السنغال ، وهذا الطريق كان مشابهاً للطريق الذي اتخذه رينييه كاييه • وكان لينز أثناء هذه الرحلة يصطحب معه جماعة صغيرة من الأفراد ، واستغرقت هذه الرحلة ٤٠ يوماً وصل بعدها الى تمبكتو التي قضى فيها ١٨ يوماً ، وكانت هذه المدة من أحسن أيام حياته • وذكر لينز في تقريره عن تمبكتو أنها لازالت مضمحلة مع أن الوضع السياسي فيها كان أقل توتراً • وفي منتصف يوليو عام ١٨٨٠ م غادر لينز تمبكتو ، حيث وصل الى مركز فرنسي يقع على نهر السنغال •

فرنسا في عمق الصحراء ، فكانت تتكون من ٦٠ ضابطا ، ومن ٤٦ جنديا ، ومن ٣٦ من رجال القبائل الأفريقية ، وكان الهدف من هذه البعثة القيام بعملية مسح وكشف للصحراء والمنطقة الشمال الشرقي من جبال الحجار التي يقطنها طوارق الحجار الذين يكرهون الفرنسيين *

وكان نقص الماء بالنسبة لهذه البعثة يمثل المشكلة الكبيرة ، وزاد من خطر هذه المشكلة كثرة عدد أفراد البعثة ودوابها ، لهذا كانت الحالة ملحة للماء وزاد الطين بلة أن رجال قبائل الطوارق كانوا يرفضون تزويد البعثة بالمياه حتى يعرضوا أرواح أفرادها للخطر كي يتمكنون من القضاء عليها بعد ذلك في سهولة ويسر *

وقد ألتقى عدد من رجال قبائل الطوارق بالكولونيل الفرنسي اكسافيه فلاتيه Colonel Paul Xavier Flatters وأخبروه أنهم سوف يأخذونه الى بئر مياه ، لكي يحصل على احتياجاته من المياه من هذه البئر ، وبالفعل اقتنع فلاتيه بما قالوه له وذهب معهم وبصحبته مجموعة صغيرة من رجال البعثة * وقد ترك فلاتيه من خلفه الم لازم ديانوس Lieutenant Dianous الذي كان مسئولا عن المجموعة الرئيسية للبعثة *

ولكن لما وصل فلاتيه الى هذه البئر انقض الطوارق عليه وعلى رجاله مستخدمين في ذلك الأسلحة النارية ، وقتلوا كل الأفراد ما عدا عدد قليل من الجمالة العرب Arab Camel-men ، الذين هربوا عائدين الى المعسكر ، ولما سمع ديانوس عما حدث كان عليه مواجهة ما يطرأ من صعاب وبخاصة أثناء عودته الى الأوارجلا Ouargla ، ومعه بقية الأفراد الأحياء الذين كان ينبغي عليهم أن يبدأوا الرحيل سيرا على الأقدام ، لأن الطوارق كانوا قد شنتوا بعيدا ما تبقى من الأبل الخاصة بهذه البعثة *

وقد عاد الجميع من خلال الصحراء وهم في حالة شديدة من اليأس * ومن ناحية أخرى كان رجال الطوارق يطاردون هذه البقية الباقية من البعثة الفرنسية ، فقتلوا ديانوس ومات معظم الرجال في الطريق بسبب

المجروح والعطش والجوع • وعند نفاد الطعام لجأ هؤلاء الأفراد الذين ظلوا على قيد الحياة الى تناول أجسام رفقاتهم الموتى •

وقد أثرت كارثة بعثة غلاتيه على الروح المعنوية للفرنسيين اذا خططت حكومة فرنسا ، كى تنشئ طريقا جديدا يمر من الصحراء ، ولكن ما لبثت أن تخلت الحكومة الفرنسية عن هذه الفكرة ، لأنه كان من الصعب عليها أن تنشئ طريقا فى الصحراء الكبرى لأسباب مادية وطبيعية ، ولهذا ركزت اهتمامها فى الشمال فأستولت على تونس عام ١٨٨٤ • وفى عام ١٨٩٥ مدت نفوذها الى المنطقة الواقعة حول تمبكتو بما فى ذلك أجزاء كثيرة مما يسمى فى الوقت الحاضر بمحمية السودان الفرنسى •

ورغم كل هذه المحاولات التى قام بها الفرنسيون ، الا أن البعض منهم لم يفقد الأمل فى بسط النفوذ الفرنسى فى الصحراء الكبرى • ففى عام ١٨٩٨ م سنحت الفرصة الى فرناند فور لامي الذى رغب فى المجئ الى الصحراء الكبرى مرة ثانية ، وبخاصة بعد أن سمعت الجمعية الجغرافية الفرنسية French Geographical Society عن انجازات فور لامي فوافقت أن تقدم له العون لو كان فى إمكانه القيام على رأس بعثة بهدف كشف الصحراء الكبرى ، وبخاصة المنطقة الواقعة بين الجزائر والسودان • وقد انتهز فور لامي هذه الفرصة ووافق على قيادة هذه البعثة ، وقد زود بقوة عسكرية تولى هو قيادتها ، وكانت هذه البعثة بمثابة جيش صغير ، وسلاح أفرادها بالبنادق والمدافع الصغيرة والمدافع الخفيفة ، وكان الهدف من إرسال هذه البعثة التى يمكن تسميتها بتجريدة حربية مهاجمة الطوارق •

وبعد ذلك انطلقت هذه التجريدة التى كانت تسير فى شكل طابور طويل ، واتجهت صوب الجنوب الى الهضبة الوسطى من الصحراء والى جبال الحجار المخيفة • وفى هذه المنطقة التقت هذه التجريدة بالطوارق الذين كانوا يتسلحون بالسيوف والحراب والبنادق ، لذلك لم يقيم الطوارق بمهاجمة الحملة ، ولكنهم استخدموا ضدها الدماء فرفضوا تزويدها

بالطعام والماء اللازم للجمال • عندئذ أندفع الفرنسيون من خلال المقاطعة الواقعة بين تسلين أجير Tassilin-Ajjer وبين جبال الحجار ، وكان من نتيجة ذلك أن فقدت الحملة في أسبوع واحد أكثر مما يزيد على ١٠٠ جمل •

وفي هذا الوقت ، كان الفرنسيون قد قطعوا مسافة نصف الطريق الذى يمر عبر جبال الأير Air Mountains ، وعلى أثر ذلك ماتت كل الجمال ، وحرقت معظم الأمتعة ، ودفن مقدار كبير من الذخيرة Ammunition ولكن مع ذلك ، واصل الفرنسيون مسيرهم حتى إن أغلبهم كان يرتدى زيا عبارة عن خرق ، هذا فضلا عن أنهم كانوا في حالة شديدة من الجوع ، وبعد صراع مرير من أجل التغلب على المسير في هذا الطريق وصلوا الى مدينة زندر Zinder ، وبذلك تكون البعثة قد قطعت المسافة الواقعة بين السودان والجزائر • ولكن رغم ذلك فأن المحاولات التى قام بها رجال الطوارق لم تنته بعد • ومن زندر تحركت البعثة تجاه الشرق الى بحيرة تشاد ، وهناك تعرضت الى هجوم من جانب جيش قادم من مملكة البورنو ، ولكن الفرنسيين نجحوا في تحقيق النصر على هذا الجيش في موقعة كوسورى Kousseri التى اعيدت تسميتها بفورت لامي Fort - Lamy كتذكرا للميجور لامي الذى قتل في هذه المعركة • وقد وضح أن بعثة فرناند فورلامى المسلحة تسليحا جيدا قد عبرت الصحراء ، ولكنها لم تستطع التغلب على الطوارق ، وفي نهاية التسعينات من القرن التاسع عشر ، لم يكن للفرنسيين سيطرة حقيقية على ممتلكاتهم في الصحراء أو على قبائلها ، لذلك أصر الفرنسيون على أن الجيش يكون في مقدوره أخضاع رجال القبائل ، لهذا نجد أنه في عام ١٩٠١ م تولى ضابط فرنسى مسئولية الصحراء ، وعرف كيف يهدىء من غضب الطوارق ، ويحقق الاتصال بين الجزائر والسودان الفرنسى •

وكان هذا الضابط هو مارى جوزيف فرنسوا هنرى لابرين

Marrie Joseph François Henri Laperrine

الذى أصبح قائدا ورئيسا لواحاحات الصحراء الكبرى ، فكان عليه أن يتولى فقط حراسة قواعد الصحراء ، فقام بتجنيد قوة من رجال قبائل الصحراء الذين كانوا أعداء تقليديين للطوارق ، وشكلهم في ثلاث فرق كبيرة مزودة بالجمال ودربوا تدريبا جيدا ، كما زودوا بالأسلحة والمواد الغذائية • وبعد القيام بعدد من المناوشات الناجحة مع الطوارق بدأت فرق الأبل في عبور الصحراء دون خوف من أى هجوم •

وفي مايو عام ١٩٠٢ ، وقعت معركة تحطمت فيها قوة طوارق الحجار • وعلى أثر ذلك أطلقت بعثة فرنسية النيران على رجال القبائل الذين كانوا عاكدين العزم على منع هذه البعثة من الاقتراب من واحة صالح المكان التقليدي لالتقاء شيوخهم •

ولذلك واصل الطوارق هجومهم الفعلى على القوافل الفرنسية التى كانت تسافر من خلال مقاطعتهم • لهذا وجه الفرنسيون فرقهم المكونة من رجال قبائل الصحراء ضد طوارق الحجار • وقد تمكنت هذه الفرق الفرنسية من هزيمة طوارق الحجار هزيمة منكرة في موقعة تيت Tite •

وكانت فرق الجمال التابعة الى لابرين Laperrine تتكون الواحدة منها من عشرين جملا ، وقد مهدت هذه الفرق الطريق عبر الصحراء للاستخدام ، أى أن هذا الطريق أصبح معروفا ، بل ومنظما • وفي عام ١٩١٠ م ، أنشئ في الصحراء خدمة بريدية منتظمة Regular postal

service ، حيث كان البريد يمر عبر طريق تمبكتو الى جبال الحجار ، ثم يصل بعد ذلك الى واحة صالح والى واحة الجولا ثم يصل بعد الأخيرة الى الجزائر ، ولكي يجعل لابرين الحياة تدب في الطريق الصحراوى أنشأ جمارك لتحصيل الرسوم الجمركية ، وهذا فضلا عن نقله للضباط الفرنسيين من فرق الجمال ، ووضعهم بين مجموعة من بدو الصحراء ، ولم يكن لهؤلاء الضباط مركز قيادة ، بل عاشوا مع جمالهم أينما توجد الأرض الرعوية • وفي عام ١٩٠٥ م ، عبرت جماعة صغيرة من مجموعات

لابرين الصحراء أربع مرات في آخر فصول السنة دون أن تفقد رجلا واحدا أو جملا . وكان من الملاحظ في الواقع أن الهزيمة الكبرى ممكن أن تحدث في حالة عبور أفراد كثيرين للصحراء ، وفي هذه الحالة سوف يواجهون الموت دفعة واحدة ، ومن السخرية أن لابين الذي عمل الكثير من أجل أن يضع الصحراء الكبرى تحت السيطرة الفرنسية مات هناك نتيجة لحادث مؤلم .

ففي عام ١٩٢٠ م ، كان لابين على رأس بعثة رسمية مكونة من طائرتين كي يقوم بتأسيس خط جوى An air Route عبر الصحراء ابتداء من الجزائر وحتى دكار ، وفي مكان بالقرب من غورت بيبوردي Fort Pierre Bordes سقطت طائرة لابين أثناء طيرانها بسبب نفاد وقودها ، غارتطمت بالأرض وتحطمت وجرح كتف الجنرال لابين جرحا خطيرا ، وكانت درجة الحرارة في الصحراء تزيد على ١٠٠ درجة مئوية ، في الوقت الذي كان لا يوجد مع طاقم الطائرة الا قليل من الماء ، ورغم ذلك نجح ثلاثة من الأحياء من الموت وظلوا على قيد الحياة لعدة أسابيع ، وتأنوا جميعا يأملون في أن شخصا ما سوف يعثر عليهم . وكان لابين قد زحف بعيدا عن حطام الطائرة ومات على الرمل . وبعد عشرة أيام وجدت جماعة من فرق الجمال جسم الجنرال ومعه اثنين نصف أحياء The two half-dead Survivors

وبعد ذلك تنتقل الى الحديث عن دور المبشرين في الصحراء الكبرى ، فمن المعروف أنه لم يكن للمبشرين دور في كشف الصحراء الكبرى ، والسبب في ذلك يرجع الى أن العقيدة الإسلامية كانت راسخة في هذه المناطق من الصحراء ، بل ووقفت هذه العقيدة الإسلامية سدا منيعا أمام المبشرين الأوروبيين . ولكن الكاردينال لافيغري Cardinal Lavignerie ، وهو أسقف كاثوليكي روماني ، رغب في تأسيس سلسلة من المراكز الدينية في واحات الصحراء الكبرى يعمل فيها الآباء البيض . وبالفعل بدأ في ارسال هذه المجموعات من المبشرين ، ولكن اغتيلت الأولى منها عام ١٨٧٦ م .

وبعد تسع سنوات مات أكثر من ثلاثة مبشرين ، ربما بسبب تعرضهم لعداوة القبائل التي رغبت في أبعاد هؤلاء البيض الذين لم يخف الباقين منهم ، ومع ذلك فلم ينجح قسيس واحد في العيش في سلام بين قبائل الطوارق ، لذلك قرر الأب تشارلس دى فوكولد Father charles de foucauld — الذى كان زميلا للابرين في المدرسة العسكرية في باريس — عدم الذهاب مع جيش الصحراء ، وفضل أن يستكشف مراكش . وهناك أصبح له اهتمام متزايد بالحياة مع رجال قبائل البدو . وأخيرا قرر تشارلس أن يعيش حياة راهب في الصحراء . فبنى لنفسه ديراً في تامنراست Tamanrasset في قلب وطن طوارق الحجار ، واستقر هناك وركز حياته في الصلاة والتدريس لرجال قبائل الصحراء . فكان قد تعلم لغتهم فتمكن من ترجمة أشعارهم ، وألف قاموساً يضم بين صفحاته الكلمات الخاصة بلغة الطوارق . وكانت الصعوبة التي صادفته أثناء تواجده بين قبائل الطوارق صداقته للجنود الفرنسيين الموجودين في الصحراء ، والذين كانوا مكلفين بفرض السيطرة على قبائل الطوارق .

وفي أثناء الحرب العالمية الأولى شجع الأتراك رجال القبائل من الطوارق على الانضمام الى الحرب المقدسة Aholiywar ضد المراكز الفرنسية الموجودة في الصحراء . ورغم ذلك فإن دير فوكولد الواقع في تامنراست يبدو أنه كان قد تعرض للهجوم في أحد الأمسيات حيث أطلق الرصاص على الأب دى فوكولد فسقط قتيلاً ، لذلك حزنت أوروبا على وفاته كمبشر .

ويشير اغتيال تشارلس دى فوكولد على نهاية عهد كشف الصحراء . ومن المعروف كذلك أن الحرب العالمية الأولى كانت قد جلبت معها عصر السيارة والطائرة الى الصحراء ، بل والآلات التي كان في امكانها غزو الصحراء والتي أُنذرت بأختفاء قوافل الأبل . ومن المعروف أن الجنرال لابرين ، كان قد راح ضحية رحلة الطيران التي حدثت عام ١٩٣٠ م وكانت هذه الرحلة تتكون من طائرتين سقطت الأولى على الأرض وتحطمت ، (م ١٤ — المستكشفون)

بينما واصلت الطائرة الثانية التي كان يقودها الميجور فيولمين A Major Vuillemin الذي نجح في إكمال الرحلة .

وكان موت لابرين ، قد حجب الرؤية عن أهمية نجاح الميجور فيولمين لعبوره الصحراء . ولكن مع ذلك فأن عبور فيولمين للصحراء الكبرى يعد النصر الأول لعصر الآلة في شمال افريقيا .

وبعد ذلك بسنتين حدث العبور الأول للصحراء الكبرى بالسيارة فقد تتبعت مجموعة السترون الفرنسية French Citron السير في الصحراء الكبرى مستخدمة في ذلك العربات ، فكانت هذه المجموعة قد غادرت ساحل البحر المتوسط في شهر ديسمبر عام ١٩٢٢ ، ووصلت الى مدينة تمبكتو بعد شهر من بدء الرحلة . مع أن الأسكندر لينج كان قد قطع هذه المسافة في أحد عشر شهرا ، كما أنه لم يكن في إمكان قافلة من الأبل السريعة أن تنجح في قطع نفس هذه المسافة في أقل من ستة أشهر . وقد أفتتح نجاح بعثة السترون الفرنسية الفرنسيين على أنهم في الواقع قد غزوا الصحراء .

ويمكن القول أنه في ذلك الوقت قد تم كشف الصحراء الكبرى بصفه نهائية ، ومع ذلك فلم تعد مسألة التغلب على مصاعب المناخ والتضاريس الأرضية مسألة سهلة . ولكن التاريخ السافر للصحراء ، جعل الأجيال التالية تشغل نفسها بالقيام بالمغامرات ، ففي عام ١٩٣٣ اكتشف ضابط Lieutenant فرنسى يدعى برينان Brenans نقوشا لهياكل انسانية وحيوانات مرسومة على حوائط مدخل حصن صخرى في تسالين أجير . كما وجد نفس هذا الضابط أسفل حوائط الحصن صخورا ملونة ، كانت تمثل أعمالا فنية مدهشة ، وقد فحصت هذه النقوش فيما بعد بمعرفة العلماء ، وكانت هذه النقوش تكون جزءا من ثقافة الصحراء في فترة ما قبل التاريخ . وتوضح هذه الصخور الملونة الأجناس المختلفة من الناس الذين كانوا يعيشون في الصحراء ، كما توضح أيضا الأنواع المختلفة للحيوانات التي

كانت تتجول هنا وهناك • وتمثلت أهمية هذه الأشياء في التلوين ، فقد وجدت صور للفيلة ، وهي تملأ خراطيمها بالمياه ، كما وجدت صور للخراثيث وأفراس النهر ، ولكل الحيوانات التي تعيش في المناطق الاستوائية أكثر من معيشتها في الصحراء • وقد تفحص الأثريون العصور التاريخية للصحراء ، واتخذوا من الكهف الملون الدليل على تأييد نظريتهم التي يرجع تاريخها الى حوالي ٤٠٠٠ سنة قبل الميلاد • فقد كانت الصحراء الكبرى منطقة استوائية يوجد بها الأنهار والبحيرات والمستنقعات •

والى جانب هذا الاستقصاء التاريخي للفنون التي وجدت في الصحراء ، فقد وجد فيها كشف هام وحيوى • ففي الخمسينات من القرن العشرين كان العلماء قد تنبأوا بوجود رواسب بترولية كبيرة ، كما تنبأوا بوجود الغاز والمعادن ، والدليل على ذلك أن شركات البترول من الولايات المتحدة وفرنسا وبريطانيا قد بدأت التنقيب عن البترول قبل اندلاع الحرب العالمية الثانية ، ففي خلال عامي ١٩٥٥ ، ١٩٥٦ وجدت حقول بترولية كبيرة في الصحراء ، فقد أصبحت هذه الصحراء واحدة من مناطق انتاج البترول الرئيسية في العالم •

وكانت فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية فترة تغيير سياسى ، فمنذ عام ١٩٢٢ ظل جزء كبير من الصحراء تحت السيطرة الفرنسية •

ولكن في الخمسينات من القرن العشرين تغيرت افريقيا من قارة مستعمرات محكومة من الأوربيين الى قارة مستقلة الأقطار • فمنذ عام ١٩٥٦ ، استقلت تونس وحصلت الجزائر على استقلالها عام ١٩٦٢ ، بعد حرب طويلة ومريرة • After a long and bitter war

وكان لشجاعة وتصميم المستكشفين الأوائل لأفريقيا مواهب غزيرة ساعدتهم في مواجهة غزو بحار الرمال الكبيرة ، ولكن هل استكشاف المناطق المجهولة والغامضة سيستمر ولو بطرق أخرى ؟ نعم سوف يستمر الكشف

في الصحراء بحثاً عن مواردها ، فالصحراء بمساحتها الشاسعة تخفى موارد ضخمة هي في حاجة الى جهد كبير ومتطور ، فهي في الوقت الحاضر تحتاج الى رجال أعمال وسياسيين وعلماء وفنيين ومهندسين ، فهم جميعا سوف يستنبطون المشاريع الخاصة بتنمية هذه المنطقة الغنية ، وسوف تخضع انجازاتهم الى اسرار العصر العلمي التكنولوجي (١) .

(1) The Encyclopedia of discovery and Exploration, Exploring Africa and Asia. Garden City New York, 1973. pp. 457, 59, 61, 63, 69, 71, 74, 76, 80.

الفصل السابع

البعثات الكشفية في جنوب وشرق إفريقيا

في خلال مائة وعشرين عاما ، أى منذ أن أنطلق جيمس بروس عام ١٧٦٨ م ، وحتى عام ١٨٨٨ م ، أصبح شرق ووسط أفريقيا معروفا للعالم الخارجي . غفى وقت واحد ، تم اختراق الجانب الشرقي من القارة الأفريقية من نقاط كثيرة . فقد بدأ بعض الرواد من الأوروبيين توغلهم في القارة من جهة الشمال صاعدين مع وادى النيل ، وبدأ البعض الآخر يتقدم من مواسي البحر الأحمر مارين من خلال أرض الصومال ، وأندفع البعض الآخر كذلك من جزيرة زنجبار الواقعة على مسافة بعيدة من الساحل الى الداخل ، متخذين طريقهم نحو البحيرات العظمى الواقعة في وسط إفريقيا ، ووصل البعض من هؤلاء الرحالة الى نفس المنطقة قادمين من الجنوب .

وقبل أن نواصل سرد قصة الكشوف الرئيسية في هذه المنطقة فإنه من الضروري القاء نظرة على اكتشاف الجزء الجنوبي من القارة ، فقد أعقب نهاية المستوطنات البرتغالية الساحلية في القرن السادس عشر ، مجيء الهولنديين في نهاية القرن السابع عشر الى الرأس (رأس الرجاء الصالح) ، وترتب على وصولهم الى هذه المنطقة أن تشتت السكان الوطنيين في هذه المنطقة ، وكان عدد من هؤلاء الوطنيين من البوشمن Bushmen ، والهوتنتوت Hottentots ، وهم شعوب غير محبين للحرب ، فقد هرب البوشمن الى المناطق الصحراوية ، بينما أخذ الهولنديون الغالبية العظمى من قبائل الهوتنتوت كعبيد ، ومنعت شركة الهند الشرقية الهولندية المستوطنين الأوروبيين من إقامة المستوطنات لمدة من الوقت ، وظل السكان

الأوروبيين الذين يقطنون منطقة الرأس يعيشون في أعداد صغيرة ومع ذلك ، فقد كانت الشركة عاجزة عن منع الأفراد المستوطنين من النفاذ الى مسافات بعيدة في الداخل . وهناك تضادم المستوطنون مع أفراد القبائل الذين يتحدثون لغة البانتو ، والذين كانوا ينتشرون من أواسط أفريقيا في اتجاه الجنوب بحثا عن أراضى جديدة للزراعة ، وكان البعض من هذه القبائل هادىء الطبع ومسالمة ، وكان البعض الآخر منهم يتميزون بالقسوة والميل للحرب ، بحيث أنهم كانوا يفترسون Preydon القبائل الأضعف منهم ، كما كانوا يصطدمون بالمستوطنين الأوروبيين .

واستمرت الكشوف رغم وجود هذه الصعوبات ، وفي نهاية القرن الثامن عشر ، أصبح هذا القطر ونهر الأورانج ، وبعض النقاط فيما وراء منطقة جنوب غرب افريقيا معروفة تماما .

وكانت الحروب الثابليونية قد انفجرت عام ١٧٩٨ م في أوربا ، ونتيجة لذلك فقد احتلت بريطانيا منطقة الرأس ، كى تحمى الطريق البحرى الى الهند ، وقد نصت على ذلك أيضا معاهدة السلام التى عقدت عام ١٨١٤م . استاء البوير (Afrikanners) الذين ينحدرون من المستوطنين الأصليين والذين ينتمون فى الأصل الى الهولنديين من التدخل البريطانى وسيطرته ، ولذلك بدأ الكثيرون منهم فى الرحيل Trek بعيدا . وكان التاريخ التالى لجنوب افريقيا يمثل الصراع الذى نشب بين بريطانيا والبوير من ناحية ، وبين اثنين من العزاة ، أحدهما أوربى والثانى من البانتو الذين زحفوا من الاتجاه المعاكس .

وفى عام ١٨٣٣ ، وصل التحرش أقصى درجة بين بريطانيا والبوير . وفى هذا العام صدر قانون بريطانى يقضى بإلغاء تجارة الرقيق Britain passed the Abolition of slavery Act ، كما يقضى بإطلاق سراح كل العبيد الذين يعيشون فى الإمبراطورية البريطانية ، بما فى ذلك مستعمرة الرأس ، ومن أجل ذلك فقد رصدت بريطانيا مبلغ

عشرين مليوناً من الجنيهاً كهدية مطلقة وكتعويض لأصحاب الرقيق في مقابل خسارتهم • وتعتبر قيمة هذا المبلغ الذي قدم أكبر كثيراً عما تساويه قيمته في الوقت الحاضر ، وبالطبع فقد منح البوير تعويضاً بسبب فقدهم لعبيدهم ، وكان على ملاك العبيد أن يتسلموا تعويضاتهم من لندن • وحيث أنهم كانوا لا يستطيعون ذلك فقد مرت التعويضات من خلال عملاء يتميزون بالجشع والاستهتار • وهكذا فإن التعويض عندما كان يصل الى أصحاب العبيد كان في الغالب ضئيلاً جداً ، وأجبر العبيد المحررين على العمل لدى أصحابهم السابقين كصبية وتحت التمرين لمدة خمس سنوات ، لذلك استمر بعضهم في عمله بصفة دائمة ، ولكن الكثير منهم لم يكن مرغوباً فيه من قبل أسيادهم الذين رفضوا دفع أجورهم ، وببساطة تركهم أسيادهم ومضوا بهم •

وكان عتق الرقيق من أحد الأسباب الرئيسية التي جعلت أعداداً كبيرة bulk من البوير تغادر منطقة الرأس في أكبر حركة للهجرة A great trek عام ١٨٣٦ • فقد حاربوا معارك يائسة مع الزولو Zulu ، ومع قبائل أخرى محبة للحرب ، ولكن في خلال سنوات قليلة غانهم احتلوا مناطق شاسعة من الأرض امتدت صوب الشمال الى مسافات بعيدة حتى نهر لمبوبو Limpopo River • وفي عام ١٨٥٢ م ، أسسوا مدينة الترنسفال ، وبعد سنتين أسسوا دولة الأورانج الحرة •

وقد اكتشفت التخوم الأولية لهذه المنطقة الضخمة بمعرفة المكتشف الكبير والمبشر دافيد لفنجستون David Livingstone ، الذي ولد عام ١٨١٣ م ، في اسكتلندا من أبوين فقيرين ، ولكنهما كانا متدينين ، وقد بدأ دافيد لفنجستون حياته بالعمل في مصنع للقطن ، عندما كان عمره عشر سنوات ، وفي أثناء ذلك كان يمارس دراساته في مدرسة ليلية بعد الانتهاء من عمله اليومي • وكان يطمح في أن يصبح طبيباً ومبشراً ، وفي سن الثالثة والعشرين كان لفنجستون قد أدخر نقوداً كافية كي يدفع مصاريفه fees في المدرسة الطبية •

وبناء على نصيحة مبشر مشهور هو الدكتور روبرت موفات Dr. Robert Moffat الذى عمل لسنوات عديدة لحساب جمعية لندن التبشيرية فى جنوب افريقيا ، اختار أيضا لفنجستون افريقيا كمجال لاكتشافه . وقد استجاب لفنجستون بحماس لاقتراح الرجل المسن بأن عليه أن يعمل من أجل افريقيا اذا كان مستعدا لمغادرة الأرض المحتلة (جنوب افريقيا) بحيث يتجه نحو الشمال .

ولقد وصل دافيد لفنجستون الى جنوب افريقيا عام ١٨٤١ م ، وكان عمره آنذاك ثمانية وعشرين عاما ، وكان قوى البنية ، متأنى فى حركته ، وبطىء فى حديثه ، وذو أسلوب هادى وواضح ، ولديه شعور قوى نحو واجبه . وقد بدأ رحلته من مدينة كيب تاون Cape Town متجها صوب الشمال ، وقد قطع فى رحلته ما يزيد على مسافة ٥٠٠ ميل ، وكان يركب أثائها عربية يجرها ثور ، وكان يتخذ طريقه صوب مستعمرة بعثة الدكتور روبرت موفات الموجودة فى كورمان Kuruman . وهناك بدأ لفنجستون على الفور فى دراسة لغة السيثونا Schuana ، واللغات الأفريقية الأخرى ، وتعلم كل ما استطاع تعلمه من تاريخ ، وتقاليده الشعب الذى سوف يعيش بينه ، وهناك قابل ماري إينة الدكتور موفات التى تزوجها لفنجستون بعد ذلك ، والتى لم تكن خيالية not Romantic ، بقدر ما كانت سيدة واقعية a matter of - fact lady ، وكانت بدينة قليلا ، وذات شعر أسود ، وكانت قوية ، ويقول لفنجستون هذه هى كل الصفات التى كنت أريدها ، وكانت ماري روبرت موفات زوجة مثالية لرجل اعتقد فى أن يكون رائداً لبعثة تبشيرية لها تأثير أكثر من تأثير رجل يذهب هنا وهناك واضعا الإنجيل تحت ذراعه . ولم يوجد هناك صعوبة تقف أمام ماري نفسها ، فكانت تواجه المصاعب وتقف الى جوار زوجها ، بحيث عملت معه سنوات عدة اضطرت خلالها أن تجبر على البعد عن زوجها دون أية شكوى . وعندما فكر زوجها فى أنه من الأفضل اصطحابها وأطفالها الثلاثة عبر صحراء كالاهارى المرعبة ، وافقت ماري دون أدنى تردد .

وفي غضون سنتين من وصول لفنجستون الى مابوتسا Mabotsa قام ،
 ببناء مقر، خاص لبعثته فيها . وتقع مابوتسا على مسافة ٢٠٠ ميل في الشمال
 الشرقي من كورمان . وفي مابوتسا كاد لفنجستون أن يفقد حياته بسبب تعرضه
 للأسد ، ويقول في ذلك مانصه : « بدون فخر أن هذا الأسد الذي يتناول لحم
 الانسان ويفزع أهل القرى ، قد أمسكنى من أحد أكتافى ، فأندفعنا سويا الى
 أسفل وبزمجرة مرعبة هزنى الأسد ، كما لو كنت غاراً بين مخالب كلب مرعب ،
 وقد تسبب ذلك في نوع من الرعب بحيث لم يكن هناك إحساس بالألم ،
 أو شعور بالخوف ، مع أنني كنت مدركاً لكل الذى يحدث ، وقد قتل رجل
 افريقى مسلح بحربة هذا الأسد الذى جرحنى » وكان هذا الأسد قد
 أدى لفنجستون بدرجة كبيرة حيث أن جروحه كانت تلتئم ببطء ، حتى أنه
 ظل بقية حياته لا يستطيع تحريك ذراعه الأيسر وكتفه دون شعوره بالألم
 حاد . وعندما سئول لفنجستون عن انطباعه عن هذه الحادثة ، أبدى ملاحظة
 مختصرة جاء فيها ما نصه :

« كان كل ما يهمنى أو يدهشنى هو من أى جزء سوف يبدأ الأسد
 في التهامى أولاً » .

ومع ذلك فقد كانت غرائز الريادة قوية لدى لفنجستون ، بحيث سمحت
 له بالبقاء في مكان واحد مدة طويلة ولكن بعد أربع سنوات من بقاءه في
 مابوتسا ، اندفع في اتجاه الشمال ، وأسس بنفسه مقراً لبعثته في كوبولونج
 Kobolong ، الواقعة على الحافة الشرقية لصحراء كالاهارى Kalahari .
 وهناك مكث خمس سنوات وتعتبر هذه الفترة هي الفترة الحقيقية فقط للحياة
 العائلية التي تمتع بها هو وزوجته . وبعد ذلك انضم لفنجستون الى صيادين
 أوربيين عظميين ، وعبر الجميع صحراء مقفرة وموحشة ، وأصبحوا بذلك
 هم الرجال البيض الأول الذين تقع أعينهم على بحيرة نجامى Nagami ،
 الواقعة على مسافة ٨٧٠ ميلاً من شمال كورمان . وبعد سنتين عبر
 لفنجستون مرة ثانية الصحراء ، وكان يأمل في إيجاد موقع مناسب
 بالقرب من البحيرة كي يؤسس فيه محطة لبعثته . وقد صحبته زوجته
 وأطفاله الذين كادوا يموتون جميعاً من العطش .

وفي هذا الوقت ، فقد اقتنع لفنجستون بفكرة كشف مجرى مائى كبير ، تسير فيه المراكب من داخل افريقيا الى البحر (المحيط الأطلسى) ويجلب هذا المجرى المائى المبشرين والتجار من الساحل (الى الداخل) ، ولكن اذا كان للمسيحية أن تنتشر وتزدهر فى داخل القارة الأفريقية ، فإن عليه أولا إيجاد المناخ الصحى ، لكى ينشئ مركزا جديدا للبعثة ، ولكن خاب أمله لأنه وجد منطقة بخيرة شجامى Ngami منطقة غير صحية حيث تنتشر فيها الحمى ، وعلى أثر ذلك فقد اندفع لفنجستون مسافة بعيدة فيما وراء البحيرة ، فوصل الى شاطئ نهر ورائع ، هو نهر الزمبىزى *Zambizi River* وتمثل هذه المنطقة قلب أفريقيا ، وكان الرجال البيض غير معروفين فيها .

وكان لفنجستون قد وصل الى نهر الزمبىزى عن طريق لينيانتى Linyanti موطن الماكولولو Makololo الذين أعجب بهم عن بقية قبائل البانتو الأخرى ، حيث كان له بعض التأثير عليهم ، وفى هذا المصد يقول رؤساء القبائل من الماكولولو ما نصه : « نحن نحبك كما لو كنت قد ولدت بيننا » وأضافوا فى قولهم « أنت الرجل الأبيض الوحيد ، الذى أصبحنا نتعامل معه بطريقة عادية ، لذلك فأننا نرغب فى أن نتخلى عن الوعظ الدائم وعن الصلاة . فأنت ترى أننا لم نحصل أبدا على مطر بينما القبائل التى لا تصلى أبدا مثلنا يحصلون على المطر بوفرة ، وكان رد لفنجستون على أصدقائه من قبائل الماكولولو هو درس فى كيفية استخدام مياه النهر فى رى أراضيهم » .

وفي أثناء رحلته شاهد دليل مؤلم على التدمير الذى تسببت فيه تجارة الرقيق التى يقوم بها العرب ، وكذلك تسببت فيه التجارة التى تتم بين القبائل بعضها البعض .

وكان العرب يتدفعون الى أقصى أعماق القارة ، وبذلك كانوا يخربون ويدمرون مناطق شاسعة من هذا القطر . وقد مرق السخط والشفقة

لفنجنستون بسبب هؤلاء العبيد التتساء ، وقد أخذ على عاتقه أن يظهر هذا الجرح المفتوح على العالم ، واعتقد لفنجنستون أن هذا يمكن حمله فقط بواسطة فتح هذا الوطن للمسيحية وللتجارة الشرعية Legitimate trade ولتحقيق هذا الهدف قرر لفنجنستون القيام بعمل بحث يتطلب منه عبور المقارة حتى يصل الى الساحل الغربى . وفى عام ١٨٥٢ ، أخذ لفنجنستون أسرته الى مدينة كيب تاون ، ومنها أرسلها الى إنجلترا . وبعد ذلك بدأ رحلته الى لينيانتي فى اتجاه الشمال وهناك جتد سبعة وعشرين حمالا من شعب الماكولولو . وفى نوفمبر من عام ١٨٥٣ ، بدأ لفنجنستون رحلته هابطا مع نهر الشوب Chobe. R. ، ومن بعده وصل الى نهر الزمبىزى ، ثم اتجه بعد ذلك صوب الغرب ، حتى وصل الى لواندا Loanda الميناء البرتغالى ، وقد استغرقت هذه الرحلة ، سبعة شهور من السفر استعملت القوارب فى الجزء الأصغر منها ، بينما الجزء الأكبر من هذه الرحلة فقد قطع سيرا على الأقدام . وفى النهاية وصل لفنجنستون الى لواندا Loanda الميناء البرتغالى . وقد بلغ طول هذه المسافة التى قطعها لفنجنستون ١٥٠٠ ميل . وكان من نتيجة ذلك أن أصبح لفنجنستون ضعيفا بسبب تعرضه لنوبات الحمى المتكررة ، وقد تغلب لفنجنستون على مخاطر عداء القبائل التى يمر من خلال أرضها ، بسبب صداقته لقبائل الماكولولو المخلصة له ، فتخلص بذلك من مخاطر الرحلة .

وفى لواندا ، كان فى امكان لفنجنستون الأبحار الى إنجلترا على متن سفينة بريطانية ، ولكنه رفض السفر ، وكان الهدف من هذا الرفض أن يعبر افريقيا من الغرب الى الشرق ، كى يطمئن على أن أتباعه من الماكولولو قد وصلوا الى وطنهم بسلام . واستغرقت رحلة العودة الى لينيانتي عاما واحدا ، ولكن بعد أن مكث فيها أسابيع قليلة للراحة انطلق الى الساحل الشرقى ، بعد قيامه برحلة قصيرة هابطا مع نهر الزمبىزى وتمكن أثناءها من مشاهدة بعض الشلالات الكبيرة . ويبلغ عرض النهر عند هذه النقطة ميلا واحدا تقريبا ، بحيث اختفى تلامام المياه فى مجرى ضيق يبلغ عمقه مئات الأقدام . ولهذا السبب فان النهر فى هذه المنطقة كان مضطربا وهائجا ،

بحيث كان يسير في مجرى عميق لمسافة عدة أميال ، تاركا أعمدة من البخار ،
وسمى الماكولولو هذه الشلالات « بشلالات دخان الرعد » *

ويعتبر لفنجستون الرجل الأبيض الأول الذي رأى هذه الشلالات ،
وسماها شلالات فيكتوريا نسبة الى الملكة فيكتوريا. وتخليدا لذكرها *

ولدة من الوقت تتبع لفنجستون مجرى النهر ، وكان يأمل من وراء
ذلك أن يجد هذا النهر صالحا للملاحة ابتداء من الشلالات ، وحتى الساحل
الشرقي ، وهكذا فقد اقترب لفنجستون بسهولة من الداخل ، وبعد أن ابتعد
عن مجرى النهر اصطدم عندئذ بالشمال الشرقي ، وفشل في البحث عن مكان
بالقرب من الحواف الصحية وذلك لإنشاء مراكز للبعثة ، عندئذ عاد مرة
ثانية الى الساحل ووصل الى تيت Tete وهي المستعمرة البرتغالية
التي تقع على مسافة ٢٥٠ ميلا في الداخل *

وبعد أن اتفق لفنجستون مع اتباعه من الماكولولو أن ينتظروا عودته
من انجلترا أبحر هابطا مع النهر الى ميناء كويلمان Quilimane البحري ،
الذي يوجد في النهاية الشمالية لدلتا نهر الزمبيزي *

ويعتبر مرور Passage لفنجستون لأفريقيا واحدا من أعظم الإنجازات
في تاريخ الكشوفات فقد قطع لفنجستون مسافة طولها ٦٠٠٠ ميل * وقد
أبدى ملاحظات على هذه الرحلة التي استمرت حوالي أربع سنوات ،
وكانت هذه الملاحظات دقيقة بحيث أنه في السنوات التالية استطاع الفلكي
الملكي Astroomer Royal أن يكتب ما نصه :

« كل ما فعله الرجل (لفنجستون) لم يسبق له مثيل ، فهل يمكنك
الذهاب الى أى منطقة عبر هذه القارة على طول طريق لفنجستون ، وتحديد
موقفك ، وتدوين الملاحظات وتعتبر ملاحظات لفنجستون أدق ملاحظات
قرأتها » *

وأبحر لفنجستون من كويلمان Quilimane الى أرض الوطن ، وكان

شغوفاً لرؤية زوجته وأطفاله مرة ثانية ، لأنه كان قد غادر إنجلترا منذ خمسة عشر عاماً مضت ، فكان قد رحل منها مغامراً وعاد إليها ليجد نفسه بطلاً قومياً ، ومع ذلك فلم يغيره النجاح الذي حققه • وبعد ثمانية عشر شهراً من التمجيل Laudation ، كتب السير رودريك مارشيزون Sir Roderick Muchison رئيس الجمعية الجغرافية الملكية يقول ما نصه : « بعد كل مظاهر التشريف التي أضفتها عليه الجامعات والمدن ، فإنه لا يزال الرجل الأمين الوفي دافيد لفنجستون ، بعد عودته من أحراش افريقيا » •

وخلال هذه الفترة التي قضاه دافيد لفنجستون في أرض الوطن ، كتب أول كتاب من كتبه الثلاثة ، وهو بعنوان Missionary travels وبالمثل كان الكتاب الثانى من الكتابين الآخرين بعنوان الزمبيزى وروافده The Zambesi and its tributaries ، وكان الثالث بعنوان last journal الذى نشر بعد وفاته ، وقد أدمج Packed ، مع معلومات جغرافية علمية قيمة ، وقد وصف لفنجستون بجدية في هذه الكتب افريقيا وشعبها الذى أحبه كثيراً •

وقبل أن يرحل الى افريقيا للمرة الثانية عام ١٨٥٨ م ، كان لديه حماس في ترغيب المبشرين من الشباب كي يلحقوا به في محاولته فتح طريق للتجارة ونشر المسيحية • وقد عاد لفنجستون هذه المرة الى افريقيا ، وهو تحت رعاية الحكومة البريطانية كقنصل لبريطانيا في بلدة كويلمن ، وزود بالتعليمات الخاصة بكشف وادى الزمبيزى والوقوف على امكانيات استعماله كطريق عام High way • وفي هذا الوقت أحضر مصحبته مساعدين أوروبيين كان من بينهم شقيقه ، وطبيب شاب ، وعالم في علم النبات Botanist ، يدعى جون كيرك John Kirk ، الذى لعب فيما بعد دوراً حيوياً في القضاء على تجارة الرقيق ، التى كان يقوم بها العرب ويعبارته :

Abotanist named john kirk who was later to play a vital part in the suppression of the Arab slave trade.

وقد استغرقت بعثة الزمبيزى خمس سنوات تعرض لفنجستون خلالها لأقصى المتاعب ، وعلى الرغم من ذلك كانت البعثة تبدو ظاهريا على أنها تسير سيرا طبيعيا . وفى تيت Tete أعد لفنجستون مقرا لبعثته ، وكتب أحد مساعديه يقول ما نصه : « استقبل لفنجستون بحفاوة تذهل العقل من جانب أتباعه من شعب الماكولولو ، حيث اندفع الرجال منهم بحماس شديد فى الماء وغاصت أجسامهم حتى الأعناق ، كى يروا أباهم الأبيض ، ومسكوا بمركب لفنجستون حتى كادوا أن يقلبوه ، وحملوا الدكتور لفنجستون الى الشاطئ وهم يرددون الأغاني طوال الوقت لأن والدهم (لفنجستون) لا يزال عائثا لهم للمرة الثانية » . وفى أثناء هذه الرحلة حفظ لفنجستون وعده بترك أفراد الماكولولو ، كى يعودوا الى قبيلتهم . مع أنه جاءت لحظات رغب فيها بشدة ، الأبقاء عليهم معه لو كان ذلك ممكنا .

وعلى الفور بدأت متاعب لفنجستون ، فقد كان البرتغاليون الرسميون أول الأمر اصدقاء له ، ولكن لم يمض وقت طويل حتى أن كثيرا منهم بسبب الربح انغمس فى تجارة الرقيق ، وعندما تحقق من ذلك لام البرتغاليين بلهجة عنيفة . كما تحدث أيضا مع مساعديه الذين طلب منهم اللطاعة العمياء unquestioning obedience وأن يكون لديهم قوة احتمال وعدم اكتراث بالمرض وأن يكونوا أقوىاء ومن سوء حظ بعثة لفنجستون أن نشب صراع بين أفرادها ، وفى أغلب الظن كان هذا الصراع ينشأ بين القائد (لفنجستون) وأتباعه ، وكان أخوه المحرك الرئيسى لهذه المصراعات . وكان كيرك من بين أفراد البعثة ، الذى يشبه لفنجستون فى صفاته . وعلى الرغم من إخلاصه الى الرجل الذى يكبره سنا (لفنجستون) الا أنه كان مدركا لفشله . وكان كيرك يدرك تماما أن السبب فى ذلك يرجع الى سنوات العزلة والوحدة التى كانت قد القت بثقلها على مزاج لفنجستون ، هذا فضلا عن ضعف قوته ، فالدكتور الذى كان سعيدا ومتساهلا مع كل الأفرقة أصبح فى ذلك الوقت عنيقا stiff عديم الصبر ، مع الأوربيين ، وكان فى بعض الأحيان مهموما وشارد الفكر ،

ويرجع السبب في حزنه إلى موت زوجته التي ماتت بمرض الحمى عام ١٨٦٢ م وكانت زوجته من ضمن أفراد البعثة ، وكان موتها بمثابة كارثة بالنسبة للفنجستون ، بل وكان ضربة قاصمة لكل أفراد البعثة لأن رجاحة عقلها وتأثيرها كانا يلفطان من الاختلافات التي تحدث فيما بينهم .

وتراكت أحزان لفنجستون بعد زوجته ، فقد خاب أمله عندما اكتشف أن نهر الزمبيزي غير صالح للملاحة لمسافات طويلة . لذلك لا يمكن استخدامه كطريق عام يوصل لداخل القارة . ولكن على الرغم من ذلك فقد حققت البعثة نتائج ضخمة ، كان منها أن كل من لفنجستون وكيرك كانا أول أوروبيين تطلأ أقدامهما منطقة نيبسالاند (التي تعرف في الوقت الحاضر بملاوى Malawi) ، ومن النتائج أيضا أنه اكتشف بحيرة شيروا Shirwa ، وبحيرة نياسا Nyassa ، التي تعتبر واحدة من أكبر البحيرات الداخلية في إفريقيا ، واكتشف كذلك أراضي جيدة مرتفعة وممتدة لمسافات طويلة ، وهي تتمثل في أراضي الشير Shire High lands ، واقتنع لفنجستون بجودة هذه الأرض وبخاصة إذا استخدمت في زراعة القطن ، الذي سوف يقلل من تجارة الرقيق .

وفي كل مكان ذهب إليه كل من لفنجستون وكيرك كانا يشاهدان أقصى الغارات التي يتعرض لها العبيد . وبالقرب من بحيرة نياسا وجدا الآلاف من الأفريقيين المشردين من الجوع والذين كانوا قد هربوا أمام القبائل القوية التي كانت تقوم بأسرهم ، وبيعهم إلى تجار الرقيق العرب . وكان يشحن من ميناء زنجبار سنويا مالا يقل عن ١٩٠٠٠٠ عبد ، كانوا يجلبون من منطقة نياسا ثم يتجهون بعد ذلك عبر المحيط الهندي إلى أسواق الرقيق في العالم ، وقدر لفنجستون أن العشر فقط من هؤلاء العبيد المأسورين كانوا يصلون إلى الساحل الشرقي أحياء ، وكانت شواطئ البحيرة مغطاة بعظام الموتى . وقد تضمن كتاب لفنجستون ، المعنون بـ الزمبيزي وفروعه The Zambezi and its tributaries تحليلا خطيرا

عن تجارة الرقيق ، لذلك أوصت جمعية منتخبة من مجلس العموم البريطانى

A select committee of the British House of Commons

بأنه مهما كانت التكلفة فإنه من الضرورى ضم زنجبار والأرض الرئيسية المجاورة لها الى بريطانيا ، كما يجب إلغاء الاسترقاق فى شرق افريقيا •

ولم يكن لفنجستون بالطبع الرجل الوحيد الذى دعا لتأسيس مراكز أو محطات مسيحية فى افريقيا • ففى خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر ، بدأ البوير فى الزحيل من جنوب افريقيا الى مسافات بعيدة (صوب الشمال) بسبب التدخل البريطانى ، واندفع المبشرون فى طريقهم نحو الداخل ، ولم يكن هدفهم الأول هو الكشف بل التبشير فكان يوجد من بينهم بعض المبشرين المشهورين •

وقد كشفت قصة شرق افريقيا عن الرحلات التى قام بها اثنان من الألمان الشجعان ، هما جون كراف Johann Ludwig Krapf ، وجوهان ربمان Johann Rebman • وكان كراف ابناً لفلاح ، فقد ولد فى ويرتمبرج Wurttemberg عام ١٨١٠ م ، وكان طفلاً مجللاً عصبى المزاج ، وكثير التأمل ومجد ، وقد كثر معظم وقته فى قراءة الإنجيل • وقد زاد اهتمامه بعد أن قرأ رحلات (جيمس بروس) الكشفية لمنابع النيل • وتسائل بالقول هل يوجد هناك صحراء شاسعة لم تطأها أية قدم أوربية ؟ • واستغرق فى التفكير عندما كان يتفحص خريطة افريقيا الشرقية ، وكان لايزال يتأمل هذه الحقيقة المدهشة فى الوقت الذى كان يستمع فيه الى محاضرة فى مدرسته عن الأعمال التى تقوم بها البعثات التبشيرية فيما وراء البحار ، وفى لحظة عرف كراف الشاب ماذا يريد أن يفعل : أنه سوف يكون رجلاً من رجال التبشير ، فسوف يبشر بالإنجيل فى الحبشة حيث كان بروس يفعل ذلك من قبل • وقد ترك المدرسة ليمارس دراسته فى كلية التبشير ببازل ، وبعد ذلك كان عليه أن يلتحق بفرع الجمعية التبشيرية الكينية فى عدوه فى شمال الحبشة ، وبعد أن أمضى مدة قصيرة فى عدوه رحل الى أقصى الجنوب ليبشر بالمسيحية بين القبائل الوثنية فى شوا Shoa ،

فقد سافر كثيرا الى موطن قبائل الجالا Galla ، واعتقد خطأ أنهم يشغلون جزءا كبيرا من وسط أفريقيا ، وأن بعثته التي سترسل اليهم سوف تكون على درجة كبيرة من الأهمية ، وقد تلاحظ أن قبائل الجالا كانوا متعطسين وأذكاء وأقوياء البنية وفرسان مهرة حتى أن النساء كن يجرين بجوار أو خلف أزواجهن وكتب يقول ما نصه : « لقد ساد الاعتقاد فيما بينهم بأن سير الرجل بجوار المرأة عيبا مهينا » *

وقد كراف بعثته بجهد ونشاط ولكن الشيوخ المحليون ناصبوه العداء * وفي عام ١٨٤٣ م طرد من الوطن ، وغادر اثيوبيا وكان برفقته زوجته الفتاة الألمانية ، والتي كان كراف قد تزوجها في العام السابق ، وكان قد زود بتعليمات تقضى بالذهاب الى زنجبار ، ومن هناك كان عليه أن يقوم بالبحث والوصول الى الأرض الرئيسية التي يمكن اتخاذها كمركز للبعثة * وفي الطريق وضعت زوجته طفلة ، ماتت أثناء الرحلة *

واستقبل كراف وأسرته بالحفاوة من جانب جالية أوربية صغيرة كانت تعيش في زنجبار ، وذهب كراف لمقابلة السلطان (سلطان زنجبار) الذي كان ينحدر من أصل عربي ، والذي كان ثريا بسبب الأرباح التي حققها من تجارة الرقيق التي امتدت الى مسافات بعيدة في المناطق الداخلية من شرق افريقيا * وكان للسلطان الرغبة الكاملة في أن يواصل كراف تقدمه في داخل القارة ، لهذا كتب له تصريحاً على شكل جواز سفر جاء فيه :

« أن هذا (الشخص) قادم من طرف السيد السلطان سعيد : نحياتنا الى كل رعايانا وأصدقائنا ، وحكامنا ، وقد كتب هذا الخطاب من أجل الدكتور كراف الألماني الجنسية ، فهو رجل طبيب يرغب في تحويل العالم الى عبادة الله ، فعاملوه معاملة طيبة وكونوا في خدمته في كل مكان » *

وقد كان لهذا التصريح تأثيره بين قبائل النيكـا Nyika ، والكامبا Kamba اللقائنين في الأرض الداخلية * واستقرت أسرة كراف في جنوب ممبسا * وقد حول كراف القبائل الوثنية الى المسيحية ، وفي الوقت نفسه (م ١٥ — المستكشفون)

درس اللغة السواحيلية واللغات الأفريقية الأخرى • وكان يهدف من وراء ذلك الى اقامة سلسلة من المراكز التبشيرية تقع على خط مستقيم عبر القارة ، ابتداء من الشرق وحتى الغرب •

وكانت ممبسة مكانا غير صحى ، لذا مرضت زوجة كراف وطفله الوليد الجديد وماتا من الحمى ، واقترب هو أيضا من الموت ، ولكن رغم ذلك فلم تثبط عزمته وحماسه Zeal التبشيرى : وفى عام ١٨٤٦ ، سر كثيرا بسبب وصول صديقه العزيز الذى طال توقع وصوله ، وكان هذا الصديق هو جوهان ربمان الذى كان يصغر كراف بعشر سنوات وكان لديه نفس حماس كراف •

وجاء ربمان ، كما جاء من قبله كراف من مقاطعة ويرتمبرج Wurttemberg . وكان قد درس فى كلية جمعية التبشير الكنسية فى لندن ، وفى وقت واحد تقريبا أصيب الرجلان بالحمى ، وعندما شفىا واصلوا السير الى منطقة رابيا Rabia ، وهى منطقة صحية ومرتفعة • وبعد ذلك بدأ الرجلان رحلتهم المدهشة من رابيا حيث ذهبا فى نفس طريق لفنجستون ، أى أنهما كانا يبحثان عن مواقع مناسبة تستخدم كمراكز للبعثة ، وحتى فى زهوة كشوفاتهما فأنهما لم ينسيا أن هدفهما الأول والأخير هو عملهما فى التبشير بالإنجيل •

وفى البداية ، كان على ربمان مواصلة السير وكانت كل أسلحته فى هذه الرحلة الإنجيل والشمسية ، هذا فضلا عن أنه أصطحب معه ثمانية من الحماليين غير المسلحين ، وبعد ذلك انطلق فى الرابع عشر من شهر أكتوبر عام ١٨٤٧ م ، ولم يكن لديه فكرة عن طول المسافة التى يمكنه قطعها ، ولكنه فى خلال خمسة عشرة يوما أمكنه قطع مسافة بلغ طولها مائة ميل ووصل بعدها الى جبل كديارو Mount Kadiaro ، الذى لم يره رجل أبيض من قبل • وبعد خمسة أيام من بداية الرحلة عاد الى رابيا ، وهو يعانى من تقرح وتورم فى أقدامه ، ويخالف ذلك فلم يكن هناك مخاطر تعرضت لها بعثته ،

وفي العام التالي شرع في رحلة أطول ، بل وأكثر مغامرة وخطورة ، وكان ممثل السلطان في هذه المنطقة « حاكم ممبسا » قلقا عندما علم بقدوم بعثة تبشيرية غير مسلحة ، وتخطط للسفر من خلال قطر مسكون بقبائل متوحشة ، بل تعيش فيه الحيوانات المفترسة . وقد حذر حاكم المنطقة ريمان من ذلك ، بقوله : - « لقد حذر هذا الحاكم ريمان من عدم صعود جبل كليمنجارو لأن هذا الجبل تسكنه الأرواح الشريرة ، والناس الذين يتسلقونه يذبحون بواسطة هذه الأرواح ، هذا فضلا عن أن أقدامهم وأيديهم تتصلب ، بل وتذر مساحيق أجسامهم في النار وسوف يحل بهم كل أنواع المصائب » .

ولقد كان هذا التحذير محيرا بحيث جعل ريمان يصمم على أن يقف على حقيقة ما يعنيه ، وفي السابع والعشرين من شهر إبريل عام ١٨٤٨ م ، غادر ريمان منطقة رابيا ، وكان برفقته ثمانية من الحماليين ومرشد ، هذا فضلا عن الإنجيل الذي كان لا يفارقه ، وكذلك الشمسية . وهذا الوقت كان يوافق فصل الأمطار ، ومع ذلك وبرغم هطول الأمطار الشديدة ، إلا أنه عبر منطقة جبال كديارو ، وفي خلال عشرة أيام عبر وطن الجاجا Jagga ، الذي يقع حول السفوح المنخفضة لجبال الكليمنجارو . وقد تعجب ريمان من المناظر الطبيعية الخلابة وتعجب من الجبال المتنوعة وتلالها ووديانها التي غطتها النباتات الكثيفة ، وواصل تعجبه بقوله : « أننى أتصور نفسى على جبال الجورا Jura Mountains ، القرية من بازل والواقعة في منطقة حول كانستات Cannstatt مسقط رأسه » .

وفي هذا الوقت وضحت علامات الإضطراب على الدليل الذى قال ما نصه : « أنتم هنا بدون أى شيء عدا الشمسية » وأضاف يشكو « في الوقت الذى كانت البعثة تعسكر فيه تحت شجرة كنا في حاجة الى خمسمائة بندقية لأن الخطر يكمن أساسا في تلك المنطقة التى نعسكر فيها الآن ، حيث أن هذه المنطقة التى عسكرنا فيها هى إحدى المناطق الرئيسية التى تتعرض للنهب من جانب قبائل الكوافى ، ومع ذلك كان ريمان يؤمن

بالقضاء والقدر fatalistic ، ثم أجاب بقوله : أن هذا من أمر الله ، وبعد ذلك ، انتحى ربمان جانباً وأخذ يقرأ في الإنجيل •

ويمثل يوم الحادى عشر من نفس الشهر من عام ١٨٤٨ م ، تاريخ أكبر كشف انجزه ربمان • غفى صباح هذا اليوم شاهد جبال شاجا Chagga ، أكثر وضوحاً من ذى قبل ، «حيث قال غفى حوالى الساعة العاشرة تخيلت أننى رأيت أحد قمم هذه الجبال مغطاة بسحب بيضاء تثير الحيرة • وكان دليلى قد أطلق على هذه القمم البيضاء التى شاهدها البعثة اسم (Cold Beredi أى بارد) ، ولقد كانت واضحة تماماً بالنسبة لنا ، ومع ذلك فأنه يبدو أنها لا تعدو أن تكون ثلوجاً » •

ولهذا فأن هذا المبشر التقى الذى لا يشاركه أحد الرأى ، أصبح الرجل الأبيض الأول الذى يرى قمة جبل كيبو الثلجية The snowy dome of kibo وهى أعلى قمة فى جبل كليمنجارو • وكان هذا الكشف بالنسبة له يعتبر واحداً من بين المظاهر الكثيرة التى من الله بها على الإنسان • ويقول ربمان أنه بعد أن جلس للراحة تحت شجرة أخذ يقرأ فى إنجيل باللغة الإنجليزية ، فى الفصل رقم CXI th psalm وهى النقطة التى وصل إليها فى قراءته فى نفس هذا الفصل • وقد ورد بالسطر السادس من نفس الفصل النص التالى « أن قوة شعبه تتمثل فى قوة أعماله ، وأنه سوف يعطيهم ميراث الوثنية » ويبدو من الملائم تماماً فى هذه المناسبة التفكير فى المنظر العظيم لقمة الجبل الثلجية • والشئ الذى لم يتمكن ربمان من معرفته أصبح الآن يعرفه ، فقد فهم مغزى تحذير الحاكم : وهو أن الذين حاولوا أن يتسلقوا الجبل قد قتلوا ليس بواسطة الأرواح الشريرة ، ولكن بواسطة البرد القارس ، وأما الشئ الذى لم يتمكن من معرفته هو أن اكتشافه للجبل الثلجى الموجود فى خط الاستواء ، سوف يشعل فى الحال شرارة الجدل الحاد • وفى انجلترا سخر المستر ديبورج كولى Desborough Cooly ، وهو أحد أعضاء الجمعية الجغرافية الملكية The Royal Geographical Society من تقرير ربمان فقال ما نصه :

« أن هذا التقرير يمثل أحد شطحات الخيال العقلي المبهرة ، لدى ربمان بحيث لا يؤيد ما ذكر بأى دليل محسوس ، بل وكذب المستر ديبورج أيضا الادعاء القائل بأن الرجال قد ماتوا من البرد ، وأعتقد بأن هذا لا يعدو أن يكون قصة تحكى بجوار موقد للنار » •

ومكث ربمان فى المنطقة مدة كافية كى يعالج أقدامه الممزقة ، فضلا عن قيامه بتقديم الوعظ للوطنيين مستخدما فى ذلك تفسير العشيذة • (المسيحية) وبعد ذلك واصل طريقه الى جبل كديارو Kediara. M. ومن هناك عاد الى رابيا مستخدما طريقا يتجه كثيرا الى الجنوب •

وفى نوفمبر من نفس العام استخدم مرة ثانية طريق شاجا Chagga وفى تلك الوقت سمع ربمان عن وجود منطقة مائية واسعة تقع فيما وراء جبل الكليمنجارو ، وعلى مسافة بعيدة من موطن قبائل الإنيمويزى Unyomavezi (التى تعرف فى الوقت الحاضر بـتنزانيا) ويمثل هذا البحر الداخلى بحيرة تنجانيقا ، وسوف يكون من الواضح أن هذه البحيرة ستكون ذات أهمية جغرافية عظيمة ، وتشير تقارير المبشرين الى الأهمية العظيمة فى فتح هذا القطر أمام المحاولات المسيحية • وقد حاول ربمان ولكنه فشل فى الوصول الى البحيرة ، وعاد الى رابيا بشق الأنفس ، وكان فى الوقت نفسه على هيئة هيك عظمى متحرك بحيث أنهكته الحمى والجوع والتعب الشديد •

ولم يقيم ربمان برحلات أبعد من ذلك ، بل فضل البقاء فى مركز البعثة ، يمارس الوعظ والأرشاد وترجمة الإنجيل • وهنا يجيء دور كراف ، ففى عام ١٨٤٩ ، وبعد الدراسة الأولية لسفوح جبال أورامبارا Usambara Mountains ، التى تقع فى الجنوب الغربى من ممبسا ، قام برحلة كان الهدف منها هو البحث عن مواقع تستخدم كمراكز للبعثة ، ثم عاد بعد ذلك الى الشمال الغربى متقبلا طريق ربمان حتى أصبح جبل كليمنجارو على مرمى بصره • وقد عرف من رجال القبائل أنه على الرغم من أن الكثير

من الرجال قد هلكوا على الجبل ، الا أن عددا قليلا منهم قد نجح في جمع بعض المواد قريبة الشبه من الفضة ، والتي عندها وضعت في زجاجات تحولت الى مياه عادية ، ويقول كراف « أن بعض هؤلاء الذين ظلوا على قيد الحياة عادوا بأطراف متجمدة ، حيث وصفها الجهلاء بأنها من تأثير الأرواح الشريرة » وأضاف يقول « لقد أثار المستر كولى نقاشا يعارض فيه وجود مثل هذا الجبل الثلجى ، بل ويعارض فيه تقرير ربمان ، ولكن هذا النقاش تحول الى لا شيء ، وبخاصة عندما يشاهد الشخص بعينه حقيقة لم يرها غيره من قبل » •

ونظرا للاقتناع الكلى بصحة تقرير ربمان اندفع كراف تجاه الشمال الغربى في داخل موطن شعب الواكмба Wakamba ، الذى يعرف في الوقت الحاضر بكينيا ، ووصل كراف الى كيتوى Kitui في نهاية نوفمبر ، وهناك علم من الرئيس كيفوى Kivoi حاكم تلك المنطقة — والذى قام بنفسه بزيارة منطقة شاجا Chagga ، وشاهد جبال الكليمنجارو — بأنه يوجد جبل آخر تغطى الثلوج قمته ، وتستغرق الرحلة اليه من كيتوى ستة أيام ، وسمى هذا الجبل بأسم كجنيا Kegnia ، ونصحه كيفوى أن يتسلك المثل الذى يشرف على القرية وقال ما نصه « لو كانت السماء صافية فسوف تتمكن من رؤية الجبل » ولكن في ذلك الوقت اختفى الجبل ، لأن هذا الوقت كان يصادف فصل المطر • ولكن في الثالث من شهر ديسمبر عام ١٨٤٩ م ، وعندما كان كراف يغادر منطقة كيتوى ، قال ما نصه : « انقشعت فجأة السحب الممطرة ، واستطعت أن أرى منطقة كجنيا Kegnia بوضوح جدا ، ولاحظت وجود بروتزين كبيرين ، أو عمودين كما لو كانا يرتفعان فوق جبل ضخم يقع في الشمال الغربى من كليمنجارو ، ومغطيين بمادة بيضاء (الثلوج بالطبع) •

ومن أجل هذا ، فقد أنضم كراف الى زمرة المكتشفين العظماء ، وكرمه ألمانيا بمنحه الميدالية الذهبية ، وأهدت فرنسا كل من الرجلين الميدالية الفضية ، وعندما زار كراف انجلترا حاول أن يلفت نظر الجمعية التبشيرية الكنسية الى مشروعه الخاص بأقامة سلسلة من المراكز الخاصة

بالبعثات عبر إفريقيا ، ولكن في الواقع لم تلق اكتشافاته التأييد الكافي ، بل اهتمت واستقبل الأمير كونسورت Consort كراف ، ولكنه رغم ذلك لم يكافأه رسميا ، على الرغم مما أضافه الى اكتشافاته السابقة ، فكان قد اكتشف جبل كينيا عن طريق مسح كل الساحل ، ابتداء من ممبسا وحتى رأس دلجادو الواقعة على حدود موزمبيق • ومع ذلك فلم يتأكد كشف جبل الكليمنجارو الا في عام ١٨٦١ م ، وذلك عن طريق مكتشف ألماني يدعى ك. ك. فون دير ديكن K. K. Von der Decken ، الذي قام بزيارة هذه المنطقة مرتين • وفي الزيارة الثانية تسلق الجبل حتى ارتفاع يصل الى ١٤٠٠٠ ألف قدم ، ولكنه فشل في الوصول الى خط الثلوج • وبعد ذلك بأربع سنوات انطلق تجاه جبل كينيا متتبعا مجرى نهر جوبا River Juba ، ولكنه طعن بحربة أودت بحياته في مدينة بربرة التي تعرف بأنها إحدى مدن جمهورية الصومال •

وقدم مبشر آخر يدعى إرهاردت J. J. Erhardt مساعدة الى كراف ، تمثلت في مسح لهذه المنطقة ، وكان إرهاردت هذا زميلا لكراف ، لهذا كان قد انضم الى مركز بعثة كراف في رابيا عام ١٨٤٩ م ، ورسم إرهاردت خريطة للمنطقة الواقعة بين الساحل وبين البحر الداخلي الواسع والواقع في الأنيا مويزي Unyamwezi ، التي برهنت على قيمتها الكبيرة بالنسبة للمكتشفين فيما بعد • وقد واصل إرهاردت رحلاته العديدة في الداخل ، لكن كراف قام بمفرده برحلة كشفية أخرى ذات أهمية ، ففي يوليو عام ١٨٥١ م ، غادر كراف رابيا ومعه تصريح كي يقوم بتأسيس مركز جديد في الأرض الجبلية في كامبا ، الواقعة الى الشمال من طريق ربمان الأصلي ، والذي يوصل الى كليمنجارو ، وفي كيتوي انضم اليه الرئيس كيفوي ومعه عدد من رجاله • وقد تعرضت قافلتهما للهجوم من جانب قطاع الطرق Bandist المسلحين بالأتواس Bows ، والسهام Arrows ، وقتل كيفوي وهربت جماعته • وفي هذه المناسبة كان كراف يحمل معه بندقية فضلا عن شمسية ، ولكنه لم يستطع أن يفعل شيئا أكثر من أنه أطلق النيران في الهواء • وبعد ذلك

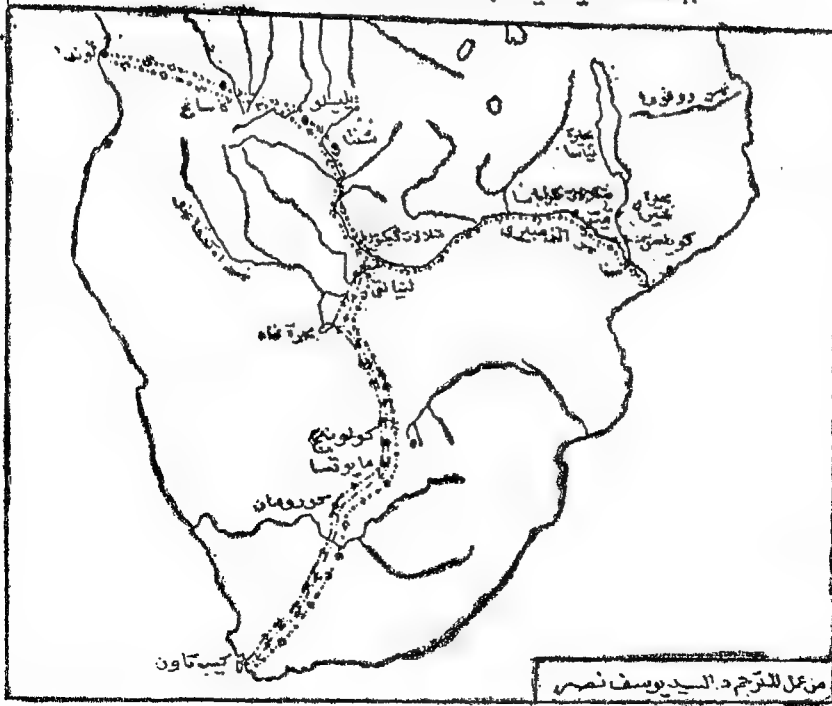
هرب كراف الى أحد الملاجئ ، وتؤكد أنه لا يستطيع أن يبعد أكثر عن نهر تانا Tana . وقد وجد هذا النهر بطريقة عرضية ، ولم يكن مدفوعا في ذلك بفضوله الجغرافى ، ولكن برغبته الملحة في الماء لعطشه الشديد .

وعاد كراف الى وطنه الأصلى (ألمانيا) وهو في حالة صحية متدهورة وهناك شفى جزئيا ، ومع ذلك فإنه تزوج للمرة الثانية واستقر في موطنه ، وكرس جهده في ترجمة الكتاب المقدس الى اللغات الأفريقية . وعاد الى افريقيا مرات عديدة فزار رابيا حيث كان هناك ربمان وحيدا في ذلك الوقت ، وكان قد أصابه العمى تقريبا ، ومع ذلك كان ربمان لا يزال يواصل العمل كسابق عهده ، وظل هذا الرجل الشجاع في افريقيا بدون انقطاع ، ولو مرة واحدة لما يقرب من ثلاثين عاما . وبعد ذلك عاد ربمان الى ويرتمبرج Wurttemberg بألمانيا عام ١٨٧٥ م ، ومات بعد ذلك بشهور قليلة بالمقرب من منزل صديقه العزيز في العمل كراف ، الذى ظل على قيد الحياة بعده لمدة خمس سنوات .



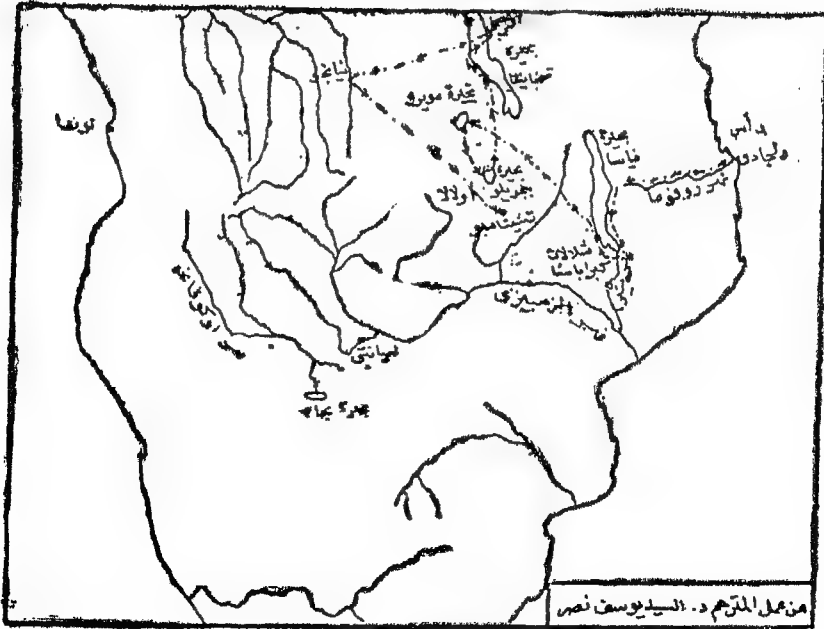
صورة المفامر الاستعماري دافيد ليفنجستون الذي جاء الى جنوب افريقيا
عام ١٨٤١ ليكتشف منابع نهر الزمبيزي . من اعداد المرحوم .

الخريطة رقم ١٣ والخاصة
ببعثة دافيد ليفنجستون الأولى ١٨٤١م



بدأ دافيد ليفنجستون رحلته عام ١٨٤١ من كيب تاون ، واتجه بعد ذلك شمالا الى كورومان ، ومنها اتجه شمالا أيضا الى مابوتسا ، ومنها الى كولونج ، ثم وصل الى بحيرة نجامي . وبعد ذلك وصل الى لنيانتي ، ثم عاد عام ١٨٥٢ الى كيب تاون ، ومنها رحل ثانية الى الشمال مارا بنفس المناطق التي مر من خلالها . وعند لنيانتي عبر نهر الزمبيزي واتجه الى الشمال الغربي ، فمر بقرية شنتا وبحيرة ديليلو وقرية كاسانج ، وأخيرا وصل الى لواندا . وبعد ذلك عاد في اتجاه الشرق فمر بشلالات فيكتوريا وكبراباسا وببلدة تيت المستعمرة البرتغالية ، ومنها وصل الى بلدة سنا ، وأخيرا وصل الى كويلمن الواقعة على ساحل المحيط الهندي الغربي . واستغرقت هذه الرحلة عاما واحدا ، وقد قطع ليفنجستون أثناءها مسافة طولها ٦٠٠٠ ميل .

الخريطة رقم ١٤. والخاصة
ببعثة د. ألفريد فرنجستون عام ١٨٦٦



بدأ لفنجستون رحلته الثانية من رأس دلجادو وسار مع نهر روفوما ، فوصل الى بحيرة نياسا ولكنه تعثر في عبورها فاتجه جنوبا وواصل المسير بجوار شاطئها الغربى حتى وصل الى بحيرة مويرو ، ومنها اتجه جنوبا الى بحيرة بنجويلو . وبعد ذلك اتجه لفنجستون شمالا وسار مع الساحل الغربى لبحيرة تنجانيقا ، ثم عبرها بصعوبة ووصل الى بلدة أوجيجي ، وهناك اشيع عن موته . وبعد ذلك عبر بحيرة تنجانيقا ووصل الى بلدة نيانجو الواقعة على نهر لولابا ، ومنها اتجه الى جهة الجنوب الشرقى فوصل الى قرية تشيتامبو الواقعة في منطقة اولالا حيث مات في هذه القرية عام ١٨٧٣ م .

التعليق على الفصل (٧)

أشارت المؤلفة في هذا الفصل الى عدد من الموضوعات الهامة ، تناولت البعض منها بأستفاضة ، وأهملت البعض الآخر ، بحيث لم تعطيها قدرها من التفسير والتوضيح . لذا رأيت ، أنه من الضروري توضيح هذه الموضوعات حتى تكون الصورة كاملة أمام القارئ العربي ، الذي يرغب في معرفة تاريخ كئشف افريقيا . ومما لا شك فيه أن هذا العمل من جانب المؤلفة يعد قصورا ، ربما لاعتقادها بأن هذه النقاط التي سوف نشير اليها بعد قليل غير هامة ، وربما لاعتقادها بعدم وجود مجال لدراسة هذه النقاط .

فمن الموضوعات الهامة التي ذكرتها المؤلفة والتي لم تتناولها بشيء من التفصيل حتى تتضح الرؤية أمام القارئ ، عدداً من الموضوعات منها شرق افريقيا ، وقبائل اليوشمن ، والهوتنتوت ، والباننتو ، والمساى ، والبوير ، وروبرت موفات وغيرها . لذا كان من الضروري تناول هذه العناصر بشيء من التفصيل كل على حدة .

ومن الواضح أن شرق افريقيا ، يمثل أقطار كل من كينيا Kenya وتنزانيا Tanzania ، وأوغندا Uganda ، بل وأن هذه المنطقة تمثل هضبة شرق افريقيا ، التي يبلغ ارتفاعها ٣٠٠٠ قدم أو أكثر عن مستوى سطح البحر ، وتضم هذه الهضبة جبال روينزورى Ruwenzoris ، التي توجد في الشمال الغربي من أوغندا ، وجبال القمر المغطاة بالضباب ، والتي يبلغ ارتفاعها ١٦٧٦٣ قدما ، وجبل كينيا الذي يبلغ ارتفاعه ١٧٠٥٨ قدما ، والذي يقع على مسافة أميال قليلة من خط الاستواء ، وهو مغطى أيضا بالجليد . والى الجنوب من جبل كينيا يوجد جبل كليمنجارو Kilimangaro ، الذي يبلغ ارتفاعه ١٩٣٣١ قدما وهو أعلى نقطة في قارة افريقيا ، وجبل مير Meru الذي يبلغ ارتفاعه ١٤٩٧٩ قدما ، وجبال أبردار Aberdares ،

التي يبلغ ارتفاعها ١٢,٠٠٠ قدم وجبل الجون Elgon الذي يبلغ ارتفاعه ١٤,١٧٨ قدما *

وفي شرق افريقيا أيضا توجد مظاهر جغرافية متميزة ، نذكر منها على سبيل المثال بحيرة فيكتوريا ، الواقعة في أوغندا ، والتي تعتبر ثاني أكبر بحيرة داخلية في العالم • ومن هذه البحيرة يخرج أطول نهر في العالم (نهر النيل) الذي يبدأ جريانه من أوغندا وحتى البحر المتوسط ، والذي كان له أكبر الأثر في وجود الحضارة المصرية القديمة ، حتى أن أحد الكتاب الأجانب قال في هذا الصدد : أن نهر النيل خلق مصر ، وبعبارة :
 «The River Nile made Egypt»(1).

والى الشرق من هذه المنطقة توجد صحراء كالاهاى التي يقطنها شعب البوشمن ، الذى لم تتعرض المؤلف له بشيء من التعريف ، ولكن يقول سلجمان أن البوشمن قد وصلوا من الشمال الى موطنهم الحالى في جنوب افريقيا ، أذن من المحتمل أن يكن أسلافهم قد استوطنوا الشطر الأكبر من المناطق الاستوائية في شرق افريقيا ووسطها الشرقى ، ويؤيد هذا الرأى اكتشاف ما تركه البوشمن في تنجانيقا ، بل وفي أوغندا وجنوب السودان من رسومات على الصخور ، ومن بقايا لحيات أجسام بل وأسماء لبعض الأماكن • وينقسم البوشمن الى ثلاثة مجموعات رئيسية هى على النحو التالى : المجموعة الجنوبية ، والوسطى والشمالية ، وتتألف كل منها من عدد من القبائل المنفصلة ، لكل منها لغتها الخاصة وأسمها الخاص •

وكانت المجموعة الجنوبية تحتل فيما مضى مستعمرة الكاب ، وهى في حكم المنقرضة ، وأما المجموعة الشمالية فتتركز في الشمال الشرقى

(1) Derek Town Send : Kenya Uganda, and Tanzania. London. 1969. pp. 7,9.

(*) أوغندا تعنى هنا كل منطقة شرق في افريقيا في ذلك الوقت .

من افريقيا الجنوبية ، وتعيش المجموعة الوسطى في صحراء كالاهارى • ويعتبر التنظيم الاجتماعى والطابع الثقافى للبوشمن بدائيا للغاية ، فهم يعيشون في جماعات صغيرة ، تتكون الواحدة منها في العادة من عدد يتراوح فيما بين ٥٠ ، ١٠٠ شخص ، وقد يرتبط عدد من هذه الجماعات برابطة اللغة في الاسم فتكون قبيلة (٢) •

ويعيش البوشمن في صحراء كالاهارى في جنوب افريقيا ، فكانوا قد عاشوا فترة زمنية من قبل في الجنوب ، في أراضي خصبة وعشبية حيث يوجد الماء والصيد بوفرة ، فعاشوا حياة سعيدة قائمة على الصيد ، ورسم الصور الجميلة للحيوانات ، ولأنفسهم على الصخور ، وعلى جدران الكهوف ، ولازال البعض من هذه الرسومات موجودا ، بحيث يمكن قراءة القصص التى تحكى لنا تاريخ البوشمن •

وأخيرا تعرض البوشمن لحرق القبائل القاطنة في الأجزاء الشمالية من افريقيا ، وفي الوقت نفسه تعرضوا من جهة الجنوب لحرق البيض القادمين من أوروبا ، الذين قدموا لى يقوموا بتأسيس المنازل وزراعة الأرض ، عندئذ اضطر البوشمن لمغادرة ديارهم حيث نشئت البعض منهم ، واستقر البعض الآخر في صحراء كالاهارى التى لا يقطنها غيرهم ، لأنهم أرادوا العيش في أمان ، مع أنهم كانوا يعيشون بلا مأوى ، فيكتفون بالعيش على الصيد وتناول جذور النباتات الصحراوية ، وكانوا يبنون منازلهم من الأعشاب ، وأغصان الأشجار ، وهم عراة تماما باستثناء ستر عورتهم ، كما أنهم يعملون طويلا بسب الحياة البسيطة التى يعيشونها ، فلا يوجد ما يبعثر صفوهم ، فهم يكتفون بالقليل من الغذاء •

ويسمون أولادهم بأسماء مألوغة تتعلق بحياتهم المعيشية مثل نيوز

(٢) سلجمان . س . ج : السلالات البشرية في افريقيا ، ترجمة يوسف خليل ، مراجعة د. محمد محمود الصياد ، القاهرة ، ١٩٥٩ م . ص ص ٢١ - ٢٤ .

Nuse وتعني بيضة النعامة ، فعندما يولد الطفل لم يكن له شعر ، فيعتقد أبأوه بأن رأسه تشبه البيضة ، ومثل نوكسو Nxou ، ويعني هذا الأسم وعاء الطعام . (3) «Nxou's name means bowl of food»

وأما الهوتنتوت فيقترن أسمهم دائما بأسم البوشمن ، ويشبهونهم شكلا وثقافة ، مع أنهم تأثروا بعناصر ودماء غربية عنهم ، بينما ظل البوشمن يحيون حياة الصيد ، والعزلة مفضلين ذلك عن اختلاطهم بغيرهم ، وقد أدى ذلك الى أن تظل سلالتهم شقية بحيث لم تتسرب اليها دماء أجنبية ، ويتميز الهوتنتوت بالقامة الطويلة الى حد ما ، وكانت الصفات الزنجية أكثر ظهورا مما هي عليه عند البوشمن ، كما أن رؤوسهم أكثر استطالة . ويرى سلجمان أن الهوتنتوت قد اختلطوا في الوطن الأصلي بعناصر حامية . وكان لهذا الاختلاط أثره الثقافي أيضا في اكتساب لغتهم خصائص مشتقة من لغات الحاميين ، مع أن اللغة بقيت من أسرة لغات البوشمن ذات الطقات ، ويرى سلجمان أن ذلك الوطن الأصلي يقع في منطقة البحيرات .

ويبدو أن هجرة الهوتنتوت نحو الجنوب جاءت متأخرة عن هجرة البوشمن ، وقد اتخذوا طريقا أبعد الى الغرب ، فأخترقوا أعالي نهر الزمبيزي ووصلوا الى السواحل الغربى للقارة ، ثم انحدروا بعد ذلك جنوبا الى منطقة الرأس ، وبذلك يكونوا أول الوطنيين الذين صادفهم المستعمرون الأوروبيون عندما نزلوا بتلك المنطقة .

وأما التوزيع القديم للهوتنتوت فكان يشمل الأطراف الجنوبية الغربية لمصب نهر كونين Kunene ، حيث استوطنوا المنطقة الواقعة جهة الشمال من شبه جزيرة الكاب ، وتوسعوا في استيطانهم شرقا ، حتى وصلوا الى نهر كاي ، أما في الوقت الحاضر فيوجد هناك بقايا موزعة في أطراف هذا

(3) Carol Morse Perkins and Markin : I saw you from a far. London, 1966. pp. 3 - 4.

الموطن الكبير ، وأما الجماعات المنظمة نوعا ما ، فأنها منحصرة في إقليم محدود من افريقيا الجنوبية الغربية ، حيث تقطن المنطقة الواقعة الى الشمال من نهر الأورانج ، وهذا يدل على ما كان للهجرة الأوروبية من أثر في تضيق الخناق عليهم وزحزحتهم عن أوطانهم •

وينقسم الهوتنتوت الى عدد من الجماعات منها ، النامان ، والكورانا ، والجوناكوا • وكان سكان منطقة الرأس الذين يعيشون اليوم في الجنوب الغربى من أفريقيا من جماعة نامان (٤) •

والى جانب شعب الهوتنتوت يوجد شعب البانتو ، الذى يكون أوفر عددا من الزوج والأقزام والبوشمن والهوتنتوت • والبانتو كلمة أفريقية معناها الشعب ، وويستخدمها الأوروبيون في وصف جماعة ضخمة من القبائل ، مثل الزولو التى يتفرع منها المتابيلى والأنجوى والبشوانا والمباسوتو ، والكيكويو ، ويتحدث البانتو فيما بينهم حوالى ٢٦٠ لغة مختلفة • وهم خليط من المسيحيين والمسلمين والوثنيين •

ولا يزال البانتو يقطنون أجزاء كثيرة من أفريقيا الشرقية ، فهم زراعيون ورعاة ، فعلى الماشية تقوم الحياة القبلية ، فهى لا تهى لهم سبل العيش فحسب ، بل أنها تكسبهم مركزا في القبيلة ، وغالبا ما تكون وسيلة للحصول على الزوجة ، وطبقا لقانون البانتو فالرجل الحق في الاحتفاظ لنفسه بأى عدد من الزوجات (٥) شأنهم في ذلك شأن أية قبيلة افريقية أو شعب افريقى •

وينقسم البانتو الى جماعات على أساس التوزيع الجغرافى ،

(٤) د. محمد عوض محمد : الشعوب والسلالات الافريقية ، الجيزة ، ١٩٦٥ . ص ٣٧ — ٣٨ .

(٥) كاثارين سافيدج ، ترجمة د. راشد البراوى . قصة افريقيا جنوب الصحراء الكبرى ، القاهرة ، ١٩٦٣ . ص ٣٣ .

فالبانتو الشرقيون ينتشرون من أوغندا شمالا ، وحتى كينيا ، وتتنافيا ، وروديسيا الشمالية ، ونياسا ، وأفريقيا الشرقية البرتغالية ، (في الماضي) وحتى شمال نهر الزمبيزي جنوبا . وأما البانتو الجنوبيون فيعيشون جنوبي نهري الزمبيزي وكونين وتمثل هذه المنطقة اقليما واسعا يشتمل على شمال غربي روديسيا والأخدود الأفريقي ، هذا فضلا عن انتشارهم في شمال غرب القارة وحتى غرب افريقيا والكاميرون الجنوبي (٦) .

وأما المساي فيعتقد الكثير من الناس أنهم قبيلة رومانسية ، وتعيش هذه القبيلة في شرق افريقيا ، وتمتلك مساحة قليلة من الأرض، كما أنها تعيش في أمن على طول الأخدود الأفريقي العظيم The Great Rift Valley الذي يمر من خلال تنزانيا وكينيا ، فهم لا يصيدون الحيوانات بالمرء أو يزرعون الحبوب ، ولكنهم يعيشون على اللبن والدم الذي يحصلون عليه من رقاب الأبقار الحية ، بحيث يمر من خلال غابة من البوص ويشربونه وهو دافئ . وهذا الغذاء جعل المساي معروفين بالقوة (٧) .

ويتميز رجال المساي بطول القامة والنفحالة ، مع وجود ملامح لطيفة ، ويتميزون أيضا ، بالأنوف المستقيمة ، ويرتدون ملابس برتقالية براقية ، ويلبسون في آذانهم حلقات معدنية لامعة ، ويصبغون شعورهم بصبغة حمراء ، وهم دائما يحملون الحراب . ويلبسن النساء عقودا من الخرز بل ويلبسن أيضا في أذرعتهن أساور معدنية ، وفي أرجلهن يلبسن الخلاخيل المعدنية ، وهذه الأشياء كانت مألوفة بالنسبة للنساء وللرجال على حد سواء (٨) .

ويربى شعب المساي الأبقار التي تعتبر بحق المصدر الرئيسي للغذاء ، كما يربون الغنم والماعز ، ويأكل المقاتلون منهم اللحم في الغابة ، لأنه

(٦) سلجمان . س . ج . ترجمة يوسف خليل ، المصدر السابق .

ص ١٦٣ .

(8) Derek Townsend : Ibid. p. 18.

(م ١٦ — المستكشفون)

ممنوعا بالنسبة لهم ، والدليل على ذلك أنهم يركزون على تناول اللبن والدم ، اللذين يحصلان عليهما من الأبقار . ومن عاداتهم أن النساء يقمن ببناء المنازل ، وهن يرتدين الملابس ويتزين بكمية هائلة من الحلقات المعدنية ، بحيث تغطي قصبه الرجل والرقبة ، كما تغطي العقود الرقبة والصدر ويصفن أيضا الأصداف في الشعر للزينة (٩) .

وأما عن المساكن ، فكانت عبارة عن منازل تبنى من الأغصان والأعشاب . فكان المنزل الواحد يبنى على مساحة كبيرة من الأرض ، تتوسطها حظيرة للماشية في شكل دائرة ، فكان يخصص نصفها للماشية ، والربع الثالث لأبناء الماشية ، (العجول) والربع الأخير للأغنام . ومن حول الحظيرة كانت تقام الأكواخ للرجل ، ولنسائه ، وأبنائه وزوجاتهم ، بحيث يخصص لكل زوجة كوخ ، وإذا كان للرجل أخوة متزوجين فأن المنزل في هذه الحالة تزداد عدد أكواخه ، فتبلغ ما بين ٣٠ ، ٤٠ كوخا (١٠) .

وهذا عن المظاهر الطبيعية ، والشعوب التي تقطن منطقة شرق إفريقيا ، ولكن بقى لى أن أعرض لأهمية ساحل هذه المنطقة . ترجع أهمية هذا الساحل الى أنه كان مرسى لكل سفن العالم عبر العصور ، حيث كانت هذه السفن تأتي اليه من الهند ، والخليج العربى ، والصين والملايو في كل فصول السنة ، ثم تعود بالتالى وهي محملة بالعاج وأسنان الخرتيت والعبيد ، واستمرت التجارة تمارس في هذه الغلات الثلاث الى أكثر من ألفى عام . وقد شيد العرب المستوطنات في هذه المنطقة ، وكان من بقايا هذه المدن أو المستوطنات ، قسمايو Kismayo ، ولامو Lamu ، وممبسا Mombasa ، وكيلاوا Kilwa وزنبار Zinzibar ، وكانت هذه المدن

(9) Andrew Fedders. Maasai. London, 1973. pp. 19, 46.

(١٠) د. محمد عوض محمد : المصدر السابق . ص ١١٢ .

تمثل مراكز للمقايسة والمبادلة • وكانت القوة البحرية العربية قد سيطرت على المحيط الهندي مدة عشرة قرون • وفي تلك الأثناء مارس عرب عمان نظامهم السياسى والتجارى على هذه المنطقة • ومن المحتمل أن يكون الفرس قد شيدوا مدناً في افريقيا منذ ألف عام ، كما أن العرب الذين استوطنوا منطقة شرق افريقيا تزاوجوا مع الوطنيات ، وأنجبوا شعباً يتكلم اللغة السواحيلية التى يتكلمها كل سكان شرق افريقيا ابتداء من النيل وحتى نهر الجوبا (١١) •

وبعد ذلك نتناول في الحديث كيف وصل الهولنديون الى منطقة جنوب افريقيا The Cape of Good Hope • فمن المعروف أن الهولنديين وصلوا الى جنوب افريقيا عام ١٦٤٧ ، عندما تحطمت السفينة « هارلم » بالقرب من ساحل رأس الرجاء الصالح ، وكان من نتيجة ذلك أن قرر البحارة أن يقضوا عاماً في تلك المنطقة قبل التقاطهم • وفي تلك الأثناء نجح هؤلاء المرحالة في زراعة المحاصيل الغذائية ، التى كانت تكفى معيشتهم • ولما عادوا الى هولندا رسموا صورة براقعة عن جنوب افريقيا ، لذلك قررت شركة الهند الشرقية ، إنشاء محطة لها في رأس الرجاء الصالح ، لخدمة سفنها المتجهة الى الشرق الأقصى •

وفي عام ١٦٥٢ م بدأت مستعمرة الرأس في الظهور بصورة صغيرة جداً تحت قيادة جراح يدعى فان ريبك ، الذى كان من بحارة هارلم الغارقة ، وكانت الأوامر الصادرة اليه تشير الى بناء حصن ، كما كان عليه القيام بزراعة حديقة في أحسن الأراضي ، وأن يحتفظ بعلاقات ودية مع الوطنيين ، وكان المستعمرون الهولنديين يعملون في خدمة الشركة ، بحيث لم يسمح لهم بمزاولة أى عمل خارجى • ولكن سرعان ما اضطدوا بالوطنيين من البوشمن والهوتنتوت ، ولكن ريبك استطاع أن يستخدم البوشمن عمالاً وخداماً •

وفي تلك الأثناء كان لا يوجد بالمستعمرة ثساء من البيض ، فجاء بعض المستعمرين بنساء من الهنتوت ، بحيث أطلقوا على أطفالهم أسم الملونين بمنطقة الرأس (١٢) .

وفي عام ١٦٥٧ وصل من هولندا تسعة من أفراد الطبقة الوسطى ومعهم زوجاتهم ، ولم يكن هؤلاء من خدم الشركة ، ولكنهم كانوا قد أرسلوا على شرط أن يطيعوا قوانين الشركة . وسرعان ما جاء في أثرهم مستوطنون آخرون من أوروبا ، غفى ذلك العصر كان الهنتوت الفرنسيين المسيحيين من البروتستانت موضح اضطهاد شديد ، فهم الذين كانوا قد خرجوا في عهد الإصلاح الديني على الكنيسة الكاثوليكية ، واعتنقوا المذهب البروتستانتي ، وكانوا قد رفضوا في حزم نبذ هذا المذهب ، وقد توجه بعضهم الى افريكا بحيث استقروا في نيو امستردام وبنسلفانيا وغيرها ، وهناك مارسوا عبادتهم بحرية ، وكان البعض منهم قد ذهب الى انجلترا وبراندنبرج في شمال ألمانيا ، وأقام غيرهم في الأراضي المنخفضة ورأت شركة الهند الشرقية الهولندية الفرصة متاحة أمامها للاستفادة من هؤلاء المهاجرين المجددين ، فعرضت على مائتين منهم أن تدفع لهم نفقات الرحلة الى رأس الرجاء الصالح ، اذا وعدوا بخدمتها مدة خمس سنوات ، فكانوا كسبا للمستعمرة ، بسبب معرفتهم لزراعة الكروم ، فضلا عن مهارتهم في مهنة الزراعة . وكان الأطفال الهنتوت والهولنديين يذهبون الى نفس المدارس ، وسرعان ما تعلموا أن يفهم بعضهم البعض . وحرّم عليهم استعمال اللغة الفرنسية ، ولذلك تكلموا اللغة الهولندية ، وبالتدريج فقد شقت بعض الألفاظ الهولندية طريقها الى لغة الحديث ، التي كانت مزيجا من اللغتين ، فأطلق على هذه اللغة الجديدة اسم الأفريكانية Afrikaans التي أصبحت فيما بعد اللغة التي يستخدمها الهولنديون في جنوب افريقيا حتى اليوم .

(١٢) كاثارين ستانيدج : ترجمة د. راشد البراوي : قصة افريقيا جنوب الصحراء ، القاهرة ، ١٩٦٣ . ص ص ٨٣ - ٨٥ .

وفي عام ١٧٠٠ م ، كانت مدينة الرأس عاصمة المستعمرة التي تسميه الكثير من المدن الهولندية ، ففيها بنيت قلعة وكنيسة من الخشب ، ومخزن للمحصولات ، ولم يعتبر البيض الهولودون في جنوب افريقيا أنفسهم من الهولنديين أو من الفرنسيين ، إنما نظروا الى أنفسهم على أنهم افريكانو فقط .

وكان الفلاحون الأقوياء يعرفون بأسم البوير الذين تكونت منهم ، ومن رجال الطبقة الوسطى جماعات الكوماندوز (الفدائيون) ، وهي وحدات مقاتلة سريعة الحركة ، وكانت مهمتها حراسة الحدود والماشية .

وفي منتصف القرن الثامن عشر ، كانت السيادة قد انتقلت من أيدي الهولنديين الى الانجليز ، وفقدت شركة الهند الشرقية الهولندية الكثير من تجارتها ، وأثرفت المستعمرة على الأفلاس ، وتعب الأفريكانو وبدأوا يسيرون في داخل البلاد الواقعة وراء الحدود ، وكلما تقدموا التقوا بقبائل البانتو وتاجروا معها ، وأطلق الهولنديون على هؤلاء الوطنيين ، كلمة (الكفير) ومعناها بالعربية غير المؤمن . وفي عام ١٧٧٩ نشبت حرب الكفير ، فانتصر فيها الكوماندوز من البوير على أعدائهم وأسسوا جمهورية مستقلة عن مستعمرة الرأس ، يمتد حدها الشمالي بطول نهري السمك والأورانج .

وفي تلك الأثناء كان نابليون يعد الخطط لغزو مصر ، لكي يمد نطاق امبراطوريته الى الشرق الأقصى ، وكان من الضروري بالتسبة لبريطانيا أن تحافظ على حرية طرقها التجارية الى الهند . ومن أجل الحيلولة دون وقوع مستعمرة الرأس في أيدي فرنسا ، أبخرت السفن الحربية الانجليزية في عام ١٧٩٥ الى ميناء مدينة الرأس ، وأنزلت عددا من قواتها ، وسرعان ما تغلبت هذه القوات على مقاومة الأفريكانو ، الذين كانوا يتسلحون بأسلحة بسيطة ، وخلال السنوات العشرين التالية عاشت المستعمرة في تمزق ، وتعددت جنسية الدول التي سيطرت

عليها ، فقد أعادها البريطانيون الى أصحابها لفترة وجيزة ، ولكن سرعان ما استولى عليها البريطانيون عام ١٨٠٦ ، بسبب ما كانوا يشعرون به من قلق من ناحية نابليون .

ولكن بعد فرار نابليون من جزيرة البا وهزيمته في موقعة ووترلو ، ثم سجنه بعد ذلك في جزيرة سانت هيلانة الصغيرة ، الواقعة على مسافة قريبة من ساحل افريقيا الغربية ، قام أسطول من السفن الحربية البريطانية بأعمال الدورية في المحيط الأطلسي الجنوبي ، لمنع أية محاولات يقوم بها أنصار بوناپرت لانتقاذه . ولكن على الرغم من أن البوير كانوا يكرهون الشركة الهولندية الشرقية ، الا أنهم أصبحوا الآن أشد كرها للحكم الجديد (حكم بريطانيا) .

وبعد عام ١٨٥٢ م ، أى بعد نزول المستعمرين الأول عند رأس الرجاء الصالح بمائتى عام ، أعترف البريطانيون ، وعن غير رضا باستقلال جمهوريتي الترنسفال ودولة الأورانج الحرة اللتين أنشأهما البوير (١٣) .

أما عن المبشر الأسكتلندى روبرت موفات فقد أسس عام ١٨٢٠ م مركزا للتبشير في كورومان في بتشوانا لاند ، وفي ذلك الوقت كانت الحدود الشمالية لمستعمرة الرأس يحميها خط من الحصون ، بحيث لم يجزؤ الا عدد قليل من البيض على اجتيازه ، كما لم يتوغل أحد أيضا في أرض الملوك السود . لهذا بدت إرسالية كورومان في نظر الكثيرين من الناس ضربا من الجنون ، ولكن روبرت موفات كان يشعر بأن هذا واجبه ، لذلك عمل مع القبائل المجاورة ، بحيث كان له تأثير على مزيليكاى وغيره من زعماء المتابيلي ، بفضل شجاعته وحكمته . ولما كان مزيليكاى يرغب في مصادقة رجل أبيض ، دعا موفات لزيارته في قريته الواقعة في بولاوايو لاستشارته في عدة أمور . وبعد المقابلة

رفض مزيليكازى أن يتنازل عن عدد من زوجاته ، وأن يعتقد المسيحية (١٤) .

وكانت بعثة موفات الخطوة الأولى في نشر المسيحية بين القبائل الوثنية ، وقد اقتصر نشاطها على منطقة الجنوب الأفريقي ، كما أن موفات لم يكن له دور كشفى يستحق الذكر . وأما بالنسبة لدافيد لفنجستون فقد كان له دور بارز في مجال الكشف ، وفي مجال نشر العقيدة المسيحية ، ويتجلى ذلك في قيامه بنشر مبادئ الأنجيل بين الشعوب الأفريقية ، وبخاصة الوثنية منها ويتضح ذلك من هذا النص :

«Livingstone purpose's in going to Africa had been to spread the word of God among the African people (15).

ولكن على الرغم من ذلك ، فإن مهمة لفنجستون لم تقتصر على نشر العقيدة المسيحية فحسب ، بل قام بالتجول في الكثير من الأقطار الأفريقية وبخاصة في جنوب أفريقيا ، فقد شاهد الموارد الاقتصادية لهذه الأقطار والمثلة في الحاصلات الزراعية والسلع التجارية والمعادن ، لهذا نجد لجابه يسيل أمام وفرة هذه الخيرات ، فنسى مهمته السامية المثلة في نشر العقيدة المسيحية ، وتحول الى داعية ، يدعو الى الاستعمار ، أى أنه طلب من بريطانيا وبصورة رسمية أن تستعمر جنوب أفريقيا ، وبالفعل استجابت بريطانيا لدعوة رجل الدين هذا . أذن يمكن القول بأن هذه الدعوة الدينية لم تكن دعوة صادقة خالصة ، بل كانت دعوة من أجل التستر خلف الدين ، وذلك للوصول الى هذه المناطق ، والدليل على ذلك أن لفنجستون بعد أن تجول في جنوب القارة وقام بعبورها من الشرق الى الغرب ، ثم من الغرب الى الشرق ، طلب من بريطانيا أن تقوم بتحقيق

(١٤) كاثارين سافيدج ، ترجمة راشد البراوى : نفس المصدر . ص ص

(15) Elspth Huxley : Encyclopedia of discovery and Exploration the challenge of Africa. London., 1971. pp. 63, 71.

هدفين ، أولهما نشر المسيحية ، وهذا في الواقع ليس ذات أهمية ، فهذا المطلب كان يقصد به الوصول الى القارة ، ومعرفة ما تحويه من موارد . وقد تحقق ذلك بالفعل على أيدي الاستعماري الاسكتلندي دافيد ليفنجستون .

وتمثل الهدف الثاني في فتح طريق للتجارة بين بريطانيا وجنوب افريقيا ، وهذا الهدف في الواقع كان يمثل دعوة استعمارية صريحة ، ويتضح ذلك من النص التالي :

«In an address at cambridge University livingstone conclude : «I beg to direct your attention to Africa ... which is now open. Don't let it be shut again ! I go back to Africa to try to make an open path for commerce and for christianity» (16).

واذا كان ليفنجستون قد نجح في كشف منابع نهر الزمبيزي ، وفي عبور القارة من الشرق الى الغرب ، ومن الغرب الى الشرق ، فإن كل من John Ludwig Krapf ، وجوهان ريمان قد نجحا أيضا في الكشف النهائي عن جبال شرق افريقيا ، التي ظلت تمثل لغزا حقيقيا ، بل وكانت رمزا للخرافات والأساطير ، بحيث اعتقد الوطنيون بأنها مكان سكنى للأرواح الشريرة ، فكان من المعتقد أن أى شخص يذهب اليها كان من الصعب عليه العودة مرة ثانية . ومما لا شك فيه فإن هذين الرجلين قد أزاحا الغموض وبصورة نهائية عن جبال كليمنجارو ، وكينيا ، وعن الأخدود الأفريقي ، ولكن مع ذلك فلم يكن لهما دور بارز في المساهمة في الكشف عن منابع النيل ، وذلك لأنهما لم يتمكنوا من الوصول الى منطقة أعالي النيل ، ربما للعوامل الطبيعية التي تكتنف هذه المنطقة .

وعلى أثر هذه الاستكشافات ، أسرع سيسيل رودس الى منطقة جنوب افريقيا . وكان سيسيل رودس هذا قد ولد عام ١٨٥٣ م ، حيث

كان ينتمي إلى أسرة إنجليزية من الطبقة المتوسطة • وكانت أسرته هذه تعيش في بيشوب استورت فورد Bishop Stort Ford • وفي السنة السادسة عشرة من عمره ، أرسل إلى جنوب أفريقيا ليلتحق بأخيه هيربرت Herbert • وكان سيسل يعتقد في أنه يوجد هناك أحسن مناخ شمس وصحى في العالم ، ولكن فيما بعد كان له تأثير هام في مجرى تاريخ جنوب ووسط أفريقيا • فقد عمل هو وأخيه في زراعة القطن في إقليم ناتال ، ولكن المحصول كان رديئا • وفي عام ١٨٧٣ ذهب ليجيريا حظهما في حقول الماس الموجودة في كيمبرلي ، وعاش معا في معسكر للتعدين ، وكان هذا المعسكر مزدحما بعمال التعدين الذين أتوا لتجربة حظهم أيضا ، وكان الجميع يعيش تحت وطأة ظروف قاسية ، وبعد ذلك عاد سيسل رودس إلى إنجلترا ليكمل دراسته في جامعة أكسفورد • وبعد ثمانية سنوات عاد إلى أفريقيا ، وكان هدفه هذه المرة العمل على مد نفوذ بريطانيا إلى أجزاء كثيرة من أفريقيا • وكان حلمه في أحد الأيام أن تتوحد كل أفريقيا تحت العلم البريطاني ابتداء من مدينة كيب تاون في أقصى جنوب القارة الأفريقية ، وحتى مدينة القاهرة في الشمال ، وأن صح القول إلى مدينة الاسكندرية •

وبعد ذلك انتخب رودس عضوا في برلمان كيب تاون ، وعلى الفور أصبح واحدا من أقوى الرجال في جنوب أفريقيا ، وقد مكنته هذه الظروف من القيام بتأسيس جزء من الإمبراطورية البريطانية في القارة الأفريقية ، وكان من الضروري على رودس أن يتوسع صوب الشمال (١٧) فقام بتشكيل فرقة من الرواد في جنوب القارة بحيث يستقر أعضاؤها هناك كأول مستوطنين • وكانت هذه الفرقة تبلغ مائتي من الرجال تقريبا ، وتكلفت شركة الهند الشرقية البريطانية بالانفاق عليها • وكان البعض من أعضاء هذه الفرقة من المزارعين ، وأصحاب المحلات والبنائين ، وكان البعض الآخر من رجال التعدين والجزارين والخيازين ، وقد عمل سيلوس Selous

صياد الفيلة المشهور مرشداً ودليلاً لهذه الفرقة ، وكان سيلوس هذا قد زار من قبل هذا القطر ، وعرف لوبنجولا Lobengula معرفة جيدة ، وبالإضافة الى ذلك ، فأنة وجد الى جانب هذه القوة قوة أخرى كانت تتمثل في قوة بوليس الشركة ، فكانت هذه القوة تقوم بمصاحبة الرجال لحمايتهم من هجوم محتمل من جانب الماتابيلي Matabele ، أو من جانب الماشونا Mashona .

وفي يونيو عام ١٨٩٠ ، تجمع أعضاء هذه الفرقة الرائدة في بيتشوانا لاند الشمالية (تعرف في الوقت الحاضر ببيتشوانا لاند) الواقعة على حدود الماتابيلي . ومن هناك بدأت البعثة مهمتها الخطيرة صوب الشمال . وقد واجهت البعثة الصعاب منذ بدأت الرحلة ، فلم يكن يوجد هناك طرق ممهدة ، فقد وجد فقط أدغال كثيفة وجبال وأنهار تفيض بالمياه ، كما كانت توجد فيها الحيوانات المفترسة بوفرة ، فضلا عن وجود قبائل معادية ، زيادة على انتشار حمى الملاريا .

وقد امتطى أعضاء البعثة الخيول ، ومن خلفهم كانت تسير العربات المشحونة بالأمدادات التي تجرها الثيران . وكان من الضروري تمهيد طريق للثيران يمر من خلال الأدغال ، وعندما كانت العربات تصل الى أى نهر عميق ، كانت الأمدادات تفرغ منها ثم تقوم الثيران بعبور النهر ، وهى تجر العربات فارغة ، وعلى الجانب الآخر يعاد شحن جميع الأمتعة . وكان من حسن الحظ أن التماسيح لم تقم بمهاجمة أى فرد من أفراد البعثة ، ربما للخوفها من هذا الحشد من الأفراد ، وربما لأنها كانت قد تعودت على مثل هذه المناظر . وعندما عسكرت البعثة بالليل ، اتخذت العربات شكل دائرة محكمة لكي يحتوى فى داخلها الرجال والدواب من خطر مهاجمة الحيوانات البرية المفترسة بل ومن مهاجمة المقاتلين من الوطنيين .

وفى أثناء الرحلة قام أعضاؤها ببناء بعض الحصون ، كان منها حصن

تولى Tuli ، الذى أسس عند نقطة البداية ، وحصن فيكتوريا الذى أسس عند نهر لمبوبو وسمى بهذا الاسم تشريفا للملكة فيكتوريا •

وبعد فترة راحة قصيرة قاد سيلوس الفرقة الى مسافة أبعد • وأخيرا وصل الرجال المتعبين Weary الى النهاية destination ، وهناك وقفوا على تل مسطح يشرف على سهل متسع • وفى اليوم التالى الموافق ١٢ من شهر سبتمبر عام ١٨٩٠ م ، رفع العلم البريطانى The Union Jack على هذه المنطقة ، وكان رفعه يمثل حادثة هامة ، بل وكان علامة بارزة على الاحتلال الأوروبى للأرض التى أصبحت تعرف بأسم روديسيا • وهناك أسس حصن سليزبرى Salisbury نسبة الى رئيس الوزراء البريطانية • وفى الوقت الحاضر ، أصبح حصن سليزبرى أكبر مدينة ، تمثل عاصمة روديسيا (فى الماضى) •

وباحتلال البنشوانا لاند ، كان الدور الأول لحلم سيسل رودس Cecil Rhodes قد تحقق ، فقد توحدت هذه المنطقة تحت الحكم البريطانى • وعندئذ اعترف بروديسيا الجنوبية ، وبنياسالاند بأنهما من الممتلكات البريطانية • وبتحقيق هذا النصر ، أصبح سيسل رودس فى نفس السنة رئيس وزراء لمستعمرة كيب تاون Cape Town Colony (18) .

وهكذا فيمكن القول بأن دافيد لفنجيستون لم يكن مبشرا ، فحسب بل كان استعماريا صرفا ، بل وأنه اتخذ من نشر العقيدة المسيحية ستارا ، يخفى من خلفه أطماع بريطانيا فى استغلال هذه الثروات الدفينة •

وأضيف هنا أن بريطانيا كانت تساند من جانبها هؤلاء المغامرين ، وبخاصة بعد أن فقدت مستعمراتها فى العالم الجديد ، فمن المعروف أن مستعمراتها فى العالم الجديد كانت تمثل سوقا استهلاكية بالفسبة

للمسلح الصناعية البريطانية الزائدة عن حاجة سكانها • فبعد نجاح الثورة الأمريكية في نهاية القرن الثامن عشر ، خسرت بريطانيا بذلك هذا السوق ، وكان عليها عندئذ البحث عن سوق جديد ، فلم تجد أمامها إلا السوق الأفريقي • ولكن السؤال المطروح هو كيف تصل بريطانيا الى هذا السوق ؟ الاجابة على هذا السؤال تكمن في أن بريطانيا أتخذت عدة اجراءات يتمثل أحداها في ارسال المغامرين الى افريقيا ، لكي يقوموا بالكشف عن المناطق المجهولة ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى كان عليهم أيضا الوقوف على ما تحويه هذه المناطق المجهولة من ثروات طبيعية ، ونباتية وغيرها ، ويعرف هذا من وجهة نظري بأسم الاستعمار السلمي ، أما الاجراء الثاني الذي اتبعته بريطانيا فيتمثل في مصاربة الرق في افريقيا ، وفي الحقيقة أن هذه المصاربة لم تكن حقيقية ، ولم تكن من أجل تحرير الإنسان الأفريقي من العبودية ، بقدر ما كانت وسيلة لتحقيق بريطانيا من خلالها رغبتها في الوصول الى قلب افريقيا لكي تستغل موارد هذه القارة •

وقد زاد من اهتمام بريطانيا بهذه القضية (الاستعباد) أنها لم تعد في حاجة الى استخدام رقيق أفريقيا في العمل الزراعي أو الصناعي ، لأنه لم يعد لها مستعمرات فيما وراء البحار ، تكون في حاجة الى مثل هذه الأيدي العاملة الرخيصة بل الأيدي المجانية • ولكن لو شاء القدر وتمكنت بريطانيا في تلك الفترة « نهاية القرن ١٨ ، وبداية القرن ١٩ » من ايجاد عالم جديد آخر ، وكان هذا العالم الجديد في حاجة الى أيدي عاملة من افريقيا ، فوالله ما نادى بريطانيا بوقف هذه التجارة على الإطلاق •

وقد شجعها على تبني دعوة الغاء الرق أيضا ، أن الصناعة في بريطانيا في ذلك الوقت (القرن ١٩) أصبحت متقدمة بل وأدى ذلك الى أن حلت الميكنة الزراعية محل الإنسان في الزراعة •

ومن أجل ذلك أتخذت بريطانيا عدة خطوات منها ، أنها وضعت

أخذى أساطيلها البحرية لمراقبة سواحل إفريقيا الغربية ، وذلك للقيام بتفتيش السفن الأوربية التى تحمل رقيقا ، ولكى يكون لها الحق فى ذلك ، فقد عقدت معاهدة مع دول أوربا عرفت بمعاهدة التفتيش المتبادل Reciprocal Search Treaty وقد وافقت عليها بعض الدول الأوربية وعارضتها بعض الدول الأخرى (١٩) .

ومن الأجزاء التى اتخذتها بريطانيا أيضا ، أنها وضعت أسطولا فى المحيط الهندى كى يراقب تجار الرقيق فى شرق أفريقيا ، ومن المعروف أن دافيد ليفتجستون قد طلب ذلك فى مذكراته . وبذلك تكون بريطانيا قد أحكمت سيطرتها الفعلية حول القارة الأفريقية .

ولكن بقى عليها أن توسع نطاق هذه السيطرة شمالا حتى بورسعيد ، فضلا عن وصول نفوذها الى داخل القارة الأفريقية ، لكى تهيمن بذلك على مصادر الثروة والمواد الخام فى هذه القارة .

ولكن السؤال الآن كيف تصل بريطانيا الى قلب القارة الأفريقية ؟ الأجابة على هذا السؤال ، أنها وجدت ضالتها فى خديو مصر « أسماعيل باشا » ، لأن مصر فى ذلك الوقت ، كانت أقوى دولة أفريقية يمكن الاعتماد عليها ، فكانت بريطانيا قد اتهمت مصر بأنها لم تعمل من جانبها على وقف تجارة الرقيق ، لهذا دعت بريطانيا مصر الى المساهمة فى وقف هذ التجارة ، فعقدت معاهدة فى ٤ أغسطس عام ١٨٧٧ بين الدولتين عرفت بمعاهدة إلغاء الرقيق فى إفريقيا (٢٠) . ويرجع السبب وراء لجوء بريطانيا الى عقد مثل هذه المعاهدة مع مصر الى عدم إثارة الدول الأوربية الأخرى ضدها .

وبهذه الوسيلة تمكنت بريطانيا أولا ، من التدخل فى شئون مصر

(١٩) غيغ دى جى ، ترجمة د. السيد يوسف نصر . تاريخ غرب إفريقيا . القاهرة ، ١٩٨٢ ، ص ٢٢٩ وما بعدها .
(٢٠) انظر نص هذه المعاهدة فى كتاب الوثائق التاريخية للسياسة المصرية فى إفريقيا فى القرن ١٩ . للمترجم .

الداخلية ، وثانيا ، تمكنت من الوصول الى اواسط افريقيا أى أنها أصبحت تمارس جميع أنشطتها تحت اسم مصر التى انتهى الأمر بأحتلالها عام ١٨٨٢ م •

ومن الواضح إن بريطانيا اختارت المناطق المكتظة بالسكان فى افريقيا ، ولم تختار الأماكن نادرة السكان ، حتى تكون لها أسواق استهلاكية رائجة ، فاستولت فى غرب افريقيا على غانا ، وسيراليون ، وفى شرق افريقيا على كينيا وأوغندا وجزء من الصومال ، وفى الشمال الشرقى من افريقيا استولت على مصر • وبالتأكيد فأن هذه المناطق هى المناطق المكتظة بالسكان ، وهى التى تصلح لأن تكون أسواقا استهلاكية على جانب من الأهمية • ومما لا شك فيه أن المناطق المكتظة بالسكان هى المناطق الخصبة التربة ، بل والوفيرة المياه • (المترجم) •

الفصل الثامن

لغز النيل

كان لدى لودويج كراف Ludwig Krapf ، أمل كبير في حل أكبر لغز ، ألا وهو معرفة مصدر النيل . ولكن لم يتحقق له هذا الأمل الا في عام ١٨٥٣ م ، حال مغادرته منطقة رايبا Rabia ، وكان قد قابل أثناء وجوده في القاهرة أحد الرجال الذي كان له دور في حل هذا اللغز ، وقد زوده هذا الرجل بمعلومات خاصة يصف فيها جبال كليمنجارو Kilimanjaro Mountains ، وجبال كينيا Kenya Mountains ، والبحر الداخلي (من المحتمل أن يكون هذا البحر أحد البحيرات الإستوائية) الذي كان ربمان Rebmann قد فشل في كشفه (بحيرة فيكتوريا) .

وكان هذا المكتشف هو ريتشارد بيرتون Richard Burton ، الذي أشتهر يوماً ما بترجمته لقصة « ألف ليلة وليلة » حيث كتب عنه أحد أصدقائه الشعراء والذي يدعى سوينبرن Swinburn يقول « أن بيرتون كان شخصية غريبة الأطوار ، خيالي ، وسى الحظ ، وتبدو عليه الطبيعة ، ومع ذلك فإنه كان يميل الى الشر . وقد ولد بيرتون عام ١٨٢١ م ، وكان والده يعمل ضابطاً بالجيش ، وكان في صباه متهوراً ، وغير منظم ومشاكس وقد قضى جزءاً من تعليمه في فرنسا ، حيث كانت أسرته تعيش هناك ، وبعد ذلك ذهب الى جامعة أكسفورد . وفي خلال حياته مارس عدة أعمال منها عمله جندي ، ومكتشف وعالم للآثار ، ومؤلف ، فضلاً عن أنه كان واحداً من كبار علماء اللغة والترجمة في عصره .

وفي أثناء خدمته في الجيش الهندي تعلم اللغة الهندوستانية ، وبعداً آخراً من اللغات الهندية ، ولكن اهتمامه الأساسي كان ينصب على تعلمه اللغة العربية ، التي بدأ يتعلمها بنفسه في جامعة أكسفورد . وقد

استفاد به الجيش (الجيش البريطانى) فى أعمال المضابرات ، وأحب بيرتون هذا العمل السرى المحفوف بالمخاطر • فكان ينتكر فى زى تاجر ويرتدى لحية ، وشعرا مستعارا ، بل وكان يدهن جلد جسمه بالحنة • وبعد أن تعرض لمرض الكوليرا أصيبت إحدى عيناه بمرض خطير • وعلى أثره سرح من الجيش ، وذلك لعدم صلاحيته ، وبعد ذلك عاد الى إنجلترا ، وهناك لم يكن له أمل فى الحصول على وظيفة ، بل عكف على الكتابة ، فكتب عدة كتب عن الهند تضمنت وصفا لشعوبها وعاداتهم وثقاليدهم ، كما تضمنت مغازلاته للفتيات الهنديات البالغات سنن الرشد ، واللاتى قابلهن هناك • وأثناء إحدى زياراته لفرنسا لاحظ فتاة شقراء جميلة ، فى سن التاسعة عشر ، وعندما نظر اليها بعين فاحصة وقعت هذه الفتاة فى حبه بجنون شديد • وكانت هذه الفتاة تدعى ايزابيل أرونديل Isabel Arundell ، وقد أخبرت ايزابيل أرونديل أختها حريا بما نصه « أن هذا الرجل سوف يتزوجنى » •

وقد تأجل الزواج حتى عام ١٨٦١ م ، بسبب معارضة والدة ايزابيل • ومع ذلك فقد كان كل من بيرتون وايزابيل سعداء سعادة غامرة قبل وبعد الزواج • وكان على ايزابيل أن تتحمل سنوات من البعد عن زوجها ، لأن بيرتون لم يكن يسمح لأحد بالتدخل فى مشروعاته • وعندما تقابلا أول مرة كان مشغولا فى وضع خطة لبعثة سرية • وبحلول عام ١٨٥٢ م ، كان قد ترك لحيته تنمو ، بل وخلق شعر رأسه ثم تنكر • وكان هدفه من وراء ذلك الوصول الى مكة المدينة الإسلامية المقدسة التى كان المكتشف جون لويس بركهاردت قد زارها قبل ذلك بحوالى ٤٠ عاما •

وحيث أن مكة كانت محرمة على غير المسلمين فقد أمضى بيرتون شهرا فى مدينة الإسكندرية مارس خلالها تعلم اللغة العربية ، بل وأتقن تنكره كطبيب مسلم ، وقد حقق بهذا نجاحا كبيرا ، حتى أن أحد مرضاه عرض عليه الزواج من ابنته • وبعد ذلك ذهب بطريق النيل الى القاهرة

(وهناك قابل كراف وكشف له عن هويته الحقيقية) (وقال إنه لا يمكنه تصور مدى الأهمية التي يضيفها النيل على حياته • وبعد أن قضى عدة أسابيع في المدينة مكة — التي زارها من قبله جون لويس بركهاردت والتي كان بيرتون قد وصل إليها متخفيا — مارس أثنائها شعائر الصلاة المعقدة وأثناء تأديته لشعائر الحج المبرور ، تمكن من فحص الحجر الأسود الموضوع في الكعبة الشريفة ، والذي من المعتقد أن جبريل عليه السلام كان قد أحضره من السماء الى سيدنا ابراهيم عليه السلام •

وقد قضى بيرتون أسبوعا في مكة ، وفي طريق عودته كتب كتابا بعنوان « الحج الى المدينة ومكة » ، وكان كتابا كلاسيكيا ، حازقبولا كبيرا للغاية • وبسبب نجاحه في التنكر ، فأنه تشجع على الفور وللمرة الثانية في الأعداد لمغامرة خطيرة ، كانت تتمثل هذه المغامرة في القيام بزيارة الى مدينة هرر الجبلية ، التي تقع بين إثيوبيا وجمهورية الصومال الحالية • وتعتبر هرر موطن الصوماليين المسلمين المتعصبين ، والتي كانت غير معروفة الى الأوروبيين ، وطبقا للمعتقدات التي كانت سائدة بين أهلها فإن دخول أى كافر إليها يفقدها قدسيتها •

ومع ذلك فقد تمكن بيرتون من دخول المدينة (مدينة هرر) متنكرا في زي تاجر عربى متعلم ، وممتطيا بغلا أبيض ذو لجام مزخرف ، وقد شملته الحماية بسبب حضوره لدى الأمير الذى كان متكئا على أريكة وممسكا بيده سيفا عربيا كان بارزا من تحت وسادته • وكانت حجرة الاستقبال مزينة بالأسلحة والسلاسل ، وآلات التعذيب ، وكان الأمير محاطا بحرس من المحاربين أنصاف العراة • وقد حملق الأمير بشك في بيرتون ، وذكره ذلك بأسطورة تهديد قدسية المدينة • واعتقد بيرتون أن كشف أمره يعنى بالنسبة له الموت ، لكن بعد مدة طويلة وسكون ممل مد الأمير يده بلطف الى بيرتون ، وابتسم ابتسامة لطيفة في وجهه ، وقال بيرتون ما نصه : « أن هذه الإبتسامة بالنسبة لى كانت بمثابة نجدة » وكان هذا تعليقا مقتضيا لبيرتون • وبعبارة

«This smile, I must own, was relief was Burton's Laconic Comment».

وأضاف بيرتون يقول أنه على استعداد لمواجهة أسوأ الاحتمالات •
وأن جو العمل في داخل القصر كان على أية حال مطمئنا •

وقد تبع ذلك أيام من القلق والتوتر ، لأن الأمير كان يشك في بيرتون لهذا كان بيرتون مراقبا من جواسيس الأمير • ومع ذلك فقد تمكن بيرتون من القيام بعمل دراسة مفصلة عن المدينة وشعبها • ولكن عندما اتضح أن بيرتون لا ضرر من وجوده في القلعة ، فأُن الحارس المحلي الذي كان يرافقه ، عامله معاملة طيبة ، وعند هذا شعر بأنه كما لو كان قد انتشل من الموت •

وبعد ذلك انضم بيرتون الى أعضاء بعثته التي كانت تتكون من رجل انجليزي يدعى جون هاننج سبيك ، الذي كان يعمل مساحا وجيولوجيا ، وعالم نبات ، وكان يصغر بيرتون بست سنوات ، وكانت عيناه زرقوان ، ويميل لون شعره وشعر لحيته الى السمرة المصفرة ، ويختلف في مظهره وشخصيته عن بيرتون • وقد عاش أسلافه لعدة أجيال في منطقة سومرست Somerset الواقعة في غرب (بريطانيا) وعاش في شبابه عيشة حرة طليقة An open Air life ، وكان يفضل صيد الطيور عن الذهاب الى المدرسة He is preferring, birds - nesting and hunting to school.

وقد خدم في الجيش البريطاني في الهند ، وقضى أجازاته في القيام برحلات صيد طويلة Huntingbig - Game في جبال الهيمالايا • والآن فقد اتخذ طريقه الى شرق افريقيا ، كي يجمع عينات من الحيوانات النادرة والطيور ، وعندما التقى سبيك ببيرتون في عدن ، تخلى عن خططه الخاصة ، وضم جماعته الى الرجل الذي يكبره سنا (وهو بيرتون) •

وبعد ذلك أوكلت قيادة البعثة الى بيرتون الذي كان قد اكتشف من قبل بلاد الصومال • وفي الأيام الأولى من هذا الاندماج ، أعجب سبيك بقيادة بيرتون بدرجة كبيرة • ولكن بعد الرحلة الأولى حدث احتكاك بين الرجلين نتيجة للتناقض بين تصرف كل من بيرتون المتعطرس

Arrogant ، والمتكبر Swashbuckling ، وبين سبيك المتحفظ للغاية ،
 Extreme reticence . وقد زاد هذا الخلاف بسبب حادثة اليمية ،
 تتمثل هذه الحادثة في أنه في ابريل عام ١٨٥٥ م ، عسكر الرجلان على
 حافة مرتفعة في ميناء بربرة الواقع على الساحل الغربى للبحر الأحمر ،
 وفي أثناء الليل هاجمت عصابة من الصوماليين أفراد البعثة ، وهرب الحارس
 المحلى وهو في حالة من الفزع ، وقتل أحد أعضاء البعثة ، وكذلك ضرب
 أفراد هذه العصابة سبيك بالحجارة ، التى كانت تصوب اليه تصويبا
 جيدا ، وقد تحرك سبيك تلقائيا للخلف في اتجاه خيمته . ولكن بيرتون
 صاح بالقول لا تخطو أية خطوة للخلف يا سبيك ، حتى لا يعتقد الأعداء
 أننا ننتهقر ، وحته على معاودة الهجوم ، ولكن (سبيك) سقط على
 الأرض بسبب تكرار الضربات الموجهة اليه بعضا الحرب ، وبعد نهوضه
 طعن طعنات قوية ، في رجليه ويديه سقط على أثرها على الأرض . وفي
 الوقت نفسه طعن أحد الرماة بيرتون بحربة في فكه ، فنفذت من الجانب
 الآخر ، وعلى أثر ذلك شق طريقه بصعوبة نحو الشاطئ ، وهناك انتزع
 بعض التجار البريطانيين الحربة من فك بيرتون الذى جرح جرحا خطيرا ،
 بحيث ظل يتألم طوال حياته ، وبدأت عليه الكآبة والتشاؤم الى الأبد .
 وعلى الرغم من الجروح التى أصيب بها سبيك ، الا أنه ومعه واحد من
 الإنجليز الذين ظلوا على قيد الحياة ، قد صارعا التعب حتى وصلا الى
 الساحل . وكان (سبيك) مجروحا فأعاقه ذلك من القيام بمزيد من
 الكشف . وعلى هذا كان على البعثة العودة الى الوطن (بريطانيا) .
 وكان سبيك في تلك الأثناء مريضا مرضا عقليا وجسمانيا ، كما أنه لم ينس
 أبدا أن بيرتون قد اتهمه بطريق غير مباشر بالجبن . وعلى الرغم من أنه
 لم يقل شيئا من هذا ، في ذلك الوقت ، الا أن الاتهام كان سببا في تشويش
 تفكيره .

ورغم المرارة التى عاها سبيك من بيرتون ، الا أنه كان على استعداد
 الى أن يضم جماعته الى بيرتون مرة ثانية . ففى نهاية عام ١٨٥٦ م ،

وبعد أن خدم كل من الرجلين في حرب القرم The Crimean War ، عادا بعد ذلك الى افريقيا ، فقد أرسلتهما هذه المرة وزارة المستعمرات البريطانية The British Foreign office ، والجمعية الجغرافية الملكية The Royal Geographical Society ، وكانت التعليمات التي تلقياها تقتضى بأن يكتشفا المصدر الحقيقي للثيل * وكان عليهما أن يبدأ رحلتها الأولى الى بحر أوجيجى (بحيرة أوجيجى) Ujji ، وكان بحر أوجيجى هذا عبارة عن بحيرة مجهولة شاسعة المساحة ، وغير معروفة الحجم ، وكان من المأمول فيه أن يكون هذا هو هدفهم ، وبعد ذلك يكون فى الأماكن الذهاب الى جهة الشمال للبحث عن بحيرة أخرى كان قد أشيع عن وجودها * وعندما كان بيرتون فى هرر سأل عددا من الأسئلة الخاصة بالنيل ، وفى القاهرة تحدث كراف إليه عن النيل ، وعن جبال القمر الغامضة * وكان كراف مدركا للأدعاءات التى أطلقها كل من الأباء بيز Paez ولوبو Lobo وجيمس بروس * وقد اقتنع كراف بهذا الدليل الوارد فى التقارير الدقيقة للجزويت ، وعلى الرغم من أن كراف كان يعتقد فى أن بروس كان مخطئا فى مبالغاته ، ألا أنه مع ذلك اعتقد وبصفة أساسية فى أن بروس كان على علم بالحقيقة * وبعد مرور ٩٠ تسعين عاما تقريبا على المغامرات التى قام بها بروس فى الحبشة ، بدأ الجغرافيون فى النهاية يشكون فى أنه من المحتمل أن يكون بروس على صواب فيما أورده * وبالطبع ، وكما رأينا فأن بروس رأى منبع النيل الأزرق ، وليس المجبرى الأصل parent stream للنيل الأبيض * ولم يكن اكتشاف جميع منابع النيل الأبيض قد تمت ، ولم يتمكن الجغرافيون بعد من معرفة ما إذا كان لهذا النيل منبع أو اثنين *

وعندما وصل بيرتون وسبيك الى زنجبار قابلا المبشر Missionary جوهان ريمان Johann Rebaman ، الذى حذرهم من أن الطريق الذى يخويان اتخاذه من ممبسا وحتى الداخل محفوفا بالخطر بسبب وجود قبائل المساي المحبة للحرب Warlike ، لذلك قرر كل من بيرتون وسبيك

بدلاً من ذلك أن يبدأ رحلتهما من باجا مايو Bagamayo التى تقع على الساحل الغربى للمحيط الهندى والتى تكون أكثر قرباً من الجنوب •

وقد تأخر كل من بيرتون وسبيك فى باجامايو مدة ستة شهور ، بسبب إعداد الحمالين وشراء المؤن ، وأتمام الشفاء من نوبة حمى شديدة ، وقضى بيرتون نقاهته فى تعلم اللغة السواحيلية ، التى يتحدث بها السكان فى الداخل ، ولكن سبيك الذى لم يستطع التحدث بالعربية ، أو بأى لغة أجنبية أخرى لم يتمكن من التعرف على أى أشخاص ، إلا عن طريق الإشارات ، فقد جعله هذا مفعم بالشك ، ليس فقط فى العرب والأفارقة ، ولكن أيضاً فى بيرتون الذى أرتاب فى أنه يتآمر ضده (أى ضد سبيك) • وفى خلال تلك الرحلة التى قطع فيها الرجلان مسافة طولها ١٠٠٠ ميل الى الداخل ، دب الكره والخلاف فيما بينهما ، لأن سبيك الذى كان فيما مضى معجباً ، بل ومدين بالإحترام لبيرتون ، نظر إليه الآن على أنه إنسان ديكتاتورى ومتعجرف ، وفى الوقت نفسه نظر بيرتون الى سبيك على أنه كتيب وكنوم •

وحتى لو أنهما بقيا أصدقاء وعلى أحسن ما يرام ، فأن الرحلة كانت صعبة للغاية • فالحمالون استمروا فى هروبهم ، وكان من الممكن أن تكون دواب الحملة قد نفقت بسبب مرض ذبابة - تسي تسي tse - tse ، وكان المكتشفان أنفسهما يتألمان بسبب لدغات الحشرات الأخرى • هذا فضلاً عن أن الآلات العلمية التى كانت لديهما ، ومعظم مهماتهما كانت قد فقدت ، كما لم يكن لديهما فائض فى الملابس سوى ما يرتديانه ، حتى أن هذه الملابس كانت قد تمزقت بسبب مرورهما وسط الأشواك ، لذلك كان عليهما أن يرتديا ملابس صنعت من قماش البطاطين • وبعد ذلك واصل الرجلان مسيرهما من خلال الطريق الساحلى الذى يوصل الى بلدة طابورة الواقعة فى وسط تنزانيا فى الوقت الحاضر وكانا قد مرا من خلال منطقة ساحلية مليئة بالأدغال الكثيفة ، والمجودة فى وسطها ، كما وجد بها مستنقع عميق ملىء بالطين ، ومغطى بجذور شميكة للأشجار ،

كما وجد أيضا ما يربو على ثلاثة سلاسل جبلية * وقد أصيب الرجال (سبيك وبيرتون) بمرض الحمى حتى أن بيرتون أصبح ضعيفا بحيث لم يعد يقوى على السير ، واستغرقت هذه الرحلة الى بلدة طابورة ١٣٤ يوما ، قطعاً خلالها ٦٠٠ ميلا ، وهناك (أى فى طابورة) أكد التجار العرب أشاعة مفادها أنهم سمعوا من قبل عن عدم وجود بحيرة واحدة ضخمة فقط ، كما توضح خريطة ارهاردت Erhardt's Map ، ولكن يوجد العديد من البحيرات ، منهم اثنتان كبيرتان ، ومن المرجح أن تكون هذه البحيرات متصلة بنهر ، ولكن لا أحد يعرف ما اذا كانت متصلة بالنهر من عدمه .

وقد قرر بيرتون أن البحيرة القريبة هى هدفهما الرئيسى ، وقبل وصولهما اليها بمدة طويلة ، كان بيرتون قد أصيب بالحمى التى منعتهم من السير ، بل وكان يحمل على (نقالة) Litter ، هذا فضلا عن أصابتهما بمرض فى أعينهما حتى أن سبيك أصبح أعمى بصفة مؤقتة . اذا فأنهما صارعا معا المشقة طوال الرحلة التى يبلغ طولها ٤٠٠ ميل ، وفى العاشر من شهر فبراير عام ١٨٥٨ م ، سجل بيرتون بالعين المجردة خط الأفق ، الذك يلامس الحافة الذهبية للبحيرة ، وقد تسلقا حافة التل الصخرى ونظرا الى أسفل من خلال سسياج من الأشجار ، ورأى بيرتون شئ ما يلمع من خلال خط الضوء الذى يقع أسفل ، فسأل مرشدهما العربى عن ذلك فأجاب المرشد بالقول ما نصه : « أن هذا فى رأى هو الماء ، وأضاف أنه فى الواقع بحر أوجيجى (بحيرة تنجانيقا) * فمن قمة التل بدت صغيرة وغير هامة ، والسبب فى ذلك يرجع الى أنهما (بيرتون وسبيك) رأيا ركنا فقط من البحيرة ، وفى تلك الأثناء رغب بيرتون فى العودة ، وعلى وجه السرعة ، وكان يرى من وجهة نظره الكشف عن بحيرة نياتزا Nyanza أو البحيرة الشمالية * وكيفما كان الحال ، فقد تقدم يارادات قليلة ، وفجأة وبصورة كلية برز أمام أعينه منظر ملاء بالأندهاش والبهجة ،
«The whole scene suddenly burst upon myview, filling me with admiration and delight ...»

وكان بيرتون وسبيك من الأوربيين الأوائل اللذين اكتشفا أكبر بحيرة

فى العالم ذات مياه عذبة ، وتمثل هذه البحيرة فوهة بركانية ذات لون أزرق جميل تقع وسط صخور رملية صفراء • وفى هذه اللحظة تبدد الأندهاش من عينى سبيك وكتب من قمة القرن الشرقى من البحيرة يقول « لا يمكن لأى فرد سواى أن يرى جمال وبهاء بحيرة تنجانيقا » •

وقد نزل الرجلان الى أسفل التل ووصلا الى مستعمرة أوجيجى ، الواقعة على الشاطئ الشرقى للبحيرة ، وهى عبارة عن قرية ضخمة مزدحمة بالأكواخ ، ويوجد بها سوق للرقيق ، ملء بالأطعمة الطازجة المعروضة للبيع ، والمثلة فى اللبن والدجاج والبيض والخضروات • وكان كل من بيرتون وسبيك قلقين بسبب كشف هذه البحيرة ، وبخاصة عندما أخبرهما بعض تجار العبيد العرب بأنهما زارا الناحية الشمالية من البحيرة وشاهدا نهرا ضخما هو نهر الروسيزى Rusizi الذى يخرج من البحيرة وقد جعل هذا المكتشفان يعتقدان فى أن النهر هو نهر النيل ، ومع هذا ، فقد حذرهما التجار من أنهما ربما لا يعودان أحياء مرة ثانية ، لأن القبائل التى تقطن على الشاطئ المقابل كانت من أكلى لحوم البشر Cannibals ، وتلك التى تقطن فى أقصى الشمال من البحيرة من أكلى لحوم البشر أيضا بل وأكثر توحشا •

وعلى الرغم من هذا التحذير ، الا أن بيرتون وسبيك استأجرا قاربين وبعض البحارة boatmen ، الذين قاموا بالتجديف لهما عبر البحيرة ، وقد ساروا جميعا على طول الشاطئ الغربى ، وكتب بيرتون يقول ما نصه : « أن القبائل التى كانت تقطن بجوار الشاطئ كان من الواجب فحصهم كما لو كنت اتفحص لحم الجزار The light of butcher's meat ، ولكن لم نتعرض من جانبهم لأى أذى • ولقد مكث الرجلان فى قرية ليست بعيدة عن نهاية البحيرة الشمالية ، وهناك قابلا التجار العرب الذين رأوا نهر الروسيزى Rusizi ، والذين أصرروا على أن هذا النهر يدخل البحيرة أى يصب فى البحيرة ولا يخرج منها ، وكان فى امكان بيرتون الذهاب الى هناك لى يتأكد من هذه الرواية Statement ، ولكن البحارة انزعجوا عندما

سمعوا أن هذه القبائل كانت من أكلى لحوم البشر ، لذلك أصرّوا على العودة وعدم مواصلة المسير ، لهذا فقد عادوا إلى أوجيجى دون التوصل إلى حل لمشكلة النيل .

وكان بيرتون لا يزال مريضا ، لذا أقترح التخلي عن تكملة الرحلة والعودة إلى الساحل ، ولكن سبيك الذى كان قد شفى بصره ، رغب فى تنفيذ التعليمات الخاصة بكشف البحيرة من جهة الشمال ، وطبقا للإشاعة التى أطلقت فأن هذه البحيرة كانت أكبر من بحيرة تتجانيقا . لذلك وافق بيرتون على الانتظار ، بينما يذهب سبيك بمفرده لمحاولة الكشف عن هذه البحيرة . وقد اقتفت البعثة آثار الأقدام أو الطريق الذى سلكاه من الساحل إلى طابورة ، وبعد ١٦٠ يوما من السفر المدهش فى سهولته ، وصل سبيك إلى شواطئ البحيرة الضخمة لدرجة أنه قال مؤكدا أنه من المحتمل أن هذه البحيرة تمتد إلى آخر العالم ، وأنه فى الواقع كان قد اكتشف أكبر بحيرة فى إفريقيا ، التى تعتبر بحرا داخليا مساحته ٢٦٠٠٠ ميل مربع ، فمن الإشاعات والأدلة التى جمعها سبيك أصبح الاعتقاد أن هذه البحيرة التى سماها بحيرة فيكتوريا كانت تمثل المصدر الرئيسى للمجرى الضخم للنيل ، والتى كان الأب موسى Father Moses ، قد طاف فوق مياهها فى مغامراته الأولى ، وبخاصة عندما حاول الأبحار فى النيل ، وبعبارة المؤلف

that floated father Moses on his first adventurous sail the Nile.

وبالتأكيد فأن سبيك قد نجح فى حل هذه المشكلة الخاصة بالنيل ، فقد كان طموح ملوك العالم الأول يتمثل فى حل هذا اللغز (الكشف عن النيل) ولكن مع ذلك فلم يثبت سبيك بالدليل القاطع كيف أنه تمكن من فحص قسم صغير فقط من النهاية الجنوبية للبحيرة ، وأخيرا عاد منتصرا ليخبر بيرتون بأنه اكتشف منبع النيل ولكن بيرتون شك فى قوله تماما . حيث لم يوافق على اقتراحه الذى يقول أنه ينبغى عليهما عمل فحص كامل لهذه البحيرة ، ولكن بيرتون قال بأصرار ينبغى علينا العودة إلى أرض

الوطن • وأضاف طبقا لما ذكره سبيك أنه حالما يستردا صحتهما تماما ويحصلان على المال اللازم فإنه في هذه الحالة يمكنهما العودة سويا لإنهاء رحلتهم (الخاصة بالكشف عن منابع النيل)

وقد أصبحت الآن العلاقات بين الرجلين أكثر انهيارا عما كانت عليه من قبل • وفي أثناء رحلة العودة الى الساحل ، كان سبيك مريضا لدرجة كبيرة بحيث أنه وصل الى حالة الهذيان ، بينما كان بيرتون يقوم بتمريضه ، وكان عليه أن يسمح هذيانه بسبب مرضه المزمن بالحنى • وفي تلك الأثناء كان سبيك يهذى ويتهم بيرتون بدون سبب بأنه لا يحتمل العمل ، ولا يعضده في مهمته ، وقد وجه سبيك السباب الى بيرتون ، بسبب رفضه للاعتقاد بما قاله من أن بحيرة فيكتوريا تمثل المصدر الرئيسى للنيل ، ودار في تفكيره اتهام بيرتون الضمنى له بأنه جبان •

وقد استغرقت رحلة العودة أربعة شهور حتى وصل الرجلان الى الساحل ، وبذلك تكون هذه الرحلة قد استغرقت أقل من عامين • وفي ذلك الوقت قرر سبيك الذى تحسنت صحته العودة مباشرة الى أرض الوطن ، بينما بيرتون الذى كان مشقت الذهن ، وضعيف الجسم ، قد قرر البقاء لعدة أيام في عدن • وفي الظاهر بدأ الصديقان وكأنهما على ما يرام وبموجب ما قرره بيرتون فإن سبيك قد تعهد أن ينتظر وصول بيرتون الى لندن ، كي يقوموا معا بتقديم تقرير مشترك الى الجمعية الجغرافية الملكية •

وطبقا لما حدث فإن بيرتون قد وصل الى لندن متأخرا أثنى عشر يوما عن سبيك ، فوجد سبيك قد قام فعلا بتقديم تقرير عن كشوفاته ونظريته ، الى السير رودريك مارشيزون Roderick Murchison رئيس الجمعية الجغرافية الملكية ، وبناء على طلب السير رودريك مارشيزون ، فقد قام سبيك بالقاء محاضرة على أعضاء الجمعية الجغرافية • وقد ترك سبيك أثرا طيبا كان من نتيجته أن التمويل اللازم للبعثة الثانية التى ستذهب الى بحيرة فيكتوريا ، قد جمع له • وقيل إنه لو وجد منفذا عند نهايتها الشمالية ، فمن المحتمل أن يكون هذا المنفذ هو النيل ،

وعليه أن ينتبعه حيثما يتجه وحتى نهايته * وسوف تشير هذه البعثة الى أرض غير مكتشفة * وكان من المأمول فيه أن يضع سبيك نهاية الى مشكلة النيل كما كان عليه أيضا أن يكتشف المكان الحقيقي لجبال القمر * ومن قبل كان كل من بيرتون وسبيك قد اختلفا حول موقع هذه الجبال ففي الوقت الذي اعتقد فيه سبيك أنها تقع في المنطقة السفلى الواقعة قرب الطرف الشمالي لبحيرة تنجانيقا ، قرر بيرتون أنها تقع في أقصى الشمال الشرقي ، أي بين بحيرة فيكتوريا ومنطقة أعالي النيل *

وكان الرجل الثاني في قيادة هذه البعثة بعد سبيك هو صديقه الكابتن جيمس جرانث Captin James Grant الضابط السابق في نفس الفرقة التابعة للجيش البريطاني في الهند * وكان جرانث رجلاً لطيفاً ومتواضعاً ، كما كان في نفس سن سبيك ، فلم يطلب أبداً لنفسه قيادة البعثة ، كما أنه لم يطلب أيضا إدعاء بالشرف أو المجد *

وقد اقترح بيرتون الذي لم يدع الى هذه البعثة أن يكون هناك بعثتان تبدآن من نقطتين مختلفتين ، ولكن لم يؤخذ برأيه * وفي الواقع كلفاته الجمعية الجغرافية بالميدالية ، ومن الواضح أن الجمعية كان لها اهتمام كبير بكشف سبيك لبحيرة فيكتوريا أكثر من اهتمامها بكشف بحيرة تنجانيقا * ونتيجة لهذا التصرف من جانب سبيك فقد أخير بيرتون ، وغضب غضباً شديداً ، وكان غضبه يمكن أن يكون أكثر لو علم أن سبيك في أحاديثه العامة والخاصة كان يقلل من إنجازاته وقدراته الشخصية *

وفي نهاية عام ١٨٥٩ م نشر سبيك سلسلة من المقالات التي من خلالها أكد أهمية كشفه الخاص ، بل وقلل من أهمية كشف بيرتون ، وقد أخطأ سبيك التقدير الخاص بالموقع الحقيقي لبحيرة فيكتوريا على الخريطة ، وأدعى أن النهر الذي سمع عنه ولم يره ، من المحتمل أن يكون نهر النيل ، وأصر على أن جبال القمر المحيرة ، كانت في الحقيقة السلسلة

الواقعة بالقرب من بحيرة تنجانيقا • ومن ناحية أخرى بقى بيرتون ثابتا على رأيه الذى يقول « أن جبال القمر كانت جبالا ذات قمم ثلجية ، تقع فى أقصى الشمال والشرق من بحيرة تنجانيقا » •

وكان الخلاف على موقع جبال القمر واحدة من نقط الخلاف بين بيرتون وسبيك ، فكان بيرتون الذى يعتقد فى وجود أربع بحيرات كبيرة فى وسط أفريقيا ، يأمل فى أن يثبت أن بحيرة تنجانيقا هى مصدر النيل • وفى كتابه المعنون بـ « منطقة البحيرة فى وسط أفريقيا » lake Region's in Central Africa ، الذى نشر عام ١٨٦٠ م ، والذى لم يجازف بيرتون فيه بتأكيد ادعائه ، كما أنه فى نفس الوقت لم ينكر هذا الادعاء ، وفى سياق إستيائه من سبيك أتهمه بأنه غير ملائم للقيام بأية عمل آخر ، ولكنه (سبيك) يصلح فقط للقيام بالأعمال الثانوية ، وانتقد بيرتون السرعة التى ظهر بها سبيك أمام الجمعية الجغرافية البريطانية ، وفى هذا الصدد يقول بيرتون :

« لهذا فأنه من الواجب إتخاذ الإجراءات لضمان حقه فى العمل الذى بدأه » •

وكان كل من سبيك وجرانت قد غادرا بريطانيا الى أفريقيا قبل أن يظهر كتاب بيرتون ، ومن المعروف أن لفنجيستون كان فى أفريقيا قبل ذلك الوقت فى منطقة بحيرة نياسا Nyasa ، وقد ترك بيرتون تقتله الكآبة والغضب ، فكان قد أنفق مقدارا كبيرا من أمواله ، من أجل مغامرته فى أفريقيا ، وهو فى ذلك الوقت كان فى حاجة الى عمل ، وكانت الوظيفة الوحيدة التى عرضت عليه هى وظيفة بسيطة أقل من مستواه ، وهى

(*) فى عام ١٨٨٩ م ، تم كشف جبال القمر بمعرفة المكتشف هنرى مورتون استانلى ، الذى قال أنها تقع فى الشمال والغرب ، وتمثل هذه الجبال بسلسلة رونغورى Ruwenzori ، ويبلغ ارتفاع قممها العالية حوالى ١٧٠٠٠ قدم • ويمكن مراجعة ذلك فى ص ١٥٠ من الكتاب الأسمى •

وظيفة قنصل بريطانيا في جزيرة فرناندوبو الأسبانية ، وهي الجزيرة التي كان قد أبحر منها منذ ما يقرب من ثلاثين عاما كل من لائدر وأخوه .

وكره بيرتون جزيرة فرناندوبو ، لذلك أخذ يواصل كشفه لدلتا نهر النيجر ، فقد تسلق جبال فيكتوريا التي كانت حتى ذلك الوقت تمثل سلسلة من الجبال غير المدرجة ، والتي تقع في منطقة الكامبيرون ، أى في جنوب نيجريا ، وفي سياق تعليق بيرتون على ذلك قال : « لا بد أن أكون الأول ، فأن ذلك يعنى كل شئ بالنسبة لى ، أما أن أجيء في المؤخرة ، فأن ذلك يكون شيئا غير عاديا » وواصل بيرتون كشوفاته في كل مكان من المنطقة التي يعمل بها كقنصل لبريطانيا ، فقد سجل قدرا كبيرا من المعلومات القيمة عن هذا البلد وعن تقاليد شعبه .

وفي ذلك الوقت كان كل من سبيك وجرانت يتعمقان في سفرهما ، فقد سلكا الطريق القديم الموصل الى طابوره ، وبعد ذلك توغلا جهة الشمال في داخل ممالك مجهولة في أوغندا ، وقد قابلهما رومانيكا Rumanika ، ملك مملكة كراجوى Karagwe بحفاوة كبيرة ، وكان رومانيكا هذا يملك عددا كبيرا من الزوجات اللائى كن مشهورات بأحجامهن ، واللائى كن يعيشن جميعا على اللبن ، لذلك كن كبيرى الحجم ، حتى أنهن كن لا يستطعن الوقوف بأستقامة ، ولكنهن كن يرتدين على الأرض مثل الحيوانات .

وقد أصيبت أحد أرجل جرانت بالتسمم لذلك بقى في كراجوى ، بينما واصل سبيك المسير الى مملكة بوجندا ، الواقعة على الشاطئ الشمالى من بحيرة فيكتوريا . وكان يحكم مملكة بوجندا هذه الملك ميتسا Mutesa ، الذى كان يتميز بطول القامة ووجهة الشكل ، وكان يحلق شعر رأسه بأستثناء تركه خصلة منه تتوسط رأسه . وكان شعر هذه الخصلة لطيفا ، كما أنه كان يلف جسمه في عباءة جميلة مطرزة بخيوط جلدية مدبوغة ، وكان يضع حول عنقه وحول أسفل أرجله صوفيا من

الغرز ، كما كان يلبس خاتم في كل أصبع من أصابع يديه ، وفي أبهام قدميه ، وكان يتميز بالأسلوب اللطيف ، مع أنه كان طاغية في سلوكه . وكتب سبيك في يومياته يقول ما نصه : « أن صاحب الجلالة (الملك ميتسا) لم يقنع بأى شئ أبدا ، حتى أن رعاياه كانوا يزحفون أمامه على الأرض مثل الدود الصغير » وكان ميتسا يفرع أو يتصاقق من الحياة الرعدة التي يعيشها شعبه في بلاده . وعندما قدم سبيك بندقية إلى ميتسا ، أخذها منه ، وأعطاه بالتالى إلى خادم من خدمه الخاص ، وأمره أن يذهب إلى الخارج ، وأن يطلق النيران على أحد الرجال خارج الفناء ، وعلى الفور ، عاد هذا الخادم وأعلن بكل فخر عن نجاحه . فسأله ميتسا ، هل فعلت كل ما أوكل اليك جيدا ؟ فأجاب الخادم بالقول ، أن المطلوب قد تم بطريقة ممتازة . ومع هذا فلم يجرو أى أنسان أو يتجاسر بالسؤال عن قتل وهويته والا فقتل مثله .

ولا يمثل موت أحد الرجال من رعية الملك ميتسا ، أى شئ بالنسبة له ، فأفراد رعيته كانوا يعذبون ويقتلون بأستخفاف حتى يشبع نزواته . ولم يعد ذلك بالأفراد ، ولكن يعد بالمئات ، وقد ارتكب ميتسا أفظع الأفعال وأشنعها نتيجة لتأثير السحر والشعوذة والأطباء والدجالين ، ويذكر سبيك بهذه المناسبة أن ميتسا كان في بعض الأحيان يقتل ما يزيد على ٢٠٠٠ ضحية . ورغم كل هذه الأعمال البربرية ، إلا أن بوجندا Buganda كان لها حضارة خاصة ، فكان الملك مطلق السلطة ، بحيث توجد تحت رئاسته سلسلة من الممثلين لكل منهم مسئولياته الخاصة وسلطاته . فلا يستطيع أى شخص أن يعترض على المرسوم الملكى ، ولكن على الرغم من ذلك فإن الملك ميتسا كان له القدرة على التصرف بطريقة لبقة كما كان لديه احساسا بالعدل ، إلا أنه والغالبية العظمى من حاشيته كانوا يمارسون الأسلوب الهمجي الذي مارسه أسلافه من قبل .

وقد قضى سبيك ثلاثة شهور في بلاط ميتسا قبل أن ينضم إلى جرائنت ، الذى كان لا يزال يعرج ، ولكنه مع ذلك ، كان في صحة

جيدة . وقد بدأ كل من سبيك وجرانت الرحلة من كراجوى Karagwe ، حيث عبرا النهر المعروف بنهر كاجيرا Kagera الذى يصب فى بحيرة فيكتوريا ، ولا يتدفق منها ، وكان كل من سبيك وجرانت قد عرفا أنه لم يكن النيل ، وذلك لأنهما عندما كانا فى بلاط ميتسا علما عن وجود نهر كبير آخر يقع فى الشرق من نهر الكاجيرا ، بحيث يخرج من البحيرة . ولقد جعلهم هذا يقرران بالقول ، أن هذا النهر هو نهر النيل ، لهذا تجرأ الرجلان على تتبعه . وكان ميتسا على مضض من أن يدعمهما يواصلان الرحلة ، ولكنهما فى ١٧ يوليو ١٨٦٢ م حصلا على موافقته (ميتسا) ورحلا مع قافلة ، ومعهما حرس (من المحتمل أن يكون ميتسا هو الذى منحهما إياه) وبعد يومين من المسير انفصلا كل من جرانت وسبيك ، فذهب جرانت صوب الغرب متجها الى مملكة البونيورو Bunyoro ، وذهب سبيك صوب الشرق تجاه النهر ، حيث كان مصمما أن يصل اليه بمفرده .

وإذا خاب أمل جرانت (فى مهمته) فأن ذلك يرجع الى أن سبيك حرمه من فرصة الوصول الى الهدف الذى طال انتظاره ، وأنه لم يفصح عن ذلك أبدا ، ومع ذلك فقد ظل جرانت على ولائه لصديقه ولكن بطريقه نظرية ، وفيما بعد وعندما ستؤول جرانت أن يفسر تصرف سبيك غير العادى نحوه ، قال ما نصه :

« أننى تخيلت إننى سأظل رغم ذلك ملازما لسبيك » .

وقد تمكن سبيك ، ومعهم الحرس الخاص به من الوصول الى النيل ، عند منطقة أوروندوجانى Urondogani ، وكان ذلك فى ٢١ يوليو من نفس العام ، وتقع أوروندوجانى هذه على مسافة ٤٠ ميل من خروج من نفس العام . وتقع أوروندوجانى هذه على مسافة ٤٠ ميلا من خروج « وقفت على حافة النيل ، وكانت المناظر الطبيعية جميلة فى جمالها ، ولا يوجد شيء يجاوزها فى هذا المجال ، أنه انجاز كبير وذو مغزى مؤثر ،

تمثل في كشف منطقة شاسعة ، يسير من خلالها مجرى هام ، يبلغ عرضه ما بين ٦٠٠ و ٧٠٠ ياردة ، وتنتشر في بعض أجزائه الجزر الصغيرة والصخور .

وتتبع سبيلك النهر صاعدا مع مجراه ، وفي ٢٨ من شهر يوليو عبر التلال ، وعبر كذلك منطقة مستطيلة من الحشائش الكثيفة ، فضلا عن عبوره لقرية كبيرة مكتظة بالسكان ، كانت قد دمرت من قبل بواسطة الفيئة ، وبعد ذلك ، وصل الى نهاية الرحلة ، وقد كوفىء على العمل الذى أنجزه . وبعد ذلك وصل سبيلك الى الشلال الذى من خلاله يبرز النهر من الشاطئ الشمالى للبحيرة . ويضيف سبيلك فى قوله ، ما نصه : « ورغم هذا الجمال فإن المنظر كان على غير ما توقعت ، لأن سطح البحيرة كان محجوبا عن الرؤية بسبب قمة تل ، وبسبب الشلالات التى يبلغ عمقها ١٢ قدما ، ويبلغ عرضها ما بين ٤٠٠ ، ٥٠٠ قدم ، حيث كانت تميزقها الصخور ، وكان هذا المشهد وهدير المياه يثيران أى شخص لساعات طويلة ، وكا يقفز آلاف المسافرين للصيد الى التلال بكل قوتهم ، فكان الصيادون من قبائل الواسوجا Wasaga ، والواجاندا Waganda ينزلون من مراكزهم ، ويأخذون أماكنهم على الصخور ومعهم العصيان والخطايف (صنانير الصيد) ، وذلك لصيد أفراس النهر والتماشيح التى ترقد نائمة على سطح المياه ، كما كانت توجد المدييات التى تستخدم عند الشلالات أثناء العمل ، كما أن الماشية كانت تقاد لتشرب من عند حافة البحيرة ، ويشكل هذا كله — بالإضافة الى منظر القطر الطبيعى ، والتلال ذات القمم البيضاء التى تنمو الأشجار على مدرجاتها العليا ، والتى تنمو الحدائق على منحدراتها السفلى — أن يصبح الوطن صورة جميلة يرغب أى شخص فى مشاهدتها . وفى هذا الوقت ، كانت بعثة سبيلك قد أنجزت مهامها ، ويقول سبيلك ما نصه : « لقد رأيت النيل الرئيسى دون أدنى شك ، يخرج من بحيرة فيكتوريا نيانزا ، وقد تنبأت بأن البحيرة

(فيكتوريا) تمثل المصدر الكبير للنهر المقدس ، الذى زاره المفسر
الأول لعقيدتنا الدينية ،

Which Cradled the first expounder of our religious belief.

وقد أطلق سبيك على هذه الشلالات شلالات ريبون Ripon falls
الذى تولى رئاسة الجمعية الجغرافية الملكية بعد اللورد جري L. Gray
عندما كانت بعثة سبيك تواصل مهامها •

وبعد شهر التحق سبيك بجرانت فى البونيورو Banyaro ، التى
كان يحكمها ملك يسمى كامرازى Kamrasi ، الذى تتحفظ على كل من
سبيك وجرانت لعدة أسابيع فى شبه أسر • وهناك علما بوجود بحيرة
تقع فى الشمال الغربى من بحيرة فيكتوريا ، ويبدو أنه من المحتمل أن
تكون هذه البحيرة المصدر الثانى للنيل ، وعلى الرغم من ذلك فأن
سبيك لم يقم بأية محاولة لاكتشافها ، فبدلا من ذلك ، إتجه الى الشمال
صوب غندوكرو ، التى كانت تمثل محطة لتجار الرقيق العرب فى النيل
الأبيض فى السودان ، وهناك كان ينتظر الحمالين البجد والمؤن ،
وفى هذا الوقت كان سبيك قد فقد كل أمتعته ، وكان هو وجرانت فى
حالة تعب ، فقيامهما برحلة تقليدية فى بلاد مجهولة تماما ، كانت تعرض
حياتهما للخطر •

وقد استغرقت رحلة كل من سبيك وجرانت الى غندوكرو ثلاثة
شهور ، وعندما أدرك الأثنان النهر ، حاولا أن يهبطا معه ، ولكنهما
أجبرا على العودة بطريق البر بسبب الشلالات ، وكان عليهما التقدم
بصعوبة الى الأمام سيرا على الأقدام • وبعد ذلك وصلا الى غندوكرو فى
١٣ من شهر فبراير عام ١٨٦٣ م ، أى بعد سنتين ونصف تقريبا من
بدء الرحلة •

ولقد أشتاب الغضب الشديد سبيك ، بسبب قلّة عدد الحمالين
والنقص فى المؤن ، فبدلا من ذلك قابل سبيك دون توقع مكتشف

بريطاني آخر ، كان هذا المكتشف صيادا قويا ، ورحالة ، هو السير
صمويل هويت بيكر Sir Samuel White Baker الذي كان مشهورا بالكشف
الجغرافي .

وفي ذلك الوقت ، كان بيكر يبلغ من العمر ٤٢ عاما ، فكان قد
عاش بضعة سنوات في سيلان حيث قادته رحلات الصيد الى أعماق
قطر مجهول . وبعد أن قضى فترة في إنجلترا توفيت خلالها زوجته ، ولكن
لم يمنعه ذلك من متابعة السفر ، ولما سافر الى المجر ، قابل هناك فتاة مجرية
تدعى فلورنس فون ساس Florence Von Sass فأعجب بيكر بها
وتزوجها ، وكانت فلورنس نحيلة كالولد ، ولكنها كانت فتاة جميلة ،
تصغر بيكر بخمسة عشر عاما . وبعد ذلك ذهب بيكر وزوجته ليكتشفا
فروع النيل ، التي تتبع من الحبشة ، وعلم هو وزوجته بأن رجلين من
البيض قد احتجزا في منطقة أعالي النيل ، فأعتقد بيكر على الفور
بأنهما سبيك وجرانت ، وعندئذ خشى أن يكونا قد ماتا ، لذلك قرر
مغادرة الحبشة والذهاب الى غندوكرو ، حتى يتمكن من مقابلتها عند بدء
رحلتها الى الشمال . وقد بدأ رحلته الى أعالي النيل على رأس ثلاث
سفن كان على متنها ١٠٠ مائة رجل ، وقد واجه بيكر صعاب جسيمة ،
بسبب السفن ، وبسبب الرجال الذين ثبت أنه لا يمكن الاعتماد
عليهم والذين كانوا يهددون بالتمرد . ومع ذلك كان بيكر رجل مسيطر ،
فكان مستعدا لاستخدام لكلماته ، ولكن السلام كان يعم بعد تدخل زوجته
المرأة الشجاعة الساحرة النموذجية ، والتي كانت زوجة لرجل حاد الطبع ،
وكان بيكر شديد الإعجاب بهدوئها ، ونشاطها المتواصل . وقد كتب
ذلك في مذكراته يقول ما نصه : « لقد امتلكت قدرا كبيرا من الهدوء ، بحيث
كيفت نفسها على السفر في أفريقيا » كما كتب في مذكراته أيضا المعنونة بـ
« البرت نيانزا : الحوض الكبير للنيل »

Albert N'yanza : Great Basin of the Nile.

ما نصه « أن مسز بيكر لم تكن ذو صوت مرتفع ، ولم يكن أيضا

صوتها منخفضا ، وبخاصة في لحظة توهمها بالخطر ، فكانت اشارة من
يدى كافية لها . *

وفي الخامس عشر من شهر فبراير عام ١٨٦٣ م وصل بيكر وزوجته
الى غندوكرو ، وفي تلك الأثناء كتب بيكر يقول « اندفع رجالى بجنون
الى مركبى وهم يعلنون أن رجلين من البيض كانا قد قدما من البحر ،
وتساءلت هل من الممكن أن يكونا هما سبيك وجرانت ؟ وبعد ذلك مشيت
بعيدا ، وعلى الفور قابلتهما بفرح وابتهاج من أجل انجلترا العريقة ،
فكانا قد قدما من بحيرة فيكتوريا نيازا ، أى من البحيرة التى ينبع منها
نهر النيل . والآن فأنا الغموض الذى استمر لعهود طويلة قد انتهى ،
وقد وجد بيكر سبيك رجلا هزيلا جدا ، ولكن فى الواقع كان فى حالة جيدة
للمغاية ، فكان سبيك قد سار كل الطريق ابتداء من زنجبار ، وحتى هذه
المنطقة ، وكان جرانت يرتدى ملابس قديمة ، مع أنها كانت ذو قيمة ،
وكانت زكباته عاريتين وبارزتين من خلال بقايا بنطلونه . وكان هذا
البنطلون قد مزق بطريقة كبيرة ، وبدأ على جرانت التعب والإجهاد ،
ولكن على الرغم من ذلك فقد كان فى أعين كل من سبيك وجرانت بريق
يوضح الروح العالية التى قادتهما خلال هذه المناطق . *

وقد تحرك سبيك بصعوبة بسبب ما لاقاه من مصاعب أثناء
الرحلة . وكتب سبيك يقول ما نصه : « قلت بصعوبة ما هذا الفرح ،
لم نعد قادرين على الحديث بسرعة ، فكان من المتفق عليه أن نلتقى مرة
ثانية ، وبالطبع كنا ضيوفا على (بيكر) الذى أحاطنا علما بكل شيء ،
فقد أخبرنا بموت أمير كنسورت The Prince of Consort ، وأخبرنا
أيضا عن الحرب الضارية فى أمريكا . » وقال بيكر لقد جئت الى هنا
لرعايتكما ، ويأمل كما قال مازحا أن نجدنا عند خط الإستواء فى وسط
المتاعب ، التى كان عليه أن يساعدنا فى إيجاد حل لها . *

وفى الحقيقة كان بيكر يود القيام بعمل مستقل فى الكشوف الجغرافية ،

وتساءل بيكر بالقول : « ألم يبق لى مكان فى سلم المجد أئوج به • وبعد ذلك تحدث سبيك عن البحيرة التى لم تكتشف بعد ، كما تحدث عن نظريته التى يمكن أن تبرهن على أن هذه البحيرة هى المنبع الثانى للنيل • وقد أعطاه سبيك خريطة للمنطقة التى من المرجح أن توجد هذه البحيرة فيها ، وعندئذ قال سبيك لبيكر وداعا • وقد بدأ كل من سبيك وجرانت رحلتهم الأخيرة فى اتجاه الشمال تاركين بيكر مستغرقا فى البحث عن البحيرة الجديدة •

وفى شهر مارس عام ١٨٦٣ م ، غادر بيكر وزوجته غندوكرو بعد أن يضطر الى المسير مع قافلة صغيرة تابعة لزمرة سيئة السلوك من تجار الرقيق ، ويرجع ذلك الى أنه لا يوجد أى شخص آخر على دراية بهذا القطر ، الذى سوف يمران من خلاله غير هذه الزمرة ، وقد اشتكى التجار الى بيكر بقولهم أن كل قطر يمرون من خلاله قد يتحول الى خلية نحل ، وأنه لم يعد لديهم خطة عمل أو عزيمة • ولما كان بيكر لسوء الحظ يعتمد عليهم فى تحركاته ، فأنه شبه نفسه بحمار أكثر منه مكتشف يمتطى صهوة جواده ، الذى يذهب به بعيدا أثناء الكشف •

وفى شهر فبراير وصل بيكر وزوجته الى عاصمة الملك كامرازى ، ملك البنيورو Bunyoro ، الذى رفض السماح لهما بمواصلة المسير الى البحيرة ، ولكنهما تناقشا معه ، ومن مركز قوة فى لقاء بينهم تقدم كامرازى صوب بيكر ليستولى منه على زوجته الحسنة ، على شرط أن يمنحه أى شىء يطلبه ، ولكن بيكر غضب (من هذا العرض) أو من هذا التصرف من جانب كامرازى وقال مانصه :

« لو كانت هذه المرحلة هى نهاية البعثة ، لكان تصميمى فى هذه الحالة هو وضع نهاية لكامرازى ، وعلى الفور أخرجت مسدسى بهدوء ، ووجهته نحو صدره من على بعد قدمين فقط ، وخطرت اليه بازدياء ، وبدون خوف ، وأخبرته أنني لو لمست الزناد فلن يستطيع كل رجاله إنقاذه ، ولو

تجاسر على تكرار هذه الأهانة ، فأنتى سأقتله على الفور ، وبطبيعة الحال كانت زوجتى قد شعرت بجرح كرامتها ، فنهضت من مقعدها ، وهى فى حالة جنون من نتيجة ما حدث فى تلك اللحظة • وقد ألقت عليه زوجتى حديثا باللغة العربية — ولكنه لم يفهم كلمة واحدة مما قالت — وهذا ما كان يدور بخاطر ميدوسا الرقيقة ، لذا قد تبعته بخطبة أخرى أو بكلمة أخرى من شعرها ، وكانت ميدوسا هذه قد توقعت حدوث مثل هذه الاهانات الى مخدومتها ••• وبشجاعة أيضا دعت الى الهجوم على كامرازى ، وقامت زوجتى بالترجمة قدر استطاعتها للكلمة التى ألقتها ميدوسا من قبل • ومهما يكن من أمر ، فان تلك الحادثة الصغيرة مع امرأة بريطانية لها حريتها قد أخجلت كامرازى • وقال ما نصه : « لا يمكننى أن أقول شىء سوى أنتى أنسبر عن دهشتى ، وأنه يجب أن تغضب يا بيكر لانه لم يكن لدى أية نية للاساءة لك عندما عرضت عليك أن تعطينى زوجتك ، فأنتى سوف أعطيك زوجة اذا طلبت ذلك ، وأنتى أعتقد أنه لن يكون لديك اعتراض إذا طلبت منك ذلك لهذا يجب الا تثير مشكلة من ذلك ، فاذا لم ترغب فى هذا فأرجو أن تعتبر الموضوع منتهيا ، وأنتى لن أطلب ذلك منك مرة ثانية ، وعندئذ ، تقبلت هذا الاعتذار العملى وأصررت على الرحيل » •

وبعد ذلك رحل بيكر وزوجته يرافقهما حرس يتكون من ٣٠٠ رجل من رجال كامرازى ، الذين تناقصوا يوما بعد يوم ، حتى بقى منهم إثنتى عشر شخصا فقط • وكان على هذه المجموعة الصغيرة أن تعبر النهر عند النقطة التى تغطيها الحشائش المائية بصورة كثيفة ، حيث أن هذه النباتات المائية كانت تشكل سدا طبيعيا عائما ، هذا فضلا عن وجود نباتات مائية كثيفة كانت قد كونت معبرا طبيعيا عائما • وبعد ذلك تقدم بيكر وجماعته ، وطلب من زوجته أن تتبعهم • ولما قطع بيكر ربع مسافة الطريق نظر من خلفه ، ولكنه انزعج ، لأنه رأى زوجته تغرق ببطء بين النباتات المائية Weeds ، وقد تشوه وجهها ، وأصبح لونه أرجوانى ، وبينما كان بيكر ينظر اليها شاهدا تسقط فى الماء كما لو كان قد أطلق

عليها الرصاص ، وفي دقيقة واحدة كان بيكر الى جانبها ، وبمساعدة رجاله تمكن من سحبها ، كما لو كانت جثة هامة ، من خلال النباتات المائية ، بحيث جعلوا رأسها فوق سطح الماء (حتى لا تحبس أنفاسها فتتعرض للموت) : لأن حملها كان من المستحيل ، كما كان من الممكن أن يغرق الجميع خلال النباتات المائية .

هذا فضلا عن أن فلورنس قد تعرضت لضربة شمس Sun-Stroke وعندما وصلوا الى الجانب الآخر للمستنقع وضعوا فلورنس على حمالة ، وحملوها وهي في حالة محزنة أو يرثى لها ، حيث كانت موضوعة على ظهرها ، وهي عبارة عن جثة هامة ، وقد سار بيكر بجانب الحمالة وكانت زوجته في حالة من القلق والتمزق .

ومع ذلك فقد واصل بيكر المسير ، خلال يوم كامل ، مارا من خلال أرض جدداء ، وعبر المجارى المائية والغابات الكثيفة ، حتى وصل الى أعماق المستنقع ، وكذلك عبروا جميعا من فوق التلال المدرجة ، واندفعوا من خلال الأودية التى تنمو فيها نباتات البردى الطويلة ، وكانت فلورنس أثناء ذلك تهتز من فوق الحمالة ، مثل الريش الأسود الخاص بعربة نقل الموتى .

وقد سهر بيكر ليلة بعد ليلة ، لأن زوجته كانت تواصل هذيانها ، حيث كانت في حالة غير طبيعية ، كما أصبحت حادة المزاج . وفي أحد الليالى ، اعتقد زوجها أنها ستموت ، ولكنها بدأت تشفى من مرضها مع أنها بقيت مريضة وضعيفة حتى نهاية الرحلة . ويقول بيكر ما نصه « الله وحده هو الذى يساعدنا ويمد لنا يد العون » وأضاف بيكر في قوله « أننى في غاية الإمتنان في هذه اللحظة ، ولكننى لم أستطع التعبير » .

وأخيرا إقترب بيكر وبعثته من البحيرة ، وبعد عدة سنوات كتب يقول ما نصه : « لقد كافحت من أجل الوصول الى منابع النهر ، وكانت أحلامي الليلية خلال هذه الرحلة الشاقة ، توضح لى أننى سوف أفشل

بصفة مستمرة ، ولكن بعد عمل كبير وشاق ، وبعد مثابرة ، أصبح الحلم حقيقة « The cup was at my very lips » وفي هذه اللحظة شربت من المنبع المجهول قبل أن تغرب عنه شمس نفس اليوم . وقد تعطل كشف هذا المستودع الطبيعي الكبير ، الذي يرجع تأريخه الى بدء الخليقة كل هذا الوقت .

وبعد ذلك ، وفي الرابع عشر من شهر مارس عام ١٨٦٤ م . عبرت بعثة بيكر وادى عميق يقع بين التلال وكافحت حتى صعد أفرادها الى الجانب الآخر منه ، وأسرعوا الى القمة ، وفجأة تحقق الوجد ، فهناك كان يوجد بحر يشبه الزئبق يقع بعيدا ، فهو عبارة عن مسطح مائى واسع ؛ أى بحر لا حدود له ، إلا خط الأفق ، ويقع هذا البحر فى الجنوب والجنوب الغربى ، كما أنه يلمع لتعرضه لأشعة الشمس وقت الظهيرة ، وفى الغرب وعلى بعد ٥٠ أو ٦٠ ميلا ، تنتصب الجبال الزرقاء فى حضن البحيرة والتي يصل إرتفاعها الى حوالى ٧٠٠٠ قدم من مستوى سطح المياه .

ويقول بيكر « لا يمكن وصف الانتصار فى هذه اللحظة فأنها احظة تعتبر مكافأة لنا على كل عملنا فقد ظفرت بمنابع النيل » ويعبارته :
England had won the sources of the Nile.

وأضاف بيكر فى قوله ما نصه : « منذ وقت طويل فقد رتبت لإقامة ثلاث حفلات ، لكل رجالنا على النمط الأنجليزى ، تشريفا لهم على الكشف ، ولكن بسبب إنفعالى الشديد ، فأن حفلات التكريم هذه قيد ضاعت سدى » ، وبدلا من ذلك فقد قام بيكر بمساعدة زوجته فى النزول من فوق التل الى حافة البحيرة لتشرب ويشرب هو معها نخب الانتصارات Toast من ماء هذه البحيرة ، التى أطلق عليها بيكر اسم بحيرة البرت تكريما الى زوج الملكة فيكتوريا . وكتب بيكر فى هذا الصدد يقول ما نصه :

« تمثل بحيرة البرت وفيكتوريا مصدرين للنيل » ويعبارته :
The victoria and Albert Lakes are the two sources of the Nile.

وكان بيكر على خطأ عندما فكر في أن بحيرة البرت تمتد الى مسافة شاسعة نحو الجنوب ، مع أنه في الواقع كان قد وصل قريبا جدا من نهايتها الجنوبية ، وذكر أن مياه البحيرة تأتي اليها عن طريق نهر السمليكي The Semliki River الذي يربط بحيرة البرت بالبحيرة التي لم تكتشف بعد ، والتي عرفت بأسم إدوارد Lak Albert Edward وقد أضاف بيكر حلقة مهمة الى اكتشافات سبيك ، تتمثل على وجه الدقة في كشفه لبحيرة البرت التي لم تكن معروفة من قبل . لهذا رغب بيكر في الاعتقاد بأن البرت ، تمثل المصدر الثاني للنيل . فهذه البحيرة تحصل على مياهها من بحيرة أدوارد ، وذلك عن طريق نهر السمليكي ، ومن بحيرة فيكتوريا عن طريق نيل فيكتوريا ، الذي عرف على خريطة سبيك بأسم (نهر سومرست) والذي يدخل بعد ذلك الى النيل الأبيض ، الذي يخرج من النهاية الشمالية لبحيرة البرت ، والتي تحصل على مياهها من بحيرة فيكتوريا ، فلا سبيك ولا بيكر رسم خريطة متكاملة عن مجرى النيل ، فهذا العمل ترك لهنرى مورتون ستانلي .

وقد أنك المرض ونقص المؤن زوجة بيكر ، ولكن رغم ذلك فقد عملا معا وواصلوا الإبحار على طول الشاطئ الشرقي للبحيرة في قوارب بدائية ، وسارا لمدة ثلاثة عشر يوما حتى وصلا الى بلدة ماجونجو Magungo ، الواقعة عند رأس البحيرة وعند مدخل النيل الفيكتوري اليها ، وقد سافرا معا الى مسافة قصيرة (يبدو أنهما صعدا في النيل الفيكتوري) مندفعين كتماسيح النهر Crocodile - infested ، وبعد ذلك وصلا الى شلال ضخم ، وفي هذا الصدد كتب بيكر يقول ما نصه : « أن هذا الشلال أكبر ، شلال في النيل ، وتشريفا لرئيس الجمعية الجغرافية الملكية المرموق ، فقد أطلق بيكر اسم هذا الرئيس على هذا الشلال ، فعرف باسم شلال مارشيزون The Murchison falls ، لأنه كان أهم شيء في كل مكان في مجرى النهر . وعندئذ وبعد مخاطر ومغامرات عدة ، وصل بيكر عائدا هو وزوجته الشجاعة الى غندوكرو ، بعد غياب دام سنتين ونصف السنة .

وفي القاهرة ، وهما في طريق عودتهما الى أرض الوطن (بريطانيا) علم بيكر بأن الجمعية الجغرافية الملكية كافأته بالميدالية الذهبية من أجل إنجازاته ، ويتضح ذلك من النص التالي : « لقد أنجز بيكر كشوفا عظيمة على نفقته الخاصة في داخل افريقيا ، فقد زود بعثته بالأدوات اللازمة على نفقته الخاصة ، كي ينقذ كل من سبيك وجرانت بل ويحاول بكل نبل أن يكمل كشوف الرحالتين »

وقد حصل بيكر أيضا على لقب إنجليزي شرفى ، وعلى ألقاب أخرى ، وقد نشرت كتبه على التوالي في أعوام ١٨٦٦ ، ١٨٦٧ م ، وهى على النحو التالي :

The Albert N'yanza, The Great Basin of the Nile, And the Nile tributaries of Abyssinia

وتقرأ كتب بيكر مثل معظم أنواع كتب الاثارة وقصص المغامرة ، فكانت هذه الكتب مألوفة جدا .

وفي عام ١٨٦٣ م ، وعندما شرع بيكر وزوجته في الكشف عن بحيرة البرت عاد كل من سبيك وجرانت الى انجلترا واستقبلا بالحفاوة ، وعادت الى الأذهان المشكلة التي كانت بين كل من سبيك وبيرتون والتي تتمثل في أن سبيك لم يتبع مجرى نهر النيل تجاه الشمال ، ابتداء من بحيرة فيكتوريا ، مع أن بيرتون كان يعد نفسه للقيام بهذا العمل حتى يهدم نظرية سبيك ، التي تقول أن مصدر النيل يتمثل في بحيرة فيكتوريا ويرجع ذلك الى كبر حجمها وأهميتها .

وفي أغسطس عام ١٨٦٤ م وبعد ما يربو على العام من عودة كل من سبيك وجرانت ، وصل بيرتون الى لندن ، وكان لكل من سبيك وبيرتون مناصريه ، وقد أثارت القضية على أساس أن يتناظر الرجلان على الملأ ليوضح كل منهما نظريته . فكان هناك اقتراح بأن يرأس الحوار لفنجستون الذي تصادف وجوده في لندن ، في ذلك الوقت ، ولكن لم يتحقق

ذلك لأن لفنجستون إقتنع بأن سبيك كان على خطأ ، لأنه اعتقد أن النيل يحصل على فيضانه ليس من بحيرة فيكتوريا ، ولكن من مكان بعيد جهة الجنوب ، وأن سبيك المتعب قد أدار ظهره الى المصادر الرئيسية للنيل فالنهر الذى شاهده عند شلالات رييون لم يكن نهرا كبيرا كى يقارن بنهر النيل وبعبارته •

«Poor speke he wrote has turned his back uppon the real sources of the Nile.»

وقد أعد لحوار ثان بين بيرتون وسبيك رتبته الجمعية البريطانية التى تعمل على تقدم العلوم ، بحيث تعقد هذه المناظرة فى مدينة باث Path ، وكان بيرتون بكل تأكيد يريد المساهمة فى هذه المناظرة ، وعند عودته علم بأن سبيك كان يتجول ، ويقول لو ظهر بيرتون على المنصة فى مدينة باث فأنتى سأركله ، فأجاب بيرتون على هذا بالقول حسنا ، فهذا سوف يدعم نظريتى ، وسوف يدعم الله موقفى • وبعبارته :

«If Burton appears on the platform at Bath, I will kick him, well replied Burton that settles it. By God he shall Kick me.

ولقد أعد بيرتون بمجهوده الخاص خريطة فى شكل كروكى ليبرهن بها على دحض نظرية سبيك ، وقد ظهر على هذه الخريطة بحيرة تنجانيقا ، والمجارى التى تغذيها ، والتى كانت تمثل المصدر الرئيسى للنيل ، ووضح على هذه الخريطة ببساطة الموقع المفترض لبحيرة فيكتوريا • كما وضح أيضا عليها نهر روسيزى The River Rusizi ، الذى تتدفق مياهه من بحيرة تنجانيقا الى جهة الشمال ، وتصب فى بحيرة البرت • ومن الممكن أن نتذكر أن بيرتون وسبيك حاولا أن يريا النهاية الشمالية لبحيرة تنجانيقا ولكنهما لم يتمكنوا من رؤية النهر بأنفسهما من أنه يصب فى البحيرة (تنجانيقا) ولم يخرج منها ، وهذا يعنى أنه لا يمكن أن يكون هذا النيل • وكان بيرتون فى ذلك الوقت على استعداد ، لأن يصدق أن هذه المعلومات كانت معلومات مزيفة • ووضحت خريطته أيضا المنفذ الذى يخرج من

بخيرة البرت ، ويتجه في تدفقه الى غندوكرو ، وعلى هذا أعلن بيرتون ، أنه في الإمكان البرهنة على أن هذا هو النيل الحقيقي •

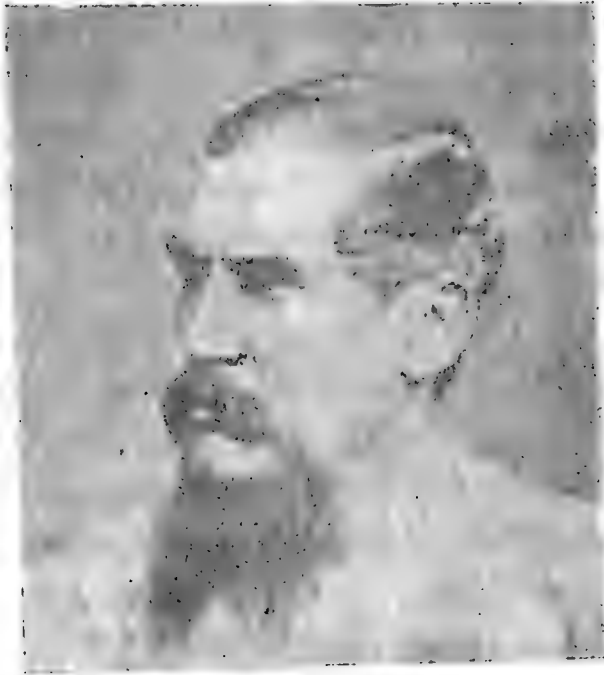
وقد وصل بيرتون وزوجته الى مدينة باث ، وكانت زوجته تحاول أن تحسم الخلاف بين زوجها وبين سبيك ، وفي اليوم السابق على المناظرة عقد إجتماع أولى في مقر الجمعية البريطانية ، وقد التقى في هذا المكان كل من بيرتون وسبيك وجها لوجه كي يفوز واحد على الآخر ، ولاحظ بيرتون أن منافسه بدأ عليه التعب والضيق • وقد بدأ الأجتماع ورأى بيرتون شخصا ما يشير الى سبيك من نهاية الصالة أو القاعة ، فوقف سبيك صائحا وهو يقول ما نصه : « أنا لا يمكننى الإستمرار في هذه المناظرة ، وفجأة ترك القاعة » • وفي اليوم التالى ، وعندما وصل بيرتون الى مقر الإجتماع من أجل هذه المناظرة الكبيرة ، علم بيرتون بأن سبيك قد مات ، فكان قد خرج في رحلة صيد في هذا الصباح ، وعندما كان يتسلق حائطا في هذه اللحظة إنطلقت رصاصة من بندقيته فقتلته على الفور •

وقد اعتبر موت سبيك قضاء وقدرًا ولكن كثيرا من الناس اعتقدوا أن سبيك قتل نفسه خوفا من مواجهة منافسه بيرتون • وفي الواقع ، فإن حقيقة الأمر ظلت مجهولة ، لأن جرائد الصديق المخلص لسبيك لم ينطق بأى كلمة ضده • وقد حضر جنازة سبيك كل من السير رودريك مارشيزون ، ودافيد لفنجستون ، وعند موته كان يبلغ من العمر ٣٧ عاما ، وتمثلت هذه المأساة في أنه كان على حق في كل ما قال ، ومع ذلك فإنه لم يستطع أن يبرهن على ذلك ، وقد خلدت الكشوف الضخمة الخاصة بسبيك على مسلة جرانيتية ، ترتفع في حديقة كنسجتون بلندن London's Kensington Garden ونقش عليها نص يقول : « ذكرى سبيك وفكتوريا ونيانزا والنيل » •

وقد استمر الجدل حول مصادر النيل بعد موت سبيك ، وقد تمسك بيرتون بعناد بنظريته الخاصة حتى دمرت بمعرفة العمل الذى قام به

ستانلى * وبعد ذلك لم يذهب بيرتون الى وسط افريقيا ، بل أنه واصل
 السفر والكتابة والمترجمة التى من أهمها ترجمته الواقعية لقصة ألف
 ليلة وليلة ، والتى حققت له الثراء والشهرة ، وفى عام ١٨٨٦ م تسلم
 نيشان الفروسية البريطانى ، وأن كانت هذه الجائزة قد جاءت متأخرة
 نظير إنجازاته الكشفية * وأخيرا مات بيرتون عام ١٨٩٠ م ، وبالتأكيد
 وضع بين عظماء مستكشفى افريقيا ، فضلا عن أنه كان عالما وكاتبا ،
 بل وشخصية بارزة ، وبعبارة المؤلف :

He certainly ranks among the greatest of Africa's explorers and as
 ascholer and writer, he is outstanding.



صورة المغامر بيرتون الذي جاء الى منطقة شرق
افريقيا عام ١٨٥٦ ليكتشف منابع النيل الابيض .
من اعداد المترجم .

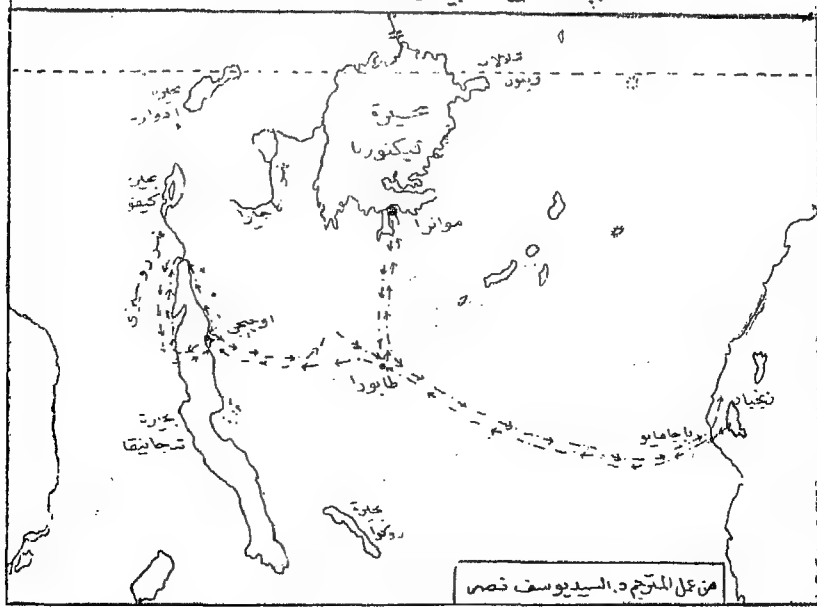


مسورة المفار الانجليزى سبيك الذى جاء
الى شرق افريقيا عام ١٨٥٦ ليكشف منابع
نهر النيل . من اعداد المترجم .



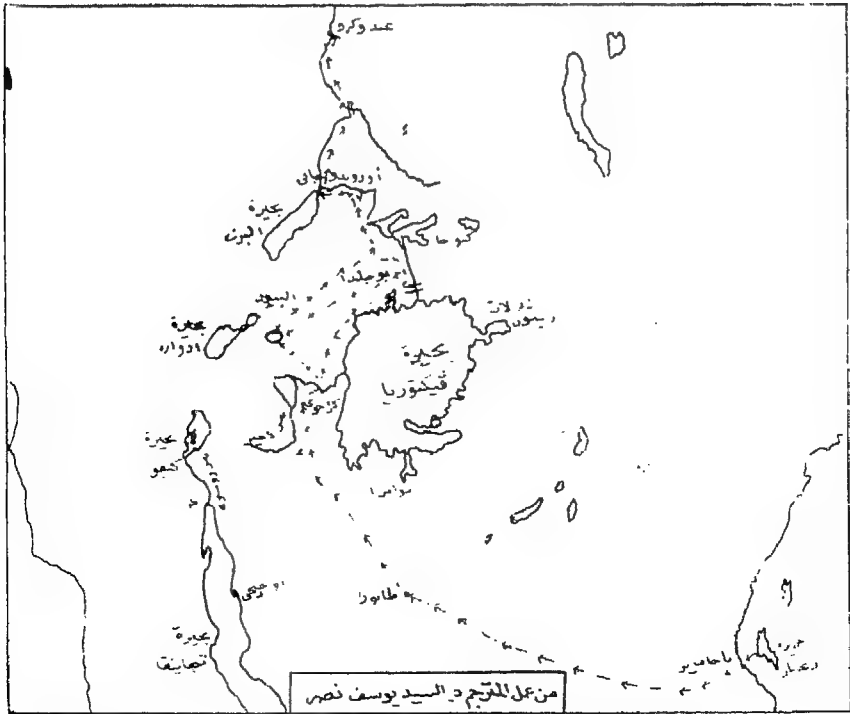
صورة المعمر البريطاني الذي جاء إلى شرق
 إفريقيا عام ١٨٦٠ ليكتشف منابع نهر النيل .
 من أعداد المترجم .

الخريطة رقم ١٥ والخاصة
بمسيرة سبيك وبيرتون عام ١٨٥٦



بدأ كل من سبيك وبيرتون رحلتها من زنجبار فباجامايو ، ثم وصلا الى طابورة ، ومنها وصلا الى اوجيجي ، ثم سارا شمالا ، ثم عادا الى المدينة مرة ثانية ، وبعد ذلك عبرا البحيرة وسارا في اتجاه الشمال حتى وصلا الى نهر روسيزي ، ثم عادا صوب الجنوب ، وبعد ذلك عبرا البحيرة الى اوجيجي ، ومنها سارا الى طابورة ، ومن طابورة سافر سبيك بمفرده تجاه الشمال فوصل الى بلدة موانزا ، ثم عاد الى طابورة حيث كان بيرتون ينتظره ، ثم سافرا معا الى باجامايو ، ومن هناك سافر سبيك الى انجلترا وسافر بيرتون الى عدن .

الخريطة رقم ١٦ والخاصة
سنة تسبيلك وجوانت عام ١٨٦٠



بدأت بعثة سيبك وجرانت مهمتها من زنجبار فبلدة باجامايو ، ثم اتجهت نحو الغرب فوصلت الى طابورة ، وبعد ذلك اتجهت صوب الشمال الغربى مارة من غرب بحيرة فيكتوريا ، ثم مرت ببلدة كراجوى ، ثم عبرت نهر كاجيرا ، ومن بعد عبوره انقسمت البعثة الى قسمين ، قسم تحت رئاسة جرانت الذى اتجه الى الغرب فوصل الى منطقة البنيورو ، وقسم برئاسة سيبك الذى اتجه صوب الشمال ، ثم اتجه جهة الشرق فوصل الى شلالات ريبون الواقعة عند مخرج نهر سومرست من بحيرة فيكتوريا . وبعد ذلك عاد سيبك الى البنيورو لمقابلة جرانت ، وعندئذ اتجه الرجلان الى الشمال حتى وصل الى غندوكرو فالخرطوم فالقاهرة فانجلترا .

التعليق على الفصل (٨)

تناولت المؤلف في هذا الفصل عددا من الموضوعات أو النقاط ، التي تعتبر على جانب من الأهمية • فقد تناولت بإيجاز دور كل من بيرتون وسبيك في هرر ، عندما كانا يقومان برحلة خاصة • ثم تناولت بعد ذلك بشيء من التفصيل بعثتهما الرسمية التي قاما بها من بلدة زنجبار ، متوجهين الى قلب القارة الافريقية ، كما أنها أشارت أيضا الى دور السير صمويل هويت بيكر ، وكشفه لبحيرة النيانزا ، ولكنها في نفس الوقت أهملت دوره الكشفي لمنطقة نهر العظيرة ، لدرجة أنها لم تشر الى هذا الدور مجرد اشارة ، كما أهملت وعن قصد ودون أدنى شك دور مصر الكشفي في عصر محمد علي ، وكذلك في عهد خلفائه من بعده ، مع أن هذا الدور الكشفي المصري كان له أهمية كبيرة للغاية بالنسبة لافريقيا وكذلك بالنسبة لأوروبا •

ولذلك كان لزاما على أن أقوم بتوضيح وتفسير بعض النقاط التي وردت في هذا الفصل ، والتي لم تقم المؤلف بتوضيحها ، ومن هذه النقاط دور مصر الكشفي في منطقة النيل الأبيض وبحر الجبل ، ودور صمويل بيكر في كشفه لمنطقة نهر العظيرة ، هذا فضلا عن القاء الضوء على مدينة زنجبار لما لها من أهمية في تلك الفترة ، حيث أنها كانت بمثابة نقطة انطلاق بالنسبة للرحالة والمكتشفين •

فمن المعروف أن مصر في عصر محمد علي كانت قد أرسلت ثلاث حملات كشفية ، في الفترة ما بين ١٨٣٩ ، ١٨٤٢ م ، ولكن لنا أن نتساءل بالقول لماذا تأخر كشف النيل حتى بداية الأربعينات من القرن التاسع عشر ، مع أن الكشف عن منابع هذا النهر كانت من أهم الدوافع وراء دخول مصر الى بلاد السودان وما وراءها ؟ نقول أن السبب في هذا التأخير يرجع الى أن قوات محمد علي عندما وصلت الى بلاد السودان عام ١٨٢٢ م ، طلب منها الوالى (محمد علي) أن تحتفظ بالأراضي

التي أستولت عليها ، ولا تتخطاها وكانت هذه البلاد تضم في غرب السودان اقليم كردفان ، وفي شرقه القلابات والقصارف وكسلا ، وأميديب ، وتضم في الشرق أيضا سواكن ومصوع وهما الميناءان اللذان أجزتهما مصر من السلطان العثماني طوال حياة محمد علي باشا * ويرجع ذلك أيضا الى أنه طلب من قواته أن تتمركز في مواقعها الأولى حتى تسترد أنفاسها ، وتستعوض ما فقدته من أفراد ومعدات ومؤن ، بعد ذلك كان من الممكن أن تواصل سيرها صوب الجنوب ، ومن المرجح أيضا أنها توقفت عند هذه الحدود ، حتى تقوم بكثف وارتياح للمناطق التي وصلت اليها ، لكي تقف على ما تحويه هذه البلاد من معادن * وبالفعل كانت هذه القوات قد قامت بفحص كل الجبال الواقعة في غرب السودان حتى تستغل ما فيها من معادن ثمينة كالذهب ، ولكنها بعد أن قامت بهذا الفحص لم تحصل على أية كمية من الذهب تستحق الذكر سواء أكان ذلك في غرب السودان أم في منطقة فازوغلي * ومن الأسباب أيضا أن محمدا عليا طلب من قواته ألا تتعدى هذه المناطق التي تمت السيطرة عليها ، لأن بقية قواته الأخرى كانت تخوض حروبا ضارية في بلاد اليونان ، فمن الصعب عليه أن يفتح جبهتين في وقت واحد ، هذا فضلا عن أنه طلب من قواته أن تقوم باستغلال الثروة الحيوانية والنباتية في السودان * لهذا قرر أن تظل قواته في مواقعها ولم تواصل مسيرها صوب الجنوب *

وبعد أن تكتلت الدول الأوروبية ضد محمد علي في غرب آسيا ، وتأكد أن نفوذه لم يعد يقوى على الاستمرار هناك وقتنا طويلا قرر منذ عام ١٨٣٩ أن يرسل أولى حملاته الكشفية الى أعالي النيل لكي تقوم بالكشف عن منابع نهر النيل التي ظلت غير معروفة للعالم مدة طويلة (١) *

وتعتبر الحملات التي أرسلت في عصر محمد علي أولى الحملات التي وصلت الى هذه المناطق ، فقبل وصولها لم يجزأ أوربي واحد على

(١) د . السيد يوسف نصر : الوجود المصري في أفريقيا في القرن التاسع عشر ، القاهرة ، ١٩٨١ ص ٨١ وما بعدها .

الدخول اليها تحت أى ظرف ، وذلك لعدم معرفة الطريق الذى سيسير فيه من خلال هذه المناطق ، هذا فضلا عن أن هذا الطريق لم يكن مأمونا من جانب القبائل النيلية ، والدليل على ذلك انه فى الفترة السابقة على القرن التاسع عشر ، كانت جهود الرحالة الأوربيين ورجال التبشير منصبة على منطقة النيل الأزرق ، وذلك لقربها من منطقة الشمال الأفريقى ، كما أن هذه المنطقة كانت عامرة بالسكان *

وكانت الحملات المصرية الكشفية التى أرسلت فى عصر محمد على ، قد توغلت فى الداخل حتى وصلت الى بلدة غندوكرو أى الى خط عرض ٤٢° ، ٤° شمال خط الاستواء ، وعند هذا الحد لم تتمكن هذه الحملات من مواصلة السير لأسباب عدة ، منها ضحالة مياه النهر وبخاصة فى منطقة بحر الجبل ، فمن اسم هذا النهر يتضح فيما يبدو انه ينحدر من منطقة جرانيتية ، ومنها كذلك عدم صلاحية المراكب المصرية للسير فى هذه المياه ولكن كان من الممكن اعداد مراكب تصلح لذلك ، ثم تقوم مصر بنقلها مفككة الى منطقة أعالي النيل ، وهناك يتم تركيبها من جديد * وفى هذه الحالة يمكن استخدامها على مياه النيانزا * وهذا ما حدث بالفعل فى عصر اسماعيل * ومن المصاعب التى صادفت حملات محمد على نقص المؤن والمعدات اللازمة لهذه الحملات حتى تتمكن من مواصلة السير ، فضلا عن ذلك فإن والى مصر أصبح فى سن لم تسمح له بمزاولة طموحاته التوسعية حتى أن صحته لم تمكنه من مزاولة نشاطه العادى ، زيادة على أن معاهدة لندن التى أبرمت عام ١٨٤٠ ، ثببت من عزيمة والى مصر ، حيث أنه خشى أن تتصدى له الدول الأوربية مجتمعة لتوسعته فى أفريقيا ، وان كان ذلك لم يحدث الا فى عصر اسماعيل ، وبخاصة من جانب بريطانيا ، ثم تلتها كل من ايطاليا وفرنسا وألمانيا *

ولكن على الرغم من ذلك فإن الحملات المصرية الكشفية التى أرسلت فى عصر محمد على الى أعالي النيل فى الفترة ما بين ١٨٣٩ ، ١٨٤٢ ، كانت قد حققت نتائج على جانب كبير من الأهمية ، منها أنها فتحت طريقا جديدا

للتجارة بين شمال السودان وجنوبه ، فهذه التجارة لم يكن لها أى أثر يذكر قبل هذه الحملات بسبب العداء المستحكم بين السكان فى الشمال والسكان فى الجنوب ، وأيضا بسبب عدم استقرار الأمن فى هذه المناطق ، فلا يمكن للتجارة أن تزدهر فى ظل ظروف غير مستقرة •

وزيادة على ذلك فإن هذه الحملات قد زودت بعدد من العلماء الأجانب من أمثال سابتييه الفرنسى ، وفيرن الألمانى وغيرهم • وكان هؤلاء الرحالة قد كتبوا تقارير على جانب من الأهمية تضمنت وصفا شاملا لخط سير هذه الحملات • فقد جاء فى تقرير فيرن وصفا دقيقا للمناطق التى مرت الحملة من خلالها ، فأشارت هذه التقارير الى الظواهر الطبيعية من أشجار وسهول ووديان كما أشارت الى القبائل التى تقطن بجوار شواطئ النيل بل وحددت أماكنها وأسمائها •

وكان من أهم هذه القبائل البقارة والشك والدنكا والنوير والبابارا والنبحور والكيك والعلباب ••• الخ ، كما تعرضت تقارير هؤلاء العلماء الى عادات وطباع سكانها ، وطرق معيشتها وأنظمتها السياسية • وكان من نتيجة ذلك كله أن عرف العالم هذه القبائل المجهولة عن قرب بعد ما كان يجهل مجرد السماع عنها ، كما ورد بالتقارير وصف لشواطئ النهر وأعماقه واتساعه ، كما ورد بها أيضا وصف للحيوانات والطيور التى تعيش على جنبات النهر (٢) •

وعلى الرغم من النتائج التى حققتها الحملات المصرية فى هذا المجال وفى تاريخ مبكر أى فى الأربعينات من القرن التاسع عشر ، الا أن مؤلفة هذا الكتاب تناست هذا الدور ، بل ولم تشر اليه مجرد اشارة ، فلولا هذا الدور ما تمكن كل من سبيك وجرانت والسير صمويل بيكر من المجئ الى هذه المناطق ، والمسير من خلال هذا الطريق ، والوصول الى ما وصل اليه هؤلاء الرحالة غير الرسميين من نجاح • ولكن لم تكتف مؤلفة هذا الكتاب

(٢) راجع د . السيد يوسف نصر : جهود مصر الكشفية فى افريقيا فى القرن التاسع عشر ، القاهرة ١٩٧٩ م •

بعدم الاعتراف بدور مصر فحسب بل أنها نسبت هذا الدور العظيم الى الرحالة الأجانب ، متناسية أن هؤلاء الرحالة كانوا يحصلون على تصاريح من مصر تخول لهم التقدم صوب الجنوب ، بل وكانت هذه التصاريح تضمن لهم الحماية والرعاية ، وبخاصة فإن مصر في هذه الفترة ، كانت تؤمن ايماناً راسخاً بتشجيع العلم ونشر الحضارة في ربوع هذه الأجزاء المجهولة من افريقيا .

وقد ذكرت سابقاً أن المؤلفة كانت قد عرضت في سياق حديثها لدور صمويل بيكر ، الذى ولد عام ١٨٢١ ، والذي كان ينحدر من سلالة ربابنة بحريين وأصحاب مزارع في المستعمرات . وكان والده غنياً يمتلك سفناً ويدير مصرفاً وشركة للسكك الحديدية ، ومع ذلك فإن بيكر كان شغوفاً بالصيد في المناطق المجهولة . ويتميز بيكر بالأعين الزرقاء والجسم الصلب واللحية الكثة . وكان قد تزوج من ابنة قس انجليزى . وعندما سافر الى سيلان أنشأ هناك مجلة زراعية ، هذا فضلاً عن أنه عمل مديراً للانشاءات في شركة للسكة الحديد في حوض الدانوب . وكان يحب الصيد بصورة بالغة ، فاصطاد الفيلة في سيلان والدببة في البلقان . وفي السبعينات من القرن التاسع عشر ذهب الى افريقيا مع زوجته الشابة بعد أن ترك أبنائه الأربعة من زوجته الأولى عند أحد أقربائه في انجلترا كي يتعرف على ما فيها من أحرار وحيوانات تغرى بالصيد ، لهذا فكر أن يضيف للصيد شيئاً آخر ، ألا وهو القيام بالكشف عن منابع النيل (٣) .

ولكن عندما جاء بيكر الى افريقيا لم يتقدم صوب الجنوب مباشرة ، ولكنه ذهب الى منطقة نهر العظيرة عام ١٨٦١ ، وتجول فيها ، وقد جاء بتقريره عن هذه المنطقة انه كان يسودها الجفاف بسبب عدم هطول الأمطار ، باستثناء وجود بعض المستنقعات التى تتخلل مجرى النهر ، وأضاف بيكر أن هذه المستنقعات كانت مزدهمة بالأسماء والتماسيح الكبيرة ، والسلاحف المائية وأفراس النهر والطيور البرية ،

(٣) الآن مورهد : النيل الأبيض . ترجمة محمد بدر الدين خليل — القاهرة ، ١٩٦٥ ص ٨٧ .

وأضاف بيكر في تقريره أيضا أن هذه المنطقة كانت غنية بالأخشاب الجافة التى كان من الصعب على الإنسان اختراقها penetration الا بعد حرقها •

ويضيف بيكر انه بعد أن فاضت مياه النهر في يوم ٢٣ يونيو من عام ١٨٦١ ، بسبب هطول الأمطار الغزيرة على الهضبة الحبشية ، تحول هذا النهر الى سطح مائى هائل يبلغ عرضه حوالى ٥٠٠ ياردة ، ويتراوح عمقه فيما بين ١٥ ، ٢٠ قدما ، وكان العرب القاطنين هذه المنطقة يطلقون عليها اسم أرض اللبن والزبد ، وذلك لخصوبتها وكثرة المراعى فيها ، فكانوا يربون فيها أعدادا كبيرة من الماشية ، وجاء بتقرير بيكر أيضا عن هذه المنطقة انه يكثر فيها الأودية التى كان منها وادى ستيت وهو وادى عميق لوجوده بين المنحدرات الغربية لهضبة الحبشة ، ومنها وادى النجر الذى تقطنه قبيلة الجعليين Jalyn ، وأضاف بيكر أن نهر العظبرة يوجد له عدد من الروع منها فرعه ستيت ، وسالام Salam ، ورويان ، وهو أحد فروع نهر ستيت ، ونهر عنجريب Angareb ، ونهر الرهاد ، ودندر • وكان من أهم القبائل التى تقطن نهر العظبرة قبائل التكرورى والبازى ، وكان البعض من هذه القبائل موالية لملك الحبشة ، لذلك كانت تمثل مصدر قلق للإدارة المصرية فى السودان ، حتى أن ملك الحبشة كان يعتبرها درعا قوية لحماية حدود بلاده المجاورة للأملاك المصرية فى السودان ، وكان بيكر قد مكث فى منطقة نهر العظبرة عاما واحدا (٤) •

وعلى الرغم من هذا الدور البارز الذى قام به بيكر فى منطقة نهر العظبرة الا أن مؤلفة الكتاب لم تشر اليه مجرد اشارة ، بل أنها أغفلت هذا الدور الذى لا يقل فى أهميته عن دور بيكر فى منطقة أعالي النيل أثناء قيامه برحلته الخاصة التى رافقته فيها زوجته الجرجية فلورنس فان ساس • فمن المحتمل أن مؤلفة هذا الكتاب لم تعتبر نهر العظبرة من ضمن منابع

(٤) د • السيد يوسف نصر : جهود مصر الكشفية فى أفريقيا فى القرن التاسع عشر • القاهرة ، ١٩٧٩ ص ص ٧١ - ٧٢ •

السفن التي تمخر المحيط الهندي • وقد أحصى بيرتون عدد المراكب التي كانت راسية في مينائها بـ ٦٠ مركبا عربيا ، كانت قد قدمت اليها من المحيط الهندي ، فضلا عن ست سفن تتبع كل من أمريكا وفرنسا وألمانيا ، وقد مرت هذه السفن من حول رأس الرجاء الصالح The Cape of Good Hope وكانت هذه السفن تأتي الى زنجبار لكي تشحن بالكوبال ، وجوز الهند والعاج والجلود والشطة والعنبر وشمع العسل وأسنان فرس البحر ، وقرن الخرتيت • وقد ذكر بيرتون الذي زارها عام ١٨٥٦ ، أن عدد سكانها كان يبلغ حوالي ١٠٠٠٠ نسمة • وكانت تتميز بالطرق الرديئة المتعرجة التي لا يكاد عرضها يتجاوز عشرين قدما • وكانت هذه الجزيرة تزخر بزئوج نصف عرايا ، وعرب وهنود وفرس وسواحليين ، وكانت الماشية والحمير تشق طريقها بين السكان ، وكان المتسولون يشحذون من المارة ، وكانت الفواكه والخضر تطرح للبيع على حصر من الخوص •

ومن المناظر المألوفة أيضا أن العبيد كانوا يطوفون بكل شارع رجلا ونساء وأطفالا ، سواء من استأنسثهم سنوات الاستعباد ، أم من الذين وصلوا لتوهم من داخل القارة ، ومنهم من كان نصف مجنون أو نصف ميت ، بسبب الجوع وسوء التغذية ، وكان مظهر هؤلاء العبيد أقرب الى الحيوانات المتردية في الشراك منه الى المخلوقات البشرية العادية •

وقد وصف توماس سى قائد سفينة البحوث البريطانية تيرنيف التي زارت زنجبار عام ١٨٨١ م ، هذا المشهد بقوله « ينتظم العبيد في صف يبدأ بالأصغر ، وينتهي بالأكبر حجما وسنا في خير مظهر ، وقد نظفت بشرتهم ودهنت بزيت جوز الهند ، وطلبت وجوههم بخطوط حمراء وبيضاء ، ويعتبر هذا مظهرا من مظاهر الأناقة ، وازدانت أيديهم وأنوفهم وآذانهم وأقدامهم بفيض من الأساور الذهبية والفضية والجواهر ، وعلى رأس هذا الطابور المؤلف من الجنسين من كافة الأعمار من السادسة وحتى الستين يسير الشخص الذي يمتلكهم ، وخلف هذا الطابور وفي كل جنب من جنباته يسير اثنان أو ثلاثة من عبيده المستأنسين ، وهم مسلحين بسيف وحراب ، وذلك لحراسة هذا الطابور •

وبهذا النظام يبدأ الموكب السير في السوق والشوارع الرئيسية ، وفي تلك الأثناء يتغنى المالك بصفات العبيد ، وبالأسعار العالية التي عرضت عليه ، فاذا استهوى أحدهم متفرجا ، وقف الصف فورا ، ثم تبدأ عملية الفحص التي لا مثيل لها من حيث الدقة في أية سوق للماشية ، وعندما يتأكد الراغب في شراء العبد من إنه ليس هناك ما يعيبه في الكلام والسمع ، وأنه خال من المرض يشرع في فحص جسمه ، فيتفقد أولا فمه وأسنانه وأذنيه ، بعد ذلك يأمر الشاري ، العبد بأن يسير أو يجرى مسافة ليتبين خلو قدميه من العيوب ، ثم يجرد بعد ذلك من النفائس اذا تم الاتفاق على الثمن ، ويسلم لمولاه الجديد » (٧) .

وقد قسمت مدينة زنجبار الى ١٨ حيا ، كان لكل منها اسمه الخاص به ، وكان مقر الحاكم يتوسط هذه الأحياء (٨) .

وأما جزيرة بمبا التي لم تتعرض لها المؤلفة بالدراسة أيضا ، فإنها تنفصل عن قارة افريقيا بواسطة قنال يتراوح عرضه فيما بين ٣٥ ، ٤٠ ميلا ، وتبلغ مساحتها ٣٨٠ ميلا مربعا ، وتقع شمال زنجبار بمسافة ٥٠ ميلا ، وقد زارها عدد قليل من السفن ، لأنها لا تمتلك ما تمتلكه زنجبار من موارد . وتبلغ درجة الحرارة في الجزيرة ما بين ٧٠° ، ٨٠° درجة فهرنهايتية ، كما أن الظروف المعيشية فيها كانت أكثر بهجة بسبب الرياح السائدة . التي تحيطها ففي الجنوب الغربي تهب رياح موسمية أخرى ، ابتداء من نوفمبر أو ديسمبر وحتى مارس .

وترجع الوفرة النباتية في جزيرة بمبا الى فصلين من الأمطار ، أولهما فصل الأمطار الغزيرة ، الذي تسقط أمطاره حوالى منتصف مارس حتى نهاية مايو أى تسقط الأمطار قبل بدء هبوب الرياح الموسمية الجنوبية الغربية ، بينما تسقط أمطار الفصل الأقل مطرا ، قبل بداية الرياح الموسمية

(٧) الآن مورهد : ترجمة محمد بدر الدين خليل ، النيل الأبيض ، القاهرة ،

١٩٦٥ ص ١٥ - ١٨ .

(8) Zoe Marsh and G. W. King Snorth. : A history of East Africa. Cambridge 1954, p. 158.

الشمالية الشرقية ، أى ابتداء من أكتوبر وحتى ديسمبر ، ويبلغ المتوسط السنوى للمطر فى جزيرة بمبا أكثر من ٧٠ بوصة فى كل الفصلين (٩) .

وبعد هذا العرض عن جزيرة زنجبار وبمبا ، يمكن القول بأن المؤلفه قد تناست كذلك أن تذكر عددا من الرحالة والمغامرين الذين وصلوا الى افريقيا قبل هؤلاء الرحالة الذين تحدثت عنهم ، وتناولتهم بالدراسة ، فمن المعروف أن البعض من هؤلاء الرحالة المنسيين كانوا قد دخلوا الى قلب افريقيا عن طريق النيل ، بصحبة حملات محمد على الكشفية ، هذا فضلا عن وصول عدد آخر منهم الى نفس هذه المنطقة فى أعقاب الفتح المصرى للمنطقة الاستوائية ، وكان هدف هؤلاء الرحالة القيام بمحاولات كشفية للنيل . ومما لاشك فيه فإن هؤلاء الرحالة المنسيون قد لعبوا دورا لا بأس به فى مجال الكشف الجغرافى الإفريقى وبخاصة فى منطقة جنوب السودان ، فكان معظمهم قد وصل الى بلدة غندوكرو ولكنهم لم يتخطوها لظروفها الطبيعية ولعدم استقرار الأمن فيها ، بينما وصل البعض الآخر منهم فى تجواله الى منطقة بحر الغزال . وعلى هذا فقد كانوا سباقين بل وروادا فى هذا المجال ، مثل كل من بيرتون وسبيك وجرانت وصمويل بيكر .

وكان من هؤلاء الرحالة المنسيين الذين رافقوا حملات محمد على باشا ، والذين لم تنشر اليهم المؤلفه ، فردريك كايو Cailliau والطبيب الرسام ريشى Ricci وليتورزك Litorezc ، الذى اشترك مع كايو فى عمل الأرصاد الفلكية ، واعداد البحوث الجغرافية ، وكورنر الانجليزى ، وزميله كونستانت Constant وزوكولى Zuccoli وسيجاتو Segato وهما من الايطاليين ، وانجلش English وبراديش وهما من الأمريكيين ، وهماى Hay وهوشت Hoscht اللذين وصلا الى الخرطوم عام ١٨٣٤ م

(9) Norman. R. Bennett : A history of the Arab State of Zanzibar. London. 1978. pp. 1-3.

وأدولف لينان الذى سمي فيما بعد باسم لينان دى بلفون Linant de Bellefond والذى قام برحلة الى النيل الأبيض ، فاعتبر أول أوربى استطاع الصعود فى هذا النهر ، وكان لينان هذا قد وصل الى اقليم الشلوك الواقع عند خط عرض ١١° ، ٣٠' أى عند جزيرة أبا . وفى الفترة ما بين ١٨٢٨ م ، ١٨٣١ م ، تمكن الكاشف ابراهيم من القيام برحلة الى بلاد الشلوك الواقعة على جانب النيل الأبيض ، كما توغل فى بلاد الدنكا ، فوصل فى سيره الى ما وراء الخط العاشر من خطوط العرض الشمالية . وفى نفس الوقت زار اللورد بردهو Prudhoe سنار والخرطوم ، كما زارها أيضا العالم الطبيعى الألمانى ادوارد روبل Ruppel الذى قطع قبل ذلك بأربعة أعوام المسافة الواقعة بين بلدة الدبة والأبيض ، فكان أول أوربى دخل كردفان .

وفى الفترة ما بين ١٨٢٩ ، ١٨٣٤ م ، كشف كادلفين Cadalvene وبروفيرى Bruevery ، وأدمون كومب Combos ، جهات النوبة وصحارى بيوضة ، ومنطقة البشاريين ، وبعض أقاليم السودان الشرقى ، حتى شاطيء البحر الأحمر ، وكان من بين هؤلاء الرحالة الذين استفادوا من هذا التشجيع فى الفترة التالية الرحالة الانجليزى هوسكنس Hoskins ، والمبرنس بوكلمسكاو Puckler-Muskau الألمانى الجنسية ، وآرثر هولرويد Holtrayed واجناتيس بالم Ignatius Pallme من الانجليز . كما ذهب الى جبال فازوغلى وسنار وكردفان من قبل محمد على ، كلا من النمساوى رسيجير Russegger والايطالى بوريانى Boreani ، وذلك للتنقيب عن معدن الذهب ، ومنهم الفرنسى برون روليه Brun Rollet ، الذى وصل الى منطقة أعالى النيل فى أعقاب حملات سليم ، والذى كتب عن جغرافية المنطقة الواقعة حول غندوكرو وبحر الغزال ، واستطاع أن يكشف مسافات بعيدة من هذا النهر ، الذى اعتبره انه يمثل مجرى النيل الرئيسى ، وفى منتصف عام ١٨٤٧ م ، وصل الى مصر أعضاء البعثة الكاثوليكية الذين اتخذوا طريقهم الى الخرطوم لتأسيس مراكز للتبشير بين الزنوج فى جهات النيل العليا ،

واستطاعت هذه البعثة برئاسة الدكتور اجنانز كنوبلخر Knobler ، أن تنشئ بعض المراكز التبشيرية في أعلى النيل الأبيض ، وحول غندوكرو ، وكذلك في منطقتي السوبات والنيل الأزرق . ومما لاشك فيه ، فإن أعضائها كانوا قد أسدوا خدمات جليلة للعلم حتى أن الرحالة سبيك قال ما نصه : « وقد احتفظ المبشران النمساويان كنوبلخر وديوك Dooyak بجداول تبين درجات الرطوبة في هذه البقاع على مدار السنة ، كما أنهما قد أعدا سجلات واقعية بالارصاد الجوية ، وقد تم ذلك بدقة عظيمة ، وبأسلوب علمي منظم » وقال جلبرت Gilbert في هذا الصدد ما نصه : « ان ما قام به هؤلاء من أسفار بين الشعوب الهمجية ومن انشاء مركز جديد للتبشير في سان كروا St Croix في بلاد قبائل الكيك الواقعة عند خط عرض ٧° شمال خط الاستواء ، ساعد مساعدة قيمة في جمع المعلومات المفيدة عن القارة الافريقية » فقد استمر أعضاء هذه البعثة التبشيرية يعملون بهمة ونشاط حتى أوائل عام ١٨٦٠ م ومع ذلك فإنهم لم يستمروا طويلا ، بل اضطروا للانسحاب من هذه المناطق ، بسبب ما أثاره تجار الرقيق من قلق وبخاصة في الفترة ما بين ١٨٥٢ ، ١٨٥٧ م .

ولم ينته الأمر برحيل المبشرين ، بل واصل الرحالة مجيئهم الى افريقيا في أعقاب حملات محمد على أيضا ، وكان من هؤلاء الرحالة الفريد بينى Alfrid Peney الفرنسى الجنسية ، الذى كان قد أعد مشروعا يتضمن القيام برحلة الى بحيرة فيكتوريا ، وقد حصل هذا الرحالة على موافقة الحكومة المصرية ، التى تكفلت بنفقات هذه الرحلة ، وبعد ذلك ذهب بينى ومعه التاجر المالى ديبونو Debono فوصلا معا الى غندوكرو في ديسمبر عام ١٨٦٠ م ، ولما سمعا عن وجود أنهار في الجهة الغربية صمما على زيارة بلاد النيامبارا للوقوف على حقيقة هذه الأنهار ، فقد تمكنا من كشف جزء من اقليم بحر الغزال ، وبعثا بنتيجة كشوفهما الجغرافية في تلك الجهات الى الخرطوم ، كما أرسلنا الى الخرطوم أيضا مجموعة من نباتات هذا الاقليم ومعادنه . وكتبنا عند عودتهما الى غندوكرو في فبراير عام

١٨٦١ م رسالة الى رئيس المجمع العلمى المصرى كيونج بك Koenig تحدثا فيها عن رحلتها من الخرطوم الى غندوكرو ، ثم أوصحا فيها زيارتهما لبلاد النيامبارا ، وبعد ذلك اعتزم بينى السير فى بحر الجبل الى ما وراء غندوكرو ، ففى عام ١٨٦١ غادرت بعثته غندوكرو متوجهة صوب الجنوب ، ولكنها ما لبثت أن قفلت راجعة بسبب ما اعتراها من صعوبات فى الطريق • وكان ميانى Maini الايطالى الجنسية قد فشل من قبله فى القيام بمثل هذه الرحلة • وفى ابريل عام ١٨٦١ م ، زار بينى هذا بلاد اللاتوكا Latuka والبارى وجمع معلومات جغرافية عن هذين الاقليمين وشعوبهما وبعد عودتهما توفى بينى فى غندوكرو فى شهر يوليو من نفس العام •

ولم يتوقف قدوم الرحالة الأوربيين فى أعقاب الفتح المصرى عند هذا الحد ، بل أنهم واصلوا مجيئهم الى جنوب السودان ، أو الى أية منطقة كانت مصر قد فتحتها من قبل • فقد جاء ليجيان Legean الى السودان الشرقى وكردفان ، ومن الأخيرة وصل الى غندوكرو ، وكتب عن حياة شعوب نيام نيام القاطنين فى منطقة بحر الغزال • كما زار غندوكرو أيضا عام ١٨٦٠ م ، كل من الألمانين هارتمان Hartman ، وزميله أدلبرت Adelbert ، والبارون هارنييه Harnier الذى زودنا بمعلومات على جانب من الأهمية عن حملات الرقيق التى كانت تخرج من غندوكرو ، كما شاهد ومن معه الحملات التى كانت تخرج منها أيضا لتقوم بالكشف عن منابع النيل ، هذا الى جانب البلجيكى برسنير Pryssenaere ، والماركيز انتتورى Antinori اللذان سارا فى النيل الأزرق وبحر الغزال لكشفهما ثم جاء المكتشف الايطالى كارلو بياجا Piaggia وزميله ميانى Miani وكذلك جاءت الى منطقة بحر الغزال فى الفترة ما بين عام ١٨٦٣ ، ١٨٦٥ المسز تنييه Tinné ، وكذلك جاء جون بشيرك Petherick الى نفس هذه المنطقة ، وكان بياجا قد قام بأول رحلاته فى النيل الأبيض عام ١٨٥٣ ، واستطاع بعد محاولات ثلاث قام بها فى أعوام ١٨٦٣ ، ٦٤ ، ٦٥ من الدخول فى نهر السوبات ، كما أنه زار بلاد نيام نيام الواقعة فى اقليم بحر الغزال •

وكان من نتيجة أعمال هؤلاء الرحالة الأوروبيين ، الذين جاءوا الى أواسط افريقيا في أعقاب حملات محمد على ، والذين تجاهلتهم مؤلفة هذا الكتاب — أما لكونهم رحالة غير مهمين ، وأما لأنها لم تتمكن من جمع معلومات كافية عنهم ، واما لأنها لم تقنع بمجهوداتهم الكشفية — قد لعبوا دورا لا يقل في أهميته عن الدور الذى قام به كل من سبيك وبيرتون وجرانت وصمويل بيكر ، بل وربما أن هؤلاء أمدونا بمعلومات غزيرة عن نباتات وطيور وحيوانات المناطق التى زاروها ، وكنا نحن بل وكان العلماء معنا فى مسيس الحاجة الى معرفتها ، كما أمدونا بمعلومات عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، لكل القبائل التى مروا من خلال أراضيها (١٠) .

ويرجع نجاح هؤلاء الرحالة المنسيين الى ما قدمته لهم على اختلاف جنسياتهم الادارة المصرية فى السودان ، والتي أخذت على عاتقها نشر الأمن والأمان فى ربوع المناطق التى أصبحت خاضعة للسيادة المصرية ، كما أنها كانت تزود هؤلاء الرحالة بما يلزمهم من حمالين ومرشدين وغير ذلك .

وفى هذا الصدد قال أحد الرحالة الأجانب ما نصه : « انه أصبح فى امكان الرحالة الذين أولاهم محمد على باشا رعايته الوصول فى تجوالهم بسلام حتى الى جبال دارفور » وأضيف انه بعد أن تم لمصر بسط نفوذها فى منطقة أعالي النيل كان فى امكان أى رحالة أوربى أن يجىء من الاسكندرية الى هذه المنطقة من وسط افريقيا دون أن يمسسه أى سوء ، ودون أن تتعرض حياته للخطر ويرجع الفضل فى ذلك الى انشاء المحطات العسكرية العديدة التى قامت مصر بانشائها على طول مجرى نهر النيل ، والتي كان من واجبها القضاء على اللصوص وقطاع الطرق ، ونشر الأمن فى ربوع هذه البلاد . كما يرجع ذلك الى العمران والمدنية التى ساهمت مصر

(١٠) د . محمد غزاد شكرى : الحكم المصرى فى السودان ، القاهرة ، ١٩٤٧ ، ص ص ١٢٥ — ١٢٨ ، ١٣٤ ، ١٣٦ — ١٣٨ .

بدون أدنى شك في ادخالهما الى أواسط افريقيا + وخاصة بعد الحملات التي أرسلتها في عهد الخديو اسماعيل ، والتي لم تتناولها مؤلفة هذا الكتاب بشيء من التفصيل مع أن الفضل كل الفضل يرجع الى هذه الحملات المصرية في كشف لغز النيل ، لأنها كانت حملات حكومية منظمة ، فكانت مصر قد أرسلت حملتين عسكريتين إحداهما بقيادة صمويل بيكر ، الذي سبق له أن زار منطقة نهر العظيرة وبحيرة ألبرت نيازنزا عام ١٨٦١ ، فعندما التقى به الخديو اسماعيل في حفلة افتتاح قناة السويس اتفق معه على ضرورة قيامه بقيادة حملة عسكرية كشفية ، كان من أهم أهدافها الكشف النهائي عن منابع النيل ، والغاء تجارة الرقيق ، التي أصبحت منتشرة في هذه الجهات ، وبخاصة بعد أن وصل اليها الأوروبيون في أعقاب حملات مصر الكشفية في عهد محمد علي ، كما انه كان على هذه الحملة تيسير الملاحة في نهر النيل ، وبخاصة بين شمال السودان وجنوبه ، هذا فضلا عن انشاء عدد من المحطات العسكرية على طول خط سيرها ، وكان الغرض منها العمل على نشر السيادة المصرية وتدعيمها في هذه البلاد ، زيادة على العمل على استتباب الأمن (١١) .

ولم تكتف مصر بهذا العمل الكشفى الذى قامت به ، ولكنها أرسلت بعثة كشفية أخرى تحت قيادة غوردون باشا الذى كان على دراية تامة بالقيام بمثل هذه المأموريات ، فبعد أن اكتملت حملة غوردون غادرت الخرطوم في ٢٢ مارس عام ١٨٧٤ . ومن المعروف أن هذه الحملة قد أعدت اعدادا جيدا عن الحملة السابقة . وبالفعل يمكن القول بأن هذه الحملة كانت قد تمكنت من الكشف النهائى عن منابع النيل ، بل ووضعت نهاية فعلية لهذا اللغز الذى ظل يحير العلماء طوال التاريخ .

ولكن على الرغم من ذلك فان مؤلفة هذا الكتاب لم تشر الى هاتين

(١١) د . السيد يوسف نصر : جهود مصر الكشفية في افريقيا في القرن التاسع عشر ، القاهرة ، ١٩٧٩ ، الفصل الثالث .

الفصل التاسع

كيف وجدت لفنجستون

في عام ١٨٦٩ م ، وبعد وفاة سبيك بخمس سنوات عاد بيكر الى افريقيا ، وكان في هذه المرة يعمل في خدمة الحكومة المصرية ، أى انه كان حاكما عاما لمنطقة حوض النيل الاستوائى . وكان بيكر الانجليزى الأول الذى تولى وظيفة رفيعة من قبل الحكومة المصرية ، وقد تلخص واجبه في أن يضع القطر الواقع الى الجنوب من غندوكرو تحت السيادة المصرية ، كما كان عليه أيضا أن يعمل على القضاء على تجارة الرقيق ، بحيث تحل محلها تجارة منظمة ، وقد وجد بيكر أن هذا الاجراء سوف يورطه في حرب ليس فقط مع تجار الرقيق ، ولكن أيضا مع كباريجا ابن كامرازى الذى خلف والده كملك للبونيورو Bunyoro وفي نهاية فترة وظيفته التى بلغت أربع سنوات نجح بيكر في طرد تجار الرقيق من منطقة حوض النيل الواقعة جنوب غندوكرو ، وأسس هيكل للإدارة المصرية التى تولاها من بعده الجنرال الشهير غوردون . وعاش بيكر حتى عام ١٨٩٣ م ، وعند وفاته كان يبلغ من العمر ٨٢ عاما ، وكانت زوجته فلورنس المحببة اليه موجودة الى جواره .

وقد ذكر عن بيكر في افريقيا انه كان رجلا قويا وذو بأس مع أنه كان يشك في أمر نفسه . وكان له عدد من النقاد ، منهم المكتشف الألمانى وعالم النبات الدكتور جورج شوينفرت Dr. George Schweinfurth الذى اعتقد في أن الطريقة التى اتبعها بيكر في طرده للنخاسة أدت الى ضرر أكثر منه اصلاح . وكان شوينفرت قد فحص بدقة مسألة النخاسة ، ومن المحتمل أن يكون بيكر قد طرد النخاسة من منطقة واحدة ولكن التجار بكل بساطة كانوا ينقلون نشاطهم الى منطقة أخرى .

وفي الفترة ما بين ١٨٦٩ ، ١٨٧٠ م ، تفحص شوينفرت روافد النيل العليا واعتقد أن كل من بيكر وسبيك لم يعبرا عنها تعبيرا كافيا رغم أهميتها . وفي الواقع تنحصر القيمة الأساسية لعمل شوينفرت في كتابه المعنون بـ : « قلب افريقيا The Heart of Africa » فقد نشر هذا الكتاب في إنجلترا عام ١٨٧٣ م ، وكان هذا الكتاب قد أعطى صورة واضحة وجليّة عن الوطن الذي مر شوينفرت من خلاله ، وفيما بعد زيد عمل شوينفرت بواسطة ألماني آخر يدعى الدكتور وليام جونكر William Junker الذي مد مجال نشاطه الى روافد النيل .

وفي هذه الفترة ، وفي مناسبة تأبين سبيك ألقى السير رودريك مارشيزون خطابا في الجمعية الجغرافية الملكية ، أعلن فيه عن اقتراحه الخاص بارسال لفنجستون مرة ثانية الى افريقيا ، في محاولة لحل المشكلة ذات الأهمية الخاصة بالمجاري المائية في وسط افريقيا . وكان لفنجستون هذا مسرورا وتواقا لهذه الفرصة التي سنتيح له الكشف عن مصدر النيل نفسه ، وقد برهن على أن نهر لولابا River Lualaba الذي تتدفق مياهه من جهة الشمال هو النيل .

وكانت خطة بعثة لفنجستون الأخيرة ، والتي بدأت في عام ١٨٦٥ م ، الكشف عن كل من منطقة سقوط الأمطار الخاصة بالنيل (أى المنطقة الاستوائية) والكنغو والزمبيزي . وكتب لفنجستون يقول ما نصه : « آمل في أن أصعد مع نهر روفوما Rovuma River أو أصعد مع بعض الأنهار الأخرى الواقعة في الشمال من رأس دلجادو Delgado ، هذا بالإضافة الى قيامي (لفنجستون) بعمل آخر يتمثل في أننى سوف أسير على طول النهاية الشمالية لبحيرة نياسا ، كما أسير كذلك من حول النهاية الجنوبية لبحيرة تنجانيقا ، لكي اتحقق بنفسى من منطقة تجمع مياه الأمطار الموجودة في هذا الجزء من افريقيا .

وكان هذا العمل من جانب لفنجستون يمثل خطة طموحة مع أنه لم

يكن في حالة تمكنه من تنفيذ ذلك • وعند بدء هذه الرحلة التي ضمت بين أعضائها اثنين من الأفارقة يدعى أحدهما سوزى Susi ، ويدعى الآخر أمودا واللذين كانا قد رافقا لفنجستون الى منطقة الزمبيزي وكان معه أيضا اثنين من الصبية كان لفنجستون قد أنقذهما من أيدي تجار الرقيق في منطقة النهر Shire High Lands وكان أحدهما يدعى شوما Chuma والذي ظل مرافقا للفنجستون حتى النهاية • وفي كل مكان كان الحظ النحس يتعقب لفنجستون • فقد ثبت أن الحملين كانوا غير راغبين في العمل حيث أنه لا يمكن الاعتماد عليهم ، هذا فضلا عن أن التجار العرب أصبحوا في عدااء مع لفنجستون ، زيادة على أن الغضب كان قد انتابه بسبب قسوة تجار الرقيق مع عبيدهم وبسبب رؤيته لمذبحة لم يستطع هو منعها من الوقوع ، فازداد حزنه أكثر فأكثر ، وفي نفس الوقت انهارت صحته ، بل وكانت محفوفة بالمخاطر ، بسبب فقدانه لصندوق أدويته ولكن رغم ذلك فقد أصر على مواصلة العمل ، وخطط بأن يتخذ طريقه صاعدا مع نهر روفوما ، ولكن عندما حان الوقت لعبور بحيرة نياسا ، لم يجد أحدا ليساعده في عبورها فاضطره ذلك الى المسير حول الطرف الجنوبي لهذه البحيرة ، وبعد ذلك اتجه صوب الشمال الغربي في اتجاه بحيرة تنجانيقا • وفي نهاية هذه الرحلة وصل الى بحيرة مجهولة تعرف باسم بحيرة مويرو Lake Mweru الواقعة بالقرب من رافد نهر لولابا The Lualaba River وفي نفس الوقت اكتشف لفنجستون بحيرة بانجويلو Banfiweolo Lake ، التي تقع الى الجنوب من بحيرة مويرو ، وعلى مسافة ٨٠ ميلا ، وتتصل بها عن طريق نهر مجهول • وعند الشاطئ الغربي لبحيرة تنجانيقا ، كافح لفنجستون بكل قوة حتى تمكن بعد ذلك من عبورها الى بلدة أوجيجي Ujiji ، وهناك مكث بها ، لأنه كان لا يستطيع أن يتقدم الى الأمام خطوة واحدة ، وفي هذا الوقت أشاع الحملون الذين كانوا قد هجروا البعثة اشاعات عن موته • وقد وصلت هذه الاشاعات الى انجلترا ، وهناك وجدت وسائل الإعلام البريطانية الفرصة ملائمة (الصحافة البريطانية) وبخاصة

جريدة النيويورك هيرالد لترسل محررها اللامع هنرى مورتون ستانلى الى
أواسط افريقيا ، لكي يتحقق من صحة اشاعة موت لفنجستون من عدمه •

ويعتبر ستانلى ، بكل المقاييس من أعظم مكتشفى افريقيا ، وبالطبع
فان أعماله كانت مدهشة ، فقد حقق النصر منذ طفولته على الخوف الذى
يمكن وصفه بالقصص التى وردت فى روايات تشارلز دكنز The novels
of Charles Dickens وكانت أخطاؤه نتيجة مباشرة لتصميمه على الحياة •
وقد ولد ستانلى عام ١٨٤١ م فى مدينة دينبج Denbigh فى مقاطعة ويلز ،

وكان ابنا غير شرعيا لريفى Cottager يدعى جون رولاندس John Rowlands
الذى أعطى اسمه لستانلى • وقد مات أبوه هذا بعد مولده بمدة ليست
طويلة ، وذهبت أمه الى لندن ، كى تبحث عن عمل كخادمة وتركته فى رعاية
أقارب لها ، حيث أودع فى الخامسة من عمره فى اصلاحية للأحداث
Workhouse كانت تابعة لأبروشية • وكان لهذه الاصلاحية مدرسة من

النوع الردىء School of bad Sort ولقى الشاب جون رولاندس
طوال التسع سنوات التى قضاها فى الاصلاحية الضرب والقسوة من جانب
ناظر هذه المدرسة ، الذى كان نصف مجنون ، والذى أنهى حياته فى المنزل
الخاص بالمختلين عقليا • وكان ستانلى معذبا حتى فى قمة شهرته بسبب
ذكريات الماضى ، وبسبب حادثة كانت قد حدثت له ، فقد تمثلت هذه
الحادثة فى أن واحدا من أصدقائه ، وهو الطفل الذى وصفه ستانلى
بأنه ملك جمال المدرسة قد مات فجأة ووضع فى مستودع الجثث بالمدرسة •
فزحف جون رولاندس ومعه واحدا أو اثنين من الأولاد الآخرين الى داخل
هذا المستودع ، حيث كان يرقد جسم صديقهما ثم عادا ومعهما الملاءة التى
كان يغطى بها جسمان الولد الميت • ونتيجة لذلك فقد أصابهما الرعب
والفزع ، بسبب اللكمات والضربات التى تعرضا لها من جانب المسئولين
عن هذا المستودع •

ولقد احتل رولاندس كل هذه الظروف الفظيعة حتى بلغ سن
الخامسة عشر من عمره وبعد ذلك تمرد على هذه الأوضاع ، ولكنه هدد

بالجلد مرة أخرى ، حتى أن رئيس المدرسة القاسى عاقبه بالضرب المبرح ، وازاء هذه الظروف اضطر ستانلى الى الهروب من اصلاحية الأحداث ، حيث قفز من فوق حائطها ، واستقبله أقاربه وهم على مضض لأنهم كانوا لا يرغبون فى استقباله . لهذا غادر ستانلى دينبج الى ليفربول Liverpool حيث كان عبئا ثقيلا على خالته المتزوجة ، وهناك وجد عمل فى أحد المحلات (دكاكين) .

وكان ستانلى يتقاضى أجرا ضئيلا للغاية من هذا الدكان . وكان هذا الأجر لا يكفيه لذلك التحق وهو فى سن الثامنة عشرة بسفينة أمريكية ليعمل عليها خادما As Cabin boy وكانت الحياة على ظهر هذه السفينة قاسية لدرجة أنها كانت مشابهة تقريبا للحياة التى كان ستانلى يعيشها فى اصلاحية الأحداث ، وفى نيو أورليانز At New Orleans حصل ستانلى على مرتب أقل من المتفق عليه ، فاضطر ازاء ذلك الى الهرب ورغم ذلك فقد أصبح العمل ضروريا بالنسبة له ، لذلك نجده يقترب بجرأة وبرقة من رجل غريب ، ويسأله عن عمل ، وكان هذا الرجل الغريب يعمل سمسارا للقطن Cotton broker ولم يكتف هذا السمسار فقط بايجاد عمل لستانلى ، ولكنه اصطحبه الى منزله ، وأعطاه اسمه الجديد ، هنرى مورتنون ستانلى Henry Morton Stanly وقد قضى ستانلى الشاب سنتين فى العمل ، وفى أثنائهما سافر مع والده الجديد فى مهمة تجارية . وبعد ذلك مات ستانلى الكبير تاركا من بعده ستانلى الشاب الذى لم يكن متبنيه بطريقة شرعية أو رسمية ، وحيدا وبدون توجيه .

وعندما انفجرت الحرب الأهلية (الأمريكية) جند ستانلى فى الجيش الاتحادى ، وقد أسر فى موقعة شيلو Shiloh ، وأثناء تبادل عملية الأسرى وافق ستانلى على الالتحاق بالجيش الاتحادى ، ولكنه فى هذا الوقت وقع فريسة للمرض ، ولكنه بمجرد أن شفى من مرضه ، سرح من الخدمة العسكرية ، وفى خريف عام ١٨٦٢ م ، أبحر ستانلى الى انجلترا ، وحضر فجأة الى منزل أمه ، ولكنه أبعد على الفور ، وبذلك ازداد شعورا

بالمرارة ، من أسبرته أكثر من قبل ، وكذلك من الوطن الذى نبذه ، ونتيجة لذلك عاد مرة ثانية الى أمريكا • وبعد قيامه برحلات بحرية عديدة التحق بالأسطول الاتحادى ككاتب سفينة ، وفى أثناء البعثات التى كانت ترسل ضد حصن فيشر Fort Fisher أرسل ستانلى برقيات Despatches الى الجرائد وكان محررو هذه الصحف يقبلون البرقيات ويقومون بنشرها •

وعندما وضعت الحرب أوزارها ، أخلى سبيل ستانلى من الخدمة فى الأسطول (الأمريكى) ، وبعد ذلك قرر أن يعمل كل وقته صحفيا ، وبسرعة نجح فى هذا العمل • وفى عام ١٨٦٨ م ، التحق ستانلى بهيئة جريدة النيويورك هيرالد ، وقد عهد اليه بأمر لفنجستون ، وكان هذا واحد من الأعباء الهامة العديدة التى تولاها ستانلى ، وقد رتبت هذه المهمة الى ستانلى فى باريس بمعرفة جيمس جوردون بنيت Gordon Bennett المدير وابن صاحب الجريدة ، وفيما بعد وصف ستانلى مقابله مع بنيت فى كتابه المشهور والمعنون بـ « كيف وجدت لفنجستون How I found Livingstone? فكان قد دار حوار بينه وبين بنيت جاء فيه :

« فى أى مكان تعتقد فى وجود لفنجستون يا بنيت ؟ فأجاب بنيت بقوله ، فى الواقع لا أدري يا سيدى ، ثم سأله ستانلى ، وهل تعتقد انه حى ، فأجاب بنيت بالقول ربما يكون حيا ، وربما يكون ميتا • فقال ستانلى : « حسنا أنا أعتقد انه على قيد الحياة ومن الممكن أن نجده وأنا سأذهب كى أرسل لك يا بنيت بخبر العثور عليه فأخرج بنيت ألف من الجنيهات وأعطاه الى ستانلى ، وقال بنيت الى ستانلى وعندما تذهب الى هناك أى الى افريقيا للبحث عنه فسوف أعطيك ألف أخرى من الجنيهات ، وعندما تنفقهما فسوف أعطيك ألف ثالثة ، ولما تنتهى من انفاقها فسأعطيك ألف رابعة ، وهكذا فعليك يا ستانلى أن تجد لفنجستون وبعبارة : «Find livingstone»

وعندئذ كان لدى ستانلى مبلغا غير محدد من المال ، ولكن قبل أن

يتوجه ستانلى للبحث عن لفنجستون فى أدغال افريقيا ، صدرت اليه التعليمات بحضور الافتتاح الرسمى لقناة السويس ، ثم بعد ذلك كان عليه أن يصعد مع النيل لى يكتشف كل ما يستطيع كشفه من المناطق التى قامت بعثة السير صمويل بيكر بكتشفها فى أعالي النيل ، وكان عليه كذلك أن يزور أورشليم ، واستانبول والقرم ، وبحر قزوين وايران ومن هناك يذهب الى الهند .

وأضاف ابن صاحب الجريدة يقول :

« بعد أن تذهب يا ستانلى الى الهند يكون فى امكانك الذهاب وراء لفنجستون ومن المحتمل أن تسمع بأن لفنجستون فى طريقه الى زنبار ، ولكن اذا لم يحدث شئ من هذا ، فعليك الذهاب الى داخل افريقيا لى تجده اذا كان على قيد الحياة وارسل أى أخبار عن استكشافاته كلما تمكنت من ذلك ، وفى حالة ما تجده ميتا ، فأرسل كل الأدلة الممكنة الخاصة بموته . فهذا هو المطلوب . وانتهى الحوار بين الاثنين ، وقال بنيت لستانلى : « ليلتك سعيدة ، والله معك ، عندئذ قال ستانلى الى بنيت ليلتك سعيدة ، وأضاف ستانلى متسائلا بالقول : « ما تستطيع الطبيعة أن تفعله فسوف أفعله ، فمأمورية كهذه سأقوم بها وسيكون الله معى » وبعبارة :

«What it is in the power of nature to do I will do, and on such an errand as I go upon, God will be with me.»

وبأمانة منقطعة النظير فقد أنجز ستانلى كل المسئوليات التى أوكلت اليه ، فأرسل برقيات الى جريدة النيويورك هيرالد وقد مضى أكثر من ١٤ شهرا على يوم السادس من شهر يناير عام ١٨٧١ م ، وهو اليوم الذى قابل فيه ستانلى بنيت ففى تلك الأثناء كان ستانلى قد وصل الى زنبار ، كى يبدأ بحثه وقد مكث بعض الوقت عند القنصل الأمريكى لأنه كان يعتبر نفسه أمريكيا تماما ، وكان ستانلى جادا فى الحصول على أخبار جديدة ، حتى انه رفض أن يذيع خططه الى جون كيرك John Kirk ، الذى كان

يعمل في ذلك الوقت قنصلا لبريطانيا في زنجبار • وكانت القافلة التي التحق بها ستانلى كبيرة ، ومعدة اعدادا جيدا ، وسار ستانلى في خط مستقيم أثناء فصل المطر ، وكانت خطواته سريعة ، أى انه كان أسرع من لفنجستون وبيرثون وسبيك • وفى الثلاثين من نفس الشهر ظهر ستانلى في صورة رائعة ، حيث انه كان منظما بدرجة كبيرة فقد قاد رجاله بطريقة حازمة • ففى كل صباح كان يوقظ قافلته بالفرقة التي يحدثها كرباج حمار السيد العظيم (أى ستانلى) والتي تشبه طلقات المسدس • وبعبارة :
«Every morning he roused the caravan with a crack like a pistolshot, of the Great Master's donkey Whip»

وقال ستانلى : « لم يكن هناك وقت أمام الأفراد (الحمالين) ، الذين يريدون الهرب » وأضاف في قوله : « انه عندما يكون الطين مبلل بالماء ، ففى هذه الحالة يصبح لنا ، ويصبح تماسكه الطبيعى هشا ، مما يساعد ذلك على الكسل ، بين الرجال ، لهذا فان استعمال الكرباج خلف ظهر الحمالين خير وسيلة لاعادة نشاطهم • وفى أحيان أخرى يؤدى ذلك الى نشاط مكثف » • وكان الشخصان الأوربيين أعضاء بعثة ستانلى غير مقتنعين بهذه الرحلة ، حيث ماتا في الطريق ، لأنه لم يكن لديهما المقدرة على مواصلة المسير الشاق •

وكان تقرير ستانلى الذى يريد كتابته في شكل كتاب عند عودته ، كان دراميا ومثيرا للعواطف ويتضح ذلك من قوله :

« لا يستطيع رجل أو رجال أحياء ايقافى عن القيام بهذا العمل ، ولكن الذى يمنعنى هو الموت فقط ولا حتى هذا الموت ، فأنا لن أموت ، فأنا لن أموت ، فأنا لا أستطيع أن أموت فكل شئ لا أعرفه يخبرنى بذلك ، أنا لا أعرف ماذا يكون هذا ، فشىء ما يخبرنى هذه الليلة ، بأننى سأجده (لفنجستون) و ••••• وسف أكتب عنه أكثر فسوف أجده ، أجده ، فحتى بالكلمات الملهمة اننى أشعر بسعادة كبيرة وبخاصة عندما أقوم بصلواتى ؟ فسنأتم هذه الليلة بهدوء •

ولم يمنع الموت ستانلى ، (من تحقيق هدفه) • فمن المعلومات التى تلقاها ستانلى أن لفنجستون كان على قيد الحياة ، وكان موجودا فى أوجيجى ، وهناك وفى حضور حشد كبير من الناس حدث هذا اللقاء الشهير ، وفى هذا الصدد كتب ستانلى يقول : « عندما تقدمت لملاقاته لاحظت انه صاحب اللون ، ويبدو عليه الارهاق ، وكان ذو لحية رمادية ، ومرتديا طاقية زرقاء ، ومن حولها رباط من الخيط المذهب الفاتح ، ومرتديا أيضا صديرى ذو أكمام حمراء ، وبنطلونا من الصوف الخشن ، وبعدئذ جريت مسرعا نحوه وقد أصابنى الخوف من هؤلاء الدهماء وعانقته • وكان هو الانجليزى الوحيد من بين هؤلاء الدهماء ، وكنت لا أعرف كيف يستقبلنى لفنجستون ، لهذا فضلت أن يكون الجبن وعزة النفس شيئين طبيين ، فسرت عن عمد نحو (لفنجستون) وخلعت قبعتى وقلت يا دكتور لفنجستون هل تعرف من أكون أنا ، قال لفنجستون نعم ، وكان فى تلك الأثناء يبتسم ابتسامة رقيقة وخلع طاقيته باستخفاف فوضعت على رأسه طاقيتى محل طاقيته ، ووضع هو طاقيته على رأسى ، وتعانقت أيدينا ، وقلت بصوت مرتفع ، أشكر الله يا دكتور ، أن سمح لى بأن أراك ، فأجاب لفنجستون بقوله : « أنا ممنون فأنا هنا وسوف أحثفى بك » •

وقد قضى ستانلى أربعة أشهر مع لفنجستون حيث انتعشت صحته ومعنوياته بسرعة • وكانت هذه الشهور كلها بالنسبة لستانلى شهور ذكريات فهو الذى تعلم كيف يجب ويحترم الرجل الذى يكبره سنا • فوجد فيه صورة الأب المثالى • وبدأ لفنجستون مغرما باستانلى مع أنه كان يختلف عنه فى الشخصية تماما فكان لفنجستون أبوى Paternal وكان غاية فى الصبر مع أتباعه من الأفارقة بينما كان استانلى الرجل الذى يثق ثقة لا حدود لها فى سمو الرجل الأبيض على الملونين ، فبذلك كان رجلا غير حساس ، بل وكان دكتاتورا ، وكان من تسليته على سبيل المثال أن يتذكر المحادثة التى سمعها ، والتى دارت بين خدام لفنجستون وبين خدمه ، وهذه المحادثة على النحو التالى :

« يقول أحد خدام ستانلى مخاطبا واحدا من خدام لفنجستون ،

سيدكم الذى يدعى لفنجستون يخاطبكم بالقول يا خدمى ، لهذا فهو رجل طيب ، بل أنه رجل طيب جدا فهو لم يضربكم ، لأنه طيب القلب ، ولكن سيدنا (ستانلى) فهو رجل حاد الطبع قاسى مثل النار » .

وفى فترة الشهور التى قضاها ستانلى مع لفنجستون سأله ستانلى عن استكشافاته ونظرياته ، وسأله أيضا اذا كان قد اكتشف النهاية الشمالية من البحيرة (بحيرة فيكتوريا) التى ادعى بيرتون أن نهر الروسيزى Rusizi River يخرج منها ، فأجاب لفنجستون على هذه الأسئلة بأنه لم يفعل ذلك ، لأنه كان معتقدا أن نهر لولابا Lualaba River يقع فى الجنوب الغربى وعلى مسافة بعيدة (من بحيرة فيكتوريا) ومن الممكن اثبات انه هو نهر النيل ، وليس من الممكن أن تكون بحيرة تنجانيقا مصدرا للنيل . فنصح ستانلى بالقول حسنا ، لو كنت مكانك يا لفنجستون لكنت اكتشفت بحيرة تنجانيقا ، قبل مغادرتى هذه المنطقة فأنا سأكتشفها ، وأحل كل الشكوك حول هذا الموضوع .

ولقد وافق لفنجستون على ما قاله ستانلى ، وعلى أثر ذلك ركب الرجلان فى قارب صغير متوجهين الى النهاية العليا للبحيرة (بحيرة تنجانيقا) فاكشف لفنجستون على الفور أن بيرتون كان مخطئا : لأن كل من بيرتون وسبيك أخبرا أن مياه نهر الروسيزى Ruisizi تتدفق نحو الجنوب فى البحيرة . وهكذا فلم يكن هناك اتصال بالنهر الرئيسى الذى تتدفق مياهه نحو الشمال . كما لم يعرف نظام الصرف فى هذه المنطقة .

وقد تجاسر لفنجستون على العودة الى نهر لولابا Lualaba River كى يكمل عمله ، وبخاصة بعد أن زاد اعتقاده بأنه على حق ، ورفض لفنجستون أن يصطحب ستانلى الى انجلترا ولكنه أعطى ستانلى كل تقاريره ، كما أن ستانلى أعطاه الحمالين والمؤن من مخزونه الخاص . وقد تضمنت تقارير لفنجستون خطابا الى جريدة النيويورك هيرالد ، وفى هذه التقارير كان لفنجستون قد قدم وصفا للمذبحة الدموية التى قام بها

تجار الرقيق ضد المئات من الناس في منطقة نيانجوى Nyangwe الواقعة على نهر لولابا ، وكذلك قدم وصفا عن الفظائع التى تورط فيها تجار الرقيق في منطقة أوجيجى ، وذكر لفنجستون انه بسبب انتشار العبودية في أوجيجى ، ينبغي أن يؤدى هذا الى القضاء على تجارة الرقيق في ساحل شرق افريقيا • وكتب لفنجستون يقول ما نصه : « اننى أعتبر ذلك مسألة هامة بل لا أبالغ عندما أقول ، انها مسألة أهم بكثير من الكشف عن كل مصادر النيل » •

ولا زال لفنجستون مصمما على اكتشافه لنابع النيل حتى ولو كلفه ذلك العودة نحو الجنوب أكثر من مرة ، وفي هذا الصدد كتب لفنجستون يقول ما نصه : « من الضروري التغلب على هذه المشكلة لكي أتمم عملى ، ومع ذلك فلم يحدث هذا بعد ، وبعبارة : « It was not to be Halted » « وفي شهر أبريل عام ١٨٧٣ م تعطل لفنجستون بسبب المرض المميت الذى تعرض له في المنطقة الواقعة بالقرب من قرية أولالا Ilala ، القريبة من بحيرة بانجويلو Bangweilo ففي الصباح الباكر لأحد الأيام وجد الخادمان المخلصان سوزى Susi وشوما Chuma سيدهما لفنجستون في وضعه الذى تركاه فيه في الليلة السابقة راكعا بجوار سريريه ، بحيث كان واضعا وجهه بين يديه ، كما لو كان يصلى أو يتوسل الى الله ، ولكنه في الحقيقة كان ميتا •

وعندئذ بدأت نهاية الرحلة لهذا البطل « رحلة لفنجستون » • فقام كل من سوزى وشوما ومعهما ستين شخصا من الرجال الشجعان ، بدفن قلب سيدهما تحت شجرة وبعد ذلك قاما بتحنيط جثته ، ولفها بحيث جعلوها شبه ربطة من الملابس ، لأنهما كانا مدركين ، أنهما سوف يتصارعان مع القبائل التى تعتقد في أن الجسم الميت يكون زمرا لسوء الحظ ، أو لكارثة متوقعة ، لهذا حمل هذان الشخصان هذا الحمل المربوط (جثة لفنجستون) والمدعم بالأعمدة الخشبية وبدأ رحلة السفر التى يبلغ طول مسافتها ١٥٠٠ ميل ، ابتداء من النقطة التى بدأ منها ، وحتى ساحل شرق افريقيا • وقد

استغرقت هذه الرحلة ما يربو على عشر شهور * ورغم ذلك فلم يتخلى كل من سوزى وشوما عن الجثمان ، حتى وصلا الى باجامايو Bagamoyo وهناك سلما الجثة الى المسؤولين البريطانيين في زنبار *

وقد نقل جثمان لفنجستون الى انجلترا ، وفي الثامن عشر من شهر أبريل عام ١٨٧٤ م ، دفن في ماثوا الأخير ، في كاتدرائية وست منستر بلندن London's West minster Abbey وقد لعبت قصة لفنجستون دورا هاما بين هؤلاء الذين حملوا الراية من بعده ، من أمثال ستانلى ، وكيرك وجاكوب وين ريت Jacob Wain Wright الذى كان واحدا من هؤلاء الرجال الذين حملوا الجثمان طوال الرحلة العجيبة الى الساحل *

وقد كتبت العبارة التالية على مقبرة لفنجستون « تخليدا لذكراه ، وهى على النحو التالى :

« يمشك هنا جثمان دافيد لفنجستون من أجل ما قدمت يداه من أعمال فى البر والبحر فضلا عن ذلك فهو المبشر Missionary والرحالة Traveller والخير Philanthropist » * وكان لفنجستون قد ولد فى ١٩ مارس عام ١٨١٣ م فى بلنتير Blantyre ، بمقاطعة لانكشير Lankshire ومات فى اليوم الأول من مايو عام ١٨٧٣ م ، فى قرية تشيتامبو Chitambo بمنطقة أولالا Ulala *

وقد وضع تمثال للنفجستون بملابسه التى وصفها به ستانلى ، أمام الجمعية الجغرافية الملكية فى لندن ، وهو بمثابة تكريم لهذا الرجل الذى قضى ثلاثين عاما من حياته فى كشف افريقيا ، محاولا بذلك تحويل Convert القبائل الافريقية الى العقيدة المسيحية ومع أنه كان قد فشل

في الكشف عن مصادر النيل ، الا انه سخر عمله ضد العبودية وقد دعمت
هذه الحملة التي قادها لفنجستون ضد العبودية من جانب السير جون كيرك
Sir John Kirk ، وقد أسفر عن حملته هذه اجبار سلطان زنجبار
على منع تصدير العبيد من كل مكان من أملاكه في شرق افريقيا حتى أن
هذا السلطان قد قام بغلق سوق الرقيق في بلاده الى الأبد .

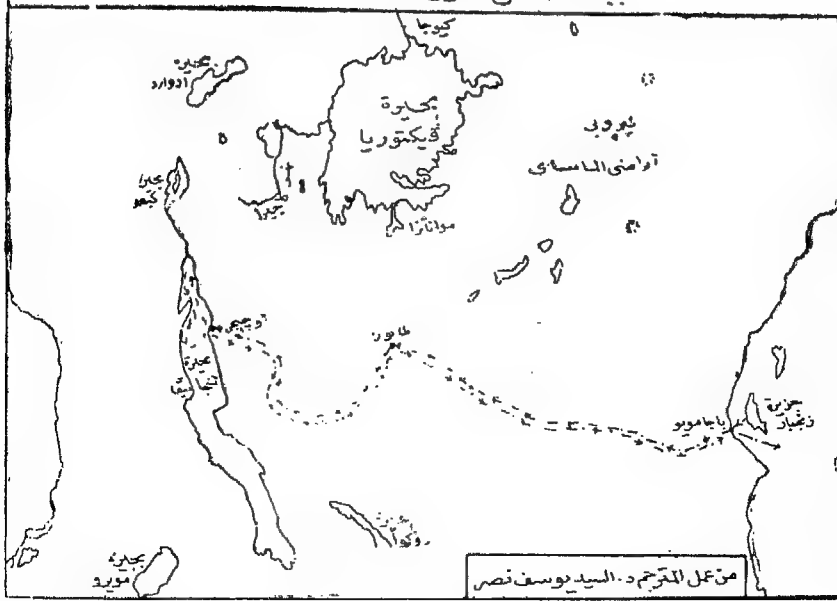


صورة المغامر الألماني الدكتور يونكر الذي جاء الى منطقة بحر الفزال
عام ١٨٧٧ م وذلك لاكتشاف أنهار هذه المنطقة ، وجمع بعض عينات من
نباتاتها وطيورها وحيواناتها .



صورة الأمير الای بروت بك الذي عمل في خدمة الحكومة المصرية في عصر
الخدیو اسماعیل ، وقد اكتشفت المنطقة المتسدة من أم درمان وحتى الأبيض
عام ١٨٧٥ . من اعداد المترجم .

خريطة رقم ١٧ والخاصة
ببيئة ستانلي الأولى عام ١٨٧١م



بدأ ستانلي رحلته من زنجبار ، ثم مر بمدينة باجامايو وطابوره ، ومنها
اتجه غربا الى بحيرة تنجانيقا ، فوصل الى مدينة أوجيجي ، وكان الهدف من
هذه الزيارة البحث عن دافيد لفنجستون الذي أشيع عنه أنه مات في بلدة
أوجيجي ، ومن هناك طاف الرجلان على سطح مياه بحيرة تنجانيقا من جهة
الشمال .

التعليق على الفصل (٩)

أغفلت مؤلفة هذا الكتاب دور كل من الألمانين دكتور جورج شوينفرت ، والدكتور يونكو الذى قدم الى افريقيا عام ١٨٧٦ م على رأس بعثة كشفية لكشف الجزء الداخلى من خور بركة ، والذى ظل غير معروف فترة طويلة من الزمن • وكان يونكو قد اتخذ طريقته من السويس عبر البحر الأحمر ، حتى وصل الى جدة ، ومنها الى سواكن • وفى ذلك الوقت كان الطريق الى الخرطوم معطلا بسبب الحرب الحبشية المصرية • وقد وصف يونكر خور بركة بأنه عبارة عن نهر مخيف ، وبخاصة فى زمن الفيضانات ، وبعد زمن الفيضانات يجف بسبب تسرب مياهه الى البحر الأحمر ، لذلك كان الأهالى يحصلون على المياه من الآبار ، ومن بعد توكر يتجه هذا الخور من الجنوب الى الشمال مع وجود بعض الانحناءات التى تعترض مجراه ، ويتسع مجراه العلوى عن مجراه السفلى ويعتبر هذا الخور الحد الطبيعى والسياسى لقبائل بنى عامر وهندوده (١) •

وفى نفس العام (١٨٧٦) م واصل يونكر مسيره الى الخرطوم ، ومن هناك قرر السفر الى نهر السوبات الذى يوجد على شاطئيه القرى التى يقطنها عددا من القبائل النيلية ، التى تمارس نشاطها البشرى فى الزراعة البدائية والرعى (٢) •

وفى نفس العام اتجه الدكتور يونكر الى منطقة أعالي النيل وهناك تجول فى منطقة بحر الجبل وبحر الغزال • وكان يونكر قد كتب تقريرا عن هذه المناطق جاء فيه انه تمكن من اثبات أن نهر الجت Jet الموجود فى منطقة المكاراكا ، هو عبارة عن نهر صغير يتجه نحو الشمال ولم يكن هو المجرى العلوى لنهر الرول Rohl ، وتحقق كذلك من وجود كل من نهر

(١) د • السيد يوسف نصر : جهود مصر الكشفية فى افريقيا فى القرن ١٩ ، رسالة ماجستير غير منشورة ، القاهرة ، ١٩٧٩ ، ص ص ٧٣ — ٧٤ •
(2) Dr. Junker : Voyages Dans L'Afrique Equatoriale. Bul. Soc. Kh. Geog. No. 7. pp. 20-26.

أوليه Ouelle ، الذى اكتشفه شوينفرث ونهر أروفيما Aruvima الذى اكتشفه ستانلى ، واكتشف يونكر أيضا عددا من الأنهار الأخرى ، منها نهر ايرو Eirro ، أحد فروع نهر الرول ، والمجرى العلوى لنهر تونج Tondj . هذا فضلا عن انه بدد الرأى الذى كان سائدا ، والذى أطلقه جيسى عام ١٨٧٦ م ، والذى كان يقول انه يوجد نهر يخرج من الجزء العلوى لبحر الجبل ، بحيث يتجه نحو الغرب ولكن يونكر بعد أن تجول في هذه المنطقة لم يجد أى نهر يخرج من المجرى العلوى لبحر الجبل ، كما كان يدعى جيسى (٣) .

وأما الدكتور شوينفرث الذى قضى الفترة ما بين سنة ١٨٦٩ ، ١٨٧١ م في منطقة بحر الغزال ، كان قد شاهد الغابات والمستنقعات والمجارى المائية كما أنه زار منطقة الأزاندى ، وقبائل نيام نيام (٤) .

هذا فضلا عن أن هذه المؤلفة أغفلت عددا من الرحالة الذين لا يقلون في الأهمية عن هؤلاء الرحالة الذين لقوا اهتماما كبيرا من جانبها . وكان من هؤلاء الرحالة برون روليه ، الذى جاء الى افريقيا في الفترة ما بين ١٨٤٥ ، ١٨٥٢ ، وتجول في منطقة النيل الأبيض ، وبحر الغزال ، واستكشف معظم تلك البلاد ، كما كان يقوم بنقل العاج وريش النعام من هذه المناطق الى أوروبا (٥) . ومنهم أيضا جون بشريك الذى عمل مهندسا للتعدين في عصر محمد على ، فعندما سافر الى السودان للتنقيب عن الفحم ، وجد نفسه على مقربة من بحر الغزال فهناك قام بعدة جولات في هذه المنطقة في الفترة ما بين ١٨٤٧ ، ١٨٥٩ ، ووصل في تجواله الى بلاد الأزاندى . وبعد ذلك عاد الى انجلترا عام ١٨٥٩ م (٦) . ومن هؤلاء أيضا الرحالة دى مالزاك الذى جاء الى منطقة بحر الغزال ، ولكنه توفي بسبب تعرضه لمرض

(3) Junker : Sept ans de Voyages dans l'Afrique Central Vol. 2. p. 634.

(٤) نفس المصدر ص ص ١٠٣ ، ١٠٤ .

(٥) دراسات في النيل ص ٥١ .

(٦) هرست : النيل ، ترجمة حسن أحمد الشربيني ص ٢٩١ .

الحمى • ومنهم كليزنريك الذى غادر الخرطوم عام ١٨٦١ م متوجها الى منطقة بحر الغزال ، ووصف شواطئ هذا البحر بأنها ضحلة ويكثر بها البوص والنخيل ، وكان من الصعب عبورها الا فى فصل الجفاف ، ويضيف كليزنريك بأن نهر الجور أحد فروع بحر الغزال كان صالحا للملاحة ، ابتداء من منبعه وحتى مصبه ، وتميزت هذه الشواطئ بكثرة تعاريجها ، وكان من الصعب عبورها الا فى فصل الجفاف ، وشاهد فى هذه المنطقة الكثير من الغابات والأحراش والينابيع ، وبعض البرك التى تتكون مياهها من الأمطار ، وأسس كليزنريك زريبة على طريق القوافل المبتدىء من نيام نيام ، وحتى حفرة النحاس بحيث اتخذها مركزا تجاريا ^(٧) .

ومن الواضح أيضا أن مؤلفة هذا الكتاب أهملت وبدون أدنى شك الإشارة الى عصر اسماعيل ، أزهى العصور الكشفية فى افريقيا ، والتى تضمنت كل من منطقة غرب السودان وشرقه ، وافريقيا الشرقية وأعالى النيل .

وأما بالنسبة لغرب السودان ، فقد أرسلت مصر فى ٢٠ ابريل عام ١٨٧٥ م بعثة كشفية بقيادة كولستون بك ، وقد بدأت هذه البعثة مهمتها من القاهرة حتى قنا • ومنها عبرت الصحراء الشرقية الى برنيس الواقعة على ساحل البحر الأحمر الغربى • وهناك التقى كولستون ببردى ، وبعد أن تجول الرجلان معا فى منطقة برنيس ، قاما بوصف المظاهر الطبيعية لهذه المنطقة ، ورسم كولستون خريطة لخط سيره ، ومن برنيس اتجه كولستون الى أبى حمد ، ومن هناك عبر وبعثته النيل الى بلدة الدبة ، ومنها اتجه الى بلدة بارة فالأبيض وكان كولستون قد ألقى الضوء على كل المظاهر الطبيعية لهذه المنطقة • ومات كولستون فى الأبيض ، وبعد ذلك التحقت بعثته ببعثة بروت باشا التى كانت متجهة الى مدينة الخرطوم • ومن المعروف أن بعثة بروت كانت قد بدأت مهمتها من الخرطوم عام ١٨٧٥ م •

(7) Heugline. V. : Travel in the Sudan in the Sixties, S.N.R. July, 1892, January 1893, V.-XXIV, pp. 158-59.

وذلك لكشف المنطقة الواقعة بين الخرطوم والأبيض ، وقد رسم بروت عددا من الخرائط لهذه المناطق التي مر من خلالها •
وفي ١٩ فبراير عام ١٨٧٦ قام بردى باشا على رأس بعثة لكشف المنطقة الممتدة من دارا وحتى حفرة النحاس ، ووصف بردى هذه القرية بأنها قرية صغيرة بنيت منازلها من القش والطين ، كما ألقى الضوء على حفرة النحاس التي كان الوطنيون يقومون بالحفر فيها للحصول على معدن النحاس •

وأما عن شرق السودان فقد أرسلت مصر عددا من البعثات الكشفية أرسلت إحداها في سبتمبر عام ١٨٧٥ م ، وكانت هذه البعثة تحت قيادة أرندروب باشا وفي الحقيقة كانت هذه البعثة بعثة عسكرية ، ولكنها بدون أدنى شك قامت بكشف المنطقة الواقعة بين سنهيت وجونديت • وفي شهر سبتمبر من نفس العام ، أرسل الخديو اسماعيل بعثة أخرى كانت تحت قيادة منزجر باشا ، واكتشفت هذه البعثة المنطقة الواقعة بين تاجورة وبحيرة أوسا • وفي العام التالي أي في عام ١٨٧٦ م ، أرسلت مصر حملة عسكرية الى مصوع (لمحاربة الحبشة) ، وتمكنت هذه الحملة من كشف مناطق كثيرة ، مع أنها كانت حملة عسكرية •

وفي ٢٢ مايو سنة ١٨٨٠ م ، أرسلت مصر بعثة كشفية أخرى الى شرق السودان كانت تحت قيادة اللواء محمد مختار • وقد قامت هذه البعثة بكشف بلدة أبى حراز والقضارف والقلابات وأميديب وكسلا ، وتمكنت من الوقوف على أحوال هذه البلاد من حيث نظامها السياسى والاجتماعى ، والاقتصادى ، ومن حيث عادات وتقاليدها سكانها (٨) •

وأما بالنسبة لإفريقيا الشرقية ، فقد أرسلت مصر عام ١٨٧٠ م بعثة كشفية الى هذه المنطقة كانت قد بدأت مهمتها من السويس شمالا ، مارة بكل البلاد التى تقع على طول الساحل الغربى للبحر الأحمر • وكانت هذه البعثة تحت قيادة جمالى باشا • وقد تمكنت هذه البعثة من كشف البلاد التى مرت من خلالها • وقد عين ممتاز باشا حاكم على كل هذا الشاطئ ،

(٨) د • السيد يوسف نصر : المصدر السابق •

وعين منزنجر حاكم على مصوع • وفي عام ١٨٧٢ م تمكن منزنجر من الاستيلاء على اقليم باغوص الواقع بين مصوع والتاكة وفي عام ١٨٧٣ عين منزنجر حاكم على اقليم السودان الشرقى ابتداء من سواكن وحتى رهيفة في الجنوب بما في ذلك اقليم باغوص والتاكة •

وفي عام ١٨٧٥ أرسلت الحكومة المصرية بعثة كشفية برئاسة اللواء / محمد رؤوف وذلك لفتح بلاد هرر وضمها للسيادة المصرية ، وقد طلب أميرها محمد بن علي بن عبد الشكور من رؤوف باشا ، وضع مملكته تحت السيادة المصرية ^(٩) وبعد ذلك واصلت مصر مد نفوذها الى رأس غردفوى • Cape Guardafui

ولم يقتصر هذا العمل الكشفى من جانب مصر في عهد الخديو اسماعيل على هذه المناطق ، التي تم كشفها بل امتد الى منطقة أعالي النيل • فكانت مصر قد قررت في عهد الخديو اسماعيل الحاق منطقة أعالي النيل الى ممتلكاتها في السودان • وقد اختير صمويل بيكر لقيادة هذه البعثة لأنه كان ذا خبرة بهذه البلاد •

وكان من أهم ما أوكل الى صمويل بيكر أن تقوم هذه الحملة بتأسيس عشرة مراكز حربية وتجارية على طول خط سيرها ، وكان على السير صمويل بيكر أيضا أن يعين في كل مركز العدد المناسب من الجند ، هذا فضلا عن وضع كل مركز من هذه المراكز تحت رئاسة أحد الضباط وكان الهدف من انشاء هذه المراكز العسكرية هو العمل على استقرار الأمن في هذه البلاد ، فضلا عن دعم النفوذ المصرى فيها • وكان من واجبات هذه الحملة أيضا القضاء على تجارة الرقيق التي انتشرت في هذه المنطقة

وعلى نطاق واسع بمعرفة التجار الأوروبيين • Central of Africa
وبعد أن وصلت هذه الحملة الى منطقة أعالي النيل ، كانت المواد التموينية

(٩) د • محمد فؤاد شكرى : مصر والسودان ، تاريخ وحدة وادى النيل السياسية. في القرن ١٩ ، ١٨٢٠ - ١٨٩٩ • القاهرة ١٩٦٣. ص ص ١٢٥ - ١٢٦ •

قد نفذت ودفع ذلك بيكر الى محاولة الحصول على مؤن أخرى من القبائل ، مما أدى الى الدخول معهم في معارك جانبية لم تكن ضمن تكاليفات هذه الحملة ، وقد نجم عن ذلك توليد الكرة لدى هذه القبائل ضد مصر (١٠) .

ويفهم من ذلك أن هذه الحملة لم تعد اعدادا جيدا ، بحيث أنها بمجرد أن وصلت الى منطقة أعالي النيل كانت المواد التموينية قد نفذت ولا يمكن ، للحملة في هذه الحالة مواصلة السير ، أو القيام بمهمتها على الوجه الأكمل . ولكن على الرغم من ذلك فقد حققت هذه الحملة التي أغلقت المؤلفة الاشارة اليها ، نتائج ايجابية منها أنها ارتادت المنطقة الواقعة بين أوغندا وبحر الجبل ، ومنها أنها وضعت هذه المناطق تحت السيادة المصرية ، وهذا في حد ذاته كسبا عظيما للإدارة المصرية في السودان . وكان من أهم النتائج السلبية أنها فشلت أولا في تحقيق الكشف عن منابع النيل ، هذا فضلا عن أنها فشلت في القضاء على تجارة الرقيق ، وهي معزورة في ذلك ، لأنه ليس من المعقول أن تحكم حملة صغيرة قبضتها على كل هذه المساحات الشاسعة وبخاصة وأنه لم يكن هناك حدود سياسية أو لم يوجد هناك ما يعرف بالوحدات السياسية التي يمكن لها منع تسرب تجارة الرقيق من خلالها ، فلكى تقوم هذه الحملة بمثل هذا العمل كان يلزمها عددا كبيرا من الجند ، يكفي لمحاورة القارة الافريقية من الشرق والشمال والغرب والجنوب وهذا بالطبع من الصعب تحقيقه .

وبعد أن أنهت هذه الحملة مهمتها عادت الى الخرطوم ، ومن الخرطوم سافر بيكر الى القاهرة فوصلها يوم ٢٤ أغسطس عام ١٨٧٣ م . وهناك قابل الخديو اسماعيل ، وأخبره بانتهاء خدمته في أعالي النيل ، فأثمن عليه اسماعيل بالنيشان العثماني تقديرا لجهوده وقيادته لهذه الحملة (١١) .

ومع ذلك فلم تقف جهود مصر الكشفية عند هذا الحد ، بل نجد

(١٠) د . السيد يوسف نصر : جهود مصر الكشفية . المصدر السابق .

(١١) د . السيد يوسف نصر : نفس المصدر .

اسماعيل يختار شارلس جوردون ، لقيادة حملة كشفية أخرى الى أعالي النيل ، لاتمام العمل الذى فشلت فى اتمامه حملة السير صمويل بيكر ، ففى ١٦ فبراير عام ١٨٧٤ م ، أصدر الخديو اسماعيل التعليمات الى جردون والتي كان من أهمها ضرورة القضاء على تجارة الرقيق ، والكشف عن البحيرات الاستوائية ، ثم ادخال التجارة المشروعة محل تجارة الرقيق ، هذا فضلا عن ضم البلاد التى تخضعها هذه الحملة الى السيادة المصرية (١٢) .

وكان برفقة جردون عددا من الضباط الأجانب الذين كان منهم الايطالى رومولى جيسى والبلجيكى ارنست لينان دى بلفون ، ومن الأمريكان ماسون بك ، وشايبه لونج (١٣) وقد نجحت هذه الحملة فى انشاء عدد كبير من المحطات على طول خط سيرها ، ابتداء من التوفيقية وحتى منطقة البحيرات الاستوائية (١٤) .

واذا كان السير صمويل بيكر قد مد نفوذ مصر جنوبا الى غندوكرو ، وقام بتأسيس بعض المراكز فى أعالي النيل ، فأن جردون قد اخترق منطقة أعالي النيل فى اتجاه الشرق الى أوغندا ، ونجح فى تأكيد السلطة الحقيقية على منطقة أواسط أفريقيا Central of Africa ، وقد دعم جردون هذه السياسة بتعيينه عدد من الحكام من أمثال لوبتون بك Lupton Bey الذى عين حاكم لبحر الغزال ، وسلاتين حاكم على دارفور وأمين باشا الذى عين حاكم لخط الاستواء (١٥) .

وبعد ان استقرت الأمور لجردون فى منطقة أعالي النيل سير بعثة كشفية برئاسة رومولى جيسى لاستكشاف بحيرة البرت نيانزا ، وكان جيسى

(١٢) د . محمد مؤاد شكرى : الحكم المصرى فى السودان ، القاهرة ، ١٩٤٧ ص ١٤٢ .

(١٣) د . السيد يوسف نصر : المصدر السابق .

(١٤) د . مكى شبكية : السودان عبر القرون . بيروت ١٩٦٥ ص

١٩٨ .

(15) George Young : Egypt. London, 1917. p. 81.

قد ذكر انه لا يوجد أى نهر يتصل بالبحيرة من جهة الجنوب ولكن كان هذا القول بعيدا عن الصواب ، لذلك أرسل غردون بعثة كشفية أخرى تحت قيادة ماسون بك ، الذى طاف بمركب بخارى على سطح مياه هذه البحيرة فبدأ مسيره من بلدة ماجنجو وسار بحزاء الشاطئ الغربى ، فوصل الى جنوبها ، ورأى نهر السمليكى الذى يصب فيها من جهة الجنوب ، ووصف ماسون مياه هذا النهر بأنها ذات لون بنى وبعد ذلك واصل ماسون بك سيره بجوار الشاطئ الشرقى حتى وصل الى قرية فاكوفيا ، التى يعمل سكانها بالصيد واستخراج الملح . ويرجع الفضل الى ماسون بك فى أنه تمكن وبدون أدنى شك من ازالة الغموض الذى خيم على هذه البحيرة ، وقد قام ماسون بك برسم خريطة لهذه البحيرة ، نشرت فى كتاب جهود مصر الكشفية للمترجم .

وفضلا عن ذلك كله فقد قام شايبه لونج من غندوكرو على رأس بعثة كشفية متوجها الى أوغندا ، وقد قام شايبه لونج بوصف المناطق التى مرت بعثته من خلالها هذا فضلا عن انه نجح فى كشف بحيرة مجهولة كانت فى طى النسيان هى بحيرة كيوجا ، والتى سماها باسم جديد هو بحيرة ابراهيم « نسبة الى ابراهيم باشا » والد الخديو اسماعيل ، وبعد وصوله الى مركز مديرية خط الاستواء أخبر غردون باشا بكشفه لهذه البحيرة ، وطلب منه أن يظهر كشفه هذا على الخريطة التى سترسم لأواسط افريقيا ، وكان غردون باشا قد وعده بذلك .

وفيما يلى صورة الخطاب الذى قدمه شايبه لونج الى غردون باشا :

The Struggle to maintain lake Ibrahim, discovered by me in 1874, on the map of Africa began in 1879, by my appeal to Sir Rutherford Alecock, president of the Royal Geographical Society. It was referred to General Gordon, who replied by the letter inserted in the first pages of this book Subsequently. I felt obliged to complain to Sir Rutherford that Cartographers, under the Aegis of the R.G.S. were Changing the name of my lake, with the result that Sir Rutherford laid my letter before the council,

which recognised the priority of my discovery and naming of lake Ibrahim. (16)

وفضلا عن ذلك فقد قام شاييه لونج على رأس بعثة كشفية الى بلاد نيام نيام ، وتمكن من كشف هذه المنطقة ، بل وألقى الضوء على أحوال سكانها وأنظمتهم السياسية والاجتماعية . وفي الوقت نفسه قام ارنست لبنان دى بلفون ، على رأس بعثة كشفية بدأها من بلدة فاتيكو وحتى أوغندا ، وهناك قابل الملك ميتسا ، ووقف على أحوال هذه المملكة من الناحية الاجتماعية والسياسية والاقتصادية .

ولكن على الرغم من كل هذه الجهود الكشفية التى قامت بها مصر فى منطقة أعالي النيل ، وغيرها من مناطق مجهولة ، الا أن الكتاب الأجانب لم يتعرضوا لهذا الدور بالدراسة والتحليل حتى يعطوا لمصر حقتها فى هذا المضمار ، ومما يزيد الطين بلة أن هؤلاء الكتاب قد نسبوا هذا العمل الى الرحالة والمغامرين الذين وفدوا الى افريقيا سواء أكان ذلك من جهة الشرق أم الجنوب أم الشمال متجاهلين أن البعض من هؤلاء الرحالة كانوا يحصلون على تصاريح من حكمدارية السودان تخول لهم التجول فى المناطق التى يرغبون فى زيارتها .

ولهذا حاولت بقدر الامكان ابراز دور مصر الحضارى فى مجال الكشف الجغرافى ، وبخاصة فى النصف الثانى من القرن ١٩ ، وكان من أهم نتائج هذا الدور وضع منطقة أعالي النيل تحت السيادة المصرية . بل وربط هذه المنطقة بالساحل الغربى للمحيط الهندى ، وقد تصدت بريطانيا لهذا التوسع المصرى فى شرق افريقيا (ولا مجال هنا لدراسة هذه النقطة) كما أن مصر عملت على استتباب الأمن فى هذه الجهات ، التى كانت تنتشر الفوضى فى ربوعها ، كما عملت من جانبها أيضا على إلغاء تجارة الرقيق فى افريقيا ، ومما لا شك فيه ، فانها نجحت نجاحا لا بأس به فى هذا المجال .

وزيادة على ذلك فإن مصر فتحت هذه المناطق الأفريقية على العالم الخارجى فوصل اليها الأوروبيون سواء أكانوا من المبشرين أم من الرحالة ، فكان هؤلاء ، الرحالة لا يجرون على الوصول الى هذه المناطق قبل أن تدخلها مصر . ولكن بعد ذلك جاءوا اليها بكل سهولة ويسر ، وكتبوا الكثير عن سكانها وعاداتهم وعن المظاهر الطبيعية لهذه المناطق ، وعن مواردها الحيوانية والسمكية والزراعية ، وبذلك أصبحت الصورة واضحة عن افريقيا بالنسبة لبقية الأوروبيين ، الذين خططوا لاستنزاف موارد هذه القارة . ومن نتائج الدور المصرى أيضا تنشيط حركة التجارة المشروعة فى جميع المناطق الافريقية المصرية ، بل وأصبحت طرقها مأمونة بحيث لا تعترضها أية مخاطر تهدد أزدهارها .

وبالإضافة الى ذلك كله ، فإن مصر أدخلت العديد من الغلات الزراعية الجديدة والتي لم تكن معروفة من قبل ، مثل الخضر وأشجار الفاكهة والأرز ، والذرة الشامية والبن والقطن ، كما أنها اهتمت بالغلات التى كانت متوفرة فى هذه المناطق بحيث أصبح لها أهمية . ومن هذه الغلات الفول السودانى والموز والشاى والبن ، وقد عاد ذلك على المواطنين بالخير والرفاهية (١٧) .

وكان من النتائج الهامة بالنسبة للكشوف الافريقية التى قامت بها مصر قيام الادارة المصرية فى السودان برسم عدد من الخرائط الهامة ، لأجزاء كثيرة من نهر النيل ، فرسمت خريطة لبحر الجبل ، ولنهر سومرست أو النيل الفيكتورى وأكثر من خريطة لبحيرة البرت ، ولنهر السوباط ، ولبحيرة ابراهيم . ومما لا شك فيه فإن هذه الخرائط تعتبر جديدة بحيث لم ترسم خرائط من قبل لهذه المناطق . لذا فهى على جانب كبير من الأهمية (١٨) .

(17) Sagay J. O. and Wilson D. A. : Africa, a modern History, 1800-1975. London, 1978.

(١٨) وللاستزاده انظر ، كتاب الوجود المصرى فى افريقيا فى القرن ١٩ .
المترجم .

وبعد أن تعرضنا للدور المصرى وأهميته ، كان لابد لنا أن نشير الى أهمية كل من ستانلى ولفنجستون اللذين ركزت ، عليهما المؤلفه • يتميز لفنجستون بأنه رجل دين يقوم بالتبشير بالعقيدة المسيحية بين السكان الوثنيين هذا فى الظاهر ، ولكنه فى حقيقة الأمر كان رجلا استعماريا من الطراز الأول ، فقد اتبع وسائل استطاع من خلالها أن يحقق هدفه ، وكان من هذه الوسائل مطالبته بالغاء تجارة الرقيق بحيث اعتبرها وصمة عار فى جبين الانسانية ، وطالب بريطانيا بالتدخل للقضاء على هذه التجارة ، وقد تناسى هذا المستعمر أن بريطانيا كانت من أول الدول التى تاجرت فى أبناء افريقيا ، بل ونقلت منهم أعدادا كبيرة لا تقدر ، ولكن بعد طردها من العالم الجديد ، وبعد نجاح الثورة الأمريكية ، لم تعد فى حاجة الى الأيدي العاملة ، وبخاصة بعد أن تقدمت الصناعة وحلت الآلة محل الانسان ، هذا فضلا عن أن بريطانيا أصبح لديها فائض فى الانتاج الصناعى ، لذا كانت فى حاجة الى فتح أسواق جديدة هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، كانت فى حاجة الى الحصول على المواد الخام بكافة أنواعها ومن أجل هذا أخذ لفنجستون على عاتقه تنفيذ هذه السياسة البريطانية فى افريقيا • وكانت الوسيلة الثانية التى اتبعها دافيد لفنجستون لتحقيق الحلم البريطانى فى استعمار افريقيا هى ادعائه بأنه سيقوم بنشر العقيدة المسيحية بين القبائل الوثنية فى جنوب افريقيا ، وهذا ادعاء باطل ، لأنه لو كان يرغب حقا فى نشر العقيدة المسيحية بين السكان الوثنيين لكث بينهم وبخاصة فى المناطق المكتظة بالسكان ، وهذا شئ طبيعى ، ولكن نلاحظ أن لفنجستون ترك المناطق المكتظة بالسكان وذهب للتجول فى المناطق المقفرة ، لسكى يتعرف على ما تحويه هذه المناطق من ثروات معدنية وغيرها من الثروات الأخرى ، لهذا نجده يعبر القارة من الجنوب ، ثم يتجه نحو الغرب فيصل الى لواندا ، ثم يعود بعد ذلك الى جهة الشرق ، وبذلك يكون قد تمكن من عبور القارة الافريقية من جهة الغرب الى الشرق • وهناك دليل آخر يوضح لنا أن لفنجستون كان استعماريا ولم يكن مبشرا كما كان يدعى ، ويتمثل هذا الدليل فى أنه غضب غضبا شديدا ، عندما علم بعدم صلاحية نهر الزمبيزي للملاحة ، فماذا تعنيه صلاحية هذا النهر للملاحة من عدمه ، الا اذا كان له

هدف اقتصادى واستعمارى بينما لو كان هدفه دينى ما كان فى حاجة لمعرفة صلاحية نهر الزمبىرى للملاحة من عدمه • كما كان يدعى •

وعلى أية الأحوال ، فأن لفنجستون كان رحالة من الطراز الأول فقد تمكن بكل جرأة من عبور القارة الافريقية من الغرب الى الشرق ، رغم المخاطر التى اعترضت طريقه ، حتى انه مات فى سبيل تحقيق هدفه هذا ، وهو تحقيق العظمة والمجد لبلده بريطانيا •

وبالرغم من أن ستانلى كانت له ظروف صعبة الا أنه نجح فى أن يجعل من نفسه شخصية لها أهميتها ، فقد تمكن من الوصول الى افريقيا بحثا عن لفنجستون ، وبعد ذلك قام بأخطر رحلة كشفية اكتشف أثناءها نهر الكنفو ، وبذلك يكون قد تمكن من عبور القارة من جهة الشرق الى الغرب • وبهذا يكون قد دخل التاريخ من أوسع أبوابه • وللاستزادة أنظر :

١٩ — أمين سامى باشا : تقويم النيل وعصر اسماعيل ٦ أجزاء ، القاهرة ، ١٩٣٦ •

٢٠ — عمر طوسون : تاريخ مديرية خط الاستواء المصرية من فتحها الى ضياعها أى من ١٨٦٩ — ١٨٨٩ ، ثلاثة أجزاء •

٢١ — د • جميل عبيد : المديرية الاستوائية ، القاهرة ، ١٩٦٨ •

الفصل العاشر

اكتملت القصة الرئيسية

لم يكتمل بعد كشف مناطق البحيرات في وسط افريقيا • وقبل أن تتأكد أخبار موت لفنجستون ، أرسلت بعثتان من انجلترا لنجدته ، فقد بدأت الأولى من الساحل الغربى ، ولكنها لم تبعد كثيرا عن السلفادور Salvador • وأما البعثة الثانية ، فقد قادها الضابط البحرى الذى يدعى لوفيت كاميرون Lovett Cameron ، وقد بدأت مهمتها من الساحل الشرقى • وقد قابل كاميرون كل من سوزى وشوما في بلدة طابورا ، في شهر اكتوبر من عام ١٨٧٣ م وأقنعاه بأنهما حملا جثمان لفنجستون الى الشاطئ الشرقى الافريقى ، ولكنه قرر التقدم الى بلدة أوجيجى ، كى يجمع تقارير لفنجستون الذى اكتشف ورسم خرائط للجزء الأكبر من بحيرة تنجانيقا ، كما انه اكتشف نهر لولا با Lualaba River ، ومن ملاحظاته على هذا النهر انه لم يكن نهر النيل ، بل كان أحد فروع نهر الكنگو •

وقد مرت حتى ذلك الوقت ، عشر سنوات على وفاة سبيك ، ومع ذلك فان كشوفاته لم تتأكد بعد ، ولكن فيما بعد تقدمت الكشوفات ، ووجدت أدلة جديدة في ظل ادارة الجنرال غردون ، الذى كان قد خلف Succeeded. بيكر كحاكم عام Governor General للمنطقة التى تعرف بحوض النيل الاستوائى ، أو منطقة أعالي النيل الاستوائية ففي عام ١٨٧٤ م أثبت الكولونيل شايبه لونج Chaillie-long ، الأمريكى الجنسية ، والذى التحق بهيئة غردون باشا أن بحيرة فيكتوريا والبرت كانتا متصلتين بنهر سومرست Somerset ، أو بنيل فيكتوريا Or Victoria Nile . كما انه اكتشف بحيرة كيوجا ، وبحيرة البرت •

وكان من بين هؤلاء الذين تغلبوا على المشاكل المتبقية أمين باشا

المعالج لحاشية غردون والملم بكثير من اللغات • وكان اسم أمين باشا الحقيقى هو ادوارد شينترز Edward Schnitzer ، وهو يهودى ألماني اعتنق الدين الاسلامى وقد تأثر غردون باشا بمواهبه الادارية ، لذا عينه حاكما للسودان الاستوائى • وفى الفترة ما بين ١٨٧٧ ، ١٨٨٨ م تجول أمين باشا على نطاق واسع فى المناطق المحيطة ببحيرة البـرت ، واكتشف نهر السمليكى الذى يدخل البحيرة من نهايتها الجنوبية ورغم كل هذه الاكتشافات التى تمت ، الا أنه لا تزال هناك مشاكل متبقية • والسؤال الآن هو ، هل بحيرة فيكتوريا بحيرة واحدة أو بحيرات عديدة متصلة ببعضها ؟ وهل هى تمثل فى الواقع المصدر الرئيسى للنيل ؟ كل هذه التساؤلات والمشاكل تركت لستانلى •

وكان اللقاء الذى تم بين ستانلى ولفنجستون ، يمثل القمة فى حياة ستانلى ، كما أنه كان يمثل فقط ، بداية عمله كمكتشف ومن المعتقد أن ترحيبه الحماسى بالدكتور لـفنجستون ، كان له صدى حول العالم ، فبينما اعتبر البعض من الناس هذا اللقاء شيئاً مدهشاً ، اعتبره البعض الآخر من الناس شيئاً غير ملائم تماماً ، فاستانلى الذى لم يكن لديه احساس بالفكاهة ، تبرأ من هذه الاشارة ، ولم يعطها من قبل ثقته فى كتابه « كيف وجدت لـفنجستون How I found Livingstone » ، واستمر هذا التبرأ من جانب ستانلى ملازماً له حتى آخر أيامه •

وفى شهر مايو عام ١٨٧٢ م وصل ستانلى الى انجلترا واستقبل استقبالاً ضخماً ، وكافأته الجمعية الجغرافية بالميدالية الذهبية ، التى كان يطمح فى الحصول عليها • وكان كتابه قد حقق نجاحاً ملموساً • فقد مدحته معظم الصحف على انجازه العظيم ، ومع ذلك فقد ألح الكثير منها بالتشكيك فى هذه الرحلة (رحلة ستانلى) بحيث أنها لا تعدو أن تكون عمل صحفى مثير Journalistic Stunt ، وأن خطاب لـفنجستون الذى أرسله الى جريدة النيويورك هيرالد مزيف « كما أن ستانلى لم يكن شخصية ذو شعبية حتى أن هجوم السير جون كيرك عليه زاد من عدم شعبيته هذه ،

حيث أن كيرك قال : « ان ستانلى ترك لفنجستون يموت لأنه فشل فى أن يرسل له حمالين جدد ومؤن •

وقد صمم ستانلى على أن يسكت منتقدوه ، وذلك بأن يريهم انه لايزال له القدرة على تحقيق انجازات أكبر ، لهذا نجده فى عام ١٨٧٤ م يستميل محررى جريدة النيويورك هيرالد ، وجريدة لندن المعروفة باسم ديلى تلجراف ، كى تمولا له رحلة أخرى الى افريقيا • وكانت التعليمات المصادرة له أن يكمل العمل الذى ترك بدون اتمام بعد موت لفنجستون المفجع ، فكان على ستانلى ان أمكنه ذلك أن يحل المشاكل الجغرافية المتبقية فى وسط افريقيا • كما كان عليه أن يتفحص ويكتب تقريراً عن القلائل التى يثيرها تجار الرقيق فى أوجيجى ، الواقعة فى منطقة بحيرة تنجانيقا ، وفى بلدة نيانجوى Nyangwa الواقعة على نهر لولابا •

وقد فسر ستانلى هذا على أنه تصريح يخول له عمل بحث شامل لبحيرتى فيكتوريا وتنجانيقا ، وكل المنطقة الغربية من افريقيا الوسطى • والواقعة بين نهر لولابا والمحيط الأطلسى • ويمكن أن نتذكر أن سبيك قد اكتشف شلالات ريبون ، وادعى أن النيل يتدفق من بحيرة فيكتوريا • وفى نفس الوقت كان بيرتون يتمسك حتى هذه اللحظة بنظريته التى تقول أن نهر روسيزى Rusizi River هو نهر النيل ، وانه يتدفق من بحيرة تنجانيقا • وقد مات لفنجستون وهو مصر على أن نهر لولابا يمثل فى الواقع نهر النيل بينما يشك ستانلى مثل لوفيت كامرون Lovett Cameron فى أن نهر لولابا هو أحد قروص نهر الكنگو • وقد فطن Relise ستانلى الى أنه لى يؤسس ذاته كان عليه أن يعبر القارة (الأفريقية) •

وقد غادرت قافلة ستانلى زنجبار فى شهر نوفمبر ١٨٧٤ م وكانت هذه القافلة كبيرة ومجهزة تجهيزاً جيداً عن أى قافلة ذهبت قبلها ، فقد جند ستانلى ثلاث مائة وستة وخمسين شخصاً من الأفارقة ، وكان البعض منهم ممن كانوا ضمن بعثة لفنجستون ، فضلاً عن ثلاثة من الشبّاب الانجليزى ، الذين لم يكن لديهم تخصصات معينة وهم فردريك باركر

الذى كان يعمل كاتباً فى مستشفى فى لندن ، Frederick Barker
 وادوارد بوكوك Edward Pocock ، وفرانسييس بوكوك Francis Pocock
 وهما ابنا رجل صياد من بلدة كنتش Kentish ، وقد زودت البعثة
 بقارب خشبى كان يسمى ليدى اليس Lady Alice ، الذى تمكن
 أفراد البعثة من نقله فى شكل قطع صغيرة ثم أعيد تركيبه ، هذا فضلاً عن
 حمل أفراد البعثة لثمانية أطنان من المؤن ، كما اصطحبت البعثة معها
 خمسة كلاب .

وبعد أن سارت البعثة مدة ٣٣ ثلاثة وثلاثين يوماً كان ستانلى خلالها
 فى حالة طيبة جداً ، حيث أنه كان مستعداً لمواصلة المسيرة الشاقة ، ذلك
 لأنه قد أعد نفسه لمواجهة الخسائر الفادحة . وبعد أن أمضى على بدء
 الرحلة أربعة عشر أسبوعاً ، وقبل وصول بعثة ستانلى الى بحيرة فيكتوريا ،
 فقدت من أفرادها ما لا يقل عن ١٨١ شخصاً مات البعض منهم بسبب
 المرض ، ومات البعض الآخر بسبب الحروب ، التى دارت بين أفرادها وبين
 القبائل ، وفضلاً عن ذلك كله ، فقد هرب البعض من أفرادها ، وكان من
 ضمن الأفراد الذين فقدوا ، ادوارد بوكوك ، الذى مات بسبب مرض
 التيفوس Typhus

وقد وصلت بعثة ستانلى الى الشاطئ الجنوبى الشرقى لبحيرة
 فيكتوريا أى وصلت بالقرب من المنطقة التى رأى من فوقها سبيلك البحيرة
 وتخيل أنه من المحتمل أن تكون هذه البحيرة مصدر النيل ، ولكن لم تكن
 هذه التصورات كافية بالنسبة لستانلى ، الذى أصدر أوامره لأفراد بعثته
 بأن يعيدوا تركيب أجزاء المركب ليدى اليس Lady Alice . وفى
 ٨ مارس عام ١٨٧٥ م ترك ستانلى اثنين من الانجليز المسئولين عن
 المجموعة الأساسية فى البعثة ، وشرع هو ومعه عشرة من الأفارقة المختارين
 (للسير على سطح مياه البحيرة) ، وكان هؤلاء الرجال فى حالة من اليأس ،
 بحيث أنهم كانوا يجدفون وهم على مضض ، وكتب ستانلى فى هذا الصدد
 يقول :

« لقد كان لدينا نبؤات محزنة تقول اننا سنغرق في البحيرة ، أو ربما سنموت بأيدي الرجال المتوحشين القاطنين على شواطئ النيانزا Nyanza

ولقد واصل رجال البعثة ابحارهم وتجديفهم على التوالى مع المشاطىء الشرقى للبحيرة ، وفي ٢٨ من شهر مارس من نفس العام ، وصلوا الى شلالات سبيك المعروفة بشلالات رييون ، وفي ذلك الوقت كانوا قد دخلوا الى المنطقة التى يحكمها الملك ميتسا ملك يوجندا . وفي ٤ من شهر ابريل ، قابل ميتسا ستانلى بحفاوة بالغة فى عاصمة مملكته التى بنيت على أنقاضها العاصمة الحديثة كامبالا . وكان هذا الملك فى ذلك الوقت ، فى بداية الأربعين من عمره ، وكان تأثر ستانلى يختلف عن تأثر سبيك الذى استسلم لسحرة (أى سحر ميتسا) المعروف به جيدا . وقد وجد ستانلى الملك الطاغية ذكى جدا ، وانسان وأمير مرموق ، فلم يكن طاغية همجى ، وسفاكا للدماء بل وجده رجلا مسلما وورعا ، وملك خير وذكى ، له سلطة مطلقة على قطاع شاسع من افريقيا ، وكان محبوبا الى حد ما ، بل وكان مبعلا من جانب رعيته التى كانت تدين له بالاحترام ولا تخافه .

وكان ستانلى يأمل فى أن يتخلى ميتسا عن العقيدة الاسلامية وأن يعتنق العقيدة المسيحية ، وبالفعل أعلن ميتسا أن لديه الرغبة فى السماع الى قراءة الانجيل . وفى الواقع كان ميتسا قد تغير الى المسيحية قليلا ، منذ مقابلته لسبيك ، وفى ذلك الوقت أصبح ميتسا أكثر دبلوماسية وبخاصة منذ فطن الى أنه يتعين عليه أن يكسب صداقة القوى العظمى ، كما كان حريصا بأن يخفى عاداته الوحشية المألوفة .

وقد كان ستانلى قلقا على ضرورة ، اكمال الطواف حول بحيرة فيكتوريا ، لذلك شرع فى المسير مستخدما الطريق المائى مرة ثانية . وفى الخامس من شهر مايو من نفس العام عاد ستانلى الى النقطة التى كان قد بدأ منها ، بعد أن قطعت بعثته مسافة طولها ١٠٠٠ ميل . فقد برهن باقتناع بأن بحيرة فيكتوريا لم تكن سلسلة من البحيرات ، ولكنها كانت بحرا داخليا

واسعا ، وبرهن ستانلى أيضا على أنه يوجد منفذ واحد رئيسى فقط لبحيرة فيكتوريا عند شلالات رييون ، ويوجد لها منفذ آخر داخلى ، هو نهر كاجيرا Kagera الذى استبعده بقدر الامكان كل من سبيك وجرانت بأن يكون مصدر من مصادر النيل ، وكتب ستانلى يقول : « أن سبيك فى ذلك الوقت كان مملؤا بالفخر بسبب كشفه لأكبر بحر فى داخل القارة الأفريقية ، وأيضا كشفه لرافده الرئيسى ، بالإضافة الى كشفه لمخرجه (أى مخرج النهر) فلو كان ستانلى متأكدا من رأيه ، فأن نهر سبيك يكون فى الواقع نهر النيل ، وفى النهاية لم يمل ستانلى الى ادعاء بيرتون المتعلق بنهر الروسيزى Rusizi River

وعند عودة ستانلى من رحلته الى بوجندا هاجمته القبائل (الأفريقية) • وأثناء غيابه حدث عدد من الخسائر فى المعسكر الخاص بالبعثة ، وكان من هذه الخسائر أن الكاتب الشاب فردريك باركر Frederick Barker قد مات بسبب الحمى هذا الى جانب موت عدد آخر من الأفريقيين ، بينما مرض الآخرون أو هربوا • لذلك فقد وعده الملك ميتسا بالامدادات العسكرية • وبعد وصول هذه الامدادات الى ستانلى شرع فى القيام بسلسلة من الغارات الانتقامية ضد القبائل الأفريقية التى أقلقته ، والتى كانت قد أزجعت لفنجستون « الرجل الخير » ، فقد وجه ستانلى هذه الاغارات الى قبيلة تقطن عند رأس البحيرة (أى فى الطرف الشمالى للبحيرة) • وفى الواقع ضم ستانلى قواته الى قوات الملك ميتسا المستبد ، الذى كان يرغب فى ابقاء ستانلى الى جانبه فى بوجندا ، ولكن ستانلى رفض هذا المطلب بحجة عدم التأخير • وبدلا من أن يقوم ستانلى بكشف القطر الواقع غرب بحيرة فيكتوريا ، نجده يكتشف بحيرة صغيرة توجد فى المنطقة الواقعة جنوب خط الاستواء ، وكانت هذه البحيرة هى بحيرة البرت ادوارد Edward ، وهناك زار ستانلى الملك المعمر رومانىكا Rumanika ، وبعد ذلك سافر ستانلى صوب الجنوب الى أوجيجى وفى يونيو ، عام ١٨٧٦ م ، سارت المركب ليدى اليس على مياه بحيرة تتجانيقا Tanganyika ، وفى نهاية شهر يوليو عاد ستانلى الى نقطة البداية (أى

بداية الرحلة) ، وهو يحمل معه دليل ايجابي يقول « أنه لا يوجد مخرج مطابق للنيل يمكن تصوره » .

وفي هذا الوقت ، تخلص Disposed ستانلى ، من ادعاء بيرتون ورجع بذاكرته الى نظرية لفنجستون . وفى شهر اكتوبر ، عام ١٨٧٦ م ، تتبع ستانلى وادى نهر لواما The Vally of the River Luama مبتدءا رحلته من بحيرة تنجانيقا ، وحتى التقاء نهر لواما بنهر لولابا ، وعندئذ كان عليه أن يشرع فى أكبر مغامراته : فاذا كان لفنجستون على حق فى نظريته ، فمن الواجب على ستانلى اثبات ذلك ، أما اذا كان لفنجستون على خطأ ، فيتعين عليه فى هذه الحالة انجاز الربط بين نهر لولابا والمجارى المائية الأخرى فى وسط افريقيا . وفى هذا الصدد كتب ستانلى فى كتابه « خلال القارة المظلمة Through the dark continent » يقول فيه ما نصه : ان الغموض الذى ظل كل هذه القرون كان بالطبع محميا بعيدا عن العالم الحديث ، الذى كان ينتظر حلاله وأنه يوجد أمامى الآن نهر رائع ، وأصبح من واجبى أن أتتبعه حتى المحيط » .

وكان لفنجستون قد شاهد المذبحة البشرية البشعة التى حدثت فى المنطقة الشاسعة الواقعة حول نيانجوى Nyangwe وقد استغل تاجر الرقيق الثرى ثراء فاحشا والمدعو محمد بن السيد (المعروف باسم تيبوتيب) هذه المنطقة فى مشروعاته الخاصة ، وكان تيبوتيب هذا يرغب فى تزويد ستانلى بالحمالين Porters ، فى مقابل أن يحصل منه على مبلغ كبير من النقود . وقد بدأ ستانلى رحلته وبصحبته ٣٥٦ رجلا ، وكان البعض منهم قد أحضر زوجاتهم الى جانبهم .

وفى المرحلة الأولى من الرحلة استخدموا الطريق البرى ، لأن الألسنة المنخفضة فى النهر كانت مسدودة بواسطة شلالات لا يمكن عبورها ، وقد سار أعضاء بعثة ستانلى بصعوبة مدة أربعة عشر يوما أثناء مرورهم من خلال غابة كثيفة ومظلمة ، وكثيرا ما كان ستانلى يجد أنه من المستحيل كتابة يومياته ، التى منها سيعد كتابه . ومرت بعثته من خلال العديد من القرى المحلية وبكل صراحة ، فقد انتشرت الجماجم والعظام حول أماكن

الطهى (المطابخ) لأن السكان فى هذه المنطقة كانوا من أكلى لحوم البشر Cannibals وأخيرا خرجت البعثة من الغابة وعسكرت منذ الوهلة الأولى على الشاطئ الأيمن للنهر ، وعلى الفور قرر ستانلى أن يعيد تسمية نهر لولابا بحيث أصبح يعرف باسم نهر لفنجستون • وقد كتب ستانلى كعادته بهمة ونشاط يقول ما نصه « لقد مرت هذه الليلة ، سحب سوداء ، غامضة وخرافية من فوق أراضى أناس شبيه آدميين ، هم على ما يبدو من الأقزام The blanket earedmen وعندئذ بحثت عن الطريق • وهنا كان يوجد منطقة تقسيم الماء (بحر مجهول) يشبه المجرى السريع » وبعبارة :

To night black clouds of mystery and fable, may hap past the lands of the anthropoids, the pigmies and the blanket-eared men I seek a road. Why, here lies a broad water clearing the unknown to some sea, like a path of light.

وفى ذلك الوقت شرعت المركب ليدى اليس فى المسير فى النهر بحيث استخدمت النهر كطريق عام ، وكان على متنها ثلاثون رجلا ، أما بقية أفراد البعثة فقد ساروا على طول شاطئ النهر • وفى نفس الوقت ، لم يعرف ستانلى الى أى جهة سوف يأخذهم هذا النهر ، ولكن مع ذلك كان مملوءا بالثقة ، وفى كل مكان من طريق الرحلة برهن الجميع على أنهم من الأبطال ، على أى مقياس بالنسبة لتاريخ السفر فى افريقيا ، وقد واجهت البعثة كوارث من كل نوع • وفى أغلب الأحيان كان الرجال يتساقطون بسبب المرض الذى تعرضوا له ، وكان من هذا المرض الجدرى Small-Pox

والدورسنتاريا Dysentery والحمى التيفودية Typhoid Fever وكان من نتيجة هذه الأمراض انه كان يموت فى كل يوم العديد من أفراد البعثة ، فقد تمزقت أرجل وأقدام الأفراد الذين ساروا على البر بسبب الأشواك Thorns والحفر وقد سببت هذه التمزقات التقرحات Ulcers الخطيرة ، التى جعلت من المستحيل على أفراد البعثة مواصلة المسير ، وعندئذ استولى ستانلى على العديد من المراكب التى من الواضح أنها كانت متروكة على شاطئ النهر وقام بربطها مع بعضها كى ينشئ منها مستشفى عائِم Afloating - Hospital

ولم يمض وقت طويل حتى وصل أفراد البعثة مرة أخرى الى مسطح مائى لا يمكن عبوره ، وقد ثبت أنه واحدا من كثير ، فكان على أفراد البعثة طوال الوقت أن يأخذوا المركب وهى مفككة الى قطع صغيرة ، ثم يعيدوا تركيبها وبعد ذلك يقومون بجرها على طول الممر الذى كان الرجال يقومون بنمهيده خلال الأدغال ، وكانت هذه العملية تتكرر فى البر وفى الماء ، ونتيجة لذلك كان أفراد البعثة يتعرضون للهجوم من جانب رجال القبائل الذين يأكلون لحوم البشر ، ولكن كانت جماعة ستانلى لديها أسلحة نارية كى تحمى بها نفسها وكان آكلى لحوم البشر لا يدركون مدى خطورة هذه الأسلحة النارية ، لذلك توالى هجماتهم المرة تلو الأخرى ، ولم يكونوا مدفوعين فقط بسبب الرغبة فى الحصول على اللحم البشرى ، ولكن أيضا كانوا مدفوعين بسبب ما انتابهم من شك طبيعى ، واعتقدوا أنه لم يستطع أحد من القدوم الى هنا (أى الى بلادهم) الا اذا كان تاجرا للرقيق ، فهو الذى يكون لديه الشجاعة على القيام برحلة مثل هذه .

وفى البداية قادهم النهر فى اتجاه الشمال ، وبعد كل هذا بدا من الممكن أن يكون لفنجستون على صواب . وفى تلك الأثناء ، وصلت البعثة الى أول شلال من الشلالات السبع ، التى عرفت فيما بعد بشلالات ستانلى . وعندئذ قام أفراد البعثة بحفر ممر حول واحد من هذه الشلالات ، وفى تلك الأثناء تعرض أفراد حراسة البعثة الموجودين فى المؤخرة الى هجوم من جانب رجال القبائل الذين يتجولون للسلب والنهب ، وفى كل وقت كان هؤلاء الرجال من قطاع الطرق ، يبرزون من الغابة ، وبخاصة عند مسطحات المياه الساكنة لهذا كان رجال البعثة يأملون فى انتهاء مشاكلهم ، ولكن كانت آمالهم تتحطم فى كل لحظة بسبب الرعد الذى كان يحدث عند اصطدام البعثة بأحد الشلالات ، ولقد زاد التعب وفقدان الهمة والتمرد لدى رجال البعثة ، ولكن ستانلى تمكن من إبقائهم على مواصلة المسير ، وذلك باستخدام أسلوب القوة والجلد ، وكان يلجأ الى استخدام التهديد فى حالة فشل كل أساليبه .

وفى نهاية يناير عام ١٨٧٧ م ، مر أفراد البعثة خلال الشلال السابع ،

وأثوا الى نهر ممتد غير مسدود فى خط الاستواء ، أى عند النقطة التى سيبنى فيها فى يوم ما مدينة ستانلى فيل ، ولم يعد أمامهم سفر تجاه الشمال ، ولكنهم سوف يسافرون فى اتجاه الشمال الغربى ، وكان ستانلى متأكدا تقريبا من أنهم لم يكونوا على النيل ، ولكنهم على الكنغو ، فلو صح ذلك ، فانه فى هذه الحالة يكون قد عرف أن أمامهم شهورا من السفر ، وعرف أيضا ان مستوى النهر لايزال مرتفعا عن مستوى البحر بحيث توجد أمامهم شلالات على مسافة بعيدة • ولكن لا يمكن أن يكون هناك عودة مرة أخرى الى لفنجستون • وفى هذا الصدد كتب ستانلى يقل ما نصه : « نزلنا نحو نهر لولابا ، وجازفت ببراعة وبرهنت فى الواقع بنصف احساس على كتابة هذه السطور ، التى لم تقرأ من جانب أى أحد ولازلنا نصر على الطفو طبقا لنصينا • ومع ذلك فقد أصررت على الكتابة ، وأترك بكل تدبر ولطف الحوادث ، فبالليل والنهار كنا مذهولين ، بسبب قرع الطبول المخيف التى كانت تعلن عن وصولنا ، وعن حضورنا الى هذه المياه ، وكانت القوة متساوية على الشاطئ وكنا لكى نذهب من الشاطئ الأيمن الى الشاطئ الأيسر ، فإن هذا كان يعنى بالنسبة لنا القفز من طاسة القلى الى النار ، ومع ذلك كنا نواصل التجديف من خلال هذه الجزر الواقعة بين الأقطار المهجية التى تحيط بنا ، ومن الأفضل القول بأننا كنا نجرى بإرهاق » •

وفى بداية شهر فبراير ، نفذ الطعام من أفراد البعثة ، فعلى أثر ذلك قرر ستانلى رغم مخاطر الموت الحصول على الطعام والقيام بمحاولة ايجاد علاقة تجارية قائمة على أساس المقايضة مع إحدى هذه القبائل ، لأن أفراد البعثة فى ذلك الوقت كان لايزال معهم بعض الهدايا الملائمة ، والمثلة فى الملابس ، والأسلاك والخرز ، بحيث كان فى الإمكان تقديم هذه الأشياء لهذه القبائل ، فى مقابل الحصول على بعض الأطعمة • وكانت البعثة قد طلبت هذا المطلب بطريقة سلمية كى تتمكن من الحصول على بعض المؤن • وسأل ستانلى الرئيس (يبدو انه رئيس إحدى القبائل الكنغولية) عن اسم أكبر نهر ، فأجابه هذا الرئيس بالقول « ان هذا النهر يعرف باسم نهر الكنغو » وعند هذا الحد لم يعد هناك أدنى شك فى اثبات حقيقة هذا النهر •

وفي الثامن عشر من شهر فبراير من نفس العام ، سافرت البعثة في منطقة متسعة ومتعرجة ، ومرة ثانية وصلت الى خط الاستواء ، والى الجنوب من هذه المنطقة كانت توجد مدينة ككول هاتفيل الحديثة
The Modern Town of Coqwlhatville

وفي ذلك الوقت اتجهت البعثة صوب الجنوب الغربى ، وعند هذه النقطة نفذ طعام أفراد البعثة مرة ثانية ، ولذلك اضطر أفرادها للمخاطرة بالاختراب من أحد القبائل الافريقية ولحسن الحظ ، وجد أفراد البعثة قرية صديقة لهم ، ومنذ ذلك الحين ، وما بعده فلم يتعرض أفراد البعثة للهجوم من جانب القبائل الافريقية فبعد أن قضى أفراد البعثة وقتا للراحة في هذه القرية ، بلغ عدد قليل من الأيام واصلوا بعدها السفر ، وبسرعة وصلوا الى بحيرة تعترض مجرى النهر ، والتي كان فرانك بوكوك Frank Pocock قد رأى انها تمثل مصدر قوة كبيرة ومستمر ، وقال ينبغي أن يقترح تسميتها ببحيرة ستانلى Stanly Pool *

ويبلغ طول المسافة بين هذه البحيرة وساحل المحيط مئات قليلة من الأميال وكان ستانلى على صواب حينما قال : « انه من الممكن أن يوجد في الأمام مخاطر خطيرة ، وكانت السفينة ليدى اليس التي كان على متنها ستانلى معرضة للغرق عند نقطة معينة وعندما رأى أفراد البعثة أن قائدهم في أمان اندفعوا الى المياه واحدا يتلو الآخر ، وهم في فرحة غامرة وكان الفرح يتدفق منهم في شكل ايماءات ولحاحات وأصوات ، وكان فرانك اللطيف الصادق الوعد ، يعتقد على أقل تقدير في الحب والعاطفة ، لهذا كان من الواجب أن نعترف له بالجميل ، لأنه أنقذنا من المقبرة المائية أى من الغرق » *

وفي ٢١ من شهر أبريل من نفس العام ، قطعت البعثة مسافة طولها ٣٤ ميلا ، رغم استمرار وجود الشلالات * والآن عرف أفراد البعثة أنهم لم يكونوا على مسافة بعيدة من البحر (المحيط الأطلسي) ، لأنهم وجدوا لدى الوطنيين عينات من السلع الأوروبية * وكانت هذه علامة على هذا الأمل

الذى يعنى أنه لم يعد هناك أى مطلب لبضائعهم الخاصة (أى لم يعد للبعثة حاجة فى السلع الافريقية وبخاصة بعد أن توافرت السلع الأوروبية فى البلدان القريبة من ساحل المحيط) •

وفى مرات كثيرة تعرض أفراد البعثة للموت جوعا تقريبا ، وزيادة على ذلك فقد هرب حوالى ٣٠ شخصا من أعضائها ، هذا الى جانب موت البعض من أفرادها ، زد على ذلك فان الجوع قد تزايد بين معظم الأفراد وقد أدى ذلك بالتالى الى أن ستانلى تألم كثيرا بسبب ما تعرضت له بعثته من كوارث ، وقد تحمل فرانك بوكوك كل المعاناة (حتى أنه أصبح أعرجا) ، بسبب التقرحات التى تعرضت لها أرجله وأقدامه ، بل وأنه تعرض للغرق فى المسطح المائى الهائج ، فمن أجل هذا كله أطلق ستانلى على هذه البقعة اسم حوض بوكوك Pocock Basin •

وفى بداية أغسطس ، من نفس العام ، وصل ستانلى الى نتيجة مفادها أنه كان عليهم التخلّى عن المراكب ، والسير بالطريق البرى حتى يصلوا الى الساحل (ساحل المحيط الأطلسى) حيث أن ستانلى عرف انه فى الامكان مقابلة التجار البرتغاليين ، وكان هو نفسه ضعيفا ومنهكا ، وكان قد سأل شيخا صديقا للبعثة بأن يتقدمها ويحمل معه خطابا معنونا الى أى سيد يتكلم اللغة الانجليزية ، وفى هذا الخطاب شرح ستانلى أنه مسافر من زنجبار وبصحبه ١١٥ شخصا متضمنين ١٣ ثلاثة عشرة امرأة ، معهم أطفالهن الذين ولدن أثناء الطريق ، وأضاف يقول كنا فى ذلك الوقت على وشك الوقوع فى مجاعة ، ولا يمكن لنا أن نشترى أى شىء من الوطنيين ، لأنهم يضحكون على أصناف ملابسنا وخرزنا وأسلاننا فلا يوجد أى مؤن فى القطر يمكن شراؤها باستثناء ما يوجد منها أيام السوق والناس الجوعانين لم يكن فى استطاعتهم انتظار هذه الأسواق » •

وقد سأل ستانلى عن الأرز أو الذرة لرجاله ولنفسه ، وسأل أيضا عن القليل من الشاى والبن والسكر والبسكويت ، وقد وقع الخطاب باسم « هنرى مورتون ستانلى » قائد البعثة الانجليزية الأمريكية لكشف

افريقيا • وأضاف أنه لو شك أى شخص فى هويته ، فهذا الرجل هو
(ستانلى) الذى وجد لفنجستون عام ١٨٧١ م •

وفى خلال يومين وصله خطاب جاء فيه « أن الامدادات فى الطريق
اليك » وفى التاسع من شهر أغسطس عام ١٨٧٧ م ، وبعد مضى ٩٩٩ يوما
على رحيل البعثة من زنبار ، دخلت البقية الباقية منها الى مستعمرة بوما
حيث كان أكثر من نصف أعضاء البعثة الأصليين قد هلكوا ، وبقي لدى
ستانلى ٣٦ شخصا ، كانت شعورهم بيضاء ، وكانوا ضعاف • وعندئذ
استدار ستانلى وألقى النظرة الأخيرة على النهر وقال : « شعرت من كل
قلبي بتقديم تحية مخلصه اليه (الى الله) ، لأنه مد يده كى يحمينا ، وقد
مكننا ذلك من أن نخترق القارة المظلمة من الشرق الى الغرب ، وأن نتتبع
أضخم نهر ملاصق للمحيط » •

وفى الليلة الألف من بدء الرحلة ركب أعضاء البعثة الذين ظلوا على
قيد الحياة السفينة التى تقلهم الى زنبار عن طريق الرأس (رأس الرجاء
الصالح) The Cape of Good Hope وفى نفس الوقت سافر ستانلى
بمفرده الى انجلترا بعد أن أكمل مهمته •

ولم يعد هناك أى شك فى أن النيل ينبع من بحيرة فيكتوريا ، ويتدفق
صوب الشمال ، ثم يأخذ طريقه بعد ذلك الى البحر المتوسط ، كما أن
نهر لولابا لم يتصل بنهر الكنفو الذى يستمر فى جريانه عبر القارة
الافريقية حتى المحيط الأطلسى •

ومع ذلك فقد بقيت بعض الشغرات فى المعرفة الجغرافية ، فقد
حاول ستانلى أن يملأها بنفسه لهذا حاول استمالة الحكومة البريطانية
كى تفتح حوض الكنفو لكى تنشئ طريق وسكة حديد ، بحيث بيد أن من
الساحل الغربى وحتى بحيرة ستانلى ، وبعد ذلك يصبح النهر صالحا
للملاحة • ولكن رغم الجهد الذى قام به ستانلى ، الا أنه لم يتمكن من
تحقيق هدفه ، لذلك عرض خدماته على الملك ليوبولد الثانى ملك بلجيكا ،

الذى لم يتردد في قبول هذا العرض لحظة واحدة • وبعد ذلك عاد ستانلى الى الكنفو عام ١٨٧٨ م ، نيابة عن ملك بلجيكا ، ونيابة عن الجمعية الافريقية الدولية The International African Association التى أسسها الملك ليوبولد ، وكان على ستانلى أن يأخذ على عاتقه تنظيم المنطقة الشاسعة التى تعرف بدولة الكنفو الحرة The Congo Free State (وتعرف في الوقت الحالى بالكنغو) وفي عام ١٨٨٣ م أى عندما كان ستانلى هناك ، اكتشف بحيرتين هما بحيرة تمبا Timba وبحيرة ليوبولد الثانى •

وقد أضيف عمل ستانلى الى الأعمال الأخرى التى قام بها المكتشف الفرنسى الشهير سافورنان دى برازا Savorgnan de Brazza ففى عام ١٨٧٥ م ، اكتشف برازا الجزء الأكبر من الأجوى Ogowé فى الجابون الواقعة فى افريقيا الفرنسية الاستوائية (التى تعرف فى الوقت الحالى بجابون) واكتشف أيضا أنهار أليما Alima وليكونا Likona ، وهما من فروع الكنفو •

وقد عاد ستانلى الى افريقيا فى نهاية عام ١٨٨٧ م • وكان واجبه هذه المرة أن ينقذ أمين باشا Emin Pasha ، الذى ترك منعزلا بسبب اغتيال الجنرال غردون فى عام ١٨٨٥ م ، وبسبب انسحاب المبشرين المسيحيين من بوجندا ، والذين طردوا بمعرفة خليفة الملك ميتسا • وقد تقدم ستانلى فى منطقة الساحل الغربى ، متجولا خلال غابات الكنفو الكثيفة ، محاولا بذلك انقاذ أمين باشا ، الذى لم يرغب فى الانقاذ ، ومع ذلك واصل ستانلى المسير لى يكتشف جبال رونزورى ذات القمم الثلجية The Snow Capped Ruwenzori Mountains وجبال القمر الأسطورية The legendary Mountains of the Moon ، الواقعة فى منتصف الطريق بين بحيرة البرت وبحيرة ادوارد التى كشفها فى رحلته الأولى • وعندئذ ، اتخذ طريقه ومعه أمين باشا الى الساحل الشرقى ومنه الى زنبار •

وهكذا ، فقد عبر ستانلى افريقيا من الشرق الى الغرب ، ومن الغرب الى الشرق • وانتهت الرحلة الأخيرة نهاية طيبة بسبب ما قام به ستانلى

كمكتشف • وبعد عودته الى انجلترا منح رتبة الفروسية ، واستقر هناك بعد أن حصل على وظيفة بسيطة ، تمثلت في أنه أصبح عضوا في البرلمان (البريطاني) وتزوج ولكنه لم ينجب أطفالا ، لهذا تبني هو وزوجته طفلا ، كانت تربيته صعبة ، بل وأكثر اختلافا عن ابنه الخاص • وقد مات ستانلى عام ١٩٠٤ م ، وهو في سن الرابعة والستين من العمر •

وفي ذلك الوقت ، فان كل المعلومات الهامة عن منابع النيل قد أعلنت ولكنها ظلت في حاجة الى تصنيف بعض التفاصيل • وكان من بين هؤلاء الذين لعبوا دورا في الكشف عن منابع النيل الشاب الأسكتلندى الذى يدعى جوزيف تومسون Joseph Thomson ، الذى قام عام ١٨٧٩ م ، وهو في سن الواحد والعشرين من العمر بكشف وسط افريقيا ، وبخاصة المنطقة الواقعة بين بحيرة نياسا وتنجانيقا ، كما اكتشف أيضا بحيرة روكوا Lake Rukwa • وفى عام ١٨٨٢ م عاد تومسون الى افريقيا كي يكتشف طريقا للتجارة يبدأ من الساحل الشرقى وحتى أوغندا • وقد توغل فى الداخل فوصل الى جبال كليمنجارو Kilimanjaro Mountains وجبال كينيا ، ومر بأمان من خلال قطر شعب المساي المحارب ، واستمر يواصل مسيره حتى وصل الى النهاية الشمالية الشرقية من بحيرة فيكتوريا •

وكان تومسون مكتشفا تقليديا ، فقد اندفع بوضوح بسبب حب استطلاعه وبسبب حبه للسفر ، وفى هذا الصدد يقول تومسون ما نصه : « لقد أهلكت كى أكون رجالا » وأضاف باختصار قبل وفاته عام ١٨٩٥ م يقول : « أنا لم أكن مؤسس امبراطورية ، ولم أكن مبشرا Missionary كما لم أكن فى الحقيقة عالما ، ولكنى كنت أريد فقط العودة الى افريقيا كى أواصل تجوالى » •

ويبدو لنا هنا أنه كان لكل مكتشف سمة يتميز بها عن غيره فكانوا جميعا رجالا على جانب من الشجاعة • وقد مكنهم ذلك من الاحساس بالقوة لتحقيق الهدف • فكان لديهم الرغبة فى المخاطرة بصحتهم وبيئاتهم بل كانوا يتحملون الحرمان طوال سنوات الانفصال عن أسرهم ، وذلك اما

للبحث عن شيء لا فائدة من ورائه ، أو لكي يبحثوا عن منابع النيل ، دون الحصول على مكافأة • وعلى وجه العموم فكان لديهم طموحا يتمثل في حصولهم على الشرف والمجد ، بسبب مساعدتهم في ملء فراغ خريطة افريقيا وكان هذا الطموح يختلف باختلاف ، دوافعهم الشخصية التي تختلف من فرد لآخر فبروس على سبيل المثال كان لديه فضول علمي و ارادة قوية ، وكان في حاجة الى الهروب من حمل التعاسة التي لا يستطيع حملها • وكان لكل من لينج Laing وكاييه Caillie رغبة ملحة في زيارة مدينة تمبكتو الخرافية • وأما بيرتون Burton فكان له الرغبة في أن يفهم ، وأن يؤكد ذاته وتفوقه الحضاري على غيره « وأما ستانلي فكان عنده تصميم على تحقيق انتصارات منذ طفولته المحطمة ، ولكي يثبت لنفسه وللعالم أنه كان من بين العظماء • وأما بالنسبة لكل من المبشرين كراف Krapf وربمان Rebman ، فأنهما كانا يرغبان في نشر العقيدة المسيحية ، وأما لفنجستون فربما كان يسعى لتحقيق البطولة عليهم ، فكان يحب الشعوب الافريقية ، لهذا كان مصمما على توجيه ضربة لتجارة الرقيق ، كما كان يرغب في فتح طريق للمسيحية وللتجارة معا • ومن هؤلاء جميعا نخص بالذكر ريتشارد لاندر Richard Lander الذي كان مسحورا بسماع اسم افريقيا • فكل الرحالة على حد سواء ، كان لهم هدف محدد ، سواء تمثل هذا الهدف في المشاهدة أو التجول ، مثل تومسون الذي كان يرغب في التجول •

ولم يستمر الكشف في القرن العشرين لأنه في نهاية القرن التاسع عشر كان عصر الكشوف قد انتهى ، فكل المشاكل الجغرافية الرئيسية قد حلت وتطلب ذلك وجود سوق للانتاج الافريقي ، وفي أغلب الأحيان كان هذا السوق لا مفر منه لأن القوى العظمى كان ينبغي عليها التدخل ، بحيث تشق طريقها من أجل استغلال هذا القطر ، الذي فتحه المكتشفون (افريقيا) عندئذ بدأ التقسيم العالمي The International Scramble للقارة الافريقية عام ١٨٨٤ م ، وقد عجل به بعد رحلة ستانلي الثانية ، فكان من نتيجة هذه الرحلة خلق دولة الكنفو الحرة التي أدت بطريق مباشر الى تقسيم افريقيا •



صورة المغامر الصحفي هنري مورتون ستانلي الذي جاء إلى أفريقيا
ليكتشف منابع نهر الكونغو عام ١٨٧٤ م . من اعداد المترجم .

التعليق على الفصل المباشر

تعرضت مؤلفة هذا الكتاب في هذا الفصل الى عدد من الموضوعات الهامة تناولت بعضها بالدراسة والتحليل ، وأشارت الى البعض الآخر منها ، مجرد اشارة •

وأما الموضوعات التي أشارت المؤلفة لها مجرد اشارة ، فسأتناولها بالدراسة حتى أعطيها قدرها من الأهمية ، وحتى تتضح الرؤية أمام القارئ العربي بصفة عامة والمصري بصفة خاصة • وكان من هذه الموضوعات التي لم تتناولها المؤلفة بشيء من التفصيل ادوارد شنتزر أو أمين باشا الذي كان طبيباً ألمانيا ، والذي كان قد مارس مهنة الطب في تركيا • وهناك اعتنق العقيدة الاسلامية ، وبعد ذلك جاء الى السودان فالحقه غوردون باشا — الذي كان آنذاك حكاماً عاماً لمديريات خط الاستواء — بمعينه في وظيفة طبيب ، ولكن من الواضح ان أمين باشا لم يقيم بأعباء هذه الوظيفة فحسب بل انه قام بعدة مأموريات سياسية في البلاد المجاورة لمديرية خط الاستواء ، فكان قد قام بمأمورية الى بلاد البونيورو وأوغندا • وفيما بعد عينه غوردون باشا حكاماً عاماً لمديريتي خط الاستواء ، وبحر الغزال اللتين كان غوردون باشا قد فصلهما عندما أصبح حاكماً عاماً للسودان (١) •

ومن الموضوعات التي لم تفها المؤلفة حقها موضوع آكلي لحوم البشر Cannibals من أبناء افريقيا ، ففي الواقع لم تكن هذه العادة منتشرة في كل أرجاء افريقيا ، بل كانت منتشرة في مناطق محددة وعلى وجه التحديد منطقة جنوب غربى السودان ، أى المنطقة الواقعة بين حدود الكنفو والسودان • هذا فضلاً عن وجود بعض القبائل في غرب افريقيا والتي كانت تمارس هذه العادة •

(١) عمر طوسون : المصدر السابق ، ص ٣٨٤ •
(م ٢٣ — المستكشفون)

ويرجع السبب في تناول هذه القبائل للحوم البشر ، الى أن هذه المناطق كانت موبوءة بذبابة تسمى - بسى Tse-Tse Fly ، فمن المعروف أن هذه الحشرة كانت تقتضى على الحيوانات والانسان معا ، وكان من نتيجة ذلك ندرة الثروة الحيوانية التى من المحتمل أن تكون قد اختفت تماما من هذه المناطق . وقد أدى ذلك الى فقد السكان فى هذه المناطق لعنصر غذاء هام ، يتمثل فى البروتين ، لهذا لجأ السكان الى البحث عن مصدر آخر للبروتين ، ولم يجدوا ضالتهم الا فى تناولهم للحشرات الأرضية كالنمل الذى كانت قبائل جنوب غرب السودان تقوم بتناوله بل وصل الأمر بهذه القبائل الى تناول اللحوم البشرية ، فقد جاء فى بعض المراجع التاريخية أن بعض القبائل الافريقية كانت تتبادل المرضى والأسرى ، كى تقوم بالتعام لحومهم ، فكانت القبيلة الافريقية تستحى من أن تتناول لحوم مرضاها ، لهذا كانت تستبدلهم بغيرهم من القبائل المجاورة حتى لا يكون هناك حرج فى ذلك . وكان الدكتور جورج شوينفرث عالم النبات الألماني قد جاء الى منطقة بحر الغزال لدراسة أحوال هذه المنطقة والوقوف على أحوال القبائل التى أعتقد فى أنها تتناول اللحوم البشرية ، فقد عثر على عدد من الجماجم البشرية فى هذه المناطق . وعند سفره الى ألمانيا حمل معه عددا من هذه الجماجم الى ألمانيا ، لوضعها فى متاحفها وبعبارة :

«Manzu's tribes were cannibals, when I let it be known that he was looking for human skulls and bones, they poured in. Most had been boiled and scraped with knives. Some were still warm from the cooking pot. But out of 200 skulls, only 40 were intact the rest, Schweinfourth noted regretfully had been smashed to get at the brains. He packed up the skulls, Labeled them, and sent them back to Berlin Via Khartoum.(2)

هذا فضلا عن أن هنرى مورتون ستانلى قد ذكر انه فى يوم ١٧ نوفمبر ١٨٧٦ ، وعلى بعد مسيرة ١١ ميلا نحو الشمال الغربى ، وصل الى قرية كاميونزو حيث رأى فى وسط القرية شارعا ضيقا صفت على جانبيه

(2) Doub'eday and company Inc. : The Encyclopedia of discovery and Exploration, Exploring Agricla and Asia. New York, 1973, p. 299.

جماجم تبعد كل واحدة عن الأخرى عشرة أقدام ، وسرعان ما عرف أنها جماجم بشرية ، فعرف ستانلى على الفور أن أهل هذه القرية من آكلى لحوم البشر ، لذلك أحجم الرجال عن متابعة الرحلة معه الى الغرب ، ولكنه تمكن من اقناعهم لمواصلة المسير حتى ينهى مهمته •

ومن قراءة هاتين الفقرتين يتضح لنا أن عادة تناول لحوم البشر كانت تنسود بعض مناطق من أواسط افريقيا ، وخير دليل على ذلك فى عصرنا المعاصر ، أن الامبراطور بوكاسا امبراطور افريقيا الوسطى كان يفضل تناول اللحوم البشرية ويعتبر هذا العمل من جانب بوكاسا تأكيداً على أن هذه العادة كانت متأصلة فى الكيان الافريقى •

ويرجع ذلك الى عدة عوامل من أهمها انتشار ذبابة تسي — تسي التى أثرت اليها آنفا ، ومنها كذلك التخلف الذى ساد المناطق الافريقية بسبب العوامل الطبيعية التى فرضت العزلة القاتلة على هؤلاء السكان ، وجعلتهم فى منأى عن المدنية الحديثة ، وأدى بهم ذلك الى الاحتفاظ بعاداتهم القديمة ومن المحتمل أن ترجع عادة تناول اللحوم البشرية فى بعض أجزاء من افريقيا الى عادات قديمة ورثوها عن أسلافهم ، وظلوا يتمسكون بها •

ومن الموضوعات التى لم تتناولها المؤلفة بشئ من التفصيل ، التواجد الأوروبى على ساحل افريقيا الغربى ، والذى يرجع الى بداية القرن الخامس عشر وكانت البرتغال من أولى الدول الأوروبية التى قدمت الى هذه المنطقة كى تحصل على احتياجاتها من المواد الخام والتوابل ، واكتفت بتأسيس مراكز على الساحل الغربى الافريقى لأن الهدف البرتغالى تمثل فى الوصول الى الهند ، والاستيلاء على تجارتها وحرمان المصريين والايطاليين من ممارسة العمل فى هذه التجارة • ولذلك كانت البرتغال من أول الدول الأوروبية التى أنشأت أكبر امبراطورية عرفها العالم فى مطلع العصور الحديثة (٣) •

(٣) جيمس وفى : الاستعمار البرتغالى فى افريقيا • ترجمة الدسوقي حسنين المراكبى مراجعة د . محمد صبحى عبد الحكيم . القاهرة ، ١٩٦٣ وللاستزادة انظر : —

وبعد ذلك جاء الأوروبيون الى غرب افريقيا بالتتابع ، فجاء الهولنديون الى جنوب افريقيا وأخذوا يطاردون البرتغاليين ، ومن بعدهم جاء البريطانيون ، والدنمركيون ، والفرنسيون ، وحدث ما يعرف باسم التنافس الدولى فى افريقيا ، وظل هذا التنافس فى تزايد حتى كاد يؤدي الى دخول هذه الدول فى صراعات دموية خطيرة ، فاضطرت فى نهاية الأمر الى الاتفاق فى مؤتمر برلين الذى عقد فى الفترة ما بين ١٨٨٤ م ، ١٨٨٥ الى تقسيم القارة الافريقية •

ولعلى بهذا التعليق أن أكون قد وفقت فى توضيح النقاط التى لم تقم مؤلفة هذا الكتاب بتوضيحها ، حتى تتضح الفكرة بصفة خاصة أمام القارئ المصرى وبصفة عامة أمام القارئ العربى ، وحتى أكون بذلك قد وفقت فى اضافة الجديد الى هذا الكتاب •

كما أرجو من الله ألا أكون قد أغفلت بعض النقاط التى كانت فى حاجة الى توضيح ، واذا كان قد حدث ذلك فان هذا النسيان لم يكن عن عمد بل حدث سهوا والكمال لله وحده • وأشير الى أننى استخدمت فى هذا التعليق عددا من المصادر الأصلية المتخصصة ، الأجنبية منها والعربية ، هذا فضلا عن أننى أضفت عددا من الخرائط التوضيحية ، التى توضح خط سير الرحالة حتى تساعد القارئ على فهم ما جاء فى هذا الكتاب ، لهذا أرجو أن يحوز هذا المؤلف رضا أساتذة التاريخ الحديث فى مصر والعالم العربى • ومما لاشك فيه فإن هذا الكتاب يعتبر اضافة كاملة وجديدة الى المكتبة العربية •
والله ولى التوفيق ،،،

(4) Hobléy, L.F. : Opening Africa, G. B. 1971, pp. 10-32.

(٥) د . شوقي الجبل : قصة الاستعمار فى افريقيا • القاهرة ١٩٦٠ م •

(٦) د . جلال الدين مصطفى يحيى : التنافس الدولى فى افريقيا • القاهرة ،

١٩٦٥ م •

١ - الفهرس

الصفحة	الموضوع
٥	تقديم المترجم
١٥	الفصل الأول :
١٥	الرحالة الأول
٢٤	التعليق على الفصل الأول
٣٣	الفصل الثاني :
٣٣	التجار والمبشرون
٤١	التعليق على الفصل الثاني
٥١	الفصل الثالث :
٥١	جيمس بروس في الحبشة
٧٨	التعليق على الفصل الثالث
٨٥	الفصل الرابع :
٨٥	منجو بآرك ونهر النيجر
١٠٧	التعليق على الفصل الرابع
١١٩	الفصل الخامس :
١١٩	حل مشكلة النيجر
١٦٧	التعليق على الفصل الخامس

الصفحة	الموضوع
١٧١	الفصل السادس :
١٧١	الرحلات في شمال وغرب افريقيا
١٩٣	التعليق على الفصل السادس
٢١٣	الفصل السابع :
٢١٣	البعثات الكشفية في جنوب وشرق افريقيا
٢٣٦	التعليق على الفصل السابع
٢٥٥	الفصل الثامن :
٢٥٥	لغز النيل
٢٨٩	التعليق على الفصل الثامن
٣٠٧	الفصل التاسع :
٣٠٧	كيف وجدت لفنجستون
٣٢٣	التعليق على الفصل التاسع
٣٣٥	الفصل العاشر :
٣٣٥	اكتملت القصة الرئيسية
٣٥٣	التعليق على الفصل العاشر

٢ - الخرائط

٧٧	الخريطة رقم (١)
١٠٥	الخريطة رقم (٢)

الموضوع	الصفحة
الخريطة رقم (٣)	١٠٦
الخريطة رقم (٤)	١٦١
الخريطة رقم (٥)	١٦٢
الخريطة رقم (٦)	١٦٣
الخريطة رقم (٧)	١٦٤
الخريطة رقم (٨)	١٦٥
الخريطة رقم (٩)	١٦٦
الخريطة رقم (١٠)	١٩٠
الخريطة رقم (١١)	١٩١
الخريطة رقم (١٢)	١٩٢
الخريطة رقم (١٣)	٢٣٤
الخريطة رقم (١٤)	٢٣٥
الخريطة رقم (١٥)	٢٨٧
الخريطة رقم (١٦)	٢٨٨
الخريطة رقم (١٧)	٣٢٢
الخريطة رقم (١٨)	٣٥٢

٣ - الصور

٧٦	صورة المغامر جيمس بروس
١٠٤	صورة المغامر منجو بارك
١٥٩	صورة المغامر جون لويس بركنهاردت
١٦٠	صورة المغامر كلايبرتون
٢٨٤	صورة المغامر بيرتون

الصفحة	الموضوع
٢٨٥	صورة المغامر سبيك
٢٨٦	صورة المغامر جرانت
٣٢٠	صورة المستكشف دكتور يونكر
٣٢١	صورة المستكشف طبيب بروت
٢٣٣	صورة المغامر دافيد لفنجستون
٣٥١	صورة المغامر هنرى مورتون ستانلى
٣٥٧	الفهرس

رقم الايداع ١٧٠٦ لسنة ١٩٨٤

مطابع سجل العرب

2
22.